دكتور
محمود موسى حمدان
الأستاذ بجامعة الأزهر

أســـرار
تقييد المسند بأدوات الشرط
(إن وإذا ولو)
ومواقعه فى القرآن الكريم

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة تليفون: ٢٣٩١٧٤٧٠
فاكس: ٢٣٩٠٣٧٤٦

الدكتور
محمود موسى إبراهيم حمدان
الأستاذ بجامعة الأزهر

أســـرار

تقييد المسند بأدوات الشرط (إن وإذا ولو)

ومواقعه فى القرآن الكريم

الطبعة الأولى
١٤٣٢هـ - ٢٠١١ م

اسم المؤلف : دكتور محمود موسى حمدان
اسم الكتاب : أسرار تقييد المسند بأدوات الشرط (إن وإذا ولو) ومواقعه في القرآن الكريم
الطبعة الأولى
١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م
مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة .
٥٠٤ صفحة ١٧ × ٢٤ سم
رقم الإيداع : ٩٦٢٧/ ٢٠١١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمــة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وأصحابه ومن سلك طريقهم إلى يوم الدين.

" وبعد " فهذه دراسة تتناول " أسرار تقييد المسند بأدوات الشرط –إن وإذا ولو – ومواقعه فى القرآن الكريم " فهى كما يبدو من عنوانها تجعل موضوعها التراكيب التى تنتظم أدوات الشرط (إن وإذا ولو) لتُجدَّ للكشف عن أسرار النظم فيها. وطرائق استعمال كل أداة، وموضعها، وما يستفاد بها من معان وأغراض. وذلك كله من خلال القرآن الكريم، فهى تستمد أهميتها من ناحيتين:

الأولى : أنها نوع من الدراسة لجهة من جهات أداء المعنى المراد لا يتأتى أداؤه إلا بها.

فهى بسبيل من الدراسات البلاغية المتعددة الباحثة عن طرائق النظم المختلفة والكشف عن أسرارها ودلالاتها.

الأخرى : وهى الأهم – أن قصر مسائل البحث وشواهده على القرآن الكريم مما يثرى البحث البلاغي ، وذلك لما يأتى :

أولا: إنه يتهيأ بذلك تجلية مواقع هذه الأدوات فى القرآن الكريم واستيعابها كلها بعد أن كان استشهاد البلاغيين مقصورا على بعض الآيات – وهو قليل – دون بعضها الآخر – وهو كثير.

ثانيا : إن تلمح خصائص النظم لأسلوب الشرط فى التعبير القرآنى وإمعان النظر فيه – على هذه السعة والكثرة من الآيات والشواهد – يساعد بجلاء على إظهار الأسس والضوابط لاستعمال أدوات الشرط ، وتتجلى به الأضرب والتقسيمات المختلفة لاستعمالها فيه، وكما هو مبسوط فى فصول هذه الدراسة.

ثالثا : إن من ميزات الدراسة لشواهد القرآن الكريم عدم الريبة والتردد فى صحة استعمالها. فلا يكون إلا التأمل وإنعام النظر للوصول إلى أهداف الدراسة وغاياتها.

أما كلام البشر فإنه قد يعتريه من الخطأ والنقد عند استعمال الألفاظ. مما يحوج إلى التماس ما يصحح طريق الاستعمال.

من ذلك – مثلا – نقدهم لعبد الرحمن بن حسان قوله مخاطبا واليا من الـولاة لم يقضه حاجة سأله إياها :

ذُمِمت ولم تُحمد وأدركت حاجتى ∴ تولى سواكم أجرها واصطِناعها

أبى لك كسب الحمد رأى مقصر ∴ ونفس أضاق الله بالخير باعهـا

إذا هى حثـتـه على الخير مرة ∴ عصاها وإن هَمّت بشرٍ أطاعها

فقد قالوا: إن عبد الرحمن قد أخطأ استعمال (إذا) و (إن) فى البيت الأخير ولو عكس لأصاب.[١]

ويلتمس له البهاء توجيها لاستعماله الأداتين قائلا " ويمكـن الجـواب بـأن المقصود إثبات حث نفسه له على الخير ومع ذلك يعصيها،وهو أبلغ فى الذم، وبـذلك يعلم الجواب عن قوله: وإن همت".[٢]

على أن الشك فى هم نفسه إلى الشر مدح لا ذم . أما القرآن الكـريم فهـو شىء آخر يختلف عن كلام البشر.

***

وقد كان منهجى فى الدراسة ذا خطوات متعددة، ومراحـل متتابعـة، إلى أن وصلت إلى صورتها التى هى عليها الآن ، وكان أهم شىء كنت حرصت عليـه هـو التأنى بعد التأنى ، والمعاودة لما قيل ، ولما يمكن أن يقال ، خشية الزلل ، وحيطـة مـن التجرؤ على كتاب الله تعالى . بل التسليم بالعجز عند عدم إدراك الغرض يعد وصولا إلى المرجو وإدراكا لجلال القرآن الكريم واعترافا بعظمته.

ولقد كان للخلفاء الراشدين والصحابة والـسلف الـصالح –رضـوان الله عليهم– المنهج الأسنى والمسلك القويم ، عند وقوفهم مع القرآن الكريم لمعرفة معانيه، فقد سلموا بعجزهم عندما وجدوا ذلك من نفوسهم ، فقد روى "عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه سئِل عن الأبّ فى قوله تعالى : "وفاكهةً وأبّا".[٣] فقـال: أى سمـاء تظلنى ، وأى أرض تُقلّنى، إذا قلت فى كتاب الله ما لا علم لى به؟".[٤]

(١) ينظر الإيضاح ٥٤.

(٢) عروس الأفراح = شروح ٢/ ٤٤.

(٣) سورة عبس ٣١.

(٤) الكشاف ٤/ ٢٢٠.

وكانوا يتحرون الدقة عندما يتحدثون عن معانيه ومبانيه، فالزمخشرى عند تفسيره قول الله تعالى : " فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم".[1] يقول: "-أفئدة من الناس- أفئدة من أفئدة الناس و (من) للتبعيض ... ويجوز أن يكون (من) للابتداء كقولك : القلب منى سليم ، تريد قلبى . فكأنه قيل : أفئدة ناس، ثم يقول : وإنما نكرت المضاف إليه فى هذا التمثيل لتنكير أفئدة، لأنه فى الآية نكرة ، ليتناول بعض الأفئدة".[2]

فالأساس الذى خضعت له هذه الدراسة هو إدراك أن القرآن الكريم لا يتبع الآراء والأهواء ، وأنه ليس ثمة ما يلجئ إلى التحيل أو المدافعة لحمل الآيات على معان لا تتناسب مع الغرض والسياق- وإدراك أن القرآن هو القدوة المتبوع وما شذ عن طريقه وخالفه فهو إلى النار،وصدق قول الله " فماذا بعد الحق إلا الضلال".[3]

***

والدراسة تضم بعد هذه المقدمة مدخلا وأربعة فصول وخاتمة:

المدخل : ويتحدث عن القيود فى الكلام وأصالتها فى أداء المعنى، ومن هذه القيود أدوات الشرط.

الفصل الأول : وحديثه عن قيمة التقييد بالشرط ، وبيان مفهوم الشرطية، وحدود مضمون جزئيها وطبيعة الارتباط بينهما، وتوجيه اعتبار اللغويين والمنطقيين وما وراء ذلك من مناقشات..

الفصل الثانى : ويتناول أسرار التقييد (بإن) والأصل فى استعماله ، وأحوال هذا الأصل ، وأغراض مخالفته ، والأساس الذى يقوم عليه تنوع هذه الأغراض....

الفصل الثالث : ويتناول أسرار التقييد بـ (إذا) وبيان الأصل فى استعمالها، ومعيار اعتبار الجزم ، وأضربه، وأغراض مخالفة الأصل فى استعمالها...

الفصل الرابع : ويتحدث عن تقييد المسند بـ (لو) عارضا عبارات العلماء فيها وكلمة البلاغيين ، والمعانى المفادة بها ...

الخاتمة : وفيها إجمال لنتائج البحث.

---

(١) سورة إبراهيم ٣٧.

(٢) الكشاف ٢/ ٣٨٠.

(٣) سورة يونس ٣٢.

ثم – بعد بعد – فليس لى على القارئ إلا أن يطرح من حسابه أن هذه الدراسة تغنيه الغناء كله عن النظر والتدبر بتؤده، عسى أن تنفتح له مغاليق أخرى، وتشرق له الخواطر فى رحاب القرآن الكريم ، فيتنبه إلى مسالك أخرى ليستخرج منها أصولا غائبة، وتقسيمات وأسرارا لم تصل إليها هذه الدراسة.

وحسب هذه الدراسة أن تكون مفتاحا لأبواب من الخواطر والتدبر فى مسائل هذا الباب. كما كان حسبى حسن النية فيما قدمت.

يبقى تنويه مهم وهو أننى تقدمت بهذه الدراسة لنيل درجة الدكتوراه فى البلاغة والنقد، من كلية اللغة العربية بالقاهرة (جامعة الأزهر) فى العام (١٤٠٩هـ) التاسع بعد المائة الرابعة والألف للهجرة، العام (١٩٨٨م) الثامن والثمانين بعد التسعمائة والألف للميلاد، وقد منحتنى بها الجامعة درجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف الأولى.

وهذا التنويه جدير بالالتفات إليه لأن كثيرا من طلاب العلم – سامحهم الله – أخذوا من مباحثها ومسائلها دون الإحالة إليها، راكنين إلى أنها مخطوطة. مما كان سببا لدفعها إلى المطبعة منعا لما يقومون به، وإتاحة لتعميم النفع بها إن شاء الله تعالى، والله المستعان.

مدخل

القيود فى الكلام وأثرها فى المعنى

١- النظم تطبيق الكلام لمقتضى الحال:

لعل أهم ما تمخض عنه البحث البلاغي عن أسرار البلاغة والفصاحة فى الأساليب هو عبارة البلاغيين المشهورة: "لكل مقام مقال، ولكل كلمة مع صاحبتها مقام".

وترجع أهميتها إلى ما تتضمنه من أفكار ترسم خطة أداء المعاني والأغراض أداء يتواءم فيه المعني مع اللفظ، بحيث يستدعي أولهما ثانيهما، وينبئ ثانيهما عن أولهما.

وتتمثل هذه الأفكار فيما يأتي:

أولاً: إن المقام هو الذي ينشأ فيه الاعتبار المناسب. الذي بمراعاته يوافق المعني المقام أولاً وبالذات ثم يوافقه اللفظ ثانياً وبالعرض.(١)

ثانياً: إن المقام بما يقتضيه من الاعتبار المناسب يستلزم أن تتلاءم الكلمة مع أختها تلاؤما يتناسب مع هذه الاعتبارات.

"مثلاً- الفعل الذي قصد اقترانه بالشرط مع كل من أدوات الشرط له مقام ليس له مع الآخر، ولكل من أدوات الشرط- مثلاً- مع الماضي مقام ليس مع المضارع، وكذلك كلمات الاستفهام والمسند إليه...."(٢)

ثالثا: إن المقام هو الذى يفرض حد انتهاء الكلام. ذلك لأنه "لكل كلمة مع صاحبتها مقام- ولكل حد ينتهي إليه الكلام مقام"(٣)

أى أن كل كلمة فيما يقتضيه المقام ركن مهم فى الكلام. لا يستغنى المقام عن مجيئها فى المقال.

رابعاً: إن المعنى عند التلقي ووصفه؛ لا يتضح إلا فى ضوء المقام الذى نشأ فيه، فلا يمكن فهم المقال فى عزلة عن المقام؛ ذلك لأن "استخراج المعنى من المقال فحسب لابد أن يشتمل على إغفال معيب لأهم عنصر من عناصر المعنى، وهو المقام أو الظرف الذي حصل فيه المقال"(٤).

وبناء على ما سبق يتبين أن البلاغة لا تتحقق إلا بمراعاة ما تفرضه المقامات المتفاوتة من الاعتبارات المختلفة تبعاً لها؛ ضرورة أن الاعتبار اللائق بذلك المقام. وهو

---

(١) ينظر المطول ٢٧

(٢) المطول ٢٦

(٣) مفتاح العلوم ٩٠

(٤) اللغة العربية معناها ومبناها ٢٠

مقصود البلاغيين بتطبيق الكلام لمقتضى الحال الذي سماه الإمام عبد القاهر بالنظم[1] يرجع إلى أمرين:

الأمر الأول: أن يراعى فى وضع الكلام ونظمه ما يقتضيه علم النحو، وتفرضه أصوله ومناهجه.

قال الإمام عبد القاهر: "اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التى نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشئ منها. وذلك أنا لا نعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر فى وجوه كل باب وفروقه. فينظر فى الخبر إلى الوجوه التى تراها فى قولك: زيد منطلق، وزيد ينطلق، وينطلق زيد، ومنطلق زيد، وزيد المنطلق، والمنطلق زيد، وزيد هو المنطلق، وزيد هو منطلق. وفى الشرط والجزاء إلى الوجوه التي تراها فى قولك: إن تخرج أخرج وإن خرجت خرجت، وإن تخرج فأنا خارج، وأنا خارج إن خرجت، وأنا إن خرجت خارج.... وينظر: فى الحروف التى تشترك فى معنى ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية فى ذلك المعنى فيضع كلا من ذلك فى خاص معناه، نحو أن يجئ بما فى نفى الحال، وبلا إذا أراد نفى الاستقبال. وبـ (إنْ) فيما يترجح بين أن يكون وأن لا يكون وبإذا فيما علم إنه كائن... فيضع كلا من ذلك مكانه ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغي له"[2].

أى أن النظم تصور العلاقات النحوية بين الكلمات كعلاقة الإسناد بين المسند والمسند إليه، وكعلاقة التعدية بين الفعل والمفعول به، وعلاقة السببية بين الفعل والمفعول لأجله، وعلاقة التأكيد بين الفعل والمفعول المطلق، والزمانية والمكانية بين الفعل والظرف، وتعليق فعل الجواب على فعل الشرط بالأداة المناسبة، ثم تكون المزية بإصابة ذلك كله فى موضعه.

"هذا هو السبيل فلست بواجد شيئاً يرجع صوابه إن كان صواباً وخطؤه إن كان خطأ إلى النظم ويدخل تحت هذا الاسم إلا وهو معنى من معانى النحو قد أصيب به موضعه ووضع فى حقه، أو عومل خلاف هذه المعاملة فأزيل عن موضعه[3]

الأمر الآخر: أنه ليس للمعانى النحوية التي يجرى نظم الكلام عليها مزية فى ذاتها ومن حيث هى على الإطلاق، ولكن ترتبط المزية فيها بالمقام والمعاني التى من أجلها وضع الكلام.

---

(١) ينظر المطول على التلخيص ٢٧

(٢) دلائل الإعجاز ٥٥

(٣) دلائل الإعجاز ٥٦

يقول عبد القاهر: "اعلم أن ليست المزية واجبة لها فى نفسها ومن حيث هـــى على الإطلاق، ولكن تعرض بسبب المعانى والأغراض التي يوضع لها الكلام، ثم بحسب موقع بعضها من بعض واستعمال بعضها مع بعض"(١)

فالنظم إذاً أن تكون خصائص ما انتظم فى النفس من معان وأغراض باديـــة فى خصائص اللفظ على حسب مناهج النحو وقواعده.

٢. **نظم القيود يتبع الغرض:**

وإذا عرف أن مدار النظم على معانى النحو والفروق التى من شأنها أن تكـــون فيه، وأنها كثيرة ليس لها غاية تقف عندها ونهاية لا تجد ازدياداً بعدها، وأن المزية ليست لها فى أنفسها ومن حيث هى على الإطلاق، وإنما بحسب المعاني والأغراض التى تؤم كما يقول الإمام عبد القاهر– فإن مما يتصل بهذا الأصل ويدخل فى أبواب النحو: القيود فى الجملة، وما يرتبط بها من حيث اختلاف أحوالها فى الكلام تبعاً لاخـــتلاف أغـــراض المتكلمين وما يرمون إليه.

ويعنى بالقيد كل ما يتصل بالحدث ويلابسه، من فاعل، ومفعول به، ولأجلـــه، ومصدر، وزمان، ومكان، وهيئة، وتفسير، وجار ومجرور، وشرط، إلى غير ذلك مـــن الملابسات المختلفة.

وأحوال القيود فى الجمة ذكراً وحذفاً تختلف حسبما يقصد إليه المـــتكلم مـــن معنى وغرض مسوق له الكلام.

فقد يقصد المتكلم مطلق ثبوت الفعل ووقوعه فى نفسه من غير أن يقصد إفادة تلبسه بمن وقع منه ومن وقع عليه، فعندئذ يؤتى بمصدر الفعل فعلا لكون عام، وكل ما يدل على مطلق الوقوع، فيقال– مثلاً– وقع ضرب، وحصل إكرام، وكان توفيق، وما إلى ذلك مما يفيد مجرد وقوع الحدث دون ذكر فاعله ومفعوله.(٢)

قال عبد القاهر: "إذا أريد الإخبار بوقوع الضرب ووجوده فى الجملة، من غير أن ينسب إلى فاعل أو مفعول أو يتعرض لبيان ذلك، فالعبارة فيـــه أن يقـــال: كـــان

---

(١) دلائل الإعجاز ٦٠

(٢) المراد بالفاعل فاعل الحدث فى المعنى، وهو يمكن حذفه، لا الفاعل فى الصنعة، لأنه لابد من ذكره. وتتم الجملة بالإتيان بالحدث فاعلاً لكون عام، وهذا الحدث الواقع فاعلاً فى اللفظ له فاعل فى المعنى قد أحدثه وفعله، ولا ضير من علم ذكره. وهو المقصود هنا. وبهذا يندفع ما يوهمه كلام السبكي: من أن الترك لا يتأتى فى الفاعـــل لأنه لا يحذف. ينظر عروس الأفراح = شروح ٢/ ١٢٠

ضرب، أو وقع ضـرب، أو وجد ضرب، وما شاكل ذلك من ألفاظ تفيد الوجود المجرد فى الشئ"[1]

وتارة يكون القصد إلى اثبات الفعل لفاعله، لا مجرد إثبات علـى الإطـلاق، فعندئذ يذكر الفاعل مع فعله دون ذكر المفعول، أو النية له.

قال عبد القاهر: "إذا كان الأمر كذلك، كان الفعل المتعدى كغير المتعـدى – مثلا– فى أنك لا ترى له مفعولاً لا لفظاً ولا تقديراً. ومثال ذلك قول الناس: فلان يحل ويعقد، ويأمر وينهى، ويضر وينفع، وكقولهم: هو يعطى ويجزل ويقرى ويضيف. المعنى فى جميع ذلك على إثبات المعنى فى نفسه للشئ على الإطلاق وعلى الجملة، من غير أن يتعرض لحديث المفعول، حتى كأنك قلت: صار إليه الحل والعقد، وصار بحيث يكـون حل وعقد، وأمر ونهى، وضر ونفع، وعلى هذا القياس. وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَـابِ﴾ (الزمـر: ٩) المعنى هل يستوى من علم ومن لا علم له، من غير أن يقصد الـنص علـى معلـوم. وكذلك قوله تعالى: ﴿وأنه هو أضحك وأبكى*وأنه هو أمات وأحيى﴾ (الـنجم: ٤٣: ٤٤) وقوله: ﴿وأنه هو أغنى وأقنى﴾ (النجم: ٤٨) المعنى هو الذي منه الإحياء والإماتة والإغناء والإقناء، وهكذا كل موضع كان القصد فيه أن يثبت المعنى فى نفـسه فعـلا للشئ، وأن يخبر بأن من شأنه أن يكون منه، أو لا يكون إلا منه، أو لا يكون منه، فإن الفعل لا يعدى هناك، لأن تعديته تنقض الغرض وتغير المعنى"[2]

واضح أن الغرض من هذا الضرب إظهار تعلق الفعل بالفاعل لا غير دون نظر إلى من وقع عليه.

وضرب ثالث يرتقى فى ذكر متعلقات الفعل، كأن يذكر المفعول به –مـثلاً– فيصير المعنى عندئذ غيره فى النوعين السابقين، لكون القصد فى هذه الطريقة الاهتمـام بمن وقع عليه الفعل. فيذكر المفعول به، لكونه الغرض المهم من الكلام، وإن كان ليس كل المقصود من الكلام لكون إفادة وقوع الفعل من الفاعل مراده أيضا. قال الـسعد: "ليس الغرض من ذكره –أى المفعول به– مع الفعل إفادة وقوع الفعل وثبوته فى نفسه من غير إرادة أن يعلم ممن وقع وعلى من وقع، إذ لو كان الغرض ذلك كـان ذكـر الفاعل والمفعول معه عبثا"[3]

---

(١) دلائل الإعجاز ١٠١

(٢) دلائل الإعجاز ١٠٢

(٣) المطول ١٩١

فإذا ذكر المفعول فى هذا الضرب مثل: ضرب خالد ولده، أو هم أن القصد الإخبار بوقوع الفعل على المفعول وأنه الغرض المهم الذي يتوخاه المتكلم بعبارته، وليس الغرض أن الضرب يقع منه فحسب.

وأشار إلى هذا أيضاً البهاء السبكي عند حديثه عن حذف المفعول به وتتريل الفعل المتعدى منزلة اللازم، وإرجاعه الغرض من ذلك إلى "أن القصد إثبات المعنى للفاعل أو نفيه عنه على الإطلاق من غير اعتبار عموم ولا خصوص ولا تعلق بمن وقع عليه. فالمتعدي حينئذ كاللازم، فلا يذكر مفعوله لئلا يتوهم السامع أن الغرض الإخبار بتعلقه بالمفعول"[١]

فيكون الأصل فى هذا الأسلوب قصد الإخبار بأن الفعل قد وقع على المفعول به المذكور، وليس الغرض أن الفعل الواقع واقع على المفعول به المذكور.

على أن هذا المسلك فى بيان المراد من هذا الأسلوب يختلف عن مسلك الإمام عبد القاهر فيه. فهو يرى أن هذا الأسلوب خاص ببيان تعلق الفعل بالمفعول به، ويكون عند علم المخاطب بوقوع الفعل لكنه لا يعلم المفعول.

يقول: "ألا ترى أنك إذا قلت: هو يعطي الدنانير. كان المعنى على أنك قصدت أن تعلم السامع أن الدنانير تدخل فى عطائه أو أنه يعطيها خصوصاً دون غيرها. وكان غرضك على الجملة بيان جنس ما تناوله الإعطاء، لا الإعطاء فى نفسه، ولم يكن كلامك مع من نفى أن يكون كان منه إعطاء بوجه من الوجوه. بل مع من أثبت له إعطاء إلا أنه لم يثبت إعطاء الدنانير فاعرف ذلك، فإنه أصل كبير النفع"[٢]

فعبد القاهر يرى أن العلم بوقوع الفعل حاصل تدل على ذلك عبارته: "أنك قصدت أن تعلم السامع أن الدنانير تدخل فى عطائه" فإضافته فى العبارة اسم المصدر (عطاء) إلى ضمير الفاعل (الهاء) لا تكون إلا عند تحقق الحدث ووقوعه.[٣] وقوله: (وكان غرضك على الجملة بيان جنس ما تناوله الإعطاء، لا الإعطاء فى نفسه) صريح فى الدلالة على هذا المراد. ويكون ذكر المفعول عندئذ لإفادة أحد معنيين:

---

(١) عروس الأفراح = شروح ٢/ ١٢٠

(٢) دلائل الإعجاز ١٠٢

(٣) ينظر حديث الإمام عبد القاهر وتعليقه على بيت المتنبي:

عجباً له حفظ العنان بأنمل ∴ ما حفظها الأشياء من عاداتها

دلائل الإعجاز ٣٤٦

الأول: أن المفعول يدخل فى ضمن من يتعلق بهم الفعل المعلوم وقوعه.

الآخر: أن الفعل المعلوم وقوعه يتعلق بالمفعول به المذكور دون غيره يدل على ذلك قوله: (أو أنه يعطيها خصوصاً دون غيرها). وكأنه يرى أن تخصيص الشئ بالشئ يدل على نفيه عما عداه فى العرف والاستعمال.(1) ويدخل فى طريق هذا الضرب ذكر ما يتعلق بالفعل من مفاعيل وقيود مختلفة. لا يتحقق الغرض والمعنى المقصود إلا بـالمجئ بها كلها أو بعضها حسب ما يقتضيه المقام.

وهناك ضرب رابع لو حذف القيد منه يعلم بدلالة الحال عليه، لكنه يذكر لإفادة خصوصية فى المعنى مقصودة من الكلام لا تكون عند حذفه.

من أمثلة ذلك قول القائل: رأيته بعينى، وقبضة بيدى، وذقته بفمى. ومعلوم أن الأفعال المذكورة لا تكون إلا بوسيلتها المذكورة التي قيد بها الفعل.

وهنا قد يظن الظان أنه لا حاجة لذكر القيود المذكورة ما دامت معلومة بدلالة الحال عليها. لكن لما كان وجود هذه الأفعال فى مقامها مما يستبعد وقوعه ويعظم مناله ويعز الوصول إليه. أكد وجودها بصلتها بقيودها التى توجد بها وتتحقق.(2)

والقرآن الكريم ثرى بأمثلة هذا الضرب. وللزمخشرى باع طويل فى إبراز محاسنه وبيان الأسرار الكامنة وراء مثل هذه القيود فى القرآن الكريم. فعند تفسيره قوله الله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِباً فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾(سورة البقرة: ٢٨٣) وبيان السر فى مجئ كلمة (قلبه) مع صحة المعنى عند عدم المجئ بها، يقول: "فإن قلت: هلا اقتصر على قوله" فإنه آثم، وما فائدة ذكر القلب والجملة هى الآثمة لا القلب وحده؟ قلت: كتمان الشهادة هو أن يضمرها ولا يتكلم بها. فلما كان إثماً مقترناً بالقلب أسند إليه لأن إسناد الفعل إلى الجارحة التى يعمل بها أبلغ. ألا تراك تقول إذا أردت التوكيد: هذا مما أبصرته عينى، ومما سمعته أذنى، ومما عرفه قلبى، ولأن القلب هو رئيس الأعضاء والمضغة التى إن

---

(١) لعل فى ذلك نزوعاً وميلاً إلى منذهبه، فقد كان رحمه الله وأحسن مثوبته فقيها شافعياً. وقد ذهب الإمام الشافعي رضى الله عنه إلى مفهوم المخالفة عند التخصيص بأحد المخصصات. وإن كان مفهوم المخالفة له شروط ترجع فى مجملها إلى أن لا يكون لتخصيص المنطوق بالحكم فائدة غير نفى الحكم عن المسكوت عنه. ينظر التلويح ١٤١/١.

(٢) ينظر المثل السائر ١٣٠/٢

صلحت صلح الجسد كله وإن فسدت فسد الجسد كله. فكأنه قيل: فقد تمكن الإثم في أصل نفسه، وملك أشرف مكان فيه. ولئلا يظن أن كتمان الشهادة من الآثام المتعلقة باللسان فقط. وليعلم أن القلب أصل متعلقه، ومعدن اقترانه، واللسان ترجمان عنه...." (١)

ومن قبيل ذلك -أيضا- التقييد في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (سورة التوبة: ٣٠)

قال الزمخشري: "فإن قلت: كل قول يقال بالفم، فما معنى قوله (ذلك قولهم بأفواههم)؟ قلت: فيه وجهان: أحدهما. أنه قول لا يعضده برهان. فما هو إلا لفظ يفوهون به، فارغ من معنى تحته كالألفاظ المهملة التي هي أجراس ونغم لا تدل على معان، وذلك أن القول الدال على معنى لفظه مقول بالفم ومعناه مؤثر في القلب، وما لا معنى له مقول بالفم لا غير. والثاني أن يراد بالقول المذهب، كقولهم: قول أبي حنيفة يريدون مذهبه وما يقول به. كأنه قيل: ذلك مذهبهم ودينهم بأفواههم لا بقلوبهم لأنه لا حجة معه...."

ونظير ذلك -أيضاً- التقييد في قوله تعالى: "إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ"(سورة النور: ١٥)

فالقيد (بأفواهكم) للدلالة على أنه قول يستند إلى اللسان فقط دون حقيقة ثابتة يترجم عنها اللسان. فهو إفك يجري على اللسان دون علم يستندون إليه.(٢)

ومن قبيل ذلك قول الله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ (سورة الأحزاب: ٤) قال الزمخشري: "فإن قلت: أي فائدة في ذكر الجوف؟ قلت: الفائدة فيه كالفائدة في قوله ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج: ٤٦) وذلك ما يحصل للسامع من زيادة التصور والتجلي للمدلول عليه، لأنه إذا سمع به صور لنفسه جوفاً يشتمل على قلبين فكان أسرع إلى الإنكار"(٣) ففي هذا تصوير لإنكار أن تكون الزوجة أماً، والمملوك المتبنى ابناً، بإنكار أن يكون للرجل قلبان في جوفه، فكما ينكر هذا ينكر ادعاء الرجل بنوة عبده، وجعل امرأته كأمه والله أعلم.

---

(١) الكشاف ٤٠٦/١

(٢) ينظر الكشاف ٥٤/٣

(٣) الكشاف ٢٤٩/٣

٣. الكلام يتم بآخر كلمة فيه:

اتضح إذاً أن للقيد قيمة فيما تفيده الجملة. حيث تصير به ذات دلالة خاصة تتميز بها عن الجملة الخالية منه. ويكون لهذه مقام يخالف مقام تلك. بحيث يكون تمام المعنى والغرض عند آخر كلمة فيها وليس قبلها.

ونظرة البلاغين فى ذلك تختلف عن نظرة النحاة الذين يرون أن الكلام يتم بطرفى الإسناد، وكون الزائد على ذلك فضلات جاءت بعد تمام الفائدة بركنى الجملة. ويرجع ذلك إلى أن "الجانب التحليلى من دراسة النحو لا يمس معنى الجملة فى عمومه، لا من الناحية الوظيفية العامة كالإثبات والنفى والشرط والتأكيد والاستفهام والتمنى إلخ، ولا من ناحية الدلالة الاجتماعية التى تنبنى على اعتبار المقام فى تحديد المعنى"[١]

ويعتبر ما كان بين النحويين من خلاف حول اعتبار الفضلات من الكلام محاولة للتروع بالمسائل النحوية وجهة التناول البلاغى، خاصة الرأى القائل بالتفصيل: بأن تعتبر داخلة فى الكلام إن كان حذفها يؤدى إلى خلل، وغير داخلة إن لم يؤد إلى خلل. ويلحظ أنهم أتوا بأمثلة يرجع اعتبار الفضلات داخلة فيها إلى نفس الغرض المقصود للمتكلم والمقام الذي نشأ فيه الكلام[٢]

أما البلاغيون فإنهم يرون أن كل كلمة يأتى بها المتكلم تعد ركنا فى العبارة لا يتم أداء الغرض إلا بوجودها. وإلا عد الكلام هراء وهزيانا غير محسوب.

والذي يبدو أن النحويين عندما قالوا بأن الجملة تتم بركنيها الأساسين: الفعل والفاعل، أو المبتدأ والخبر، قصدوا بذلك صلاحية أن يقوم بهما كلام ما يؤدي به غرض ما. لا أن أصالة أجزاء الكلام خاصة بهما دون ما يذكر معهما عند وجود غرض آخر.

٤. مقصود البلاغيين بتربية الفائدة:

وقد ذكر البلاغييون كلاماً يوهم التقاء فكرهم بفكر النحويين القائلين بأن ما عدا ركنى الجملة فضلة يمكن الاستغناء عنه. وهو قولهم بأن علة المجئ بالقيد فى الجملة هو تربية الفائدة، وتعليلهم ذلك بأن الحكم كلما ازداد قيدًا ازداد غرابة، وكلما ازداد

---

(١) اللغة العربية معناها ومبناها ١٦

(٢) مجمل آرائهم ثلاثة: فمنهم من يدخلها، ومنهم من يخرجها، ومنهم من يذكر التفصيل الذى ذكرته ويمثل لما يضر حذفه بقول القائل: نساؤه طوالق إلا هندا. تنظر حاشية الصبان على شرح الأشمونى لألفية ابن مالك ٢٥/١

غرابة ازداد فائدة؛ ذلك لأن الحكم المطلق لا يفيد إلا مطلق نسبة المسند للمسند إليه، أما المقيد ففيه تلك الفائدة مع ضميمة ما يفيده القيد فى الجملة، هذا فضلاً عن أن الحكم المطلق يكثر العلم به بخلاف المقيد فإنه يقل العلم به عند المخاطبين لما فيه من غرابة التقييد. فلزمته زيادة الفائدة.(١) فالقائل: ضرب زيد، يفيد أن ضرباً وقع من زيد. فإن قال: ضرب زيد عمراً أفاد فائدة أكثر ببيان من وقع عليه الضرب. فإن قال: ضرب زيد عمرا يوم الجمعة أمام داره فقد أفاد زمان ومكان الضرب، فإن قال ضرباً شديداً أفاد وصف الضرب بالشدة وأنه نوع خاص من الضرب. فإن قال: تأديباً له أفاد علة الضرب– وهكذا كلما زادت الجملة قيداً زادت فائدة.

إن هذا الكلام الذى ذكره البلاغييون يدل بظاهره على أمرين:

الأمر الأول: ما يوهمه من التعارض مع ما ذكره البلاغيون أنفسهم من نكات وأغراض ذكروها فى باب الحذف، قال عبد القاهر: "فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة. وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبن" ويقول: "فما من اسم أو فعل تجده قد حذف، ثم أصيب به موضعه وحذف فى الحال التى ينبغى أن يحذف فيها إلا وأنت تجد حذفه هناك أحسن من ذكره، وترى إضماره فى النفس أولى وآنس من النطق به"(٢) فهذا حديث عن مزية الحذف.

الأمر الآخر: أنه يكاد يتفق مع كلام النحويين بأن تمام الإفادة فى الكلام بطرفى الإسناد. لأن معنى زيادة الفائدة أن هناك فائدة قد تمت بطرفى الجملة. ثم يعد ما أتى بعد ذلك زيادة عليها.

أما بالنسبة للأمر الأول وهو توهم التعارض... فإنه يندفع بكون المقصود بتربية الفائدة وزيادتها حصولها على وجه التعين والكمال.

ذلك لأن الشأن فى الأفعال أن تقتضى المفاعيل، لكنه اقتضاء على جهة العموم. وتعين شخص المفعول أمر زائد. فبذكر المفعول يتعين شخصه وتعظم الفائدة. وكان من أسرار هذا الموضع أن الفعل عندما اقتضى تعقل فاعل بخصوصه؛ لكون المعتبر فى مفهومه الفاعل الخاص كان ذكر هذا الخاص هو المحصل لأصل الفائدة. لكن عندما

---

(١) ينظر شروح التلخيص ٢/٣٢ وما بعدها.

(٢) دلائل الإعجاز ٩٥، ١٠١

كان تعقل الفعل متوقفاً على تعقل مفعول ما وهو معقول لكل أحد، لا على تعقل مفعول مخصوص كان ذكر المفعول بخصوصه محصلاً لتربية الفائدة نصاً.(١)

وما ذكره البلاغيون فى باب الحذف من أغراض ونكات تبين مواطن الحسن فيه– قد تعلق أكثر بما حذف وطرح، وترك يلزم ضمير النفس كما يقول الإمام عبد القاهر، مع قيام الدليل على أن فيه محذوفاً قد علم مكانه إما لجرى ذكر أو دليل حال. وهو قسيم الضرب الذى لا يقوم فيه دليل على المحذوف، بأن لا يرى للفعل مفعول لا لفظاً ولا تقديراً. فقد نزل فيه الفعل منزلة اللازم وجعل هذا التنزيل غرضاً قائماً بذاته.(٢) وهذا يدل على أن تربية الفائدة تتحقق أيضاً عند حذف المفعول به مع قيام الدليل على الحذف. غاية الأمر أنهم قالوا إن تربية الفائدة مع الذكر تكون نصاً. أما مع الدليل فيكون للظهور والوضوح.(٣) فهم يجمعون على أن المحذوف إذا دل عليه دليل كان فى حكم الملفوظ.(٤)

أما ما يتعلق بالأمر الثانى وهو ما تكاد تفهمه عبارة البلاغيين: "القيود تربى الفائدة وتزيدها" من أن القيود إضافات زائدة فى الكلام لا يقوم عليها، وإنما يتم بدونها كما يقول النحويون، فالحق أن نظرة البلاغيين إلى القيود تختلف عن نظرة النحويين؛ ذلك لأن التناول النحوى للجمل كما سبق أن أشرت لا يمس الجوانب التركيبية للأساليب، بأن يكشف عن المعانى التى تفيدها التراكيب من ناحية الدلالة العامة التى هى مجال دراسة علم المعانى والمراعى فيها عناصر المقام فى تحديد المعنى. وإنما مجالها الجوانب التحليلية التى تهتم بأجزاء التراكيب التى ينشأ منها الكلام، ولا ينظرون إلى المعنى إلا باعتباره وسيلة لتقويم الإعراب لكون الثانى فرع الأول. أما التناول البلاغى فهو دراسة تركيبية للكشف عن خصائص التراكيب وما تفيده من معان حسب اختلاف الاعتبارات. لذلك فهم يتناولون الجملة بقيودها باعتبارها كلاماً واحداً متكاملاً يؤدى معنى فى مقامه. ويدركون تباينها عن غيرها حتى ولو كان الاختلاف بقيد واحد وهو ما يسميه النحويون فضلة.

وقد أوضح الإمام عبد القاهر هذا المعنى قائلا: "ومما ينبغى أن يحصل أنهم قد أصلوا فى المفعول وكل ما زاد على جزئى الجملة أنه يكون زيادة فى الفائدة. وقد

---

(١) ينظر عروس الأفراح وحاشية الدسوقى على المختصر = شرح ٣٢/٢ وما بعدها.

(٢) ينظر باب الحذف فى دلائل الإعجاز ٩٥ وما بعدها.

(٣) ينظر عروس الأفراح = شروح ٣٣/٢

(٤) تنظر الخصائص لابن جنى ٢٨٤/١ وما بعدها

ـخيل إلى من ينظر إلى ظاهر هذا من كلامهم أنهم أرادوا بذلك أنك تضم بما تزيده على جزئى الجملة فائدة أخرى، وينبغى عليه أن ينقطع عن الجملة حين يتصور أن يكون فائدة على حدة، وهو مالا يعقل. إذ لا يتصور فى (زيد) من قولك: ضربت زيداً، أن يكون شيئاً برأسه حتى تكون بتعديتك ضربت إليه قد ضممت فائدة إلى أخرى. وإذا كان ذلك كذلك وجب أن يعلم أن الحقيقة فى هذا أن الكلام يخرج بذكر المفعول إلى معنى غير الذى كان. وأن وزان الفعل قد عدى إلى مفعوله معه وقد أطلق فلم يقصد به إلى مفعول دون مفعول وزان الاسم المخصص بالصفة مع الاسم المتروك على شياعه. كقولك: جاءنى رجل ظريف، مع قولك: جاءنى رجل، فى أنك لست فى ذلك كمن يضم معنى إلى معنى وفائدة إلى فائدة، ولكن كمن يريد ههنا شيئاً وهناك شيئاً آخر. فإذا قلت: ضربت زيداً كان المعنى غيره إذا قلت: ضربت ولم تزد زيداً. وهكذا يكون الأمر أبدا كلما زدت شيئاً وجدت المعنى قد صار غير الذي كان. ومن أجل ذلك صلح المجازاة بالفعل الواحد إذا أتي به مطلقاً فى الشرط ومعدى إلى شئ فى الجزاء كقوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ (سورة الإسراء: ٧) وقوله عز وجل: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ (سورة الشعراء ١٣٠) مع العلم بأن الشرط ينبغى أن يكون غير الجزاء، من حيث كان الشرط سبباً والجزاء مسبباً، وأنه محال أن يكون الشئ سبباً لنفسه، فلولا أن المعنى فى أحسنتم الثانية غير المعنى فى الأولى وأنها فى حكم فعل ثان لما ساغ ذلك... ويجرى ذلك فى الفعلين قد عديا جميعاً إلا أن الثانى منهما قد تعدى إلى شئ زائد على ما تعدى إليه الأول، ومثاله قولك: إن أتاك زيد أتاك لحاجة، وهو أصل كبير، والأدلة على ذلك كثيرة"[1]

وهذا الكلام الذى ذكره الإمام واضح الدلالة على ما يأتى:

أولاً: إن المعنى يختلف بالقيود فتصير الجملة بالقيد جملة أخرى خلاف المجردة منه.

ثانياً: إنه لا يتصور صلاحية الجملة لأن تستعمل بعد فصل القيد عنها فى المقام الذى استعملت فيه بالقيد، وكذلك الشأن فى القيد أيضاً– وهو ما يوهمه قولهم: إن القيود لتربية الفائدة.

ثالثاً: إن ما مثل به البلاغيون لتربية الفائدة من قولهم: ضرب زيد، وضرب زيد عمراً، وضرب زيدٌ عمراً يوم الجمعة... الخ لابد أن ينظر فيه إلى اعتبارات زيادة الفائدة بمعزل عن السياق وقرائن الأحوال. ذلك لأن المقال فى مقامه له فائدة لا يفيدها

(١) دلائل الإعجاز ٣٣٧

مقال آخر لغير مقام هذا المقال، بل يمكن القول: بأنه لا يتصور فيه زيادة في الفائدة، لأن كل مقام يفرض كلاماً معيناً هو عين الفائدة، والغرض من هذا المقام.

رابعاً: إن أداء المعنى المراد قد يرتبط بمجيء قيد في الجمة ارتباطاً ينشأ من المقام. بحيث يتوقف على القيد في الكلام إحدى المرتبتين الآتيتين:

المرتبة الأولى:

وأعنى بها صحة المعنى. بأن تتوقف صحته على القيد، لكونه العنصر الأساسي الذى يقوم عليه المعنى. والذى يؤدى خلو الكلام منه إلى فساد المعنى فساداً شنيعاً. يتضح ذلك بالنظر إلى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ (سورة النساء: ٤٣) فإن ركنى الكلام الأساسين فى قوله (ولا تقربوا الصلاة) الفعل والفاعل (تقربوا) وأنه لا يتصور أن يتم المعنى بهما فيصح فى غير القرآن أن يخاطب المؤمنون بقولنا (ولا تقربوا الصلاة). وإنما المعنى فى حقيقته ينبنى على القيد، وهو الجملة الحالية (وأنتم سكارى) فالنهى فى الحقيقة ليس عن الصلاة وإنما عن السكر وقت الصلاة، فالقيد هو العمدة فى القصد، والأساس فى المعنى. ونظيرها قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ (سورة الماعون: ٤، ٥) فالتهديد بالويل ليس للمصلين على إطلاقهم. وإنما ينصب على الساهين عن صلاتهم، فالقيد فى الآية وهو الوصف بالسهو هو الغرض والأساس الذى يبنى عليه المعنى. يدل على ذلك تمام الدلالة عدم صحة الاستغناء عنه بأن يقال فى غير القرآن: ويل للمصلين. فقط.

وعند تفسير قول الله جل وعلا: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (سورة البقرة: ١٣٢) يقول الزمخشرى: "فلا تموتن معناه: فلا يكن موتكم إلا على حال كونكم ثابتين على الإسلام، فالنهى فى الحقيقة عن كونهم على خلاف حال الإسلام إذا ماتوا. كقولك: لا تصل إلا وأنت خاشع، فلا تنهاه عن الصلاة ولكن عن ترك الخشوع فى حال صلاته، فإن قلت: فأى نكتة فى إدخال حرف النهى على الصلاة وليس بمنهى عنها؟ قلت: النكتة فيه إظهار أن الصلاة التي لا خشوع فيها كَلا صَلاة. فكأنه قال: أنهاك عنها إذا لم تصلها على هذه الحالة ، ألا ترى إلى قوله عليه الصلاة والسلام: (لا صلاة لجار المسجد إلا فى المسجد)[1] فإنه كالتصريح بقولك لجار المسجد: لا تصل إلا فى المسجد،

(١) رواه الدارقطنى والبيهقى عن جابر وأبى هريرة كما فى الجامع الصغير ٢/١٣٠

وكذلك المعنى فى الآية إظهار أن موتهم لا على حال الثبات على الإسلام موت لا خير فيه، وأنه ليس بموت السعداء، وأن من حق هذا الموت أن لا يحل فيهم، وتقول فى الأمر أيضاً: مت وأنت شهيد، وليس مرادك الأمر بالموت، ولكن بالكون على صفة الشهداء إذا مات. وإنما أمرته بالموت اعتداداً منك بميتته، وإظهاراً لفضلها على غيرها، وأنها حقيقة بأن يحث عليها"[١] واضح من ذلك أن بناء المعنى على القيد الذى هو جملة الحال (وأنتم مسلمون) بحيث لو نظر إلى المعنى بدونه لما استقام، ولأصبح النهى مسلطاً على الموت، وإبراهيم عليه السلام لا يملك النهى عنه.

ومما هو من هذا القبيل، ويدل على قيام المعنى على القيد وأنه عماد المعنى قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (سورة الزمر: ٤٥) فالمعنى يقوم على القيد الذى هو (وحده) أى أن اشمئزازهم لا يكون إلا حالة أن يذكر الله وحده فلا يكون لمجرد ذكره وإنما لذكره منفرداً دون آلهتهم. يقول الزمخشرى: "مدار المعنى على قوله (وحده) أى إذا أفرد الله بالذكر ولم يذكر معه آلهتهم أشمأزوا، أى نفروا وانقبضوا"[٢]

اتضح من الأمثلة السابقة أن الأساس الذى يعتمد عليه المعنى هو القيد وهو المحور الذى يدور عليه المعنى. بحيث لو حذف من الكلام لما أفاد شيئاً يرمى إليه المتكلم بكلامه.

المرتبة الثانية:

وأعنى بها أن تتحقق المزية والحسن فى الكلام بالقيد. ووجه الفرق بين هذه المرتبة وبين التى سبقتها أن هذه يمكن أن يؤدى الكلام دون القيد معنى صحيحاً قل أو كثر، لكنه يختلف عن المعنى مع القيد. أما تلك أى المرتبة الأولى فإن المعنى لا يقوم دون القيد ولا يراد ألبته. لأن العمدة فى الكلام والقصد الأساس هو القيد. ففى شواهد هذه المرتبة لا تكمل صورة المعنى إلا بمجئ القيد من ذلك قول الله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ (سورة الأنعام:٣٨) فالقيد (فى الأرض) والقيد (يطير بجناحيه) مفهومان مما قبلهما لأن الدابة لا تكون إلا فى الأرض والطيران لا يكون إلا بالجناح، وإنما جئ بهما لنكتة التعميم والإحاطة، أى جميع الدواب وجميع الطيور.[٣]

---

(١) الكشاف ٣١٣/١

(٢) الكشاف ٤٠١/٣

(٣) ينظر الكشاف ١٧/٢

قال ابن المنير: "موقع قوله: فى الأرض، ويطير بجناحيه موقع الوصف العام، وصفة العام ضرورة المطابقة، فكأنه مع زيادة الصفة تضافرت صفتان عامتان"(١)

وأرى- والله أعلم بمراده- أن مظهر الأممية فى الدواب يكون فى الأرض ومظهرها فى الطيور يكون فى السماء. فعوامل اجتماع الدواب وظهور آية ذلك فيها يكون مرتبطاً بكونها (فى الأرض) ولا يرى مظهر التجمع فى الطيور إلا عند طيرانها بأجنحتها فى السماء. فكان إبراز القيدين زيادة بيان لمحط الدلالة على قدرة الله جلا وعلا. والله أعلم.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (سورة الأعراف: ١٥٠) فقد جاء القيد (من بعدى) مع دلالة خلفتمونى عليه، لأنه لا يكون إلا بعد المستخلف. لكن جئ به لنكتة أشار إليها الزمخشرى قائلاً: "فإن قلت أى معنى لقوله (من بعدى) بعد قوله: خلفتمونى؟ قلت: معناه من بعد ما رأيتم منى من توحيد الله ونفى الشركاء عنه، وإخلاص العبادة له، أو من بعد ما كنت أحمل بنى إسرائيل على التوحيد، وأكفهم عما طمحت نحوه أبصارهم من عبادة البقر، حين قالوا: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة- ومن حق الخلفاء أن يسيروا بسيرة المستخلف من بعده ولا يخالفوه. ونحوه ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ (سورة مريم: ٥٩) أى من بعد أولئك الموصوفين بالأخلاق الحميدة"(٢) ففى القيد إشارة إلى معنى فى المستخلف كان يستوجب شيئاً آخر غير ما خلفوه به. ومن هذا القبيل- أيضاً- قول الله تعالى: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ (سورة هود ٩١) فالقيد فى الآية الكريمة (فينا) يتم به المعنى المقصود، لأنهم يريدون أن يخبروه بضعفه لكنهم يقصدون ضعفاً خاصاً وهو ضعفه بينهم لا ضعفه بصفة عامة، لأنه يقوى بهم على غيرهم، لكنه يضعف فيهم ولا يقوى على مخالفتهم، ولا يمتنع من إيذائهم. قال الزمخشرى: "فينا ضعيفاً- لا قوة لك ولا عز فيما بيننا، فلا تقدر على الامتناع منا إن أردنا بك مكروهاً"(٣)

---

(١) الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال ١٧/٢

(٢) الكشاف ١١٨/٢ ، ١١٩

(٣) الكشاف ٢٨٩/٢

ومن براعة الزمخشرى استدلاله بالقيد على بطلان تفسير قوله (ضعيفاً) بالأعمى لعدم التئام هذا المعنى مع القيد. يقول: "وقيل: (ضعيفاً) أعمى. وحِمْيَر تسمى المكفوف ضعيفاً كما يسمى ضريراً وليس بسديد؛ لأن (فينا) يأباه. ألا ترى أنه لو قيل: إنا لنراك فينا أعمى لم يكن كلاماً. لأن الأعمى أعمى فيهم وفى غيرهم. ولذلك قللوا قومه حيث جعلوه رهطاً"[1]. أى أن ضعفه فيهم لا فى غيرهم فلا يعجزهم إن أرادوا أخذه، كما أن ضعف الأعمى وعجزه عن الامتناع يكون فيهم وفى غيرهم.

ومن ذلك أيضاً قول الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ (سورة طه: ٢٥، ٢٦) علل الزمخشرى مجئ القيد (لى) بأنه لتكرير المعنى الواحد من طريقى الإجمال والتفصيل.[2]

وقد أجاد ابن المنير فى بيان النكتة فيه قائلاً: "ويحتمل عندى- والله أعلم- أن تكون فائدتها الاعتراف بأن منفعة شرح الصدر راجعة إليه- وعائدة عليه- فإن الله عز وجل لا ينتفع بإرساله ولا يستعين بشرح صدره - تعالى وتقدس- على خلاف رسول الملك إذا طلب منه أن يريح عليه فإنما يطلب ما يعود نفعه على مرسله ويحصل له غرضه من رسالته، والله أعلم"[3]

مما سبق اتضح أن الجملة تصير بالقيد دالة على معنى غير معناها دون القيد. وأن القيد عنصر مهم فى المعنى المراد. وأن الجملة قد لا تصلح إلا به ولا يفاد بها معنى دونه، أو أنه يمكن دلالتها على معنى دونه، لكن لا يكون هو مقصود المتكلم الذى من أجله سيق الكلام. وينجلى ذلك فى بيت الفرزدق:

وما حملت أم امرئ فى ضلوعها ∴ أعق من الجانى عليها هجائيا[4]

فالبيت كله جملة واحدة بقيودها. والأصل هو (وما حملت أم امرئ) وما بعده قيود لهذه الجملة. لكن يلاحظ أن هذه القيود نوعان: نوع منها لا يستقيم للجملة معنى دونه، أى يتوقف عليه صحة المعنى واستقامته، وهو ما يدخل فى المرتبة الأولى التى سبق بيانها.

---

(١) الكشاف ٢/٢٨٩

(٢) ينظر الكشاف ٢/٥٣٥

(٣) الأنصاف = الكشاف ٢/٥٣٥

(٤) البيت من قصيدة يهجو بها جريراً بعنوان (بأى أب يا ابن المراغة) الديوان ٢/٣٦٠

ونوع يمكن للجملة أن تقوم دونه وتؤدى معنى صحيحاً لكنه خلاف المعنى المقصود. فالقيود التى من النوع الأول قوله (فى ضلوعها) و (أعق من الجانى عليها) وقوله (هجاء) قبل أن تجئ الياء. فهذه القيود لا يتضح للجملة معنى إلا بمجيئها جميعاً، بحيث لو وقف عند آخر واحد منها قبل أن يتم مجيئها لما فهم للكلام معنى.

قال عبد القاهر: "إنك إذا نظرت لم تشك فى أن الأصل والأساس هو قوله (وما حملت أم امرئ) وأن ما جاوز ذلك من الكلمات إلى آخر البيت مستند إليه، ومبنى عليه، وإنك إن رفعته لم تجد لشئ منها بياناً، ولا رأيت لذكرها معنى، بل ترى ذكرك لها إن ذكرتها هزياناً. والسبب الذى من أجله كان كذلك أن من حكم كل ما عدا جزئى الجملة، الفعل والفاعل، والمبتدأ والخبر أن يكون تحقيقاً للمعنى المثبت والمنفى، فقوله فى ضلوعها يفيد أولاً أنه لم يرد نفى الحمل على الإطلاق، ولكن الحمل فى الضلوع. وقوله (أعق) يفيد أنه لم يرد هذا الحمل الذى هو حمل فى الضلوع أيضاً– على الإطلاق ولكن حملاً فى الضلوع محموله أعق من الجانى عليها هجاؤه"(١)

واضح إذاً أن هذه القيود لا تستقيم الجملة دونها، ولا هى تستقيم دون الجملة. وأن حذف واحد منها يفسد المعنى المراد.

ومن قبيل ذلك ما أفاده ابن جنى من كون الكلام يصير لغواً لا يعتد به عند حذف القيد الذي هو مناط الكلام دون دليل عليه. قال: "ألا تراك لو قلت: وردنا البصرة فاجتزنا بالأبلة على رجل، أو رأيت بستاناً وسَكَتَّ، لم تفد بذلك شيئاً. لأن هذا ونحوه مما لا يعرى منه ذلك المكان. وإنما المتوقع أن تصف من ذكرت أو ما ذكرت، فإن لم تفعل كلفت علم ما لم تدلل عليه. وهذا لغو من الحديث، وجور من التكليف"(٢)

وإذا كان يتحتم مجئ القيود المذكورة فى بيت الفرزدق فإن ذلك لعدم صحة المعنى دونها. أما القيد الذي هو من النوع الثانى وهو ما يتضح المعنى دونه وإن كان غير مراد. فهو (الياء) فى قوله هجائياً لأن الشاعر لو قال أعق من الجانى عليها هجاء لأدى معنى صحيحاً. لكنه خلاف المراد؛ لأنه يريد أن فظاعة العقوق لا تكون إلا بجنايته هجاءه هو دون غيره.

---

(١) دلائل الإعجاز ٣٤٢

(٢) الخصائص ٣٧١/٢

قال عبد القاهر: "إنك ترى البيت قد استحسنه الناس وقضوا لقائله بالفضل فيه، وبأنه الذى غاص على معناه بفكره، وأنه أبو عذره، ثم لا ترى ذلك الحسن، وتلك الغرابة كانا إلا لما بناه على الجملة دون نفس الجملة. ومثال ذلك قول الفرزدق:

وما حملت أم إمرئ فى ضلوعها ∴ أعق من الجانى عليها هجائيا

فلولا أن معنى الجملة يصير بالبناء عليها شيئاً غير الذي كان، ويتغير فى ذاته لكان محالاً أن يكون البيت بحيث تراه من الحسن والمزية، وأن يكون معناه خاصاً بالفرزدق، وأن يقضى له بالسبق إليه. إذ ليس فى الجملة التى بنى عليها ما يوجب شيئاً من ذلك فاعرفه. والنكتة التى يجب أن تراعى فى هذا أنه لا تتبين لك صورة المعنى الذى هو معنى الفرزدق إلا عند آخر حرف من البيت، حتى إن قطعت عنه قوله (هجائيا) بل الياء التي هى ضمير الفرزدق لم يكن الذى تعقله منه مما أراد بسبيل؛ لأن غرضه تهويل أمر هجائه والتحذير منه، وأن من عرّض أمه له كان قد عرضها لأعظم ما يكون من الشر، وكذلك حكم نظائره من الشعر"[١].

وخلاصة القول فى البيت أن القيود فيه نوعان:

نوع لا يقوم للجملة معنى من دونه، وهو جميع القيود فيه عدا ياء المتكلم، فلو طلب المعنى من دونها لن يتحقق.

ونوع يقوم للجملة معنى مع القيود الأخرى دونه لكنه غير مقصود للشاعر وهو الياء التى هى ضمير الشاعر.

٥- **القيود بمعنى التخصيص**:

تبين مما سبق أن المعنى المفاد بالجملة المقيدة يختلف عنه فى الجملة المطلقة نظرا لأن القيد يربط الحكم بجهة معينة. لكن هل القيود تفيد تخصيص الحكم فى الجملة بهذه الجهة الخاصة بحيث لا يتعداها إلى غيرها، أو أنها لا تفيد هذا التخصيص؟ الذى يبدو من تتبع الأساليب وكلام البلغاء أن التقييد يكون لغرض من الأغراض الثلاثة الآتية:

الغرض الأول : أن يذكر الخاص للإخبار به لا من جهة خصوصه دون غيره. وذلك عندما يقصد بالخبر مجرد إفادة وقوع الحدث من غير نظر إلى خصوص من تعلق به. فيذكر المفعول به – مثلا – لكونه محلا لوقوع الفعل عليه لا لكونه مقصودا لذاته دون غيره، فيؤتى بألفاظ الحكم فى مراتبها بأن يؤتى بالفعل ثم بالفاعل ثم بالمفعول. فنقول: ضرب زيد عمرا.[٢] ومن أمثلة ذلك قول القائل : جاء زيد راكبا. فقد قيدت الجملة بالحال قصداً إلى إثبات الفعل للفاعل على الهيئة المذكورة.

---

(١) دلائل الإعجاز ٣٣٨

(٢) ينظر شرح المحلى لجمع الجوامع والبنانى عليه ١٨٧/١.

قال عبد القاهر: "فقد جئت به لتزيد معنى فى إخبارك عنه بـالمجيء، وهـو أن تجعله بهذه الهيئة فى مجيئه ولم تجرد إثباتك للركوب ولم تباشره به، بل ابتـدأت فأثبـت المجيء ثم وصلت به الركوب فالتبس به الإثبات على سبيل التبع للمجيء، وبشرط أن يكون فى صلته" (١)

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران:٦) فإن التقييد بالمفعول به وهو ضمير المخـاطبين (كم) والتقييد بالجار والمجرور (فى الأرحام) لا يدل على إدخالهم فـيمن يـصور، وأن تصويرهم فى الأرحام. كما لا يدل على إثبات هذا التصوير لهم ونفيه عن غيرهم، ولا أن هذا التصوير فى الأرحام دون غيرها. وإنما المراد إثبات تصوير الله لهم فى الأرحـام وقصره على الله تعالى دون غيره والله أعلم.

الغرض الثانى : أن يكون القصد إلى الخبر من جهة خصوصه بتعلقه بمفعول أو غيره. فيكون القصد إلى الخاص لا المطلق، لكن لا على سبيل الحصر.

وقد جاء عن الإمام عبد القاهر ما يدل على هذا الغرض، قال: "ألا ترى أنك إذا قلت: هو يعطى الدنانير كان المعنى على أنك قصدت أن تعلم السامع أن الـدنانير تدخل فى عطائه...."(٢) فهذا صريح فى دلالته على هذا الغرض ومن أمثلة ذلك قـول الله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَـانُوا يَمْكُرُونَ﴾ (سورة الأنعام: ١٢٤) فقوله تعالى (الله أعلم حيث يجعل رسالته) إنكار عليهم أن يطلبوا النبوة وتنزل عليهم الآيات، لأن الله أعلم بالمكان الذي يـضعها فيـه. (٣)، فالمقصود – والله أعلم بمراده – خصوص الإخبار بعلم الله تعالى المكان الذي ينزل فيه آياته ورسالاته، لا قصد تخصيص علم الله تعالى – حاشاه – بمكان الرسالة دون غيره. بقرينة إحاطة علم الله تعالى بجميع الأشياء. ولا قصد مجرد إفادة وقوع الحدث من غير نظر إلى خصوص من تعلق به. لأن السياق يدل على طلبهم شيئا ليس لهم حـق فيـه، فأخبرهم بتعلق علم الله تعالى بالمكان المقدر للرسالة. والله أعلم.

---

(١) دلائل الإعجاز ١١٤

(٢) دلائل الإعجاز ١٠٢

(٣) ينظر الكشاف ٤٨/٢

الغرض الثالث : أن يكون ذكر القيد فى الجملة لإفادة معنى التخصيص والحصر، وذلك بأن يدل تعلق الفعل بالقيد المذكور على تخصيص وقوعه بهذا القيد دون غيره، وهو ما يسمى بمفهوم المخالفة عند الأصوليين.

قال عبد القاهر: "ألا ترى أنك إذا قلت: هو يعطى الدنانير كان المعنى على أنك قصدت أن تعلم السامع أن الدنانير تدخل فى عطائه (وهذا هو الغرض الثاني السابق) أو أنه يعطيها خصوصا دون غيرها" [1] فهذا الكلام يدل على أن ذكر المفعول به قد يكون لإفادة القصر، أى تخصيص وقوع الفعل بالمفعول به المذكور، فلا يقع على غيره. وهو ما يعنى بمفهوم المخالفة، الذى هو نفى الحكم عما عدا المذكور نفياً صادراً من جهة اللغة.[2]

والأصل الذى يعتمد عليه فى تحديد هذه المعانى ومعرفة المعنى المقصود هو قرائن المقام. فتحديد المراد بقول القائل : هو يعطى الدنانير وأن القصد أن الدنانير تدخل فى عطائه، أو أنه يعطيها دون غيرها – أمر يرتبط بالمقام، وما يقوم من قرائن على المراد. وعرف التخاطب هو القرينة الكبرى على توجيه المعنى وتحديد المراد، وعدم مراعاة ذلك بإبعاد العبارة عن المقام وقرائن السياق يؤدى إلى غموض المعنى المراد بل إلى الفساد.[3]

وما كان اتجاه بعض الأصوليين القائلين بمفهوم المخالفة عند التقييد بالشرط والصفة والغاية... الخ ثم استثناؤهم من هذه الدلالة بعض الأمثلة إلا وهم يعتمدون على القرائن اعتبارا له واستثناء لبعض الأمثلة. فقد رأوا أن مقتضى تخصيص القيد بالذكر وجود فائدة، وهو عِلِّيَّةُ القيد فى الحكم، فيثبت عند وجوده وينتفى عند عدمه. وأيدوا رؤيتهم هذه بتبادره عرفا واستعمالا. ولذلك استقبحوا قول القائل : الإنسان الطويل لا يطير. لأن الإنسان لا يطير طويلا كان أو قصيرا. ثم كان – أيضاً – استثناؤهم بعض الأمثلة من دلالتها على مفهوم المخالفة اعتمادا على قرائن دالة على

---

(١) دلائل الإعجاز ١٠٢

(٢) ينظر التلويح على التوضيح ١٤١/١ وشروح مختصر ابن الحاجب ١٧٣/٢.

(٣) عقد ابن جنى فى كتابه الخصائص باباً يبين فيه مدى فساد المعنى بل والاعتقاد إذا لوحظ المعنى بعيدا عن المقام والسياق الذى يأتى فيه الكلام. ينظر الخصائص "باب فيما يؤمنه علم العربية من الاعتقادات الدينية" ٢٤٥/٣.

عدم قصد نفى الحكم عما عدا المذكور، ووجود فائدة أخرى خلاف نفيه عن المذكور، أى أن المرجع فى ذلك إثباتا واستثناء إلى القرائن فى العرف والاستعمال.[1]

خلاصة :

لعله قد تبين من هذا المدخل ارتباط القيود ذكرا وحذفا بالغرض الذى يساق له الكلام، وتبين مدى تأثيرها فى دلالات التراكيب بصيرورتها جزءا منها لا يصح المعنى المراد ولا يتم إلا بها. كما أنها تدل على جهة خاصة فى فهم المعنى، ودلالة هذه الخصوصية على أحد الأغراض المختلفة التى تم بيانها: بأن يكون القصد إلى مجرد الارتباط بين الفعل ومتعلقاته أو إلى خصوصية التعلق بالمفعول به – مثلا – أو يكون القصد التعلق بهذا المفعول ونفيه عما عداه، وتجلى هذا البيان من خلال آيات القرآن الكريم بصورة مجملة جدا لأنواع مختلفة من القيود. لأن البحث عن النكات والأغراض للتقييد بالقيود المختلفة بصورة مفصلة يحتاج إلى بحوث عدة ينهض بها عدد من الباحثين.

وقد انفردت هذه الدراسة بالبحث عن أسرار التقييد بالشرط بإحدى أدوات الشرط (إن وإذا ولو) وما يرتبط بذلك من مسائل تجلى هذه الأسرار من خلال القرآن الكريم.

والله من وراء القصد.

---

(١) ينظر التوضيح والتلويح ١٤١/١ وما بعدها ومختصر ابن الحاجب ١٧٤/٢ وجمع الجوامع ١٧٨/١.

الفصل الأول

التقييد بالشرط وقيمته من خلال القرآن الكريم

تمهيد :

أحب أن أشير فى هذا التمهيد إلى أمرين مهمين:

الأمر الأول : أنه لا ينبغى أن يظن أن من نافلة القول أو من البعد عن موضوع البحث الذى يفيده عنوانه – الحديث فى هذا الفصل عن أسرار التقييد بالشرط فى القرآن الكريم. ذلك لأن وراء هذا التقييد أسراراً لها قيمتها وارتباطها بالأداة التى يؤتى بها لإفادة المعنى المراد. كما أن إدراك حدود جملتى الشرط والجزاء فى المعنى ومعرفة طبيعة الارتباط بينهما، وكونه ناشئاً من جهة العقل، أو الشرع، أو العرف، أو اعتقاد المتكلم، ودراسة كل ذلك أمر مهم لفهم المعنى فى إطار ما تفيده الأدوات من معنى الجزم أو الشك أو الامتناع، وكما سيتضح ذلك وغيره من مسائل فى هذا الفصل وما بعده من فصول بمشيئة الله تعالى.

الأمر الآخر : أنه وإن كان الشرط النحوى هو ما ترمى إليه هذه الدراسة وتجد وراء أسرار التراكيب فيه إلا أنه من المهم ذكر تعريفه فى اللغة، وفى اصطلاح الأصوليين. أما وجه أهمية التعريف اللغوى فلأنه الأصل من جهة، ولبقاء ظلال المعنى اللغوى فى الاصطلاحات المختلفة من جهة أخرى.

ويرجع الاهتمام بذكر تعريفه عند الأصوليين إلى ما يأتى:

١– اتساع مدلول الشرط عند الأصوليين اتساعا يضم فى اطاره الشرط النحوى ليكون نوعا من أنواعه، كما كان الشرط العقلى والشرط الشرعى كذلك.

٢– أن أنواع الشرط التى ذكرها الأصوليون – غير الشرط النحوى – قد تدخل فى سياق الشرط النحوى، بأن يقع – مثلا – ما هو شرط من ناحية العقل شرطا نحويا معلقا عليه شرط آخر، فتكون الدلالة على الشرطية بجهتين : جهة العقل، وجهة اللغة.

وعند ذلك يدق المسلك لإدراك مفهوم الجملة وما تدل عليه من معنى التوقف أو الترتب، ومعنى الشك أو الجزم، أو معنى الامتناع.

مفهوم الشرط :

فى اللغة :

تدل مادة (شرط) فى أصل اللغة على الشىء يلتزم لغيره ويكون علامة وأمارة عليه.[١]

---

(١) ينظر لسان العرب ٢٠٢/٩ وما بعدها، والقاموس المحيط ٣٦٨/٢.

وهذا المعنى هو الأصل الذى تفرعت عنه المعانى الاصطلاحية المختلفة كما هو عند الأصوليين والنحويين وغيرهم...

عند الأصوليين:

عندما تعرض الأصوليون للحديث عن الشرط نوعوه حسب جهة الاشتراط إلى : عقلى، وشرعى، وعادى، ولغوى.

فمثال الشرط العقلى الحياة للعلم، والشرعى الوضوء للصلاة، والعادى السّلّم لطلوع السطح، واللغوى الزيارة لوقوع الإكرام فى: إن زرتنى أكرمتك. فقد وضع أهل اللغة هذا التركيب للدلالة على شرطية ما دخلت عليه (إن) معلقا به الجزاء.[1] ثم قسموه قسمين : شرط حقيقي، وشرط جعلي.

وقد عرفوا الشرط الحقيقى بتعريفات تفيد معنى التوقف دون الترتب فقالوا: إنه "ما يلزم من عدمه العدم ولا يلزم من وجوده وجود ولا عدم لذاته"[2]

وقالوا فى موضع آخر : "المختار فى تعريفه أن يقال: هو ما يستلزم نفيه نفى أمر لا على جهة السببية"[3] وحاصل ما ذكروه أن الشرط يفترق عن المانع وعن السبب: أما المانع فلأن الشرط يقتضى عدمه العدم والمانع لا يقتضى عدمه العدم. وأما عن السبب فلأن السبب يستلزم الوجود ولا يستدعى عدمه العدم لجواز وجود سبب آخر. فالفرق بينهما فى التوقف والترتب[4]، ويكون المعنى المميز بين الشرط والسبب هو التأثير والإفضاء، واستلزام الوجود الوجود، حيث يوجد فى السبب دون الشرط.[5]

ويدخل فى الشرط الحقيقى ما هو عقلى، وشرعى، وعادى. فهى شروط يستلزم انتفاؤها انتفاء ما شرطت له، لأن انتفاء – ما مثل به – من الحياة والوضوء

---

(١) قالوا : بصحة إطلاق كلمة لغوى على الشرط النحوى، فكما يسمى مدخول إن وأخواتها شرطا نحويا يسمى شرطا لغويا – أيضا – لأن المركب من (إن) وأخواتها ومدخولها لفظ مركب يفيد معنى وضع له يعرف من طريق اللغة، وإن كان النحوى يبحث عنه من وجه آخر. وهذا جاء كلام الجلال المحلى على جمع الجوامع بأن مدخول (إن) شرط لغوى وأنه من أقسام الشرط. ١٨/٢ وما بعدها وتنظر حاشية بخيت على الإسنوى على المنهاج ٤٤/٢ وما بعدها.

(٢) جمع الجوامع للسبكى ١٨/٢

(٣) شرح العضد لمختصر ابن الحاجب ١٤٥/٢.

(٤) ينظر البنانى على جمع الجوامع لابن السبكى ١٨/٢.

(٥) ينظر حاشية السعد على شرح العضد للمختصر ١٤٥/٢.

والسلم يستلزم انتفاء العلم والصلاة وصعود السطح. كما أن وجود هذه الشروط لا يستلزم وجود ما هى شرط له.

الشرط الجعلى: وهو ما يكون باعتبار المتكلم بأن يجعله شرطا يعلق عليه الجزاء. ويكون بكلمة الشرط أو بما يؤدى معناها وهو التعليق.[1]

والشرط بهذا الاعتبار خاص بالشرط النحوى ويصير استعماله فى السببية – غالبا – يستلزم وجوده وجود المشروط له وعدمه عدمه، لا مجرد كون عدمه مستلزما لعدمه من غير سببية.[2]

وبهذا الاعتبار ينفرد الشرط النحوى عن العقلى والشرعى والعادى ولا يدخل قسما من أقسام الشرط المعرف بقولهم: ما يلزم من عدمه العدم ولا يلزم من وجوده الوجود.[3]

عند النحويين:

يفيد كلام النحويين أن الشرط [4] عندهم: ما دخل عليه أداة من أدوات الشرط لتفيد تعليق شيء آخر عليه. فقول الله تعالى ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ (سورة الحجرات ٧). حصل فيه تعليق وقوع الجزاء وهو العنت بوقوع الشرط وهو الإطاعة فى كثير من الأمر وتوقفه عليه. فلما انتفت الإطاعة انتفى العنت.[5]

---

(١) ينظر التوضيح والتلويح عليه ١٤٥/٢. ويلحظ أن السعد قد خصص الجعلى بالشرط النحوى أو ما يؤدى معناه من الاشتراط مثل: المرأة التى أتزوجها فهى طالق. وقد قسم الإسنوى الشرط إلى حقيقى وهو ما كانت فيه جهة الارتباط العقل. وجعلى وهو ما كان من جهة الشارع أو العرف أو اللغة. ٣٤٩/٤. ولعل السعد قصد إلى ما يدخل فى اطار التعريف المذكور للحقيقى، وهو العقلى والشرعى والعادى، وخصص الجعلى باللغوى، لأنه يفيد التوقف والترتب. أما الإسنوى فراعى الجعل، وكونه من الشرع، أو العرف، أو اللغة.

(٢) ينظر شرح العضد لمختصر ابن الحاجب ١٤٥/٢ والبنانى على جمع الجوامع ١٩/٢

(٣) ينظر البنانى على جمع الجوامع ٢٠/٢.

(٤) يطلق الشرط على الأداة، وعلى جملة الشرط، وعلى التعليق، والمراد هنا جملة الشرط. وإن أريد به التعليق قيل: تعليق حصول مضمون جملة على حصول مضمون جملة أخرى. وينظر البنانى على جمع الجوامع ٢٥٨/١ وحاشية الشهاب على البيضاوى ١٨٢/٢ وحاشية الدسوقى على المختصر = شروح ٣٨/٢.

(٥) ينظر شرح المفصل لابن يعيش ١٥٥/٨.

أجزاء الجملة الشرطية :

تصاغ الجملة الشرطية من جملتين:الأولى: جملة الشرط وهو ما يعلق عليه غيره أو يكون سببا لوجوده، والثانية: جملة الجزاء، وهو ما علق على الشرط.

ويقوم بالربط بين الجملتين إحدى أدوات الشرط التى بها تمتنع استقلالية جملة الشرط عن جملة الجزاء، فلا يتم الكلام إلا بهما معا، ويصيران معا إلى معنى آخر حاصل من الربط بينهما. ذلك لأن "الشيئين إذا ركبا قد يحدث لهما بالجمع والتركيب معنى ثالث، ويخرجان عن حكم ما لكل واحد منهما إلى معنى مفرد"[1] فمثلا – الجمل: يريد الله أن يهديه، يريد الله أن يضله، جاءكم فاسق بنبأ، جمل تامة تدل على معنى فى سياق ما تأتى فيه. فإذا ما أدخلنا عليها أداة من أدوات الشرط بأن نقول: من يرد الله أن يهديه، ومن يرد الله أن يضله، إن جاءكم فاسق. تحولت الجمل إلى معان أخرى ناقصة فى حاجة إلى ضميمة ما يكملها، وهو الجزاء، كما جاء فى القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (سورة الأنعام ١٢٥)

وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ) سورة الحجرات ٦

عند ذاك استقرت الجمل، وأفادت معانى كاملة، وأصبحت الجملة الأولى شرطا معلقاً عليه حصول الجملة التى بعدها وهى الجزاء.

حدود المضمون للشرط والجزاء:

تختلف نظرة علماء المعانى عن نظرة النحويين فى تحديد الشرط والجزاء، فالنحويين ينظرون إلى ما يلى الأداة ويعتبرونه شرطا لإتمام إعراب جزء الجملة الشرطية.

لكن البيانيين لا يكتفون بذلك وإنما ينظرون إلى ما يكون به تمام المعنى. فيدخل فى إطار كل من الشرط والجزاء جميع القيود التى ترتبط بالفعل الأول فى الجملة ويتكون المعنى منها جميعا. وهكذا الشأن فى الجزاء.

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (سورة التوبة ٥).

---

(١) شرح المفصل لابن يعيش ١٥٥/٨.

ففى هذه الآية جملتا شرط:

الأولى: فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد. فالشرط فيها (فإذا انسلخ الأشهر الحرم) والجزاء (فاقتلوا المشركين...) وإذا كان النحويون يعتبرون الجزاء هو فاقتلوا المشركين، وما بعده معطوفات عليه، فإن النظرة عند علماء المعانى تشمل الجملة كلها بما اتصل بها، فالجزاء هو مجموع الأمور الثلاثة: من القتل، والأخذ، وحصرهم والتضييق عليهم. "أى لا تكتفوا بمجرد وجدانكم لهم بل اقصدوهم بالحصار فى معاقلهم وحصونهم والرصد فى طرقهم ومسالكهم حتى تضيقوا عليهم الواسع وتضطروهم إلى القتل أو الإسلام"[(١)]

والجملة الثانية: فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتَوُا الزكاة فخلوا سبيلهم.... فالشرط فيها مجموع الأمور الثلاثة التوبة بشهادتهم.. وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة. فالجزاء وهو تخلية سبيلهم يتوقف على مجموعها.

ولا يعارض كون الشرط مجموع الأمور الثلاثة وتوقف التخلية عليها اختلاف الفقهاء فى حكم من تاب ولم يُصَلِّ، ولم يزَكِّ، ذلك لأن هذا يرجع إلى فهم معنى التخلية. فقد ذهب الشافعى رضى الله عنه إلى قتل من لم يقم الصلاة منهم ولم يؤت الزكاة.

قال الرازى "احتج الشافعى رحمه الله تعالى بهذه الآية على أن تارك الصلاة يقتل. قال : لأنه – تعالى– أباح دماء الكفار مطلقا بجميع الطرق، ثم حرمها عند مجموع هذه الثلاثة وهى التوبة عن الكفر وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، فعندما لم يوجد هذا المجموع وجب أن تبقى إباحة الدم على الأصل"[(٢)]

وقد قرر ذلك أيضا القرطبى قائلا: "هذه الآية فيها تأمل، وذلك أن الله تعالى علق القتل على الشرك، ثم قال: "فإن تابوا". والأصل أن القتل متى كان للشرك يزول بزواله، وذلك يقتضى زوال القتل بمجرد التوبة، من غير اعتبار إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ولذلك سقط القتل بمجرد التوبة قبل وقت الصلاة والزكاة وهذا بين فى هذا المعنى، غير أن الله تعالى ذكر التوبة وذكر معها شرطين آخرين، فلا سبيل إلى إلغائهما، نظيره قوله صلى الله عليه وسلم: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة. فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله"[(٣)]

---

(١) تفسير ابن كثير ٣٣٧/٢.

(٢) تفسير الرازى ٤٠١/٤.

(٣) تفسير القرطبى ٢٩١٣. والحديث: أمرت أن أقاتل الناس.. فى صحيح البخارى ٨/١.

واضح من ذلك أن الحكم مبنى على اعتبار الشرط مجموع الأمور الثلاثة. كما أن هذا الاعتبار لا يعارضه أيضا القول بعدم قتل من لا يقيم الصلاة ولا يؤتى الزكاة دون إنكار لمشروعيتهما كما هو عند أبي حنيفة ذكر ذلك القرطبي قائلا: "قال أبو حنيفة: يسجن ويضرب ولا يقتل. وهو قول ابن شهاب وبه يقول داود بن على. ومن حجتهم قوله صلى الله عليه وسلم: " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإن قالوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها" وقالوا حقها الثلاث التى قال النبي صلى الله عليه وسلم: لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث: كفر بعد إيمان، أو زنى بعد إحصان، أو قتل نفس بغير نفس"....[١]

فظاهر ما قاله أبو حنيفة قد يفهم عدم دخول ما عطف على التوبة فى معنى الشرط، لكن إمعان النظر يكشف عن دخول إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة فيه، ذلك لأن اشتراط الثلاثة إنما هو للتخلية، وتخلية السبيل تشمل العقوبات كلها من قتل وحبس وفداء وتعزير إلى غير ذلك. فإن لم يتحقق الشرط فلا يتركون ولا يخلى سبيلهم ويكون الحكم فيهم بالقتل عند عدم التوبة ، وبغيره إن لم يصوموا أو لم يزكوا. قال أبو حيان: "والظاهر أن مفهوم الشرط لا ينتهض أن يكون دليلا على تعيين قتل من ترك الصلاة والزكاة متعمدا غير مستحل ومع القدرة، لأن انتفاء تخلية السبيل تكون بالحبس وغيره، فلا يتعين القتل".[٢]

وبهذا البيان لمعنى التخلية يتضح أن الشرط مجموع الأمور الثلاثة، ولا تخرج إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة عن مضمون الشرط إلا إذا أريد بعدم التخلية القتل، على أن هذا بُعْدٌ بمعناها اللغوى. لأن معناها الترك وإطلاق السبيل[٣]

وبهذا الاعتبار أيضا يكون إدراك معنى الشرط فى قول الله تعالى :﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (سورة التوبة٤٢)

فالشرط فى الجملة الأولى مجموع الأمرين معًا: المغنم السهل ، وعدم بعد الشقة عليهم ، وليس الشرط أحدهما دون الآخر ، " وتعليق الاتباع بكلا الأمرين يدل على عدم تحققه عند توسط السفر فقط "[٤]

---

(١) المرجع السابق نفس الموضع والحديث: لا يحل دم امرىء مسلم.. وفى صحيح مسلم ١٠٦/٥ بروايات متعددة.

(٢) البحر المحيط ١١/٥.

(٣) ينظر مختار الصحاح ١٨٩.

(٤) تفسير أبى السعود ٥/ ١٣١.

أى أن تحقق الاتباع لا يتحقق بسهولة المغنم فقط دون تحقق ما عطف عليه. وكذلك الشأن أيضا فى عدم تحققه عند عدم بعد الشقة وتوسط السفر دون سهولة المغنم، كما قال أبو السعود.

على أن تحقق تعليق الجزاء وارتباطه بمعنى المعطوفات دن بعض مع صحة المعنى عليه فى بعض الآيات لا ينفى صحة ما ذكر. ذلك لأن ما يبدو فيه صحة وقوع الجزاء مع بعض المعطوفات دون البعض إنما مرده إلى كون المعطوفات تتعاور على أداء معنى واحد، وهو الاشتراط ليترتب عليه الجزاء وذلك كما فى الآية الآتية:

قال تعالى:﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة ٢٤)

فالجزاء فى الآية وهو وقوع العقوبة التى يتربصونها لا يتوقف على وجود جميع المعطوفات الموجودة فى جملة الشرط، إذ يمكن وقوعه مع واحد منها. والوجه فى اعتبارها جميعا من جملة الشرط أمران:

الأول: أن الآية فى معرض بيان حال من يفضل شيئا آخر عن الله ورسوله وهذا يتحقق بكل واحد من المذكورات فى الآية. وهذا بخلاف قوله تعالى فى الآية السابقة: "فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم" لأن التوبة شيء يختلف عن إقامة الصلاة، وكذلك إيتاء الزكاة يختلف عنهما، فكان الجمع بينهما قصدا إلى أن تمام الشرط بهما جميعا.

الآخر: أن المعنى فى هذه الآية – والله أعلم – القصد إلى بيان الأسباب المتعددة للامتناع عن الهجرة والتى يترتب عليها الجزاء، فالمقصود المفاضلة بين عدم الهجرة والبقاء فى مكة لهذه الأسباب كلها أو بعضها على حسب حال كل واحد منهم. فقد جاء "عن ابن عباس رضى الله عنهما: هى فى المهاجرين خاصة. وكان قبل فتح مكة من آمن لم يتم إيمانه إلا بأن يهاجر ويصارم أقاربه الكفرة ويقطع موالاتهم. فقالوا: يا رسول الله إن نحن اعتزلنا من خالفنا فى الدين قطعنا أباءنا وأبناءنا وعشائرنا وذهبت تجارتنا وهلكت أموالنا وضربت ديارنا وبقينا ضائعين فنزلت فهاجروا..." (١)

فالآية قد جارتهم فيما قالوا، وذكرت مجموع ما ذكروا وتعللوا به – فالله تعالى فاضلهم بين هذه الأشياء مجتمعة كما ذكروا وبين الهجرة. على أن ذلك – والله أعلم

(١) الكشاف ١٨٠/٢.

– لا يقتضى المسامحة فيما إذا أحب الواحد منهم شيئاً واحدا مخصوصا مما ذكر كمال فقط أو ولد فقط الخ لأن الآية بمنزلة التنبيه بالأدنى على الأعلى[1] فإذا كان مجموع هذه الأشياء لا ينبغى أن تكون مانعة من الهجرة – وقد يظن العذر فى اجتماعها – فإن وجود ما هو أقل من مال فقط أو ولد فقط أو عشيرة فقط. أولى بأن لا يمنع من الهجرة. والله أعلم.

اختلاف الشرط والجزاء فى المعنى:

يتعين بحكم تعليق دخول الجزاء فى الوجود على دخول الشرط وتوقفه عليه اختلاف الشرط والجزاء فى المعنى، لكون الشىء لا يصح أن يتوقف على نفسه. ويتضح ذلك فيما يأتى:

١– قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (المائدة:٦).

فالآية مشتملة على ثلاث جمل شرطية، الجزاء فى كل منها مخالف للشرط فى المعنى فالجملة الأولى "إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا.....، يغاير الجزاء فيها الشرط كما هو واضح، لأن الوضوء بأركانه مغاير لإرادة الصلاة والقيام بها. والجملة الثانية (وإن كنتم جنباً فاطهروا...) يختلف الشرط والجزاء اختلاف النقيضين وكذلك الجملة الثالثة (وإن كنتم مرضى أو على سفر... فلم تجدوا ماء تيمموا صعيدا طيبا) يختلف الجزاء وهو التيمم عن الشرط وهو كينونتهم على الأحوال المذكورة.

٢– وقال تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ (المائدة:٢٢)

فإن الشرط وهو (يخرجوا) يختلف عن الجزاء (فإنا داخلون) فى المعنى فضلا عن اختلاف الفاعل فيهما.

(١) المراد بالأدنى الأقل مناسبة لترتب الحكم عليه والأعلى الأكثر مناسبة له. ينظر مختصر ابن الحاجب وحواشيه ١٧٣/٢.

٣- قال تعالى: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (المؤمنون:٢٨)

فالشرط وهو الاستواء واضح اختلافه فى المعنى عن الجزاء وهو الحمد.

٤- قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (الأعراف:٩٦)

فالشرط فى الآية وهو معنى الإيمان والتقوى يختلف عن الجزاء وهو فتح البركات عليهم من السماء والأرض. والجزاء كما هو واضح مسبب عن الشرط.

الاختلاف تبعا للمتعلقات:

على أنه قد يوجد بين الشرط والجزاء اتفاق فى اللفظ ويكون مرجع الاختلاف بينهما فى المعنى وجود اختلاف فى المتعلقات والقيود التى تتصل بهما. فيكون معناهما مختلفا لذلك.

٥- قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (محمد:٧)

فقد اتفق فعل الشرط وفعل الجزاء فى اللفظ لكن المعنى يختلف نظرا لاختلاف المتعلقات. ففاعل الشرط المؤمنون الذين ينصرون الله بنصر دينه وإقامته فى الأرض وفاعل الجزاء الله سبحانه وتعالى والمفعول به المؤمنون. من ثم كان اختلاف معناهما واضحا.

٦- وقال الله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾ (إبراهيم:٢١)

فاختلف الشرط والجزاء أيضا فى الفاعل والمفعول به إذ أن الفاعل للشرط (هدانا) هو الله تعالى، والمفعول به هو المتكلمون، وكذا الفاعل للجواب (هديناكم) هو المتكلمون الذين استكبروا فى الدنيا، والمفعول به الضعفاء.

وقد يتفق الفاعل والمفعول فى الشرط والجزاء ولكن يكون الاختلاف بينهما فى قيد من القيود الزائدة على الفاعل والمفعول، فيختلف الشرط والجزاء إطلاقا وتقييدا.

٧- قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ (النحل:١٢٦)

فالشرط والجزاء وإن اتحدا لفظا لكن شتان ما بين الاثنين فى المعنى، لأن الأول مطلق والثانى مقيد بكون العقاب والجزاء بمثل الفعل الأول. فالمعنى إن عاقبتم واخترتم جزاء السيئة بالسيئة فقيدوا هذا الجزاء وهذا العقاب بكونه مثلا لما عوقبتم به.

٨- وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ (النساء:١٤٢)

فقد قيد الجزاء بأن قيامهم بتكاسل وتباطؤ مراءاة ونفاقا، فاختلف الشرط والجزاء فى المعنى بهذا التقييد للجزاء.

وللمقام أهمية فى إدراك ما يتميز به كل من الشرط والجزاء من قيود وخصائص تكون مرجع التمييز والتفريق بينهما. وقد لاحظ المفسرون ذلك فى الآيات التى تنطوى على هذه الفروق عند تأويلهم لها، فقدّروا ما يناسب الغرض والسياق.

٩- قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً﴾ (الإسراء:٧) قال الواحدى: "لابد ههنا من إضمار. والتقدير: وقلنا: إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم. والمعنى إن أحسنتم بفعل الطاعات فقد أحسنتم لأنفسكم أن ببركة تلك الطاعات يفتح الله عليكم أبواب البركات، وإن أسأتم بفعل المحرمات أسأتم إلى أنفسكم من حيث أن بشؤم تلك المعاصى يفتح الله عليكم أبواب العقوبات"(١)

١٠- وقال تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ (الشعراء:١٣٠) قال أبو حيان عند تفسيرها: "وإذا بطشتم أى أردتم البطش، وحمل على الإرادة لئلا يتحد الشرط وجوابه"(٢). على أن ينبغى أن لا يتسنّن المرء بتأويله للآيات مسالك يضطرب فيها المعنى. كما كان من الزمخشرى عند تفسيره للآية الآتية.

١١- قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (الرعد:٥).

قال الزمخشرى: "وإن تعجب يا محمد من قولهم فى إنكار البعث فقولهم عجيب حقيق بأن يتعجب منه، لأن من قدر على إنشاء ما عدد عليك من الفطر العظيمة ولم يَعْيَ بخلقهن كانت الإعادة أهون شئ عليه وأيسره، فكان إنكارهم أعجوبة من الأعاجيب"(٣)

وقد اعترض عليه أبو حيان قائلاً: وليس مدلول اللفظ ما ذكر. لأنه جعل متعلق عجبه صلى الله عليه وسلم- هو قولهم فى إنكار البعث فاتحد الجزاء والشرط، إذ

---

(١) تفسير الرازى ٣٧٣/٥

(٢) البحر المحيط ٣٣/٧

(٣) الكشاف ٣٤٩/٢

صار التقدير، وإن تعجب من قولهم فى إنكار البعث فاعجب من قولهم فى إنكار البعث. لأنه تعالى هو المخترع للأشياء. ومن كان قادراً علي إبرازها من العدم الصرف كان قادراً علي الإعادة. كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الروم:٢٧)[١]

على أن الأولى والأيسر فى ذلك أن يقال: إن المعنى فى الآية الكريمة- والله أعلم بمراده- إن كان منك عجب ما فليكن عجبك هذا محصوراً فى قولهم وإنكارهم البعث، فجاء الشرط مطلقاً والجزاء مقيداً. وحسبنا فى الاختلاف بينهما ذلك.

١٢- قال تعالى ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (يونس:١١)

وللشيخ أبي السعود رحمه الله تعالى مسلك مرتضى فى تفسير هذه الآية، بين فيه اختلاف الشرط والجزاء فى المعنى، مع طريقة الإبانة عن نظائرها فى هذا الباب. قال: "واعلم أن مدار الإفادة فى الشرطية أن يكون التالى أمراً مغايراً للمقدم فى نفسه مترتباً عليه فى الوجود، كما فى قوله عز وجل ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾ (الحجرات:٧) فإن العنت- أى، الوقوع فى المشقة والهلاك- أمر مغاير لطاعته عليه الصلاة والسلام- لهم، مترتب عليها فى الوجود. أو يكون فرداً كاملاً من أفراده ممتازاً عن البقية بأمر يخصه كما فى الأجوبة المحذوفة فى مثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ (الأنعام: ٣٠) وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ ﴾ (الأنعام:٢٧) وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ ﴾ (السجدة:١٢) ونظائرها – أى لرأيت أمرا هائلا فظيعا أو نحو ذلك – وكما فى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ ﴾ (فاطر٤٥) إذا فسر الجواب بالاستئصال فإنه فرد كامل من أفراد مطلق المؤاخذة، قد عبر عنه بما لا مزيد عليه فى الدلالة على الشدة والفظاعة فحسن معرضه فى موقع التالى للمؤاخذة المطلقة. وأما ما نحن فيه من القضاء فليس بأمر مغاير لتعجيل الشر فى نفسه وهو ظاهر. بل هو إما نفسه أو جزئى فيه كسائر جزيئاته من غير مزية له على البقية، إذ لم يعتبر فى مفهومه ما ليس فى مفهوم تعجيل الشر من الشدة والهول، فلا يكون فى ترتبه عليه وجوداً أو عدماً مزيد فائدة مصححة لجعله تالياً له. فالحق أن المقدم ليس نفس التعجيل المذكور، بل هو إرادته المستتبعة للقضاء المذكور وجوداً وعدماً، كما فى قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ

---

(١) البحر المحيط ٣٦٥/٥

الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً﴾ (الكهف:٥٨) أى لو يريد مؤاخذتهم. فإن تعجيل العذاب لهم نفس المؤاخذة أو جزئى من جزئياتها. غير ممتاز عن البقية. فليس فى بيان ترتبه عليه وجوداً أو عدماً مزيد فائدة. وإنما المزية فى بيان ترتبه على إرادتها حسبما ذكر. وأيضاً فى ترتب التالى على إرادة المقدم ما ليس فى ترتبه على نفسه من الدلالة على المبالغة وتهويل الأمر، والدلالة على أن الأمور منوطة بإرادته تعالى المبنية على الحكم البالغة"[١].

التأويل لا يكون بمعزل عن السياق:

على أن حتمية مغايرة الشرط للجزاء فى المعنى وإن استلزمت تأويل ما يوهم المماثلة فى المعنى إلا أنه يجب عند التأويل أن لا يغفل السياق فى هذا التأويل لمجرد بيان مغايرة الشرط للجزاء. كما يلاحظ ذلك عند تفسير الرازى للآية الآتية.

١٣- قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (الأنفال:٢٩)

يقول الرازى: "هذه القضية الشرطية شرطها شئ واحد وهو تقوى الله تعالى. وذلك يتناول اتقاء الله فى جميع الكبائر. وإنما خصصنا هذا بالكبائر لأنه تعالى ذكر الجزاء تكفير السيئات، والجزاء يجب أن يكون مغايراً للشرط. فحملنا التقوى على تقوى الكبائر، وحملنا السيئات على الصغائر، ليظهر الفرق بين الشرط والجزاء."[٢] وهذا كلام طيب مقبول لا يعارضه سياق الآية. لكنه يعود إلى ذكر احتمال آخر للتقوى لا تساعد عليه القرائن. فيقول: "من الأجزية المرتبة على التقوى قوله: ويكفر عنكم سيئاتكم فنقول: إن حملنا قوله: إن تتقوا الله على الاتقاء من الكفر كان المراد بقوله: ويكفر عنكم سيئاتكم، جميع السيئات التى وجدت قبل الكفر. وإن حملناه على الاتقاء عن الكبائر كان المراد من هذا تكفير الصغائر."[٣]

والذي أراه أن حمل تقوى الله على الاتقاء من الكفر كما هو أحد الاحتمالين اللذين ذكرهما الرازى لا يستقيم. ذلك لأن الآية قد صدرت بما يدل على إيمانهم فنادهم بصفة الإيمان: يا أيها الذين آمنوا .. فكيف يكون المعنى يا من آمنتم إن آمنتم لكن ما يتمشى هنا مع وصفهم بالإيمان ويناسبه هو تقواهم الكبائر. والله أعلم بمراده.

---

(١) تفسير أبي السعود ٢٥٨/٥ وما بعدها

(٢) تفسير الرازى ٣٦٦/٤ وكذلك البحر المحيط ٤٨٧/٤

(٣) تفسير الرازى ٣٦٦/٤ نفس الموضع.

• طبيعة الارتباط بين الشرط والجزاء:

من المهم إدراك أن ما تقوم به أدوات الشرط من تعليق حصول الجزاء بحصول الشرط- هو إفادة أن الجزاء يحصل لحصول الشرط. لكونه لازما له. لكـــن الأداة لا تعين مصدر هذا اللزوم وإنما يستفاد ذلك من قرائن بعيدة عن الأداة. وقـــد تعـــددت جهات هذا اللزوم حسب اختلاف الأمثلة. وعلماؤنا - رحمهم الله- قـــد أشـــاروا إلى ذلك وبينوه، وأعلموا أن ضابط الارتباط أن يكون الشرط بحيث إذا فرض حاصلا لزم لحصوله حصول الجزاء. وإن تعددت جهة هذا اللزوم. وقد ذكر صاحب البرهان مقالة لصاحب المستوفى [1] جاء فيها: قال صاحب المستوفى: اعلم أن المجازاة لا يجب فيها أن يكون الجزاء موقوفا على الشرط أبدا، ولا أن يكون الشرط موقوفا على الجزاء أبـــدا. بحيث يمكن وجوده ولا أن تكون نسبة الشرط دائما إلى الجـــزاء نـــسبة الـــسبب إلى المسبب. بل الواجب فيها أن يكون الشرط بحيث إذا فرض حاصلا لزم مع حـــصوله حصول الجزاء. سواء كان الجزاء قد يقع لا من جهة وقوع الشرط، كقول الطبيـــب: من استحم بالماء البارد احتقنت الحرارة باطن جسده، لأن احتقان الحرارة قد يكون لا عن ذلك. أو لم يكن كذلك، كقولك: إن كانت الشمس طالعة كان النهار موجـــودا. وسواء كان الشرط ممكنا فى نفسه كالأمثلة السابقة، أو مستحيلا. كما فى قوله تعـــالى: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ (الزخرف:٨١)

وسواء كان الشرط سببا فى الجزاء ووصلة إليه كقوله تعالى:﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ (محمـــد:٣٦) أو كان الأمر بالعكس كقوله:﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِـــنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً﴾ (النساء:٧٩) أو كان لا هـــذا ولا ذاكَ، فلا يقع إلا مجرد الدلالة على اقتران أحدهما بالآخر، كقوله تعالى﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُـــوبِهِمْ أَكِنَّـــةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً﴾ (الكهف:٥٧)

إذ لا يجوز أن تكون الدعوة سببا للضلال ومفضية إليه، ولا أن يكون الضلال مفضيا إلى الدعوة " [2]

---

(١) قال محقق البرهان: المستوفى فى النحو لأبى سعد كمال الدين على ابن مسعود الفرعونى. ذكره صاحب كشف الظنون، ومنه نسخة خطية بدار الكتب، هامش كتاب البرهان فى علوم القرآن للزركشى، ق أبـــو الفـــضل إبراهيم ٢/٣٥٣

(٢) البرهان للزركشى ٢/٣٥٥- ٣٥٦

وهذا النص يفيد أن وجود الجزاء لوجود الشرط لسببية الشرط فيه. لكن هذه السببية قد تكون سببية حقيقية، أى دليها العقل، وقد تكون جعلية يقيمها الشارط بكلامه سواء كان مصدر هذا الشرط والسبب الجعلى الشرع أو متكلما آخر. أو أن تكون سببية بحكم العادة، أو للاقتران الخارجى فقط، بل قد يكون الارتباط بينهما واللزوم بينهما فى اعتقاد المتكلم فقط. وفيما يلى إن شاء الله – تتبع لهذه الأنواع وأمثلة لها.

•الارتباط من جهة العقل:

والمقصود به دلالة العقل على الارتباط والتلازم بين الشرط والجزاء بحيث لا ينفك هذا التلازم بينهما ويتوقف الجزاء على الشرط وجودا وعدما. وأبرز ما يستدل به على هذا النوع الآيات القرآنية التى يقع فيها فعل المشيئة شرطا لوقوع فعل فى الوجود. ويكثر مجيء فعل المشيئة مع أداة الشرط (لو) للدلالة بهذا اللزوم المفاد باشتراطها على أداء المعانى المفادة (بلو) من امتناع الشرط مدلولا به على امتناع الجزاء، أو عن طريق الدلالة بامتناع الجزاء على امتناعه.

وقل مجيئه مع (إن)، وكان مع (إذا) أقل. كما سيتضح بعد.

١- قال تعالى:﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة: ٢٠)

٢- وقال تعالى:﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ (الأنعام:١٠٧) فقد بين الله سبحانه وتعالى أن سبب شركهم أنه لم يشأ منهم الإيمان. فلو شاء ذلك منهم ما أشركوا، لكنه لم يشأ ذلك – جل وعلا.

٣- وقال تعالى:﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس:٩٩) فقد انتفى الإيمان لانتفاء شرطه وسببه وهو مشيئة الله تعالى إيمانهم.

٤- قال تعالى:﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (السجدة:١٣) فالآية تبين أن علة امتناع هداية كل الناس امتناع شرط ذلك وسببه هو المشيئة. – ومن أمثلة إن وإذا.

٥- قوله تعالى:﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ (البقرة: ٧٠) فتعليق الهداية بمشيئة الله تعالى بمعنى أن الهداية لا تقع إلا بها فيدور الجزاء مع الشرط وجودا وعدما. (١)

---

(١) انظر حاشية الشهاب على البيضاوى ١٨١/٢

على أن لأبي حيان كلاما يفيد عدم خلوص الشرط فى الآية لمعنى التعليق، وأنهم قد جاءوا به على وجه الأدب، وعلل ذلك بإخبارهم على وجه التأكيد بثبوت الهداية قال:" ولم يأتوا بهذا الشرط إلا على سبيل الأدب مع الله تعالى. إذ أخبروا بثبوت الهداية لهم، وأكدوا تلك النسبة. ولو كان تعليقا محضا لما احتيج إلى تأكيد. ولكنه على قول القائل: أنا صانع كذا إن شاء الله- وهو متلبس بالصنع. فذكر إن شاء الله - على طريق الأدب." [1] لكن هذا لا يسلم لأبي حيان. لأن هدايتهم لم تقع بالفعل. وإنما كانوا ينتظرونها، ويدل على ذلك كثرة سؤالهم للوصول إلى ما أمروا به وإن كانوا شددوا على أنفسهم. والشأن فى المثال الذى مثل به كالآية، لأنه لم يتم فيه الصنع حتى يستوثق من نفسه صنعا، ولا يستوثق تمام الصنعة والانتهاء منها إلا كافر، وبون واسع بين الكفر والتعليق على مشيئة الله. كما أن التأكيد بوقوع الهداية مسبوق بالشرط، وهذا دليل على تعليق الهداية مؤكدا الإخبار بها على شرط المشيئة والله أعلم.

٦- قال تعالى:﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيراً﴾ (النساء:١٣٣) فجواب المشيئة يتوقف عليها وانتفاء الشرط يقتضى انتفاء الجزاء بحكم هذا اللزوم كما أن وجوده يستلزم وجود الجزاء.

٧- قال تعالى:﴿وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً﴾ (الإسراء:٨٦) فالآية الكريمة تبين قدرة الله تعالى على إذهاب ما أنزله، وأن ذلك راجع إلى مشيئته جل وعلا. قال الرازى:"اعلم أنه تعالى لما بين فى الآية الأولى أنه ما آتاهم من العلم إلا قليلا، بين فى هذه الآية أنه لو شاء أن يأخذ منهم ذلك القليل أيضا لقدر عليه، بأن يمحو حفظه من القلوب وكتابته من الكتب. وهذا وإن كان أمرا مخالفا للعادة إلا أنه - تعالى - قادر عليه" [2]

٨- قال تعالى:﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً﴾ (الإنسان:٢٨) فالآية الكريمة تبين قدرة الله تعالى وأنه لا يقع شىء إلا بإرادته ومشيئته، فبقاؤهم راجع إليه، وتبديلهم - أيضا - راجع إليه - جل شأنه.

على أنه ينبغى إدراك أن التلازم العقلى يحتاج إلى دقة النظر للوصول إليه، إذ قد يغيب عن بعض الأفهام فيظن أن جهة التلازم ليست عقلية. وإنما هى من جهة أخرى كالعادة مثلا. مثال ذلك خفاء التلازم بين بذل الجهد والطاقة لتأليف القلوب وبين عدم حصول ذلك نتيجة لهذا الاتفاق، لكون التأليف راجعا إلى الله تعالى.

---

(١) البحر المحيط ١/٢٥٤

(٢) تفسير الرازى ٥/٤٤٥

ويوضح خفاء هذا التلازم عند البعض لعدم إمعان النظر مع وضـوحه عنـد النظر الدقيق ما ذكره ابن كثير عند تفسيره قول الله تعالى:﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُـوبِهِمْ لَـوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْـنَهُمْ إِنَّـهُ عَزِيـزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال:٦٣) قال ابن كثير :"قال أبو عمرو الأوزاعي: حدثني عبدة ابـن أبي لبابة عن مجاهد ولقيته فأخذ بيدي، فقال: إذا التقى المتحابان في الله فأخذ أحدهما بيـد صاحبه وضحك إليه تحاتت خطاياهما كما تحات ورق الشجر. قال عبدة: فقلت له: إن هذا ليسير. فقال: لا تقل ذلك فإن الله يقول:﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَـا فِـي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّـفَ بَيْـنَهُمْ إِنَّـهُ عَزِيـزٌ حَكِـيمٌ﴾ (الأنفال:٦٣) قال عبدة: فعرفت أنه أفقه مني " (١)

فأفقهية مجاهد وألمعيته راجعة إلى إدراك هذا التلازم العقلي بين شـرط (لـو) وجزائها. والذي قد يخفى على بعض العقول.

• **الارتباط الجعلي**:

ويعني بهذه الجهة الارتباط والتلازم الذي ينشئه المتكلم بالشرط، بحيث يـصير الشرط سببا جعليا من المتكلم يترتب عليه الجزاء.

وهذه الجهة تتنوع أمثلتها إلى نوعين حـسب الـشارط المنـشيء للتعليـق والارتباط. لأنه قد يكون مصدر هذا الارتباط الشارع، بأن يكون الله تعالى هو الـذي علق الجزاء على الشرط وعقد سببية الشرط في الجزاء ويسمى هذا النـوع بالـشرط الشرعي لأن الجهة التي أنشأته الشارع الحكيم.

وقد يكون الشارط واحداً من الناس فيعلق الجزاء على الشرط ويجعل الشرط سبباً في الجزاء ويسمى هذا النوع شرطاً جعلياً.

والنوعان وإن اتفقا في كونهما جعليين إلا أن التخصيص للأول بأنـه شـرعي تمييز لما يكون من الله تعالى عما يكون من غيره، لكون الشروط التي من جهة الـشرع للجعل فيها سند من العقل.

أما ما هي من غير الشرع فقد يكون الربط إنشاء من المتكلم به، وإقامة منـه لهذا التلازم.

وفيما يلي بعض الشواهد للنوعين. على أن استيعاب جميع شـواهد النـوعين محقق في الفصول التالية تحت التقسيمات والأحوال المبينة فيها.

(١) تفسير ابن كثير ٣٢٤/٢

النوع الأول (الشرط الشرعي)

وهو ما يشمل بيان حكم من الأحكام الفقهية المتعلقة بالعبادات والمعاملات، أو بيان آداب وأخلاق يلتزم بها المسلم في سلوكه الاجتماعي بينه وبين الناس، وشواهد ذلك في القرآن الكريم كثيرة.

- شروط للتشريع وبيان الأحكام:

من أمثلة ذلك ما يأتي:

١. قال الله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلا تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذىً مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (البقرة: ١٩٦)

فالآية الكريمة تشتمل على بيان حكم الإحصار والمنع من الحج أو العمرة، وجاء فيها بيان الحكم عن طريق أسلوب الشرط.

ومن قبيل بيان الأحكام الآيات المتعلقة بالطلاق.

٢. قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٢٦ - ٢٢٧)

ففي هاتين الآيتين بيان حكم الإيلاء. ثم تتابع الآيات بعد ذلك بيان حكم العدة وما يتعلق بالمرأة من الإثم عند كتمانها ما في بطنها وبيان أحقية إرجاع الزوج لها. وبيان عدد الطلاق الرجعي منه والبائن، ويأتي في سياق هذه الآيات بيان الأحكام عن طريق أساليب الشرط.

٣. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٨٢)

فالآية الكريمة تبين حكم المداينة للمسلمين وما يترتب على ضعف الذى عليه الحق أو سفهه.. وتستقصى الآية الكريمة جميع الأحكام المتعلقة بذلك على طريقة أساليب الشرط.

٤. ومن ذلك آيات المواريث. قال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾ (النساء: ١١)

وكذلك يلاحظ بيان بقية أحكام المواريث عن طريق أسلوب الشرط فى الآية بعدها والآية أخر السورة.

٥. ومن قبيل ذلك قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (المائدة: ٦)

٦. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ *الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (الأنفال ٦٥ ، ٦٦)

فقد بين الشرط فى الآية الأولى (إن يكن منكم عشرون صابرون...) حكم وجوب الثبات من المؤمنين عند لقاء الكافرين، بأن يثبت الواحد منهم للعشرة لا يفر منهم.

ثم بين الشرط فى الآية الثانية (فإن يكن منكم مائة صابرة....) وجوب ثبات الواحد للاثنين بعد أن خفف الله عنهم لضعفهم.(١)

٧. قال تعالى: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة: ٥)

---

(١) ينظر تفسير الطبرى ٣٨/١٠، والكشاف ١٧٦/٢، وابن كثير ٣٢٥/٢

فقد بين الشرط الأول (فإذا انسلخ الأشهر الحرم....) وجوب قتال المشركين بعد انتهاء الأشهر الحرم وعدم إبقائهم فى بلاد الإسلام.

كما بين الشرط الثانى (فإن تابوا.....) حكم التخلية لسبيلهم عند تحقق الشرط وهو توبتهم.. والله أعلم.

• شروط لبيان آداب وأخلاق إسلامية:

ومن شواهد ذلك ما يأتى:

١. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (البقرة:١٧٢) فالآية الكريمة تبين أن مقتضى الشرط وهو العبادة أن يأكل المؤمن من الطيب ويشكر الله على ذلك.

٢. وقال الله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً﴾ (النساء:٨٦) ففى الآية بيان آداب التحية عن طريق أسلوب الشرط.

٣. وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (النحل:٩٨) فقد بينت الآية أدباً من آداب قراءة القرآن الكريم بأسلوب الشرط.

٤. وقال تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً﴾ (الأحزاب:٣٢) فالآية بينت ما يقتضيه الإيمان والتقوى ــ من عدم لين الحديث من نساء النبى ومن المسلمات قطعاً لوساوس الضعفاء والمرضى.

٥. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (الحجرات:٦) فالآية بينت خلق المؤمنين عند تلقيهم الأخبار —خاصة من المنافقين— بأسلوب الشرط.

النوع الثانى: جعل السببية من غير الشارع:

وهذا النوع يكون الشارط فيه واحداً غير الله تعالى. وقد حكى القرآن الكريم كثيراً من أمثلة هذا النوع. منها على سبيل المثال لا الحصر الآيات الآتية:

١. قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ (المائدة:٢٢) فقد جعلوا خروج الجبارين شرطاً لدخولهم الأرض المقدسة.

٢. وقال تعالى: ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً﴾ (الكهف: ٧٠) فقد جعل اتباعه له سبباً فى عدم سؤاله عن شئ.

٣. وقال تعالى: ﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً﴾ (الكهف:٧٦) فقد رتب على تكرار سؤاله عدم مصاحبته، وجعل السؤال شرطاً وسبباً يترتب عليه ما بعده.

٤. وقال تعالى: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً﴾ (مريم:٤٦) فقد رتب آذر على عدم انتهاء إبراهيم عن دعوة الإسلام أن يرجمه، وجعل عدم انتهائه سبباً فى ذلك.

٥. وقال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (القصص : ٢٧) فقد رتب شعيب عليه السلام عرفانه للجميل على إتمام موسى عليه السلام الحجج إلى عشر، وبأنه تفضل منه، كما جعل مشيئة الله سبباً فى صلاحه.

الارتباط فى العادة:

وهو ما تكون جهة الحكم بالارتباط بين الشرط والجزاء العادة المشاهدة. بأن يكون الجزاء من لوازم الشرط بحكم ما يطرد وقوعه عادة فى حياة الناس. وليس مصدر هذا التلازم العقل أو الشرع أو جعل المتكلم الشرط سبباً فى الجزاء.

ويلاحظ هذا الارتباط فيما يأتى من آيات.

١. قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (البقرة:٨٥)

فالآية الكريمة تحدثنا عن عادة اليهود، وتحريفهم الكتاب بعملهم ببعض ما فيه دون الآخر، وأنهم يتظاهرون بإخراج فريق منهم وإيذائهم، ثم هم لو وجدوهم فى أسرٍ جدوا فى فكاكهم، وأن هذه عادتهم وطبيعتهم. ويلاحظ فى الآية مجئ الفعل مضارعاً إشارة إلى تكرر ذلك منهم وتجدده وأنه لا يحصل مرة ثم ينقطع، وفى الآيات الآتية بيان لعادة فريق الكفر والنفاق:

٢. قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ (النساء:٨١) فهم يظهرون خلاف ما يبطنون وهذه عادتهم وديدنهم. ومن باب هذا النفاق أيضاً ما تحكيه الآية الآتية:

٣. قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ (النساء:١٤٢)

فعادقم أنهم إذا نودى للصلاة وقاموا إليها قاموا متراخين متكاسلين. ولولا حرصهم على نفاقهم وخداعهم ما قاموا إليها. ولكنهم تعودوا على ذلك بما جلبوا عليه من خسة الطبع. وطبع القلب على النفاق.

٤. قال تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ﴾ (المائدة:٥٨) أى قاموا إليها هازئين غير جادين.

٥. قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ (المائدة:٦١) أى أن عادقم وديدنهم إظهار الإيمان للرسول صلى الله عليه وسلم، لكنهم يبطنون كفرا فى نفوسهم، وإن خرج غيرهم بالإيمان واستجابوا للرسول خرجوا هم دون غيرهم بالكفر والعصيان.

٦. قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ (التوبة:٥٨) فقد تعودوا على أن يرضوا بالعطاء وعلى السخط إن منعوا، وترتب الجزاء على الشرط فى الجملتين واضح إلا أن مجئ الجواب الثانى بإذا الفجائية إشارة إلى سرعة غضبهم وسخطهم، وأنهم إلى الشر واللمز أسرع. ويحدث الله تعالى عن الكافرين وعنادهم وإعراضهم.

٧. يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ (الأنعام:١٢٤) والمعنى- والله أعلم بمراده- أنه كلما جاءهم آية تدفعهم إلى الإيمان رفضوا ذلك وتعللوا بعلل باطلة. ورغبوا عن الإيمان رغبة فى قسمتهم رحمة الله، لعنهم الله وأخزاهم.

٨. قال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف:٢٨) قال أبو حيان: "إخبار مستأنف عن هؤلاء الكفار بما كانوا يقولون إذا ارتكبوا الفواحش"[١] أى أن هذا دأبهم وتلك عادقم كلما فعلوا فاحشة تعللوا بعلل كاذبة.

٩. قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ (القمر: ٢) أى أن الكافرين يرون كل يوم آية على صدق الرسول عليه الصلاة والسلام، ولكنهم يستمرون على إعراضهم، ويتجدد منهم صلفهم وعنادهم. وفى جانب الإيمان نرى من عادات أصحابه ما يكشف عن أهليتهم للطاعة وصدق ضمائرهم وإخلاصهم لله.

---

(١) البحر المحيط ٢٨٥/٤

١٠. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران: ١٣٥) فالآية تشير إلى طبيعة الإنسان وأنه خطاء لكن المؤمن إذا ما تذكر الله عند المعصية استغفر الله وأناب إليه ولم يبق على ذنبه، وامتلأت قلوبهم خشية ورهبة، ولجأوا إلى الله ذاكرين تائبين.

١١. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (المائدة: ٨٣)

وهذا إخبار من الله تعالى بما يقع من بعض القسيسين والرهبان كما كان من النجاشي حين تلى عليه القرآن، والإتيان بالحوادث التى وقعت فى الزمن الماضى فى صورة جملة الشرط يشعر بإمكان وقوع ذلك مستقبلاً ممن هم على شاكلة إخوانهم السابقين فى الفهم والتدبر والوصول إلى الحق، والإيمان بالقرآن والرسول. ويساعد على كون الآية تخبر عن عادتهم- أى فريق الطاعة منهم- عند ذلك مجئ الجزاء فعلاً مضارعاً إشارة إلى أن ذلك يتجدد منهم دائماً. وأن الله يزرع فى قلوب بعض عباده نبتة الخير مما يهيئ المدد المستمر لبقاء دين الله فى الأرض.

مجرد الاقتران فى الخارج:

لا يتعين أن يكون الشرط علة فى وجود الجزاء بل يكتفى فيه بأن يكون الارتباط بينهما مجرد اقترانهما فى الخارج. ولذلك رأى السيد فى كلام النحويين بأن كلمة المجازاة تدل على سببية الأول ومسببية الثانى أن معناه: إن القصد فى الشرط هو الارتباط بين الشرط والجزاء بدون تعين أن يكون الشرط علة فى الجزاء لأن ذلك غالب وليس لازماً مطرداً[1]، لأن "الشرط النحوى فى الغالب ملزوم والجزاء لازم"[2] ومعنى اقترانهما فى الخارج أن يكون مدلول الجزاء موجوداً قبل وجود الشرط وإنشاء التعليق النحوى. وأن الجزاء لا يتوقف على الشرط كما لا يترتب عليه.

اختلاف الارتباط فى العادة عن الاقتران فى الخارج:

ولذا يختلف الارتباط العادى عن الاقتران فى الخارج من حيث كون الارتباط عادة يكون لسببية الشرط فى الجزاء. أما عند الارتباط خارجاً فليست بينهما علاقة السببية. كذلك يكون مدلول الجزاء واقعاً قبل وقوع الشرط بخلاف الارتباط فى العادة. وتكثر أمثلة الاقتران خارجاً فى القرآن الكريم وأكثر وجودها فى الأمثلة التى

---

(١) تنظر حاشية السيد على المطول ١٥٣.

(٢) المطول ١٦٤

تكون فيها الأداة (لو) لإفادة معناها الثالث وهو كون الجزاء موجوداً مع عدم الشرط، لأن وجود الجزاء مع نقيض الشرط أولى كما سيتضح ذلك فى محله فى الاشتراط بلـــو. فمن ذلك:

١. قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّــي إِذاً لَّأَمْــسَكْتُمْ خَــشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإنسَانُ قَتُوراً﴾ (الإسراء : ١٠٠) فإن إمــساكهم لا يترتــب علــى امتلاكهم الخزائن لأن تحققه مع عدم امتلاكها أولى.

٢. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (لقمان : ٢٧) فــإن عــدم نفــاد الكلمات ثابت اتخذت الأشجار أقلاماً والبحار مداداً أولاً. ومن غير (لــو) الآيــات الآتية:

٣. قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِــنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ١٤٥)

فجملة الشرط الأولى (ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك) يدرك منها مجرد الاقتران الخارجي بين الشرط والجزاء، لأن الإتيان بكل آية شأنه أن يستتبع الاتباع لكنهم ما تبعوا. كما أن عدم اتباعهم ثابت من قديم، وليس ناشئاً ومترتباً على الإتيان بكل آية.

٤. قال تعالى: ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (المائدة: ٢٨)

فإنه إذا كان عدم بسط يده إليه مقارناً لبسط المعتدي يده إليه كان عدم بسطها قبــل ذلك أولى. فهو لم يبسط يده فى جميع الأحوال، ولم يترتب الجزاء فى الآية على الشرط فيها. وإلا لكان المعنى أنه كان يبسط يده لقتل أخيه، فلما بسط أخوه يده إليه لقتلــه منع هو يده، وكيف يكون ذلك مع قوله: إنى أخاف الله رب العالمين، والخوف قبــل ذلك أولى؟ بل لأن الظلم والعدوان فيه محقق يخاف منه، أما فى الثانية فــلا يكــون إلا بمجاوزة الحد عن الدفاع عن نفسه. والله أعلم.

٥. قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَــا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعــام: ١٠٩) فالجملــة الشرطية الثانية (إذا جاءت لا يؤمنون) يدرك فيها معنى الاقتران فى الخارج. إذ لا سببه للشرط فى الجزاء، لأنهم لطبيعتهم لا يؤمنون فلا ينشأ عدم الإيمان عن مجئ الآيات التى يطلبونها، وإلا كان المعنى أنهم يؤمنون فإذا جاءت لم يؤمنوا وهذا واضح الفساد.

٦. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً﴾ (الكهف: ٥٧)

فعدم اهتدائهم ثابت وموجود قبل دعوة الرسول لهم ولم يترتب عليه ترتب المسبب على السبب وإنما اقترنا فى الخارج مع سبق الجزاء وجوداً.

قال الزمخشرى: "وإذا جزاء وجواب فدل على انتفاء اهتدائهم لدعوة الرسول، بمعنى أنهم جعلوا ما يجب أن يكون سبب وجود الاهتداء سبباً فى انتفائه، وعلى أنه جواب للرسول على تقدير قوله: ما لى لا أدعوهم حرصاً على إسلامهم؟ فقيل: وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا"[١] على أمن معنى الانتفاء عدم الوجود من أصلة لا أنه كان موجوداً ثم انتفى.

إشارة القرآن إلى الاقتران الخارجي:

والناظر فى القرآن الكريم يلاحظ إشارته إلى معنى الاقتران بين الشرط والجزاء والاكتفاء به دون اعتبار سببية حقيقية للشرط فى الجزاء، وذلك كما فى الآية الآتية:

٧. قال تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاء عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ﴾ (الأعراف: ١٩٣) فالآية تخبر أن الأصنام التي اتخذوها عباداً من دون الله لا تملك لهم نفعاً ولا ضراً، لأنها لا تملك اختيار النفع لها، فلو دعيت إلى خير وهدى ما سمعت وما اتبعت. وعدم اتباعها الداعي والمؤمنين بها ثابت دائم. وأكد ذلك وبينه قوله تعالى: سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون) أى أن الجزاء وهو عدم الاتباع موجود مع الشرط ونقيضه.

ومن أقوى الأدلة على معنى الاقتران دون سببيه الشرط فى الجزاء أن الشئ لا يكون مسبباً عن نقيضين، لكن لا يمتنع وجوده مع النقيضين خارجاً دون تأثير النقيضين فيه. وبهذا يندفع ما حكاه أبو حيان عن بعض النحويين إخراجهم الجملة الشرطية عن حقيقة الشرط لأن النقيضين لا يبقيان على معنى الشرط بل يتحولان إلى معنى التسوية[٢] فى الآية الآتية:

٨. قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَـكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الأعراف: ١٧٦)

---

(١) الكشاف ٤٨٩/٢

(٢) ينظر البحر المحيط ٤٢٤/٤

ذلك لأن بقاء الشرط فى الآية لا يعارضه معنى التسوية ليؤول المعنى إليها، بل إن التسوية دليل الربط لمجرد الاقتران فى الخارج. ويصح اعتبار الشرط ما دام الجزاء يصح وجوده مع وجود الشرط وإن صح وجوده أيضاً مع نقيضه مصرحاً به فى أسلوب شرط كما فى الآية أم غير مصرح به كما فى الآيات السابقة.

طبيعة المعنى فى أمثلة الاقتران:

والذى يلحظ فى أمثلة هذا النوع أن الجزاء يكون أولى بنقيض الشرط، وأنه ثابت مستقر لا يتغير حتى وإن افترض وقوع الشرط. ولذلك يوجد فى الأمثلة التى يؤتى فيها بالمستحيل فيكون وجوده مع عدمه أولى ومن أمثلة ذلك الآيات الآتية:

٩. قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة:١٤٥)

فالجملة الشرطية الأولى (ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك) طبيعة الارتباط فيها بين الشرط والجزاء هو مجرد الاقتران فى الخارج، لأنه لا سببية للشرط فى الجزاء، لأن شأن الإتيان بكل آية أن يستتبع ما يناسبه وهو الاتباع، لكنهم ما تبعوا ولئن يتبعوا فليسوا متبعين قبل المجئ، وينتفى على فرض المجئ بكل آية الذي هو مستحيل لأن آيات الله لا تنفد.

١٠. ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (الأنعام:٢٥)

فالشرط فى الآية مستحيل الوقوع وهو رؤيتهم كل آية لكونها كثيرة غير متناهية ذلك لأن "ما سوى الله تعالى فهو آيات وجود الله تعالى وآيات صفات جلاله وإكرامه وكبريائه، وآيات وحدانيته. وما سوى الله لا نهاية له وما لا نهاية له لا سبيل للعقل للوقوف عليه على التفصيل التام....[١]" فالآية تبين سوء حالهم وأنهم يبقون على الكفر وعدم التصديق حتى لو فرض وجود المستحيل. قال أبو حيان: "ومقصود هذه الجملة الشرطية الإخبار عن المبالغة التامة والعناد المفرط فى عدم إيمانهم حتى إن الشئ المرئي الدال على صدق الرسول حقيقة لا يرتبون عليه مقتضاه، بل يرتبون عليه ضد مقتضاه".[٢]

---

(١) تفسير الرازى ٥٢/٤

(٢) البحر المحيط ٩٨/٤

١١. ومن قبيل ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ (الزخرف:٨١) فالشرط هنا مستحيل الوقوع وقد جاء الجزاء المفيد للعبادة. لا على معنى أن عبادته تتوقف على الشرط، وإنما للإفادة بأن عبادته لله تعالى باقية فى جميع الأحوال فلو فرض المستحيل واقعاً لصادف ذلك بقاء عبادته عليه الصلاة والسلام لربه – تعالى وتنزه عما يقولون. قال ابن كثير: "لو فرض هذا لعبدته على ذلك، لأنى عبد من عبيده مطيع لجميع ما يأمرنى به. ليس عندى استكبار ولا إباء عن عبادته. فلو فرض هذا لكان هذا. ولكن هذا ممتنع فى حقه تعالى."(١)

فالآية تشير إلى تحقق العبادة منه عليه الصلاة والسلام على جميع الأحوال، فلو وجد الشرط لم يكن وجود الجزاء مرتباً عليه وإنما لمجرد الاقتران خارجاً.

صور يقدر فيها الجواب:

وإنعام النظر فى الأمثلة السابقة يكشف أنه يتعين فيها اعتبار الجزاء المذكور الجزاء فى المعنى، لأنه هو المرتبط بالشرط بحكم هذا الاقتران فى الخارج، لكن فيه من صور الشرط ما يأتى الجزاء فيها شيئاً آخر فلا يكون مسبباً عن الشرط. ذلك لأن الأمثلة السابقة يحمل المعنى فيها على جعل الشرط سبباً فى الجزاء، أى على تقدير أن يقع الجزاء مرتباً على الشرط مع عدم وقوعهما وفرض هذا الوقوع وتقديره. لكن ثمة صور أخرى لا يتصور أن يكون الشرط علة فى الجزاء، لذا يتعين فيها تقدير الجزاء واعتبار ما هو جزاء من ناحية الصناعة النحوية حالاً محل جواب مقدر ألجأ إلى تقديره كون المذكور لا يصح أن يكون مرتباً على الشرط وكون الشرط سبباً فيه. والزركشى قد ذكر بعض الشواهد من هذا النوع فى سياق حديثه عما يمكن أن يعترض به ويرد على كون الأصل فى الشرط والجزاء أن يترتب الجزاء على الشرط. قال: "وقد أورد على هذا آيات كريمات: منها قوله تعالى: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ (المائدة:١١٨) وهم عباده عذبهم أو رحمهم وقوله : ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (المائدة:١١٨) وهو العزيز الحكيم، غفر لهم أو لم يغفر لهم. وقوله: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ (التحريم:٤) وصغو القلوب هنا لأمر قد وقع، فليس بمتوقف على ثبوته. والجواب: أن هذه فى الحقيقة ليست أجوبة، وإنما جاءت عن الأجوبة المحذوفة لكونها أسباباً لها."(٢)

---

(١) تفسير ابن كثير ١٣٧/٤

(٢) البرهان للزركشى ٣٥٤/٢، ٣٥٥.

على أن تتبع هذا النوع من الأمثلة وحصرها فى القرآن الكريم، ودراسة مقاماها وسياقتها المختلفة لتقدير الجواب المناسب أمر جليل الشأن، لأنه يجلى أمثلة هذا النوع ببيان الأغراض المختلفة التى تكمن وراء حذف الجواب وكذلك طبيعة الصلة بين الجواب المقدر المدلول عليه بما ذكر فى الكلام وبين ما يدل عليه من جواب مذكور.(١) كما أنه يخرج بأمثلة هذا النوع من تلافيف التقديرات الكثيرة الملبسة التى يخفى فيها المعنى المراد. لأن المتتبع لأقوال المفسرين فى تأويلها يلاحظ أمرين:

الأول: كثرة التأويلات والاحتمالات المتعددة التى يسوقوها كثيرة يخفى بها ما يقصدون، ويصعب تحديد الجواب فيما يقولون. وسأسوق شاهداً واحداً على ذلك وهو ما ذكر فى تأويل الآية الآتية:

١١- قال تعالى: ﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ (الرعد: ٤٠)

يحكى أبو حيان عن العلماء أنهم قدروا جوابين للشرطين الموجودين فى هذه الآية الكريمة. لكون المذكور وهو قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ لا يترتب عليهما. قال: "وذلك أن يكون التقدير -والله اعلم- إن ما نرينك بعض الذى نعدهم به من العذاب فذلك شافيك من أعدائك، ودليل على صدقك، إذا أخبرت بما يحل هم ولم يعين زمان حلوله فاحتمل أن يقع ذلك فى حياتك، واحتمل أن يقع هم بعد وفاتك (أو نتوفينك) أو إن نتوفينك قبل حلوله هم فلا لوم عليك ولا عتب إذ قد حل هم بعض ما وعد الله به على لسانك من عذاهم، فإنما عليك البلاغ لا حلول العذاب هم، إذ ذاك راجع إلىَّ وعلينا جزاؤهم فى تكذيبهم إياك وكفرهم بما جئت به"(٢). ففى هذا الكلام ما يدل على صحة ما ذهبت إليه. من كونهم قد بالغوا فى التقديرات المتعددة للوصول إلى المعنى دون طائل وراءه.

الآخر: ما يلاحظ من اختلافهم فى تقدير جواب حل محله الجواب المذكور وهو الرأى. وفى ترك هذا التقدير واعتبار المذكور جزاء قد قارن الشرط خارجاً. وهو أى ترك التقدير كما أوضحت مدفوع لكونه لا يترتب على الشرط المذكور. ومثاله ما ذكروه عند تفسير الآية الآتية:

١٢- قال تعالى : ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ (يونس: ٤٦) فيذهب الزمخشرى إلى تقدير جزاء للشرط وعدم اكتفائه بالمذكور قائلاً: "جواب نتوفينك وجواب نرينك محذوف. كأنه قيل: وإما

---

(١) لا شك ان باب القول فى هذا متسع يستحق أن يفرد ببحث يتناوله، وإنه ليطول به هذا البحث.

(٢) البحر المحيط ١٦٤/٥

نرينك بعض الذى نعدهم فى الدنيا فذاك. أو نتوفينك قبل أن نريكه فنحن نريكه فى الآخرة" [1].

ويعارضه أبو حيان معتبراً المذكور جزاء للشرط دون تقدير لجزاء محذوف قائلاً: "جعل الزمخشرى الكلام شرطين لهما جوابان. ولا حاجة إلى تقدير جواب محذوف. لأن قوله: فإلينا مرجعهم صالح أن يكون جواباً للشرط والمعطوف عليه..." [2] وواضح أن كلام أبي حيان هنا بعدم تقدير جواب محذوف يخالف ما قرره من تقدير جواب فى الآية التى ذكرها قبل هذه الآية. وهو مما يؤكد القول بأهمية متابعة الآيات التى من هذا القبيل، وتحليل عناصر المقام والسياق للوصول إلى الجواب المحذوف.

• الارتباط فى اعتقاد المتكلم:

ويتحقق هذا النوع فى الشواهد التى يكون الارتباط بين الشرط والجزاء غير صادر من جهة العقل أو الشرع أو العادة أو أن يقترنا وجودا فى الخارج.
وإنما يكون الارتباط من جهة كون المتكلم يعتقده.

وبتتبع أمثلة هذا النوع وجدته أتى فى القرآن الكريم مع إن، ولو، ولم يأت مع (إذا) ولعل السر فى ذلك كون (إذا) للمتيقن المعلوم وما يعلم وقوعه. تدل عليه شواهد كثيرة من حيث ما يترتب عليه خاصة من جهة العادة المشاهدة فلا يتهيأ أن يكون الارتباط فى الاعتقاد الكاذب محلا للاشتراط بإذاً.

ولما كان الشرط مع (إن) محتمل الوقوع صح وأمكن بناء الشرط فى اعتقاد المتكلم القائم على الارتباط فى نظره، وذلك كما فى الآية الآتية التى تحدثنا عن نظرة الكافرين المعاندين إلى ما يترتب على اتباع الرسل .

١. قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ﴾ (سورة الأعراف، ٩٠)

فالكبراء يعلقون لأتباعهم الخسران على اتباع شعيب وهذا اعتقاد كاذب لا شك فيه. ولا شك أن الشرط هنا غير مجزوم به، ولذلك جوزوا أن يرتبوا عليه الخسران، فهم لم يجعلوا من فلاح غيرهم دليلا على فلاحهم إن اتبعوه عليه السلام.

وأمثلة هذا النوع بطريق الأداة (لو) تتنوع فى الدلالة على المراد إلى نوعين كما هو معروف فى استعمالاتها.

---

(١) الكشاف ٢/٢٣٩

(٢) البحر المحيط ٥/١٦٤

الأول: أن يكون قصد المتكلم بالربط بين الشرط والجزاء إفادة علة انتفاء الشرط، وذلك كما فى الآيات الآتية:

٢. قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ باللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (سورة آل عمران، ١٥٤)

فاعتقاد الكافرين بأنه لو كان لهم رأى فى الحرب ما حصل لهم ولأهليهم قتل. ولذلك كذبهم الله تعالى بقوله:﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ﴾.

٣. ومثلها أيضا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (سورة آل عمران، ١٥٦)

٤. وقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾(سورة آل عمران، ١٦٨).

٥. وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (سورة الأنفال، ٣١).

وقد ربط هؤلاء المعاندون بين مشيئتهم وبين القول بمثل القرآن، وعللوا بأنهم لم يقولوا مثله، لأنهم لم يشاءوا ذلك عنادا منهم وإخفاء لعجزهم وقهرهم.

الآخر: أن يكون قصد المتكلم بإقامة الارتباط بين الشرط والجزاء حسب اعتقاده. الاستدلال بأن امتناع الجزاء دليل على امتناع الشرط. وذلك فيما يأتى:

٦. قوله تعالى: ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ (سورة المؤمنون، ٢٤).

فالتلازم بين الشرط وهو المشيئة أى مشيئة إرسال الرسل وبين الجزاء. وهو أن تكون الرسل ملائكة فى اعتقاد المتكلمين بذلك، الذين يعاندون الأنبياء ويصدون عن دعوتهم، وقد جعلوا هذا الربط للاستدلال به على عدم إرسال الرسل وإبطال دعوة

المرسلين، لأن انتفاء إرسال الملائكة وهو لازم مشيئة الإرسال فى نظرهم يدل على انتفاء الملزوم، وهو المشيئة فيثبت لهم ما يقولون على حسب اعتقادهم الباطل.

٧. وقال تعالى:﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ (سورة الأحقاف: ١١)

فقد استدلوا– قاتلهم الله– باتباع الفقراء للرسول على عدم خيرية هذا الدين، بإقامة الربط بين الخيرية للدين وعدم إتباع الفقراء. والله أعلم.

• الشرط والجزاء فعلان:

لما كان الشرط علة وسبباً فى وقوع الجزاء، والشأن فى الأسباب والعلل تجددها وحصولها لتحصل مسبباها– اقتضى ذلك أن يكون الشرط فعلاً. وامتنع كونه اسماً لأن الأسماء بحكم ثبوتها لا تحتمل تعليق وجود غيرها على وجودها، سواء نظر إلى الاسم فقط الواقع بعد الأداة، أو إلى الجملة كلها لأنها اسمية تفيد الوقوع قال العلوى: "واعلم أن جميع الشروط كلها مختصة بالأفعال لأنها تتجدد والأفعال متجددة. فلا جرم ناسب معناها الفعل فاختصت به "[1]

وبناء على ذلك يلزم تقدير فعل بعد الأداة فى كل ما يأتي فيه الاسم بعد الأداة فى اللفظ كما فى قوله تعالى: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ (سورة النساء، ١٢٨)

فيلزم تقدير فعل بعد الأداة يفسره الفعل المذكور. والتقدير: وإن خافت امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا....

ونظيرها قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة التوبة، ٦)

أى وإن استجارك أحد من المشركين استجارك.... ولابد أن يكون هذا العدول إلى مجيء الاسم بعد الأداة لغرض ونكتة، والنكتة فى ذلك هى الاهتمام به، قال عبد القاهر فى نكتة التقديم: "واعلم أنا لم نجدهم اعتمدوا فيه شيئا يجرى مجرى الأصل غير العناية والاهتمام قال صاحب الكتاب [2] وهو يذكر الفاعل والمفعول: كأنهم يقدمون الذى بيانه أهم لهم، وهم بشأنه أعنى. وإن كانا جميعا يهمانهم ويعنيانهم "[3]

---

(١) الطراز ٣٩٨/٣

(٢) يعنى سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان) إمام البصرة غير مدافع. والكتاب علم بالغلبة على كتابه الذى وضعه فى النحو ناطقا بفضله. ينظر دراسات تطبيقية ص ٥ شبانة

(٣) دلائل الاعجاز ٧٤

وقال الرازى عند تفسيره الآية: "فإن قيل: لما كان التقدير ما ذكرتم فما الحكمة فى ترك الترتيب الحقيقى؟ قلنا: الحكمة فيه ما ذكره سيبويه: وهو أنهم يقدمون الأهم والذى هم بشأنه أعنى. وقد بينا ههنا أن ظاهر الدليل يقتضى إباحة دم المشركين. فقدم ذكره ليدل ذلك على فريد العناية بصون دمه عن الإهدار [(١)]

وكان الشأن -أيضا- فى الجزاء أن يكون فعلا. لأن معنى توقف دخوله فى الوجود على دخول الشرط الذى هو على خطر الوقوع أنه يحدث وينقضى بعد أن لم يكن وهذه دلالة الفعل. فالأفعال هى المناسبة للتوقف. أى توقف الجزاء على الشرط.[(٢)]

وما ذكره النحويون من صحة مجيء الجزاء بجملة اسمية فمبناه ومآله التأويل[(٣)]

قال أبو السعود عند تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ (سورة المائدة، ٢٢)

قال: "وأتوا فى الجزاء بالجملة الاسمية المصدرة بحرف التحقيق دلالة على تقرر الدخول وثباته عند تحقق الشرط لا محالة، وإظهاراً لكمال الرغبة فيه وفى الامتثال بالأمر"[(٤)] فملاحظتهم نكتة فيما جاء بصورة الاسمية شرطاً كان أو جزاء دليل على أصالة الفعلية فيهما.

• استقبال الشرط والجزاء:

حقيقة التعليق الشرطى أن يعلق أمر بأمر آخر على خطر الوجود كما فى (إن) بخلاف التعليق فى (لو ولما) -مثلا- لكونه لمجرد الدلالة على الربط بين الشرط والجزاء مع إفادة الامتناع مع (لو) والتحقق مع (لما) فهو فيهما ليس تعليقاً شرطياً حقيقياً بمعنى أن الشرط فيهما على خطر الوقوع.[(٥)]

• استقبال الشرط:

شأن الشرط مع إن وإذا أن يكون مستقبلا فى المعنى وكذلك فى اللفظ ليوافق المعنى، ولكن قد يخالف فى اللفظ لنكتة.[(٦)]

---

(١) تفسير الرازى ٤٠٢/٤

(٢) ينظر شرح المفصل ٢/ ٣٨ ٨/ ١٥٧ ، ٢/٩

(٣) ينظر شرح الأشمونى وحاشية الصبان عليه ١٢/٤.

(٤) تفسير أبى السعود ٣٩٤/٣

(٥) تنظر حاشية عبد الحكيم والفيض الفتاح ٨٥/٣

(٦) ستذكر هذه النكتات بمشيئة الله تعالى مع إن. وإذا

ويتعين بحكم ذلك أن يسلك بالآية مسلك التأويل تحقيقاً لاستقبال الشرط فى المعنى الذى يقتضيه كون الشرط على خطر الوجود، وذلك كما فى الآيات الآتية:

١- يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (سورة البقرة، ١٨٦)

فقد أفاد كلام المفسرين أن (إذا) الثانية فى الآية تحتمل الظرفية والشرطية. والمعنى على اعتبار الظرفية أن الله يجيب دعاء من دعاه وقت دعائه. ويكون العامل فيها الفعل (أجيب) ثم قيد هذا الإطلاق بالآية الكريمة: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ (سورة الأنعام، ٤١) فيحمل المطلق على المقيد كما أن الأحداث الدالة على عدم تحقق الإجابة فى جميع الأحيان كثيرة لكون القبول مشروطاً.[١] لكن كيف يسير المعنى على اعتبار الشرطية؟ والمعنى على اعتبارها شرطية يستلزم أن يكون الفعل (دعا) بمعنى المستقبل ليتأتى كونه على خطر الوقوع .

والذى يتعين على هذا الاعتبار أن يكون معنى (الداع) الداعى مطلقاً. ذلك لأنه لا يستقيم المعنى على اعتبار (الداع) داعياً لله تعالى -لأن ذلك يتعارض مع كون الشرط على خطر الوجود. إذ كيف يصح أن يقال: أجيب دعوة من يدعونى إذا دعانى، فأول الكلام يفيد تحقق الدعاء، والاشتراط يفيد عدم تحقق الدعاء.

ذكر قدامة بن جعفر فى حديثه عن عيوب المعانى فى الشعر (الاستحالة والتناقض) وبين أن منه ما يكون تناقضاً على طريق القنية والعدم

قال:"مما جاء فى الشعر من التناقض على طريق القنية والعدم قول ابن نوفل .[٢]

لِأَعْلَاجٍ ثَمَانِيَةٍ وَشَيْخٍ ... كَبِيرِ السِّنِ ذِى بَصرٍ ضَرِيرِ

فلفظة: (ضرير) إنما تستعمل- وهى تصريف فعيل من الضر- فى الأكثر للذى لا بصر له، وقول هذا الشاعر فى هذا الشيخ: إنه ذو بصر وإنه ضرير تناقض من جهة القنية والعدم. وذلك كأنه يقول: إن له لبصرا ولا بصر له. فهو بصير أعمى"[٣]

ومما يقع من هذا القبيل ويجرى على بعض الألسنة: إن الله مع الصابرين إذا صبروا، فلا شك أن الوصف يفيد وقوع الصبر، والشرط يفيد عدمه، وكونه على خطر الوقوع. ذلك لأن اسم الفاعل يمتاز عن الفعل من حيث كون الفعل لا تعطى

---

(١) ينظر تفسير الرازى والبحر المحيط ٤٥/٢، ٤٦ وحاشية الجمل على الجلالين ١٧٧/٢ ١٢٦/٢-١٢٧

(٢) قال محقق الكتاب: هو يحيى بن نوفل من شعراء الدولة الأموية. والعلج الرجل من كفار العجم.

(٣) نقد الشعر ٢٠٩

صيغته سوى حدوث معناه من فاعل لا غير، أما اسم الفاعل فإنه يفيد اتصاف الـذات به ومن ثم يقولون: قام زيد فهو قائم فالوصف لا يأتى إلا بعد وقوع الفعل وصـدوره من الفاعل.(١)

يتضح إذا أن حمل المعنى فى الآية الكريمة على شرطية (إذا) يقتضى أن يكـون معنى لفظ (الداع) –الذى يدعو ولا يوجه دعاءه إليه تعالى شأنه. فالمعنى– والله أعلـم بمراده – أى أجيب دعوة من يدعو ويطلب المعونة من غيرى إذا وجه دعاءه لى، وبـدأ يستجيب لدعوتى له.

ولا يتعين أن يكون وجود الشرط فى الاستقبال مرتبطاً بالمشروط الذى هو ما يشير إليه كونه على خطر الوجود، بل يصح أن يكون الشرط موجوداً والمتأخر والمعلق عليه هو ظهوره والعلم به، ويكون القصد إلى معنى التعلق والوجود معاً خارجـاً. لأن الشرط التعليقى قد يكون متقدماً وواقعاً قبل الاشتراط، ويكون المتأخر هـو ظهـوره والعلم به. (٢) ومن هذا القبيل قول الله تعالى : ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ (سورة البقرة، ٧٠)

فإن مشيئة الله الهداية لا تحدث فى المستقبل فإن كان قد شاء فإنها تكون قديمة، والمتأخر إنما هو ظهورها وارتباطها بالهداية للمخلوقين الراجين. فأهل السنة يلحظـون معنى التعلق والارتباط بين المشيئة وحصول الهداية خارجا.(٣)

ونظيرها قول الله تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِـنَ الْأَسْـرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (سورة الأنفال، ٧٠) فالمعنى– المقصود والله أعلم– الأمر لرسول الله ﷺ بأن يخاطب الأسرى على حسب ما عنده من العلم فهو لا يدرى إن كان الله علم فيهم خيرا أولا. أى إن ظهر علم الله فيكم الخير أخذتم بذلك خيرا مما أخذ منكم.(٤)

• مناقشة مجيئه ماضياً:

وقد قيل إن مجيء الشرط مستقبلاً هو الكثير الغالب لكنه قد يأتى غير مستقبل قليلاً كما يفهم ذلك كلام السعد(٥) فقد قال: "قد يستعمل (إن) فى غـير الاسـتقبال

---

(١) ينظر الإنصاف لابن المنير على الكشاف ١/٦٠٧

(٢) ينظر التلويح ٢/١٤٨

(٣) ينظر تفسير الرازى ١/ ٣٧٠، ٣٧١ وروح المعانى ١/ ٢٩٠

(٤) ينظر الكشاف ٢/١٦٩

(٥) ينظر البنانى والإنبانى عليه ٢/٣٨١

قياساً إذا كان الشرط لفظ (كان) نحو ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ ﴾ (البقـرة: ٢٣) و ﴿إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ ﴾ (سورة يونس: ١٠٤).وكذا إذا جيء بها في مقام التأكيد مع واو الحال لمجرد الوصل والربط، ولا يذكر له حينئذ جزاء نحو: زيد وإن كثر ماله بخيل، وعمرو وإن أعطى جاها لئيم. وفي غير ذلك قليلا كما في قول أبي العلاء:

فَيَا وَطَنِي إِنْ فَاتَنِي بِكَ سَابِقٌ ‏ ‏ ‏ مِنَ الدَّهْرِ فَلْيَنْعَمْ لِسَاكِنِكَ الْبَالُ [(١)]

وقوله أيضاً:

وإن ذهِلَت عمَّا أَجن صدورها ‏ ‏ ‏ فقد أَلْهَبَتْ وَجْداً نُفُوسَ رِجَالِ [(٢)]

لظهور أن المعنى على المضي دون الاستقبال.

وقد يستعمل (إذا) للمضي كقوله تعالى:﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ (سورة الكهف: ٩٣) ﴿حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ ﴾ (سورة الكهف ٩٦). ﴿حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً ﴾ (سورة الكهف ٩٦). وللاستمرار في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ (البقرة : ١٤)[(٣)]

وقد عللوا بقاء (كان) على المضي لقوتها فيه. لأنها أصل الأفعال وعبارتها، ولدلالتها على الزمان. لذا لا تغيرها أدوات الشرط. [(٤)]

وقد ضعف الزركشي بقاء كان على المضي قائلا:"وهذا ضعيف. لبنائه على أنها للزمان وحده. والحق خلافه. بل تدل على الحدث والزمان كغيرهما من الأفعال. وقد استعملت مع (إن) للاستقبال. قال تعالى:"إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ"[(٥)] .. [(٦)]

ويكون مجيئها بلفظ الماضي على معنى المضارع. قال الصبان: " أدوات الشرط تقلب الماضي إلى الاستقبال شرطا أو جزاء. سواء في ذلك (كان) أو غيرها على الأصح. بدليل: ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا ﴾سورة المائدة ٦....." [(٧)]

---

(١) هذا البيت من قصيدة له بسقط الزند تحت عنوان: ماء بلادي أنجع ص ٢٢٨ والبيت ص ٢٣٣ بيروت للطباعة والنشر.

(٢) من قصيدة له بعنوان أإخواننا بين الفرات وجلق ص ٢٤٤ سقط الزند ص ٢٤٦

(٣) المطول ١٦٢، ١٣٦

(٤) ينظر شرح المفصل ١٥٦/٨ وحاشية الصبان على الأشموني ١٣/٤

(٥) تأتي جملة الشرط هذه في آيات كثيرة من القرآن الكريم على سبيل المثال في ٢٣-٣١ - ٩٤- ١١١ من سورة البقرة.....

(٦) البرهان للزركشي ١٢٧/٤

(٧) حاشية الصبان على الأشموني ٤/ ١٣

• ترجيح التأويل:

على أني أميل إلى ترجيح التأويل بالمستقبل. ذلك موافقة لطبيعة الشرط من كونه استقبالا. ويؤيد ذلك ويساعد عليه أن العلماء لم تساعدهم النصوص فيما مثلوا به على صراحة (كان) في الماضي. واختلاف مقالتهم أيضا في دلالتها على انقطاع الزمن أو دوامه، وقد صوب الزركشي من هذه المقالات قول الزمخشري بإفادتها اقتران معنى الجملة التي تليها بالزمن الماضي لا غير، ولا دلالة لها بنفسها على انقطاع معناها ولا بقائه، بل إن أفاد الكلام شيئا من ذلك كان لدليل آخر. [١] وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُون﴾ (سورة آل عمران ١١٠) قال الزمخشري: "كان عبارة عن وجود الشيء في زمان ماضٍ على سبيل الإبهام وليس فيه دليل على عدم سابق، ولا على انقطاع طارىء، ومنه قوله تعالى: ﴿دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ (سورة النساء ٩٦) ومنه قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (سورة آل عمران ١١٠)كأنه قيل: وجدتم خير امة. وقيل: كنتم في الأمم قبلكم مذكورين بأنكم خير أمة موصوفين به". [٢]

وقول الزمخشري: "كأنه قيل: وجدتم " يفيد معنى الاستمرار في كان على هذا الرأي ودلالتها على الاتصال بالحاضر وظهورها فيه. وقوله: وقيل .... في الرأيين الآخرين إشارة إلى تضعيفه لهما.

وقد ذكر ابن الشجري أيضا في أماليه أن كان تدل على وقوع الفعل فيما مضى من الزمان. فإذا كان فعلا متطاولا لم يدل دلالة قاطعة على أنه زال وانقطع، وذلك كقولك: كان فلان صديقي. فإنه لا يدل على انقطاع الصداقة وأنها قد زالت. بل يجوز زوالها وبقاؤها. [٣]

ويسهل أيضا تأويل بقية ما ذكره السعد بالاستقبال. فقول المعري:

فيا وطني إن فاتني بك سابق ....

---

(١) ينظر البرهان للزركشي ١٢٢/٤

(٢) الكشاف ١/ ٤٥٤

(٣) ينظر البرهان للزركشي ١٩٧/٤

-وإن كان الفعل بعد (إن) ماضيا إلا أنه يفيد معنى الاستمرار والاتصال بالحال أيضا. وذلك لأن الغرض التحسر على مفارقة الوطن وتولى غيره السكن فيه. فلو لم تكن هذه المفارقة مستمرة متصلة بالحاضر لما كان للتحسر معنى. لأنه يزول برجوعه إلى وطنه وانقطاع بعده عنه. ويساعد على ذلك دعاؤه لساكنه بهدوء البال.

أما الآيات: ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْماً لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً ﴾ و ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً ﴾ فهى لحكاية الحال الماضية من ذكر الشرط المفاد به الاستقبال، كما أنهم جوزوا أيضا فى (إذا) التى دخلت عليها (حتى) أن تكون لا ظرفا ولا شرطا. [1]

•استقبال الجزاء:

وإذا كان المتعين فى الشرط الاستقبال، فإنه بحكم كون الجزاء معلقا فى الوجود على وجود الشرط يتعين أيضا كون الجزاء مستقبلا. لأنه يمتنع تعليق حصول الحاصل الثابت على حصول ما يحصل فى المستقبل " [2] فإذا ما جاء ما يوهم سبق الجزاء على الشرط كان مبناه على التأويل بحكم ما يقتضيه التعليق. من ذلك ما يأتى:

١- قال الله تعالى: ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ (سورة فاطر: ٤) . فظاهر الآية أن الجزاء (فقد كذبت رسل من قبلك) سابق على الشرط، لأن ذلك أمر حصل ووقع قبل الرسول عليه الصلاة والسلام، لكن المعنى على تقدير جواب حذف وحل محله المذكور. قال الزمخشرى: " فإن قلت: ما وجه صحة جزاء الشرط ومن حق الجزاء أن يتعقب الشرط، وهذا سابق له ؟ قلت: معناه وإن يكذبوك فتأس بتكذيب الرسل من قبلك. فوضع (كذبت رسل من قبلك) موضع فتأس استغناء بالسبب عن المسبب أى بالتكذيب عن التأسى " [3] إذا الجزاء ليس هو المذكور، وإنما هو بمثابة الدليل عليه، لأن معرفة الرسول عليه الصلاة والسلام بتكذيب الرسل قبله تستلزم الشعور بالتأسي والصبر فى سبيل دعوته. ونظيرها:

٢- قوله تعالى: ﴿ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (سورة الزمر: ٧)

---

(١) ينظر مغنى اللبيب ٨٦/١ والبرهان للزركشى ١٩٧/٤

(٢) المطول ١٦٢

(٣) الكشاف ٣٠٠/٣

فقد جاء جواب الشرط فى الشرطية الأولى قوله تعالى: فإن الله غنى عنكم، ومعلوم أن غنى الله واقع وثابت قبل كفرهم. لذا لزم التأويل بتقدير جزاء دل عليه المذكور، أى فلن يضر الله كفركم لأن غناه يستلزم ذلك.

ولتأصل هذه القاعدة أى تأخر الجزاء عن الشرط، وعدم سبقه له فى الوقوع استدل بها ابن المنير- رحمه الله- على بطلان مذهب الزمخشرى - رحمه الله - فيما ذهب إليه من تفسيره الرضا فى الآية بمعنى الإرادة. قال ابن المنير: "أليس مقتضى العربية فضلا عن القوانين العقلية أن المشروط مرتب على الشرط، لا يتصور وجود المشروط قبل الشرط عقلا. ولا مضيه واستقبال الشرط، لغة وعقلا. واستقر باتفاق الفريقين أهل السنة وشيعة البدعة أن إرادة الله تعالى- لشكر عباده مثلا مقدمة على وجود الشكر منهم. فحينئذ كيف ساغ حمل الرضا على الإرادة، وقد جعل فى الآية مشروطا وجزاء ، وجعل وقوع الشكر شرطا ومجزيا، واللازم من ذلك عقلا تقدم المراد وهو الشكر على الإرادة وهى الرضا ، ولغة تقدم المشروط على الشرط والزمخشرى أخص من قال: إن المشروط متى كان ماضيا محضا لزمته الفاء وقد[(1)] كقولك: إن تكرمني فقد أكرمتك قبل. وقد عريت الآية عن الحرفين المذكورين. على أنه لا بد من تأويل يصحح الشرطية من ذلك. فإذا ثبت بطلان حمل الرضا على الإرادة عقلا ونقلا تعين التماس المحمل الصحيح له. وهو المجازاة على الشكر بما عهد ان يجازى به المرضى عنه من الثواب والكرامة، فيكون معنى الآية - والله اعلم- وإن تشكروا يجازكم على شكركم جزاء المرضى عنه. ولا شك أن المجازاة مستقبلة بالنسبة إلى الشكر فجرى الشرط والجزاء على مقتضاهما لغة، وانتظم ذلك بمقتضى الأدلة العقلية على بطلان تقدم المراد على الإرادة عقلا. ومثل هذا يقدر فى قوله - ولا يرضى لعباده الكفر - أى لا يجازى غير الكافر مجازاة المغضوب عليه من النكال والعقوبة "[(2)] وهكذا يتفق المفسرون مسلكا فى سبيل الوصول إلى المعنى استدلالا بما تفرضه اللغة من عدم سبق الجزاء على الشرط. ومن أمثلة ذلك ما جاء فى تفسير هذه الآية الكريمة:

٣- قال الله تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (سورة الأعراف: ٣٤). فقد اعترض أبو حيان على اعتبار (ولا يستقدمون) معطوفة على (لا يستأخرون) قائلا: " قال الحوفى: ولا يستقدمون معطوف على (لايستأخرون) انتهى.

(١) ينظر المفصل وشرحه لابن يعيش ٣،٢/٩

(٢) الإنصاف على الكشاف لابن المنير ٣٨٩/٣ ، ٣٩٠

وهذا لا يمكن، لأن إذا شرطية، فالذى يترتب عليها إنما هو مستقبل. ولا يترتب على مجيء الأجل فى المستقبل إلا مستقبل. وذلك يتصور فى انتفاء الاستئخار لا فى انتفاء الاستقدام. لأن الاستقدام سابق على مجيء الأجل .... ثم يقول: والذى تخرج عليه الآية أن قوله: ولا يستقدمون منقطع من الجواب على سبيل استئناف إخبار. أى وهم لا يستقدمون الأجل ، أى لا يسبقونه، وصار معنى الآية أنهم لا يسبقون الأجل ولا يتأخرون عنه"[1] لكن أفضل منه ما ذكره الرازى إبانة عن المعنى فى الآية قائلا: "فإن قيل: ما معنى قوله: (ولا يستقدمون) فإنه عند حضور الأجل يمتنع عقلا وقوع ذلك الأجل فى الوقت المتقدم عليه؟ قلنا: يحمل قوله (فإذا جاء أجلهم) على قرب حضور الأجل. تقول العرب: جاء الشتاء إذا قرب وقته، ومع مقاربة الأجل يصح التقدم على ذلك تارة والتأخر عنه أخرى" [2] ولأبى السعود كلام يرى فيه اعتبار العطف على طريقة من المبالغة فى نفى التأخر بنظمه مع المتقدم المستحيل، ولم يرتض ما يشاكل كلام الرازى. [3]

ولأجل تأصل استقبال الشرط يعد من الخطأ والتناقض كل ما يدل على كونه ماضى المعنى. ومما هو من قبيل ذلك ما استشهد به قدامة على التناقض فى الشعر عند قوله: " وما جاء فى الشعر من التناقض على طريق المضاف قول عبد الرحمن بن عبد الله القس:

فإنى إذا ما الموت حل بنفسها يزال بنفسى قبل ذاك فأقبر

فقد جمع بين (قبل) (وبعد) وهما من المضاف، لأنه لا قبل إلا لبعد، ولا بعد إلا لقبل، حيث قال: إنه إذا وقع الموت بها، وهذا القول كأنه شرط وضعه ليكون له جواب يأتى به، وجوابه هو قوله: يزال بنفسه قبل ذاك، وهذا شبيه بقول قائل لو قال: إذا انكسر الكوز انكسرت الجرة قبله، ومنزلة هذا التناقض عندى فوق منزلة جمع المتقابلين فى الشناعة، لأن هذا الشاعر جعل ما هو قبل بعدا ". [4] وإن كان الأدق فى التعليل أن يقول: لأن هذا الشاعر جعل ما هو بعد قبلا. ذلك لأن الشأن فى الجزاء البعدية، لكنه جعله قبل الشرط.

---

(١) البحر المحيط ٤/ ٢٩٣

(٢) تفسير الرازى ٤/٢٠٤

(٣) ينظر تفسير أبى السعود ٤/٣٧٨

(٤) نقد الشعر ٢٠٨

قال صاحب التصوير البيانى: " وذكر زوال نفسه فى نسق الشرط يقتضى أن يكون بعده. وقوله: (قبل ذلك) يقتضى أن يكون قبله " (١)

وبهذا يتضح أن الشاعر جعل الجزاء الذى شأنه أنه يكون بعد الشرط قبل الشرط ، وهو ظاهر الفساد.

•الصلة بين الشرط والجزاء فى الزمن:

التعليق إذا يفيد كون الشرط بحيث إذا وقع وقع الجزاء، ويقتضى بحكم ذلك أن لا يسبق الجزاء الشرط. لكن متى يقع الجزاء فى إطار تحقق هذا المقتضى وهو عدم سبقه للشرط. ؟

بتتبع الآيات القرآنية يلاحظ أن الجزاء قد يكون مقارنا للشرط وقد يكون عقبه مباشرة وقد يكون بزمن متراخ، وقد لا يتعين أن يكون مقارنا أبدا كما ظن الإمام الرازى رحمه الله عند تفسيره قول الله تعالى: ﴿ قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلا نَفْعاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (سورة يونس: ٤٩).

فقد استدل بكون الجزاء مقارنا للشرط فى هذه الآية على عمومية هذا الحكم فى عامة أساليب الشرط. ثم استدل بهذا على صحة مذهب الإمام الشافعى رضى الله عنه إلى عدم الطلاق ممن قال لأجنبية: إن نكحتك فأنت طالق للزوم الجمع بين النقيضين بخلاف مذهب أبى حنيفة. قال: " إنه تعالى قال ههنا: إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون فقوله: إذا جاء اجلهم – شرط. وقوله: فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون – جزاء. والفاء حرف الجزاء. وهو يحصل مع حصول الشرط لا يتأخر عنه، وأن حرف الفاء لا يدل على التراخي وإنما يدل على كونه جزاء. إذا ثبت هذا فنقول: إذا قال الرجل لامرأة أجنبية: إن نكحتك فأنت طالق. قال الشافعى رضى الله عنه:لا يصح هذا التعليق. وقال أبو حنيفة رضى الله عنه: يصح. والدليل على أنه لا يصح، أن هذه الآية دلت على أن الجزاء إنما يحصل حال حصول الشرط. فلو صح هذا التعليق لوجب أن يحصل الطلاق مقارنا للنكاح، لما ثبت أن الجزاء يجب حصوله مع حصول الشرط، وذلك يوجب الجمع بين الضدين. ولما كان هذا اللازم باطلا وجب أن يبطل هذا التعليق " (٢)

---

(١) التصوير البيانى ٣٨٢

(٢) تفسير الرازى ٥٨١/٤

والواقع أن بطلان التعليق عند الشافعي وصحته عند أبي حنيفة ليس مرتبطا بكون الشرط والجزاء مقترنين فى الزمن وإنما يرجع إلى استدلال آخر. من حيث كون الشرط يمنع الحكم أو يمنع السبب، والأول قول الشافعي، والثانى قول أبي حنيفة. [1]

وفيما يلى- إن شاء الله تعالى- بيان لهذه الأحوال الثلاثة من خلال الآيات بقدر التوفيق إلى إدراكها مسترشدا بقرائن الأحوال والسياق......

- **مقارنة الجزاء للشرط:**

أعنى بمقارنة الجزاء للشرط كون الجزاء واقعا فى زمن وقوع الشرط، بخلاف الاعتقاب وهو المجيء بعده مباشرة، والتراخي بأن يأتى بعده بمهلة، ويكون الجزاء مقارنا للشرط فى جملة قصد بها إفادة ارتباطهما وحصولهما معا فى الخارج دون قصد إلى الترتب والتوقف.

وقد ذكرت عند الحديث عن علاقة الشرط بالجزاء أنه لا يشترط فيها أن يكون الشرط سببا فى الجزاء ولا مسببا عنه، وإنما يصح إذا كان بينهما مجرد الاقتران فى الخارج، والشواهد التى ذكرها هناك تصلح للاستشهاد بها هنا. [2] ويقارن الجزاء الشرط أيضا فى الزمن عندما يكون الشرط علة مؤثرة فى وقوع الجزاء، وذلك مثل قوله تعالى:

١- ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (سورة التوبة ١١) .

فإن الجزاء وهو الأخوة فى الدين تقارن التوبة والإسلام، إذ تنعقد الأخوة بذلك وليست عقبة ولا متراخية.

وعلى نمطها قوله تعالى:

٢- ﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (سورة المائدة ٨١)

فالإيمان بالله يقارن عدم اتخاذ الكافرين أولياء، والكفر به يقارن اتخاذ أعدائه أولياء.

٣- وقوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (سورة الأنعام ٨٨)

---

(١) هذه مسألة أصولية تطلب من مظانها وينظر فى ذلك شرح العضد لمختصر ابن الحاجب وحاشية السعد عليه ٢/١٨٠ وكذلك تسهيل الوصول إلى علم الأصول ١١٠ ، ١١١

(٢) ينظر البحث ص ٤٢ وما بعدها.

فالشرك علة الإحباط ولا يتأخر الجزاء عنه. وتتحقق المقارنة أيضا فى كل مثال يدل على ظرفية الشرط للجزاء وأن الجزاء تنجيز لما يدل عليه الشرط. كما فى الآيات الآتية:

٤- قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولاً﴾ (سورة الإسراء ٥)

فإن البعث الواقع جزاء هو نفس ما وعدوا به أولا من تسليط هؤلاء العباد لإذاقتهم الهوان والذل.

٥- وقال تعالى: ﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرائيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً﴾ (سورة الإسراء ١٠٤)

فهذه الآية نظيرة الآية السابقة فى كون المجىء يكون مقارنا لمجىء الوعد، بل هو ما وعدوا به.

٦- وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حَتَّىَ إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ﴾ (سورة الأنعام ٦١)

فوقت التوفية عند مجىء الموت لا يتقدم عنه ولا يتأخر، فيكون كل امرئ قد أخذ حقه ووفى ما كتب له عنده.

٧- وقال تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ﴾ (سورة النمل ٨٢)

وقوع القول عليهم يكون من مظاهره خروج الدابة. قال أبو حيان: " أى إذا انتجز وعد عذابهم الذى تضمنه الوعد الأزلى من الله، كقوله: ﴿حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ ﴾ (سورة الزمر ٧١) فالمعنى إذا أراد الله أن ينفذ فى الكافرين سابق علمه فيهم من العذاب أخرج لهم دابة تنفذ من الأرض. و(وقع) عبارة عن الثبوت واللزوم، والقول إما على حذف مضاف، أى مضمون القول، وإما أنه أطلق القول على المقول لما كان المقول يؤدى بالقول، وهو ما وعدوا به من قيام الساعة والعذاب " [1] فالاقتران بين الشرط والجزاء واضح.

٨- قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (سورة غافر ٧٨)

---

(١) البحر المحيط ٩٦/٧

فالقضاء بين الناس وقت مجيء أمره تعالى بإنفاذ ذلك لا يتأخر عنه، بل يقارنه ويصاحبه.

ومن المقارن أيضا ما يكون الجزاء مبينا لحالة الفاعل عند وقوع فعل الشرط منه كما يأتي :

٩- قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ (سورة المطففين ٣٠)

١٠- وقال تعالى: ﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ (سورة المطففين ٣١)

فالجزاء فى الآيتين هو حالة الكافرين عندما يمر بهم المؤمنون وعندما يرجع هؤلاء المستهزئون إلى أهلهم. وليس المراد هنا بالحال الحال النحوية.

•اعتقاب الجزاء للشرط:

تفيد بعض أمثلة الشرط الدلالة على مجيء الجزاء عقب الشرط، وذلك عندما يكون الشرط سببا مفضيا لتحقق الجزاء وبمساعدة القرائن من الأحوال والسياق على هذا الاعتقاب، ويتجلى ذلك فيما يأتى:

١- قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ (سورة المائدة ٢٢)

فقد رفضوا دخول الأرض المقدسة مشترطين أن يخرج الجبارون منها ليدخلوها. وقد أكدوا كلامهم ليبينوا أنهم لن يترددوا فى الدخول إذا خرج الجبارون، وأنهم لن يتوانوا فى ذلك كما يشهد بذلك المقام. قال أبو السعود: "وأتوا فى الجزاء بالجملة الاسمية المصدرة بحرف التحقيق دلالة على تقرر الدخول وثباته عند تحقق الشرط لا محالة. وإظهارا لكمال الرغبة فيه وفى الامتثال بالأمر" [1] فمساق التأكيد له دلالته على الاعتقاب.

٢- قال تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (سورة الأنفال ٤٣).

فالشرط وهو رؤيتهم كثيرا لو تحقق لترتب عليه التنازع والاختلاف ثم يصل بهم الأمر إلى الفشل والهزيمة. فالحال المشاهدة فى مثل ذلك تدل على أن الجزاء يعتقب الشرط.

٣- قال تعالى:﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (سورة التوبة ٥)

---

(١) تفسير أبي السعود ٣٩٤/٣

فالشرطان فى الآية (انسلخ الأشهر الحرم) و (فإن تابوا....) يعقبهما الجزاء، وهو قتل المشركين، وعدم تركهم وتخلية سبيل من آمن منهم. ولا يخفى دلالة الشرطين على ترتب الجزاء عليهما ومجيئه عقبه مباشرة. لأن حال الإيمان تقتضى المسارعة فى تنفيذ الأمر وعدم التهاون فيه.

٤- وقال تعالى: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ (سورة التوبة ١٢)

هذا حث وحض على المسارعة إلى قتال الكفر وأئمته كلما بدرت منهم بادرة منعا لأخطارهم ومكرهم، ومقام هذه الآيات بما تحمله سورة التوبة من إنذار قوى للكافرين يشعر بأهمية قوة المسلمين، ودفعهم وحثهم على أن يقلعوا بذور الشر، وأن يتعقبوه فى كل مواطنه نصرا لله ولرسوله ودينه.

٥- قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (سورة يونس ٢٢)

الجزاء فى الجملتين الشرطيتين فى الآية الكريمة يعتقب الشرط، لأن الدعاء يعقب الإحساس بالخطر وعند القلق من الصورة التى صورها الآية، كما أن المقام يؤذن بأنهم يقصدون المسارعة إلى الشكر عند تحقق الرجاء بالنجاة من هولهم وشدهم، لأن مَن هذا شأنه يكشف عن استعداده للشكر والمسارعة إليه. فحالهم حال من يظهر النية على المسارعة إلى الشكر بمقتضى تحقق ما يرجون.

٦- قال تعالى: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً﴾ (سورة الإسراء ٨)

الآية تدل على نزول العقوبة بهم كلما عادوا للكفر والمعصية جزاء وفاقا. والعرف يقتضى مسارعة من يهدد بالعقوبة إلى إنجازها، وإيقاعها بمن يعاقب بسرعة، منعا له من العودة إلى الخطأ الذى من أجله يعاقب. فمقام التهديد يدل على مجىء الجزاء عقب الشرط .

٧- قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ (سورة العنكبوت ١٠)

المقام يدل على سرعة ضجرهم عند الأذى وسرعتهم عند الطمع. والنصر فى الآية نصر من نوع خاص فيه غنيمة، لذلك فهم يسارعون بادعائهم أهم كانوا مشاركين فى القتال.

•تراخي الجزاء عن الشرط :

يأتي الجزاء مع شيء من المهلة والتراخي فى كل شرطية تدل القرائن الحالية أو اللفظية على اختلاف زمنيهما. يتضح ذلك فيما يأتى من الآيات.

١-قال الله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة البقرة ١٠٣)

فقد علقت المثوبة على الإيمان والتقوى، ومعلوم أن المثوبة فى الآخرة، فزمن التقوى فى الدنيا وثوابها فى الآخرة، فتراخي وقوع الجزاء عن وقوع الشرط واضح فى الآية.

٢- قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ (سورة التوبة ٥٨)

قال ابو حيان: " وما أحسن مجيء هذين الشرطين، لأن الأول لا يلزم أن يقارنه الجزاء — ولا أن يعتقبه. بل قد يجوز أن يتأخر عنه، نحو : إن أسلمت دخلت الجنة، فإنما يقتضي مطلق الترتيب وأما جواب الشرط الثانى فجاء بإذا الفجائية. وأنه إذا لم يعطوا فاجأ سخطهم ولم يمكن تأخره، لما جبلوا عليه من محبة الدنيا والشره فى تحصيلها " (١)

ويلحظ أن القرينة فى الأول حالية، وفى الثانى انضمام الدلالة اللفظية عن طريق (إذا) الفجائية إلى كون حالهم هكذا معروفة ومعهودة.

٣- قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (سورة الأنفال ٧٠)

الآية نزلت فى أسرى بدر ووعد الله بالخير والثواب على ما فى قلوبهم إن كان فيها خير. وذكر فى مناسبتها موقف الرسول ﷺ من عمه العباس، ووعد الرسول له بالخير إن صدق فى دعوى إسلامه، ثم أمره بالفداء. قال العباس فأعطاني الله مكان العشرين الأوقية فى الإسلام عشرين عبدا كلهم فى يده مال يضرب به مع ما أرجو من مغفرة الله عز وجل. (٢) وهذا العطاء من الله واضح أنه على سبيل التدرج والتراخي، كما أن المغفرة له تكون ثمرتها فى الآخرة أيضا بعد بركتها فى الدنيا.

---

(١) البحر المحيط ٥٦/٥

(٢) ينظر تفسير ابن كثير ٣٢٧/٢ ، ٣٢٨

٤- قال تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ (سورة يونس ٤٧)

ذكر المفسرون فى هذه الآية تأويلين: الأول أن يكون المراد مجيء الرسول فى الدنيا. والثاني: أن يكون المقصود مجيئه فى الآخرة للشهادة عليهم. [١] فعلى التأويل الأول يكون الجزاء – وهو القضاء بينهم بإدخال من أطاع الجنة ومن عصى النار – متراخيا لبُعد زمن الرسالة عن زمن الحساب فى الآخرة. أما إن روعى التأويل الثانى فيكون الجزاء عقيب الشرط، على أنى أرجح التأويل الأول لوجود قرائن سياقية تشير إليه... من سؤالهم عن موعد هذا العذاب فى الآية التالية، وإخباره عليه الصلاة والسلام بأنه لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا. فلو كان الحديث عن حال الآخرة لما اقتضى ذلك مجيء حديث التكذيب، لأن الآية ستكون إخبارا للمؤمنين عن أحوال القيامة وما يكون فيها. ويساعد على المعنى الأول قول الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ (سورة الإسراء ١٥)

٥- قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (سورة محمد ٧)

دلالة الأحوال وشواهد جهاد الرسول وصحابته تفيد أن النصر قد لا يأتى مباشرة بعد الإستقامة. وتوجد آيات كثيرة تأمر بالصبر، وأن الله لا يعطيه لهم إلا بعد أن يمحصهم ويختبرهم ، وحتى يستبطئوا النصر ويستعجلوه. قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (سورة البقرة ٢١٤) ويقول جل وعلا: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ (سورة آل عمران ١٤٢)

فهذه أدلة على أن النصر لا يأتى إلا بعد وقت من المجاهدة والصبر على المكاره فى سبيل الله. وبالصبر يتمحص الإيمان الصادق الذى يستحق أصحابه نصر الله، لأنهم نصروه، والله أعلم.

•مفهوم الجملة الشرطية:

قد يراد بالمفهوم أحد معنيين: إما الاستدلال بتخصيص الشيء بالذكر على نفى الحكم عما عداه، وهو ما يسمى مفهوم المخالفة. لأنه مفهوم مجرد لا يستند إلى

---

(١) ينظر الكشاف ٢٣٩/٢ ، والبحر المحيط ١١٤/٥

منطوق. وإما أن يراد ما دل عليه المنطوق لأنه أيضا مفهوم من المنطوق،[1] والمراد هنا بيان ما يقصد بالجملة الشرطية من حيث دلالتها على ما يفهم من منطوق اللفظ، ودلالتها أيضا على نفى الحكم عما عدا المذكور، وهل المعنيان يحصلان عن طريقها أم لا ؟

•الأصل فى الإفادة:

لما كانت الجملة الشرطية تفيد معنى ناشئا من الربط بين طرفيها بالأداة نشأ بحث حول المقصود أصالة بالإفادة. هل هو الجزاء والشرط قيد فيه، أو أنه الشرط والجزاء معا من حيث الربط بينهما والحكم بالجزاء على الشرط ؟ فالمثال: إن زرتنى أكرمتك. هل يراد منه الإخبار بإكرام المتكلم مخاطبه بشرط الزيارة ومقيدا بها، بحيث ينعدم هذا الإكرام عند عدم الزيارة، أو أن المراد الارتباط بينهما وإفادة لزوم الإكرام للزيارة وترتبه عليها دون نظر إلى ما يكون عند عدم تحقق الشرط وهو الزيارة ؟ وقد حقق السعد المسألة. وبين أن فى الجملة الشرطية اعتبارين:

الأول: اعتبار أهل العربية تأصيل الإفادة فى الجزاء وجعل الشرط قيدا فى حكمه بمنزلة الفضلات.

الآخر: اعتبار المنطقيين من أن المعتبر اللزوم بين الشرط والجزاء حقيقيا كان أو اتفاقيا. دون تأصل الاعتبار للجزاء مقيدا بالشرط. قال السعد:"والتحقيق فى هذا المقام أن مفهوم الشرطية بحسب اعتبار المنطقيين غيره بحسب اعتبار أهل العربية. لأنا إذا قلنا: إن كانت الشمس طالعة فالنهار موجود. فعند أهل العربية النهار محكوم عليه، وموجود محكوم به، والشرط قيد له. ومفهوم القضية أن الوجود يثبت للنهار على تقدير طلوع الشمس، وظاهر أن الجزاء باق على ما كان عليه من احتمال الصدق والكذب. وصدقها باعتبار مطابقة الحكم بثبوت الوجود للنهار، وحينئذ كذبها بعدمه. وأما عند المنطقيين فالمحكوم عليه هو الشرط والمحكوم به هو الجزاء. ومفهوم القضية الحكم بلزوم الجزاء للشرط، وصدقها باعتبار مطابقة الحكم باللزوم، وكذبها بعدمها....." [2]

•توجيه اعتبار أهل اللغة:

يعتمد أهل اللغة على أدلة يستندون إليها فى تأصيل الإفادة فى الجزاء واعتبار التقييد بالشرط. منها ما يأتى:

---

(١) ينظر المستصفى للغزالى ٢/١٩١

(٢) المطول ١٥٣

أولا: إنهم يرون أن التعليق على شرط يقتضى توقف دخول المشروط فى الوجود على الشرط بمقتضى هذا التعليق. وانتفاءه عند انتفاء الشرط، لأن تخصيص الشيء بالذكر يقتضى أن يكون لفائدة. وإلا كان ذكره عبثا. لذا قالوا: " إن معنى تعليق شيء على شرط إنما هو وقوف دخوله فى الوجود على دخول غيره فى الوجود" (١)

ثانيا: مساعدة الذوق بإدراك معنى التوقف من أساليب الشرط بمقتضى لـزوم فائـدة للتقييد، ولذلك رأينا العرب وأئمة اللغة قد فهموا هذه الدلالة من أساليب الـشرط.

فابن عباس – رضى الله عنهما– قد فهم من قوله ﷺ: "إنما الربا فى النسيئة " (٢) نفى ربا الفضل، وكذلك عُقِلَ من قول الله تعالى: ﴿ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّـهِ الـسُّدُسُ ﴾ (سورة النساء ١١) أنه إن كان له أخوان فلأمه الثلث. وكذلك قال: الأخوات لا يرثن مع الأولاد لقوله تعالى: ﴿إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ﴾ (سورة النساء ١٧٦) فإنه تعالى لما جعل لها النصف بشرط عدم الولد دل على انتفائـه عنـد وجود الولد. ومن ذلك قولهم إن يَعْلىَ بن أمية قال لعمر رضى الله عنه: ما بالنا نقصر فى الصلاة وقد أَمِنَّا؟ وقد قال الله تعالى: ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (سورة النساء ١٠١) ، فقال عمـر رضـى الله عنـه: عجبت مما عجبت منه فسألت النبى ﷺ فقال: "صدقة تصدق الله بها عليكم فـاقبلوا صدقته " (٣) فقد فهموا من تقييد قصر الصلاة بحال الخوف عدم قصرها عنـد عـدم الخوف، وأقرهم الرسول ﷺ وعمر عليه. (٤)

•توجيه اعتبار المنطقيين:

يعتمد أهل المنطق فى إقامة دعواهم على ما يأتى:

أولا: يلاحظ اتجاه العلامة السيد إلى رأى المنطقيين، فهو لم يرتض تأصل الإفادة فى الجزاء واعتبار الشرط قيدا له. وإنما يقصد من الشرطية الارتباط بين الشرط والجزاء دون التقييد. معللا ذلك بأن اعتبار الشرط قيدا يقتضى كذب الجملة الشرطية عند عدم الشرط، مثلما يلزم كذب الحَمْليّة عند عدم تحقق القيد فيها. مع أن الواقع يرفض صحة هذا المقتضى الذى هو لازم اعتبار التقييد فى الشرطية. فتنتفي صحة ذلك الملزوم

---

(١) شرح المفصل ١٥٥/٨

(٢) الحديث رواه أسامة بن زيد رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم صحيح مسلم ٥٠/٥

(٣) الحديث فى صحيح مسلم . باب صلاة المسافرين وقصرها ١٤٣/٢

(٤) ينظر شرح مختصر ابن الحاجب والسعد عليه ١٧٥/٢ وما بعدها والمستصفى ١٩٧/٢ وما بعدها.

الذى هو اعتبار التقييد. قال: " إذا قلت: إن ضربنى زيد ضربته، فلو كان معناه أضربه فى وقت ضربه إياى، لم يكن صادقا إلا إذا تحقق الضرب منك مع ذلك القيد، فإذا فرض انتفاء القيد، أعنى وقت ضربه إياك لم يكن الضرب المقيد به واقعا، فيكون الخبر الدال على وقوعه كاذبا، سواء وجد منك الضرب فى غير ذلك الوقت أو لم يوجد. وذلك باطل قطعا. لأنه إذا لم يضربك ولم تضربه، وكنت بحيث إن ضربك ضربته عد كلامك هذا صادقا عرفا ولغة. فظهر أن الحكم الإخباري متعلق بارتباط أحد الطرفين بالآخر لا بالنسبة بين أجزاء الجزاء. وأن ما ذهب إليه الميزانيون لا يخالف كلام أهل العربية" [1]

•مناقشة ما ذهب إليه السيد:

والتحقيق وإنعام النظر فيما ذكره العلامة السيد يكشف عن عدم صحة التنظير الذى ادعاه بين المقيد بالظرف والمقيد بالشرط فى وقوع الكذب عند عدم تحقق الظرف والشرط. فلا يسلم له؛ لأنه وإن قيل: إن قول القائل: إن ضربنى زيد ضربته بمنزلة أضربه عند ضربه إياى، إلا أن ثمة فارقا بين الظرف والشرط. من حيث إن الظرف قيد على وجه التحقيق، لخلوه عن التعليق، لأن معنى الحملية الثبوت فى نفس الأمر. ويكون توقف الصدق عليهما معا أى المقيد والقيد. أما الشرط فهو قيد على وجه الفرض والتقدير. لأن لازم معنى الشرطية الثبوت على تقدير وقوع الشرط. فصدق الشرطية لا يتوقف على تحقق الشرط والجزاء بل على كون الجزاء بحيث يثبت على فرض وقوع الشرط وعلى تقديره إن لم يتحقق هذا الثبوت. [2] بل إن عبارة السيد السابقة واضحة الدلالة على هذا الفرق عند تنظيره بين المقيد بالظرف والمقيد بالشرط. لأن قول القائل: إن ضربنى زيد ضربته ليس بمعنى أضربه فى وقت ضربه إياى كما ذهب إليه السيد، وإلا لما كان فيه فرق بين التقييد بالشرط والتقييد بالظرف وهو خلاف ما ثبت واتفق عليه.

ويؤكد افتراق الحملية عن الشرطية فضل تأكيد. أن جعل معنى: إن ضربنى زيد ضربته هو أضربه فى وقت ضربه إياى لا يستقيم. لأن معنى التعليق الذى فى الشرط إنشائى اتفاقا، أى على جهة الفرض والتقدير، وليس لنسبته خارج محقق يراعى عند إقامة التعليق ليترتب عليه الصدق والكذب، والمعنى الإنشائى لا يكون محكيا عنه

---

(١) حاشية السيد على المطول ١٥٣

(٢) تنظر حاشية عبد الحكيم على المطول ٣/٥٠/٥١

اتفاقيا. فقولك: إن قام زيد قام عمرو حقيقة معناه هو التعليق و الربط على وجه الفرض. وقولك فى بيان معناه: يثبت قيام عمرو على فرض قيام زيد، إنما هو لازم معناه. فإن الثبوت والفرض عند كونهما محكيا عنهما – كما هو فى بيان ما يؤول إليه معنى الشرط فى المثال – يلاحظان ثابتين فى أنفسهما. والتعليق يكون على سبيل الفرض والتقدير كما هو واضح. [1]

وتأسيسا على هذا تبطل دعوى الكذب فيما إذا قيل: إن جاءك زيد فقد أحسن. وذلك إن لم يجيء والتى ذكرها ابن يعقوب موافقا فيها ما قاله السيد سابقا. قال ابن يعقوب: " وورد على أن اعتبار النحويين مخالف بما ذكر لاعتبار المنطقيين أنه إذا قيل مثلا: إن جاءك زيد فقد أحسن يكون كذبا عند أهل العربية متى لم يجيء. ولو ثبت الربط بين المجيء والإحسان فى نفس الأمر. وذلك لأن الحكم المقيد بقيد يكذب بانتفاء القيد. فإنك لو قلت: أكرمتك وقتا ليس بحال ولا بماض ولا بمستقبل كان كذبا لانتفاء ذلك الوقت. لكن ذلك الكلام حق وصدق عند كل أحد متى ثبت فيه الربط. "[2] وواضح أن هذا نظير ما ذكره السيد. وقد تم دفعه بناء على التفريق بين التقييد بالشرط والتقييد بالجزاء. [3] ثانيا: أخذ بعض المنطقيين [4] المقدمة التى بنى عليها العلامة السيد مناقشته للمسألة من أن الصدق محقق فى الشرطية مع عدم تحقق القيد والمقيد لكونهما على خطر الوقوع – وأثبت أن الشرطية لم يحكم فيها إلا بالارتباط والتعليق دون التقييد، معللا ذلك بأن اعتبار التقييد فى الشرطية يستلزم القطع بصدق الشرطية مع كذب التالى مع أن الشأن فيها خلاف ذلك. لأنها " لا تتركب من مقدم صادق وتال كاذب. لامتناع أن يستلزم الصادق الكاذب، وإلا لزم كذب الصادق وصدق الكاذب، أما كذب الصادق فلأن اللازم كاذب، وكذب اللازم يستلزم كذب الملزوم. وأما صدق الكاذب فلأن الملزوم فيها صادق وصدق الملزوم مستلزم لصدق اللازم" [5] . أما صدق القضية فلأن العرف واللغة يقطع بصدق إن قام زيد قام عمرو،

---

(١) ينظر تقرير الشربينى ٣/٥١

(٢) مواهب الفتاح = شروح ٢/٦

(٣) أرى أن هذا المثال الذى مثل به المغربى (أضربه فى زمان لا يكون ماضيا ولا حاضرا ولا مستقبلا) يعتبر من أساسه لغوا لا يعتد به ولا يقع فى الاعتبار عند العقلاء، والبحث البلاغى. لأنه إن عد كلاما فلن يكون إلا من كلام المجانين. بل العجب كل العجب أن يقول: لكن ذلك الكلام حق وصدق عند كل أحد متى ثبت فيه الربط.

(٤) تنظر حاشية ابن سعيد على شرح التهذيب ١٤٩

(٥) شرح القطب على الشمسية ٨٠

وأما كذب التالى فمن حيث إن انتفاء المطلق يستلزم انتفاء المقيد. وقيام زيد منتف فى الواقع، فيقتضى ذلك انتفاء القيام على سبيل التقييد. وإذا ثبت انتفاء التالى وهو قام عمرو كانت القضية كاذبة مع أن العرف واللغة قد حكما بالصدق.

• رد هذا الدليل:

على أن الاستدلال بهذا غير مسلم. لأن قيام زيد فى الواقع ليس مطلقا. لأن المطلق مجرد القيام دون تقييده بالواقع. ومطلق القيام غير المقيد بإضافته إلى شيء موجود ومحقق فى ضمن القيام المقيد بالشرط، وهو ليس منتفيا. فيكون التالى بهذا الاعتبار صادقا. وعلى هذا تبطل دعوى صدق الشرطية مع كذب التالى عند اعتبار التقييد. ويبقى ثبوت شيء لشيء مقيد بتقدير كذا لا يكذبه إلا انتفاؤه عنه على ذلك التقدير، لا مجرد انتفائه فى الواقع. ولا شك فى تحقق ذلك ووجوده فى المثال عند من يقصد إثبات القيام لعمرو على تقدير القيام لزيد مراعى فيه معنى التقييد دون مجرد الارتباط [1]

ثالثا: ومن أدلة إنكار التقييد والتوقف فى الشرط. أنه لو كان أسلوب الشرط يدل عليه لاستلزم رفع المقدم رفع التالى فى بعض الأمثلة. كما فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً﴾ (سورة النور ٣٣)

لكن النهى عن الإكراه ثابت سواء أردن التحصن أم لم يردن. وهذا دليل على أن الجزاء ليس مقيدا بالشرط. لأن التقييد يقتضى جواز الإكراه عند عدم إرادتهن .

رابعا: إن اعتبار التقييد بالشرط يستدعى عدم صحة استعمال أدوات الشرط فيما إذا كان المقدم أخص لغة. مثل: إن كان هذا إنسانا فهو حيوان. مع أن اللازم منتف لوقوعه فى الاستعمال. فبطل لذلك الملزوم، وهو اعتبار التقييد والتوقف فى الشرطية.

وقد ذكر السعد هذين الاعتراضين الأخيرين فى سياق حديثه عن التعليق فى قوله تعالى السابق: ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنا﴾ قال: فإن قيل: تعليق النهى عن الإكراه بإرادتهن التحصن يقتضى جواز الإكراه عند انتفائها. أجيب بوجوه:

---

(١) تنظر حاشية ابن سعيد على شرح التهذيب ١٤٩ ويلحظ فيها أن المحشى اعتبر مناقشة السيد للمسألة هو ومن اتفقوا معه ردا على السعد، لأنه يعتبر التقييد بالشرط دون الارتباط. على أن النظر فيها قاله السعد، وتتبع ما قاله فى مباحث التقييد بالشرط يكشف أنه قصد فيها إلى ذكر ما يحتمله أسلوب الشرط من الاعتبارات عند أهل اللغة واهل الميزان. وينظر المطول فى هذه المسألة صفحة ١٦٣ وما بعدها

الأول[1]: لا نسلم أن التعليق بالشرط يقتضى انتفاء المعلق عند انتفائه، والاستدلال بأن انتفاء الشرط يوجب انتفاء المشروط لأنه عبارة عما يتوقف عليه وجود الشيء - فى غاية السقوط، لأنه غلط من اشتراك اللفظ. إذ لا نسلم أن الشرط النحوى هو ما يتوقف عليه وجود الشيء، بل هو المذكور بعد (إن) وأخواته معلقا عليه حصول مضمون جملة، أى حكم بأنه يحصل مضمون تلك الجملة عند حصوله. وكلاهما منقول عن معناهما اللغوى. يقال: شرط عليه كذا، إذا جعله علامة. ألا يرى أن قولنا: إن كان هذا إنسانا فهو حيوان شرط وجزاء مع أن كونه حيوانا لا يتوقف على كونه إنسانا، ولا ينتفي بانتفائه. بل الأمر بالعكس، لأن الشرط النحوى فى الغالب ملزوم والجزاء لازم " [2]

• **دفع الاعترض الثالث**:

وأما ما يعترض به من عدم صحة التوقف والتقييد بالشرط، لكونه يستلزم انتفاء الجزاء لانتفاء الشرط فى أمثلة يتعين فيها وجود الجزاء وجد الشرط أو عدم، فإن إدراك طبيعة الشرط يكشف عن عدم تخلف توقف الجزاء على الشرط بحكم التعليق بينهما، وذلك فى جميع الأمثلة؛ لأن انتفاء الجزاء لانتفاء الشرط من حيث ترتبه على هذا الشرط لا من حيث ترتبه على شرط آخر موجود. فلا منافاة بين انتفائه لانتفاء الشرط المذكور وبين وجوده من حيث ترتبه على سبب آخر غير الشرط المذكور، لاختلاف حيثية التعليق المذكور التى اقتضت الانتفاء عن حيثية التعليق غير المذكور المقتضى الوجود. [3]

ومرجع ذلك إلى أهمية القصد عند المتكلم ، ومراعاته للكشف عن المعنى المراد. لأن العبرة بما يتجه إليه من شرط بخصوصه يتوقف عليه الجزاء. وهذا هو ما يراعيه العلماء عند إبانتهم عن المعانى وإبرازها. وذلك فى إطار ما يكشف عنه المقام والسياق. ففى سياق بيان المراد من عبارة سيبويه فى (لو) وأنها حرف لما كان سيقع لوقوع غيره يشير الأشمونى - رضى الله عنه- بأنها تدل على الامتناع الناشيء عن فقد السبب لا على مطلق الامتناع ، وهو نفس المراد من قول المعربين: إن لو تدل على امتناع الجواب لامتناع الشرط. ثم يبين أن قولهم صحيح وإن وجد الجواب وثبت

---

(١) وهو ما نحتاجه للاستشهاد.

(٢) المطول ١٦٣

(٣) تنظر حاشية عبد الحكيم على المطول وتقرير الشربينى عليه ٥٢/٣ وحاشية الدسوقى على المختصر = شروح ٦٩/٢ وشرح مختصر ابن الحاجب ١٨٠/٢، ١٨١

لوجود سبب آخر غير مقصود، لأنه وإن وجد سبب آخر فإنه لا يقصد من عبارهم كون الجواب ممتنعا أن امتناعه فى جميع المواضع، لأن وجوده مع سبب آخر لا يعارض امتناعه مع امتناع الشرط المذكور. (١)

•دفع الاعترض الرابع:

أما الاعتراض بما يكون من أمثلة يكون المقدم فيها أخص لغة فإنه يدفع بأمرين:

الأول: أنه يدفع بما دفع به الاعتراض الثالث. لأن النظر إلى الموجود. ويكون انتفاء الجزاء بانتفائه حتى ولو كان فيه ما يمكن أن يكون ملزوما أو سببا للجزاء كالمثال المذكور: إن كان هذا إنسانا فهو حيوان. فإن نفى الإنسانية يقتضى نفى الحيوانية من حيث كون الحيوانية المنتفية هى الحيوانية المترتبة على الإنسانية، وكأن الشرط المذكور هو السبب الوحيد لتحقق الجزاء ادعاء. (٢)

الآخر: أن هذا المثال المذكور من صناعة أهل المنطق للتمثيل به للتلازم بين الأشياء وإقامة الارتباط، ولا يقصد به الدلالة على الاشتراط، وقد جاءت أمثلة كثيرة على هذه الشاكلة، كقولهم: لو طلعت الشمس فالدار مضيئة. وقد أشار إلى ذلك الجلال المحلى عندما لحظ أن ابن السبكى يمثل لأسلوب الشرط بـــ(لو) المنتفى فيه الجواب مع الشرط على جهة الاحتمال بالمثال: لو كان هذا إنسانا فهو حيوان ويقول عند تمثيله به: " كقولك ..." ويعلل المحلى ذلك بأنه لا يوجد له مثال فى القرآن الكريم ولا غيره. (٣)

وهذا شاهد على إدراكهم وملاحظتهم صناعة مثل الأمثلة قصدا إلى إفادة مجرد التلازم والارتباط.

•الفرق بين الاعتبارين:

يترتب على اختلاف الاعتبار بين اللغويين والمنطقيين الفروق الآتية:

أولا: اختلاف المحكوم عليه والمحكوم به فى الاعتبارين. فطرفا الحكم عند أهل اللغة جزءا جملة الجزاء ويكون الشرط قيدا فى النسبة بينهما.

وعند المنطقيين المحكوم عليه هو الشرط والمحكوم به هو الجزاء وتكون النسبة هى الارتباط بينهما.

---

(١) ينظر شرح الأشمونى ٢٩/٤

(٢) ينظر تقرير الأنبابى ٣٥٩/٢

(٣) ينظر شرح التاج المحلى لجمع الجوامع ٢٧٧/١

ثانيا: ترتبط خبرية الجملة الشرطية وإنشائيتها عند أهل اللغة بالجزاء، فإن كان خبريا كانت خبرية وإن كان إنشائيا كانت الجملة إنشائية.

ثالثا: إن صدق الشرطية عند أهل اللغة يرتبط بمطابقة الحكم المقيد بالشرط للواقع، وكذبها بعدم مطابقتها للواقع. وعند أهل المنطق يرجع الصدق إلى مطابقة اللزوم للواقع، وكذبها عند انتفاء اللزوم فى الواقع.

رابعا: إن مفهوم الجملة الشرطية عند أهل اللغة بمقتضى هذا هو ثبوت حكم الجزاء على تقدير وجود الشرط، وعند المنطقيين هو الحكم بلزوم الجزاء للشرط.

خامسا: ويتمثل هذا الفرق فيما يؤول إليه الاختلاف بين الاعتبارين، فالجملة الشرطية بمقتضى كلام أهل اللغة يثبت بها مفهوم المخالفة، لأن الشرط عندهم مخصص للجزاء ببعض التقديرات وناف له بالبعض الأخر، ولولا التقييد بالشرط لكان حكم الجزاء عاما لجميع التقديرات. وعند المنطقيين كل واحد من الشرط والجزاء بمنزلة جزء القضية الحملية لا يفيد الحكم أصلا، فلا يخصص الشرط الجزاء ببعض التقديرات، ولا يترتب على ذلك مفهوم المخالفة. بل هو مسكوت عنه. (١) فالمآل إذا يختلف بين الاعتبارين. على أن عبد الحكيم ادعى كون المآل واحدا مع ذكره للفرق بين الاعتبارين، فكيف إذا يتفق المآل مع وجود هذه الفروق بينهما ؟

قال عبد الحكيم: " فإن قلت: فما الفرق بين مذهبي أهل العربية والميزانيين فإن المآل واحد؟ قلت: الفرق أن الشرط عند أهل العربية مخصص للجزاء ببعض التقديرات، حتى إنه لولا التقييد بالشرط كان الحكم الذى فى الجزاء عاما لجميع التقديرات، فيكون القيد مفيدا لمفهوم المخالفة كما ذهب إليه الشافعية. وعند الميزانيين كل واحد من الشرط والجزاء بمنزلة جزء القضية الحملية لا يفيد الحكم أصلا، فلا يكون الشرط مخصصا للجزاء ببعض التقديرات، ولا يتصور مفهوم المخالفة بل هو ساكت عنه، كما هو مذهب الحنفية " (٢)

فإن كان عبد الحكيم يقصد بالمآل كون الجملة الشرطية معناها ثبوت الجزاء على تقدير ثبوت الشرط وهو مآلها ومفادها عند اللغويين والمنطقيين – إن كان كذلك فإن هذه الدلالة دلالة المنطوق وقد اكتفى بها أهل المنطق دون أهل اللغة الذين جعلوا من دلالتها أيضا دلالة المفهوم، فتفيد الجملة الشرطية عندهم أيضا انتفاء الجزاء على

---

(١) تنظر حاشية الدسوقى = شروح ٢/٣٧ ، ٣٨
وحاشية عبد الحكيم على المطول ٣/٥١ ، ٥٢

(٢) حاشية عبد الحكيم على المطول = فيض الفاتح ٣/٥١ ، ٥٢

تقدير انتفاء الشرط. وهو ما صرح به عبد الحكيم بقوله: إن الشرط عند أهل العربية مخصص للجزاء ببعض التقديرات.. فحصول الجزاء عند حصول الشرط حصول توقف عند أهل اللغة، وحصول ترتب عند أهل المنطق، وفرق كبير بين التوقف والترتب.

وقد آل هذا الخلاف إلى الفقهاء أيضا فى استنباط الحكم من أساليب الشرط فى القرآن الكريم. فالإمام الشافعى – رضى الله عنه – يأخذ باعتبار اللغويين من كون التعليق بالشرط يوجب عدم المشروط عند عدم الشرط، وذلك عملا بشرطيته، لكون الشرط ما يتوقف عليه المشروط، فيلزم ضرورة انتفاء المشروط لانتفاء الشرط. فتراكيب الشرط تدل على الانتفاء كما تدل على الوجود عند الوجود.

أما الأحناف فلا يأخذون بمفهوم المخالفة، فلا يثبت العدم عندهم بالتعليق. فيكون المشروط مسكوتا عنه عند الانتفاء ويبقى عدمه أصليا، أى ليس حكما شرعيا مستفادا من أسلوب الشرط. لأنهم يرون أن الشرط النحوى يترتب عليه الحكم ولا يتوقف عليه، لإمكان وجوده بسبب آخر. فقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ (سورة النساء ٢٥) يوجب عدم جواز نكاح الأمة عند طول الحرة عند الشافعية، لأن الآية علقت جواز نكاح الأمة بعدم القدرة على نكاح الحرة. فإن كانت القدرة ثابتة ثبت عدم جواز نكاح الأمة. لأنه متى ثبت كونه شرطا لزم من انتفائه انتفاء المشروط، لأن ذلك معنى الشرط. فيصير مفهوما مخصصا لقوله تعالى: ﴿ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ ﴾ (سورة النساء ٢٤)

أما عند الأحناف فلا يدل على نفى الجواز، ولا يصير مخصصا ولا ناسخا لقوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ ﴾[1] وواضح أن هذا مآل الخلاف الذى وقع بين الاعتبارين: اعتبار أهل اللغة واعتبار أهل المنطق، فالذى ظنه عبد الحكيم من كون المآل واحدا مردود بثبوت مفهوم المخالفة عند أهل اللغة بخلاف أهل الميزان.

•مناقشة الاعتبارين وتحقيقهما:

فى ضوء ما ذكر تعرض بعض التساؤلات: هل يتعين بعد التحقيق أحد الاعتبارين دون الآخر ؟ أو أنه يصح حمل الشرطية على أى منهما ؟ وإذا كان كذلك. هل يترجح أحدهما على الآخر ؟ ثم ما العلل والأسباب وراء كل هذا؟ ولعلى أوفق بعون من الله تعالى فى الإجابة على هذه الأسئلة.

---

(١) ينظر فى ذلك التوضيح على التنقيح والتلويح عليه ١/١٤٥ ، ١٤٦ وكذلك شرح مختصر ابن الحاجب ٢/١٨٠ والمستصفى ٢/١٩٤

•رأى عند ابن يعقوب:

رأيت ابن يعقوب المغربي يذكر تحقيقا للمسألة قائلا: " والتحقق [1] أن الشرط تارة يراد به إجراؤه مجرى القيد، كما إذا علم مجيء زيد غدا، فيقال: إذا جاءك زيد فقد استحق أن يكرم. لأن المعنى أن ذلك الوقت المعلوم الحصول يستحق فيه زيد الإكرام، ولا يسع المنطقيين إنكار هذا الاعتبار. إلا أن القضية حينئذ عندهم – ولو كانت فى صورة الشرطية – فى معنى الوقتية. وتارة يراد به أنه بتقدير وجوده يوجد الجزاء، فيكون القصد إلى الربط بينه وبين الشرط ولو لم يوجد أحدهما. كما فى قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (سورة الأنبياء ٢٢). ولا يسع أهل العربية إنكاره. فإن كان مراد من نسب إلى أهل العربية ما اختصوا به فى زعمه أن ذلك هو الأكثر فى استعمالهم أمكنت صحته ...." [2]

وغاية ما يقال فيما ذكره ابن يعقوب: أنه أفاد أن الشرط منه ما يجرى مجرى القيد. ومنه ما يقصد به الربط والتعليق وترتب الجزاء على الشرط. وهذا حق لا مراء فيه. لكن متى يتعين هذا أو ذاك، أو يترجح أحدهما عن الآخر ؟ إنه لم يفصح عنه. على أن إنعام النظر فى المثال الذى استشهد به على ما يجرى مجرى القيد يكشف أن المناسب له معنى الترتب والارتباط. لأنه لا طائل وراء التقييد بما هو معلوم الوقوع، وهو العلم بمجيء زيد فى المثال المذكور؛ لأن المناسب له معرفة ما يرتبط به ويترتب عليه على اعتبار المنطقيين.

•رأيى فى ذلك:

على أن الوصول إلى ما ينبغى أن يعتبر فى أساليب الشرط من معنى توقف الجزاء كما هو اعتبار أهل اللغة، أو معنى الترتب كما هو اعتبار المنطقيين يعتمد على إدراك الأمور الآتية:

الأمر الأول: إدراك تأصل الدلالة فى الشرط اللغوى على معنى التوقف ومعنى الترتب. أما التوقف فلأنه بحكم كونه شرطا يقتضى توقف الجزاء عليه، ويستلزم ذلك انتفاء الجزاء عند انتفائه. وأما الترتب وهو وجود الجزاء لوجود الشرط وترتبه عليه. ذلك لأن الشرط اللغوى يصير سببا فى تحقق الجزاء حقيقة أو تقديرا. ويكون مصدر هذه السببية العقل، أو الشرع، أو الجعل من المتكلم، أو مجرد الاقتران خارجا. [3]

---

(١) حكى الشيخ العطار هذا التحقيق وذكر أن ابن يعقوب نقله عن بعض الشيوخ ولم يذكر من قائله. حاشية العطار على شرح التهذيب ١٤٩

(٢) مواهب الفتاح = شروح ٣٦/٢- ٣٧

(٣) ينظر فى البحث موضوع طبيعة الارتباط بين الشرط والجزاء ص ٤٢.

وتتبع أساليب الشرط يكشف ذلك بوضوح. فإن قول القائل: إن زرتنى أكرمتك – يفهم منه لغة أن الزيارة شرط للإكرام، بحيث إن الزيارة لو انتفت انتفى الإكرام بحكم ما يقتضيه التوقف، كما أن وجود الزيارة يقتضى الإكرام بحكم سببيتها فيه، وهو معنى الترتب الذى يفيده الشرط.

وأسوق بعض الشواهد من القرآن الكريم للدلالة على ذلك:

١- قال الله تعالى: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ (سورة الأعراف ١١٣)

فالشرط يفيد توقف الأجر عليه، فلا يكون إلا بعد تحقق الغلبة على موسى – عليه السلام – وكذلك تحقق هذا الشرط يترتب عليه إعطاء الأجر، لأنهم جعلوه علة وسببا له. يشير أبو السعود إلى معنى السببية قائلا: " وقولهم: إن كنا – لمجرد تعيين مناط ثبوت الأجر لا لترددهم فى الغلبة. وتوسيط الضمير وتحلية الخبر باللام للقصر. أى إن كنا نحن الغالبين لا موسى " (١) فقوله: إن كنا نحن الغالبين لا موسى إدراك لمعنى التوقف الذى يشير إليه أسلوب الشرط، أى أن ذلك موقوف على غلبتهم هم لا موسى.

٢- قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة الأعراف ١٤٣)

واضح أن الجزاء وهو الرؤية متوقف على الشرط، وهو استقرار الجبل حين يتجلى ربه له، فجعل الله سبحانه وتعالى هذا الاستقرار شرطا لتحقق الرؤية إذ تتوقف عليه بحيث تنتفى عند عدم الاستقرار وقت التجلى. وهذا التوقف ملاحظ ومدرك، وهو من الوضوح بحيث لا ينتفى مع أى رأى من آراء العلماء التى ذكروها فى إثبات الرؤية أو فى نفيها باعتبار التعليق على أمر جائز، أو التعليق على أمر مستحيل.

ويشير أبو حيان إلى معنى التوقف قائلا: " وتعليق الرؤية على تقدير الاستقرار مؤذن بعدمها إن لم يستقر" (٢) كما أن المقام يسعف بمعنى الترتب، لأن موسى عليه السلام كان ينتظر الرؤية فرتبها له ربه تعالى على الشرط المذكور، والذى تتوقف عليه أيضا، والاستثناء هنا بقوله تعالى: (ولكن) بعد أن نفى له الرؤية يشعر بالإخبار بشىء

---

(١) تفسير أبى السعود ٤٥٣/٤

(٢) البحر المحيط ٣٨٣/٤

آخر تترتب عليه الرؤية. كما أن إفاقة موسى عليه السلام ثم إنابته وتوبته إليه تشعر أيضا بأنه صعق وهو منتظر الرؤية ومتوقع لها. (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا).

٣- قال تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة:٥)

فالشرطان فى الآية الكريمة: فإذا انسلخ الأشهر الحرم. وقوله فإن تابوا.. يتوقف عليهما الجزاء، وهو قتلهم عند بقائهم على الشرك، وتخلية سبيلهم إن تابوا.. كما أنه لا يخفى ترتب الجزاءين عليهما، فمجرد بقائهم على الشرك يقتضى أن يسرى عليهم حكم القتل. وتوبتهم تستلزم تخلية سبيلهم.

٤- قال تعالى: ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (النمل:٦٤)

فالجزاء هو الإتيان بالبرهان على ما يدعون متوقف على صدقهم، كما أن هذا الصدق المفترض جدلا يترتب عليه- بحكم جعله سببا- مجيء البرهان. والشرط هنا سبب مساو للجزاء يدل كل منهما على الآخر، أى أن كل واحد منهما يتوقف على الآخر كما أنه يترتب عليه. فهما متلازمان وجودا وعدما. لكن وجود البرهان مرتبا على الصدق يستدعيه المقام الذى يطلب منهم فيه ذلك تدليلا على صدقهم ، والله أعلم.

تجلى إذاً مما سبق دلالة أسلوب الشرط على معنى التوقف بحكم الشرطية. وكذلك الترتب بحكم جعل الشرط سببا فى تحقق الجزاء.

الأمر الثانى: أنه مع تأصل أسلوب الشرط فى الدلالة على المعنيين المذكورين: التوقف بحكم الشرطية والترتب بحكم سببية الشرط فى الجزاء إلا أنه قد يصاحب الشرط من قرائن الأحوال والسياق ما يدل على أن المقصود الأصلي من الشرط الإبانة عن معنى التوقف، أو الإبانة عن معنى الترتب، ولا يبقى للمعنى الثانى مع المقصود الأصلى إلا معنى خافت لا يظهر إلا عند عزل أسلوب الشرط عن مقامه وسياقه. وملاحظة ذلك أمر مهم للعصمة من الزلل عند وضع الآيات فى مواضع الاستشهاد بها، لأن صلاحية أسلوب الشرط للدلالة على المعنيين: التوقف والترتب قد يوقع فى لبس عند الإبانة عن المعنى المقصود نتيجة للنظرة الساذجة غير المتأنية اعتمادا على صلاحية أسلوب الشرط للدلالة على المعنيين. فمن الأمثلة ما يقتضى فيها المقام

والسياق أن يكون المقصود الأصلي هو التوقف، ومنها ما يكون المقصود الأصلي فيها معنى الترتب. وفيما يلي إن شاء الله تعالى بعض الشواهد الدالة على صحة ذلك، وتقرير هذا الأمر.

القصد إلى معنى التوقف:

١- يحدث القرآن الكريم عن عناد الكافرين في حربهم للمؤمنين قائلا: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة:٢١٧) فقوله تعالى: " إن استطاعوا" شرط يقصد به إظهار معنى توقف رد المؤمنين إلى الكفر على استطاعة الكافرين ولن يستطيعوا ذلك (وحيل بينهم وبين ما يشتهون) فالقصد بروز استحالة ذلك لتعليقه بشرط مستحيل يدل على استحالته سياق الآية. قال أبو السعود: "وإضافة الدين إليهم لتذكير تأكد ما بينهما من العلاقة الموجبة لامتناع الافتراق" [١] وعلى هذا يستحيل ردهم إلى الكفر.

قال تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحاً وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة:٢٢٨)

فالشرط في قوله تعالى (إن أرادوا إصلاحا) يقصد به- والله أعلم بمراده- الإخبار بتوقف جدارتهم واستحقاقهم إرجاع زوجاتهم على إرادة الإصلاح. فإن انتفت الإرادة انتفت جدارتهم واستحقاقهم لذلك. ولا يندفع القصد إلى معنى التوقف بما دفع به أهل العلم ظاهر الآية وصرح به أبو حيان قائلا: "وظاهره أن إباحة الرجعة معقودة بشريطة إرادة الإصلاح، ولا خلاف بين أهل العلم أنه إذا راجعها مضارا في الرجعة، مريدا لتطويل العدة عليها أن رجعته صحيحة " [٢] ووجه عدم الاندفاع أن الشرط في الآية ليس مرتبطا بجواز الرجعة وإنما يرتبط بأحقية الرجعة. ولا يقال: الأحقية بالرجعة ثابتة أرادوا الإصلاح أم لا. لأنا نقول: إن المقصود بأحق هنا معنى حقيق وليس مرادا

---

(١) تفسير أبو السعود ٢/١١

(٢) البحر المحيط ٢/١٨٩

بها التفضيل فى الإرجاع. وانتفاء أحقية الزوج وجدارته بالرجعة عند عدم إرادة الإصلاح لتوقف الأحقية والجدارة على هذه الإرادة لا يقتضى نفى صحة الرجعة. لأن الرجعة مع عدم الإرادة جائزة، وإن كان تمكن الزوج منها دون غيره لا على سبيل الجدارة والأهلية.

قال أبو حيان " وأحق هنا ليست على بابها لأن غير الزوج لا حق له ولا تسلط على الزوجة فى مدة العدة، إنما ذلك للزوج، ولا حق لها أيضا فى ذلك. بل لو أبت كان له ردها، فكأنه قيل: وبعولتهن حقيقيون بردهن " (١)

فأول كلامه يذهب إلى معنى الترتب وقوله حقيقون يوضح ويؤكد معنى التوقف لأن (حقيقون) بذلك أى جديرون به.

وكلام الآلوسى صريح فى ذلك يقول: " وأحق هنا بمعنى حقيق، عبر عنه بصيغة التفضيل للمبالغة. كأنه قيل: للبعولة حق الرجعة، أى حق محبوب عند الله تعالى، بخلاف الطلاق فإنه مبغوض " (٢) وليس من شك فى أن كونه محبوبا عند الله مشروط بإرادة الإصلاح، ويؤيد ذلك استشهادهم بالشرط على معنى التحريض على الإصلاح بدلالة الشرط على نفى الأحقية فى الرجعة أى جدارتهم بها.

ويبين البيضاوى مقصود التعليق قائلا: " وليس المراد منه شريطة قصد الإصلاح للرجعة بل التحريض عليه والمنع من قصد الضرار" (٣) ثم يستدل الشهاب – أيضا– بنفى الأحقية على معنى التحريض قائلا:"لأنه لو راجعها للضرار صحت الرجعة بالاتفاق. ووجه التحريض من نفى الأحقية إذا لم يريدوا الإصلاح وهو ظاهر " (٤)

واضح مما سبق القصد إلى معنى التوقف فى الآية:

٣– قال تعالى: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ * قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾(الشعراء: ٣٠ ، ٣١)

المقام هنا مقام مناظرة وتحد من فرعون لموسى عليه السلام، وتكذيب له فى دعوته التى تخلع ملكه وسطوته. لذا فهو يعلق مجىء موسى عليه السلام بالبرهان المبين على صدقه والذى يعتقد– قاتله الله – استحالته. فأفاد مقام الآية توقف الجزاء على الشرط. وانتفاء الشرط يستلزم انتفاء المشروط وهو المجىء بشىء مبين. وهو ما يقصد إليه فرعون.

---

(١) البحر المحيط ١٨٨/٢

(٢) تفسير الآلوسى ١٣٤/٢

(٣) تفسير البيضاوى ٣١٢/٢

(٤) حاشية الشهاب ٣١٢/٢

٤- قال تعالى: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء: ٥١)

قال أبو حيان: " قرأ أبان بن تغلب وأبو معاذ [١] (إن كنا....) بكسر الهمزة قال صاحب اللوامح: [٢] على الشرط وجاز حذف الفاء من الجواب لأنه متقدم وتقديره إن كنا أول المؤمنين فإنا نطمع ....." ثم أشار إلى ما فيه معنى التوقف قائلا:" وقال ابن عطية: بمعنى أن طمعهم إنما هو بهذا الشرط.....[٣] ومما يساعد على معنى التوقف توافق قراءة الفتح مع قراءة الكسر على الشرط. فقراءة الفتح تفيد معنى التعليل لطمعهم، وكذلك قراءة الكسر على الشرط تفيد معنى علة الشرط في المشروط وتوقف المعلول على العلة. لا مراء فيه.

٥- قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة: ٩١)

الشرط يفيد توقف رفع الحرج عنهم على تحقق النصح منهم لله ولرسوله وللمؤمنين.

قال أبو حيان: " وشرط في انتفاء الحرج النصح لله ولرسوله، وهو أن تكون نياتهم وأقوالهم سرا وجهرا خالصة لله من الغش، ساعية في إيصال الخير للمؤمنين، داعية لهم بالنصر والتمكين".[٤]

بهذا اتضح معنى التوقف.

•ملحظ مهم:

على أنه مما ينبغي ملاحظته أن أساليب الشرط يراد بها التوقف على حسب مقامها وسياقها كما ذكرت. كما أن معنى التوقف يطرد في موضعين:

الأول: عندما يتقدم مضمون الجزاء ثم يأتي بعده الشرط فيشير هذا المسلك إلى معنى التقييد بالشرط لتحقق الجزاء وذلك كما هو ملاحظ في الأمثلة السابقة. [٥]

---

(١) أبان بن تغلب الربعي عالم جليل قرأ على أبي عاصم وأبي عمرو والشيباني توفى ٢٤١ هـ غاية النهاية في طبقات القراء ٤/١ • وأبو معاذ هو الفضل بن خالد أبو معاذ النحوي ، روى عن خارجة بن مصعب مات قريبا من سنة ٢١١ قاله البجاوي. المرجع السابق ٩/٢

(٢) اللوامح لأبي الفضل الرازي (عبد الرحمن بن أحمد المقرى) توفى ٤٥٤ هـ . كشف الظنون ١٥٦٧/٢

(٣) البحر المحيط ١٦/٧

(٤) البحر المحيط ٨٥/٥

(٥) ينظر بدائع الفوائد ٤٩/١ والبحرالمحيط ٣٣٩/٣

الثاني: أن يكون الشرط مقصودا به التعجيز والتكذيب مثل (إن كنتم صادقين)(إن كنتم مؤمنين)(إن كنتم من الصادقين) [1]

القصد إلى معنى الترتُّب:

قلت إن أسلوب الشرط يدل بطبيعته على معنى التوقف باعتبار معنى الشرطية فيه ومعنى الترتيب نظرا لسببية الشرط فى الجزاء حقيقة أو تقديرا. وقد يصاحب الشرطية من القرائن ما يدل على أن المقصود الأهم هو معنى التوقف أو معنى الترتب. وهذا يستلزم الترفق للوصول إلى المقصود، واستشفاف المعنى المراد. لأن النظرة السريعة غير المتأنية توقع فى الفهم غير المراد، كأن يفهم معنى التوقف مع كون الترتب هو المراد. وسيتضح ذلك- إن شاء الله تعالى فيما يأتى:

١-قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٤)

الجملة الشرطية فى الآية الكريمة (أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم) مقصود منها معنى الترتب. والوجه فى ذلك أن الله تعالى ينكر عليهم أن يترتب على موته عليه الصلاة والسلام أو قتله انقلابهم على أعقابهم. لا أنه ينكر عليهم انقلابهم على أعقابهم مشروطا بالموت أو القتل ومتوقفا على واحد منهما. فيلزم على ذلك عدم الإنكار عليهم إن انقلبوا لسبب آخر. عند عدم تحقق الشرط المذكور. لكن هذا ليس مرادا، فتعين أن يكون القصد إلى معنى الترتب ويتسلط عليه الإنكار.

٢- قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (المائدة: ١٠١) فالتأمل فى الشرطية (إن تبد لكم تسؤكم) يكشف بمساعدة المقام أن المراد به الترتب. لأن المراد بهذه الأشياء أشياء صفتها الإساءة فالصفة هنا مؤكدة لا مؤسسة. فالغرض بيان الحيثية التى من أجلها نهى عن السؤال. بدليل وجود أشياء إبداؤها لا يسىء.

فالنهى من هذه الحيثية. وقد ذكر أبو حيان عن ابن عباس رضى الله عنهما قولا فيها:" قال ابن عباس: معناه لا تسألوا عن أشياء فى ضمن الإخبار عنها مساءة لكم، إما لتكليف شرعى يلزمكم، وإما لخبر يسوءكم، مثل الذى قال من أبى؟ ولكن إذا نزل القرآن بشىء وابتدأكم ربكم بأمر فحينئذ إن سألتم عن بيانه بين لكم

(١) الآيات على الترتيب البقرة ٣١ ، والبقرة ٩١ ، والشعراء ٥١

وأبدى"[1] وقد ذكر أبو السعود – أيضا– أن هذه الحيثية هى الرغبة فى النهى. قال:" لأن تلك الحيثية هى الموجبة للانتهاء والانزجار لا حيثية إيجابها للمسرة ولا حيثية ترددها بين الإيجابين "[2] ومراعاة هذه الحيثية دليل على أن القصد من الشرط معنى الترتب لا معنى التوقف. لأن التوقف يفيد عدم وجود الإساءة إلا بعد إبدائها. مع أنها موجودة أبديت أم لا.

٣– قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٢)

لو نظرنا إلى الشرط فى الآية الكريمة بعيدا عن مقامه الذى جاء فيه احتمل أحد معنيين:

الأول: أن يكون القصد بيان سبب انتفاء الفساد عن طريق تقييد وجود الفساد بوجود آلهة أخرى غير الله. فلما انتفى وجود آلهة مع الله – بحكم دلالة لو على امتناع الشرط– انتفى الفساد وهو الجزاء نزولا على ما يقتضيه التقييد بالشرط المقتضى لمعنى التوقف.

الآخر: أن يكون المراد نفى تعدد الآلهة عن طريق إقامة اللزوم بين الشرط الذى هو سبب وبين الجزاء الذى هو مسبب، وهو معنى الترتب فلما انتفى وقوع الفساد بحكم المشاهد انتفى تعدد الآلهة بمقتضى أن انتفاء اللازم يستلزم انتفاء الملزوم. فالآية إذا تحتمل معنى التوقف ومعنى الترتب عندما ننظر إليها بعيدا عن مقامها ومناسبتها. لكن عند النظر إليها فى معرض مقامها مراعى المقصود بالشرط فيها – وهو تقرير الوحدانية وإثباتها لا نفى الفساد – يتبين أن المراد منها معنى الترتب الذى هو معنى اللزوم بين الشرط والجزاء، ثم الاستدلال بهذا اللزوم على انتفاء التعدد، الذى هو غرض الآية الكريمة.

وهذا الجانب هو الذى لاحظه المنطقيون عندما قالوا: إن مفهوم القضية الشرطية الحكم بلزوم الجزاء للشرط وترتبه عليه. لكن دلالة الآية الكريمة فى هذا المقام على معنى اللزوم والترتب لا ينهض دليلا على اطراد ما ذهبوا إليه؛ لأن صلاحية أسلوب الشرط للدلالة على التوقف والترتب والاستعانة بالمقام عند القصد إلى واحد منهما دليل على عدم تأصل ما ذهبوا إليه.

---

(١) البحر المحيط ٣١/٤

(٢) تفسير أبو السعود ٦٣/٤

٤- ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً﴾ (النساء:٨٢)

فالشرط هنا يراد به معنى الترتب لا معنى توقف الجزاء على الشرط، يدل على ذلك أن الآية تتحدث عن الكافرين الذين لم يؤمنوا بالقرآن، وقد كانوا يدعون أنه من عند غير الله، ولم يدعوا وجود الخلاف فيه. فرتبت الآية على دعواهم أنه من عند غير الله لازما له، وهو وجود الاختلاف فيه. ولما كانوا يقرون بانتفاء الخلاف الذى هو لازم ما ادعوه كذبا دل ذلك على انتفاء الملزوم الذى ادعوه. فالقصد فى الآية إلى معنى الترتب لا إلى توقف الاختلاف على كونه من عند غير الله، لأنهم لم يدعوا وجود الاختلاف. والله أعلم.

•أثر السياق فى الدلالة على المقصود:

وللسياق قيمة وأثر مهم فى الدلالة على المعنى المقصود بالشرط. إذ قد يدل المقام على معنى التوقف بمساعدة قرائن أخرى خلاف الشرط، فلا يبقى للشرط عندئذ فى سياق الكلام ونظمه إلا إفادة معنى ترتب الجزاء على الشرط على فرض تحقق الشرط. يتضح ذلك بالنظر فى دلالة الآيات الآتية على المقصود منها:

٥- قال تعالى: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة:١٩١)

فالآية الكريمة تشرع للمسلمين المسلك الإسلامى فى معاملة المشركين، وتأمرهم بقتلهم وإخراجهم كما أخرجوهم من ديارهم، ثم تحذرهم من قتالهم عند المسجد الحرام مراعاة لحرمته- لكن تجعل ذلك النهى مشروطا ومتوقفا على عدم قتال المشركين لهم عنده- فمعنى التوقف فُهِمَ من الآية بعد أن غَيَّت عدم قتل المشركين بقتالهم للمسلمين (حتى يقاتلوكم فيه).

لن يبقى إذا بعد توقف القتل لهم على قتالهم -للشرط فى قوله تعالى: (فإن قاتلوكم فاقتلوهم) غير إفادة ما يترتب على قتال المشركين لهم وهو قتلهم. فالمعنى - والله أعلم - أنى اشترطت عليكم ذلك، فإن حصل منهم قتال ولم يحصل ما اشترطته فرتبوا على قتالهم لكم قتلكم لهم، لأن ذلك جزاؤهم.

فالشرط وإن ناسبه معنى التوقف فى مقامه إلا أن وجوده فى نظم الآية يقتضى إفادة معنى الترتب، وتكون الآية بنظمها أفادت معنى التوقف أولا - وإن كان بطريق الغاية- والترتب ثانيا بطريق الشرط. والله أعلم.

ومن هذا القبيل أيضا الآية الآتية:

٦- قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذىً فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة: ٢٢٢)

فالآية قد أفادت فى أولها الأمر باعتزال النساء فى المحيض إلى وقت الطهارة، أى أفادت توقف الإتيان عليها. ثم جاء الشرط فى هذا السياق بعد ذلك لإفادة ترتب الإتيان عند تحقق الطهارة.

وليس من معنى لإفادة اشتراط الطهارة له بعد بيان اشتراطها فى أول الآية وإنما القصد – والله أعلم – بيان ما يترتب على تحقق شرط الحل. والله أعلم.

ومن ذلك أيضا:

٧- قوله تعالى: ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ (المائدة: ٢٢)

فقد حكت الآية الكريمة ما قاله قوم موسى من اشتراط خروج الجبارين من الأرض ليدخلوها، وأنهم سيبقون بعيدين عنها حتى يخرجوا، ثم بعد أن قالوا ذلك بينوا ما ينتظر منهم عند خروج أعدائهم وهو دخولهم الأرض المقدسة. فالشرط قصد به معنى الترتب أى ترتب الجزاء على الشرط، ولم يساعد السياق ونظم الآية على معنى التوقف، وإن كان الشرط فى المقام يتوقف عليه تحقق الجزاء. لكنهم بعد أن اشترطوا وغيَّوا دخلوهم بخروج العمالقة لم يبق إلا أن يرتبوا على خروجهم دخولهم. والله أعلم.

الأمر الثالث: أن جملة الشرط تدل على أن المشروط يكون معدوما عند عدم الشرط وإن اختلف طريق الدلالة على هذا الانتفاء. وأنه لا يثبت المشروط مع عدم الشرط إلا بدليل.

ذلك أنه بالتأمل وإمعان النظر فى اتجاه القائلين بالتوقف فى الجملة الشرطية، وإفادتها وجود المشروط عند وجود الشرط، وانتفائه عند انتفائه، وفى اتجاه القائلين باللزوم وترتب وجود المشروط على وجود الشرط دون استلزام انتفائه انتفاء المشروط – يتضح أنهم يلتقون فى كون المشروط يكون معدوما عند عدم الشرط. لكنهم يختلفون فى طريق الدلالة على كونه معدوما. فالقائلون بالتوقف يرون أن انتفاء الشرط دليل على انتفاء المشروط بمقتضى كونه شرطا يتوقف عليه المشروط. ويكون الانتفاء على هذا مستفادا من نظم الكلام نفسه لا من دليل آخر خارج عنه. أما القائلون بالترتب فيقولون إن الشرط يدل وجوده على وجود المشروط لكن عدم الشرط لا يدل على عدمه، لأن عدمه يكون أصليا غير مستفاد من أسلوب الشرط.

فقول القائل: إن زرتنى أكرمتك يدل على وجود الإكرام بقيد الزيارة وعلى تقدير حصولها فإن انتفت الزيارة انتفى الإكرام. فالتقييد يفيد أمرين: وجود الإكرام عند وجود الزيارة، وعدمه عند عدمها. والأول دلالة المنطوق. والثانى دلالة المفهوم.(١)

هذا عند القائلين بالتقييد ودلالة الشرط على مفهوم المخالفة. أما القائلون باللزوم ودلالة المنطوق فقط فيقولون: إن الشرط يدل على وجود الإكرام عند وجود الزيارة. ولا يدل على انتفاء الإكرام عند انتفائها. (٢)

والقائلون بالترتب بعد أن اتفقوا مع أهل اللغة على انتفاء المشروط عند انتفاء الشرط – وإن اختلف اعتبار الانتفاء عند كل منهما– يتفقون أيضا على أن ثبوت المشروط عند عدم الشرط فى بعض الأمثلة يعتمد على دليل من قرائن المقام، إلا أن هذا الدليل يكون دليلا على وجود ما كان معدوما عدما أصليا عند أهل المنطق، أما عند أهل اللغة يكون دليلا على عدم اعتبار مفهوم المخالفة الذى يدل عليه الشرط عندهم.

يدل على ذلك إجماع العلماء على صحة قصر الصلاة عند السفر وجد الخوف أو لا، واعتبارهم الشرط لا يقتضى توقف القصر على الخوف فى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوّاً مُبِيناً﴾ (النساء:١٠١) وذلك لكون الشرط لا يدل على انتفاء المشروط عند عدم الشرط، أو أنه يدل عليه إلا إذا قام دليل يمنع اعتبار المفهوم. فمثلا نجد أبا السعود لا يرتضى تأصل دلالة الشرط على المفهوم معتبرا انتفاء المشروط عند انتفاء الشرط من طريق آخر غير أسلوب الشرط، يقول عند تفسيره الآية السابقة بعد أن يذكر حديث أبي يعلى (ما بالنا نقصر من الصلاة وقد أمِنَّا....)– يقول:" فيه دليل على عدم جواز الإكمال، لأن التصدق بما لا يحتمل التمليك إسقاط محض لا يحتمل الرد كما حقق فى موضعه. ولا يُتوهم أنه مخالف للكتاب، لأن التقييد بالشرط عندنا إنما يدل على ثبوت الحكم عند وجود الشرط. وأما عدمه عند عدمه فساكت عنه. فإن وجد له دليل ثبت عنده أيضا. وإلا يبقى على

---

(١) المعنى المدلول عليه باللفظ قد يكون بمنطوقه وقد يكون بمفهومه. والمنطوق ما يدل عليه اللفظ فى محل النطق، بأن يكون صفة للمذكور وحكما له ، والمفهوم ما يدل عليه فى غير محل النطق، بأن يكون حكما لغير المذكور مخالفة أو موافقة. ينظر مختصر ابن الحاجب وشروحه ١٧١/٢ وتسهيل الوصول إلى علم الأصول ١٠٧

(٢) ينظر التوضيح والتلويح عليه ١٤٥/١ وما بعدها، ومختصر ابن الحاجب وشروحه ١٨٠/٢ وما بعدها.

حاله لعدم تحقق دليله، لا لتحقق دليل عدمه، وأما عند القائلين بالمفهوم فلأنه إنما يدل على نفى الحكم عند عدم الشرط إذا لم يكن له فائدة أخرى " [1]

ويسلك البعض الآخر فى تفسيره مسلكا آخر معتبرا دلالة المفهوم مشيرا إلى إمكان عدم اعتبار هذه الدلالة فى بعض الشواهد كما فى هذه الآية. فالشهاب ينوه إلى دقة ملحظ البيضاوى عند تفسيره لها واعتباره دلالة الشرط على المفهوم أصالة لكنه لم يُعتبر فى الآية.

فقد قال البيضاوى فى تفسيرها: " شريطة باعتبار الغالب فى ذلك الوقت، ولذلك لم يعتبر مفهومها كما لم يعتبر فى قوله تعالى:﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ﴾ (البقرة:٢٢٩) وقد تظاهرت السنن على جوازه أيضا فى حالة الأمن"[2] ثم قال الشهاب بعد أن ذكر ما قاله الفنارى حول الآية ، من كون الشأن فى الشرط الدلالة على المفهوم، لكنه خرج مخرج الغالب فى الآية – قال: " لذا قال المصنف – أى البيضاوى–: لم يُعتبر مفهومها، ولم يقل له مفهوم فاعْرِفهُ فإنه من دقائق هذا الكتاب. " [3]

• شرط مفهوم المخالفة:

واضح أن من يقول بدلالة الشرط على المفهوم يستثنى ما إذا عورض فيه الشرط بأمر يقتضى عدم هذه الدلالة.

وهى أمور سأذكرها على سبيل الإجمال للكشف عن أن المقام ودلالات السياق تساعد فى طريق هذه الدلالة. فقد اشترطوا ليتحقق مفهوم المخالفة ما يأتى [4].

١- عدم أولوية المسكوت عنه بالحكم:

وذلك عندما تدل القرائن على أن المسكوت عنه أحق بالحكم المذكور من الذى ذكر معه الشرط. من أمثلة ذلك ما يأتى:

١– قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة:١٤٥)

---

(١) تفسير أبى السعود ٢٥٩/٣

(٢) تفسير البيضاوى ١٧٣/٣

(٣) حاشية الشهاب على البيضاوى ١٧٣/٣

(٤) ينظر فى ذلك مختصر ابن الحاجب وشروحه ١٧٤/٢ والتوضيح والتلويح عليه ١٤١/١ وما بعدها.

فالشرط (ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك) لا يفيد مفهوم المخالفة، بأن يكون مجيئه عليه الصلاة والسلام ببعض الآيات يصاحبه الاتباع لقبلة الرسول عليه الصلاة والسلام، فقد أفادت الآية أهم لا يؤمنون ولا يتبعون حتى لو فرض الإتيان بالمستحيل لهم، فهم على بقاء الحال التى هم عليها.

٢- قال تعالى:﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران:٧٥)

فالآية تفيد أن من أهل الكتاب صنفين: صنف إن أمنته على قنطار من فضة أو ذهب – والمقصود بذلك كثرة المؤتمن عليه– فإنه يقوم بأداء الأمانة وردها إلى صاحبها. وهذا يدل على أنه لو أُوتُمِن على أقل منه فإنه يؤديه، لأنه من باب أولى، فليس لمفهوم المخالفة هنا موضع، لأنه لو كان لكان معنى ذلك أنه يؤتمن على الكثير ولا يؤتمن على القليل، ودفع ذلك واضح جلى. وصنف لو اوتمن على دينار لا يؤديه إلى صاحبه، فمن باب أولى لا يؤدى الأمانة إن كانت أكثر من ذلك.

٣- قال تعالى: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (المائدة:٢٨)

يحكى الله تعالى ما قاله هابيل لأخيه قابيل عندما رآه يتحفز لقتله فأخبره بأنه وإن فعل ما فعل فلن يقدم هو على قتله، ومعلوم أن الشرط هنا لا يقتضى التوقف لأن امتناعه عن قتله مع عدم بسطه يده لقتله يكون أولى من امتناعه عند البسط.

٤- قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (الأنعام:٢٥)

فالشرط فى الآية (وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها) يفيد ترتب الجزاء على الشرط الذى هو مستحيل ولا يفيد التوقف. لأهم إذا كانوا لا يؤمنون على فرض رؤية جميع الآيات فعدم إيماهم عند رؤية بعضها أولى. قال أبو حيان: "ومقصود هذه الجملة الشرطية الإخبار عن المبالغة التامة والعناد المفرط فى عدم إيماهم، حتى إن الشىء المرئى الدال على صدق الرسول حقيقة لا يرتبون عليه مقتضاه، بل يرتبون عليه ضد مقتضاه. " (١)

وهذه الآية نظير آية البقرة السابقة ولها نظائر كثيرة فى القرآن الكريم.

(١) البحر المحيط ٩٨/٤

٥- قال تعالى:﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاء عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴾ (الأعراف :١٩٣)

فالله تعالى يخبر عن المشركين بأهم ضالون بعبادهم مالا يضر ولا ينفع، وأن هذه الأصنام لو دعيت إلى خير ما أجابت الدعاء. والجزاء فى الآية (لا يتبعوكم) لا يتوقف على الشرط وهو (دعاؤهم إلى الهدى) لأهم لا يتبعون على جميع الأحوال. وهذا مناط التسوية بين الدعوة والصمت فى قوله تعالى (سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون) بل مجيء الجملة (أم أنتم صامتون) اسمية يشعر بأن الشرط المذكور قد سوى بنقيضه وهو الصمت فى عدم الجدوى وبقائهم على حالهم من الجمود، وعدم إدراك ما يقال لهم وما يندبون إليه.

قال الزمخشرى: " فإن قلت: هلا قيل: أم صمتم؟ ولم وضعت الجملة الاسمية موضع الفعلية ؟ قلت: لأهم كانوا إذا حزبهم أمر دعووا الله دون أصنامهم كقوله- وإذا مس الناس ضر- فكانت حالهم المستمرة أن يكونوا صامتين عن دعوهم. فقيل: إذا دعوتموهم لم تفترق الحال بين إحداثكم دعاءهم وبين ما أنتم عليه من عادة صمتكم عن دعائهم " [1] والأمثلة فى القرآن الكريم التى لا يؤخد فيها بمفهوم المخالفة لكون غير المذكور أولى بالجزاء-كثيرة.

٢- ألا يخرج الشرط مخرج العادة والغالب:

ومن الشروط التى لا بد من مراعاها ليتضح معنى التوقف أن لا يكون تعليق الجزاء على الشرط المذكور على سبيل العادة الغالبة، وإلا كان الجزاء غير متوقف على الشرط المذكور. وكان القصد إلى معنى الترتب وأن الجزاء يحصل على تقدير وجود الشرط.

ومن أمثلته ما يأتى:

١- قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِباً فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:٢٨٣) .

فجملة الشرط (وإن كنتم على سفر. ولم تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة) تفيد ترتب دفع الرهن على كون المرء فى سفر ولم يستطع كتابة الدين وأراد صاحب الدين أن يستوثق لدينه. لكن لا يتوقف دفع الرهن على حال السفر بل يصح أيضا مع الإقامة. وإنما ذكرته الآية مع السفر لأن غالب الاحتياج عنده.

---

(٢) الكشاف ١٣٨/٢

قال الرازى: " اتفقت الفقهاء اليوم على أن الرهن فى السفر والحضر سواء وفى حال وجود الكاتب وعدمه. وكان مجاهد يذهب إلى أن الرهن لا يجوز إلا فى السفر أخذا بظاهر الآية، ولا يعمل بقوله اليوم، وإنما تقيدت الآية بذكر السفر على سبيل الغالب " [١].

قال ابن كثير: " واستدل آخرون من السلف بهذه الآية على أنه لايكون الرهن مشروعا إلا فى السفر. قال مجاهد وغيره. وقد ثبت فى الصحيحين[٢] عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفى ودرعه مرهونة عند يهودى على ثلاثين وسقا من شعير رهنا قوتا لأهله " [٣].

وواضح أن مسلك مجاهد رضى الله عنه عند الأخذ بظاهر الآية هو طريق التوقف بالشرط، بأن يوجد المشروط عند وجود الشرط ويعدم عند عدمه.

٢- قال تعالى: ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِيناً﴾ (النساء:١٠١).

فالشرط فى الآية وهو (إن خفتم) جرى مجرى الغالب لأن الغالب أن يحصل الخوف من فتنة الكافرين والضالين. لكن القصر مع عدم الخوف مشروع عند السفر.

وقد ذكر الزركشى عند حديثه عن هذه الآية ما قيل إن الشرط بهذه الآية غير مراد. وعلل ذلك بقوله: " فهو يشعر بالإتمام ولا نسلم أن الأصل الإتمام، وقد قالت عائشة رضى الله عنها [٤]: فرضت الصلاة ركعتين فأقرت صلاة السفر وزيدت صلاة الحضر"[٥]. على أنه لو سلم له هذا التعليل إلا أنه يرتبط بأداة الشرط (إذا) أى بالشرط (وإذا ضربتم فى الأرض....) لأنه هو الذى يشعر بإتمام الصلاة فى الحضر. على أنه أيضا مما يجرى مجرى الغالب، والشرط لا مفهوم له فى الآية وفى الآيات التى على شاكلتها.

٣- قال تعالى: ﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً﴾ (الطلاق:٤) .

---

(١) تفسير الرازى ٢/ ٣٧٠

(٢) الحديث رواه البخارى ٢/ ٤٩ وروايته فى صحيح مسلم عن عائشة بلفظ مختلف ٥/ ٥٥

(٣) تفسير ابن كثير ١/ ٣٣٨

(٤) الحديث فى صحيح مسلم ٢/ ١٤٢.

(٥) البرهان للزركشى ٤/ ٢٢١ ، ٢٢٢.

فالشرط وهو قوله تعالى: " إن ارتبتم فعدتهن..." مبنى على غالب الأمر، سواء أريد الريب فى الدم هل هو دم حيض أو استحاضة أو الريب فى حكم اليائسة من المحيض. [1] وذلك لأن هذا غالب الأحوال. لأن العدة لليائسة ثلاثة أشهر حصل ريب أو لم يحصل، فلا يتوقف الجزاء على الشرط.

٤- قال تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ (الأعلى:٩)

ذكر الزمخشرى عند تفسيره هذه الآية رأيين للتوفيق بين كون الآية تفيد معنى توقف التذكير على كونه مفيدا، وبين كون الرسول مأمورا بذلك دون توقفه على الفائدة. قال: " فإن قلت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مأمورا بالذكرى نفعت أو لم تنفع. فما معنى اشتراط النفع ؟ قلت هو على وجهين: أحدهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استفرغ مجهوده فى تذكيرهم وما كانوا يزيدون على زيادة الذكرى إلا عتوا وطغيانا. وكان النبى صلى الله عليه وسلم يتلظى حسرة وتلهفا ويزداد جدا فى تذكيرهم وحرصا عليه. فقيل له: (وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) (سورة الأعلى ٩) وأعرض عنهم وقل سلام(سورة ق ٤٥) و فذكر إن نفعت الذكرى [2] ، وذلك بعد إلزام الحجة بتكرير التذكير.

الثانى: أن يكون ظاهره شرطا ومعناه ذما للمذكرين، وإخبارا عن حالهم، واستبعادا لتأثير الذكرى فيهم، وتسجيلا عليهم بالطبع على قلوبهم. كما تقول للواعظ: عظ المكاسين إن سمعوا منك، قاصدا بهذا الشرط استبعاد ذلك وأنه لن يكون" [3].

والواقع أن الوجهين اللذين ذكرهما الزمخشرى يساعدان على كون الشرط مرادا به التوقف، لأن الاستشهاد بنظائرها التى فيها نهى عن الدعوة لمن لم ينتفع بها دليل على تقييد التذكير بالانتفاع، فلا يكون فى ذلك حلا للإشكال الذى ذكره فى أول كلامه، وهو كون الرسول صلى الله عليه وسلم مأمورا بالذكرى نفعت أو لم تنفع. كما أن الوجه الثانى أيضا لا يساعد على التوفيق أيضا، لأن استبعاد انتفاعهم بالذكرى عن طريق الشرط يفيد توقف الذكرى على النفع مع أن النفع مستبعد.

وكلام كثير من المفسرين يفيد معنى التوقف قال أبو حيان: " والظاهر أن الأمر بالتذكير مشروط بنفع الذكرى. وهذا الشرط إنما جىء به توبيخا لقريش، أى إن

---

(١) ينظر تفسير الطبرى ١٤٠/٢٨ وما بعدها والكشاف ١٢١/٤

(٢) الآية لفظها (فاصفح عنهم وقل سلام) سورة الزخرف ٨٩

(٣) الكشاف ٢٤٤/٤

نفعت الذكرى فى هؤلاء الطغاة العتاة، ومعناه استبعاد انتفاعهم بالذكرى [(١)] ويقول ابن كثير " أى ذكر حيث تنفع التذكرة- ومن هنا يؤخذ الأدب فى نشر العلم [(٢)] وللطبرى فى تأويلها كلام لا أظنه دقيقا قال: إن نفعت الذكرى، يقول إن نفعت الذكرى الذين قد آيستك من إيمانهم فلا تنفعهم الذكرى" [(٣)] ، ولعل العبارة إن نفعت الذكرى فالذين قد آيستك من إيمانهم لا تنفعهم الذكرى، لأن حذف الفاء من الجواب وهو جملة اسمية لا يكون إلا فى ضرورة الشعر.

على أنى أرى أن الوجه فى فهم الآية أن يكون المراد التذكير للناس جميعا دون تخصيص الأمر، بأن يكون أمرًا للرسول عليه الصلاة والسلام بأن يذكر المصدقين والمكذبين، و الشرط هنا مبنى على الغالب لأن ظن نفع الذكرى غالب، فعلق التذكير على ما هو غالب وهو أشرف الحالتين. وقد ذكر الرازى تأويلات عدة منها الإشارة إلى هذا المعنى قال: " إنه تعالى ذكر أشرف الحالتين ونبه على الأخرى كقوله: " سرابيل تقيكم الحر " (سورة النحل ٨١) والتقدير فذكر إن نفعت الذكرى أو لم تنفع ". [(٤)]

٥- قال تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً﴾ (الإسراء:٢٣)

فقد علقت الآية النهى عن نهر الوالدين وعقوقهما على بلوغهما سن الكبر والشيخوخة مع أن هذا النهى مستمر فى جميع الأوقات ولا يتوقف على سن الكبر، والقصد – والله أعلم بمراده – استمرار النهى ، وإنما جيء بالشرط الغالب والذى يقع كثيراً فى حياة الناس ويتردد فيها، ويشاهد ، والإكرام ليس متوقفاً على هذه الحالة، وإنما هو مترتب على وجودها ، يوجد معها كما يوجد وقت شبابهما وقوتهما. [(٥)]

٣- عدم القصد إلى بيان حالة خاصة أو الإجابة على سؤال:

وكذلك لايقصد بالشرط مفهوم المخالفة – بمعنى أن يتوقف الجزاء على الشرط- عندما يكون الغرض بالشرط الإجابة عن سؤال، أو بيان حالة معينة ، كما فى الآيات الآتية :

---

(١) البحر المحيط ٤٥٩/٨

(٢) تفسير ابن كثير ٥٠١/٤

(٣) تفسير الطبرى ١٥٥/٣٠

(٤) تفسير الرازى ٣٨٢/٨

(٥) لم يرتض الأمير قول من يعتبر (إن) حرف شرط وما زائدة فى (إما) حاشيته على مغنى اللبيب ٥٦/١ وقد جريت فى الشرح على اعتبارها شرطية.

١- قال تعالى:﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (البقرة:١٨٦)

فالشرط فى قوله تعالى (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب) لايقتضى توقف إخبار الرسول ﷺ بقرب الله تعالى منهم على سؤالهم ، لأنه عليه الصلاة والسلام يذكرهم بذلك دائما ، وكثيراً ما يقرع القرآن آذانهم بذلك.

ووجه التعليق على الشرط كون ذلك فى مناسبة سؤالهم عن الله ، قال الطبرى فى مناسبة نزولها : " وقد اختلفوا فيما أنزلت فيه هذه الآية ، فقال بعضهم : نزلت فى سائل سأل النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال يا محمد أقريب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه ؟ فأنزل الله (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب) .. الآية وقال آخرون : بل نزلت جوابا لمسألة قوم سألوا النبى ﷺ: أى ساعة يدعون الله فيها ؟"(١) وعلى هذا فالتعليق بالشرط لايفيد التوقف وانتفاء الجزاء عند انتفاء الشرط.

٢- قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ (النساء:٥٩)

فالشرط فى الآية (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ) يفيد ترتب رد الأمر إلى الله والرسول عند التنازع فى شئ، وأى أمر من الأمور، لكن لا يفيد توقف رده على التنازع، بل ترد الأمور إلى الله دائما ويرجع إليه فى جميع الأحكام، لأنه لا يكون التنازع عادة إلا عندما تبتعد أحوال المسلمين فى أحكامهم عن الله والرسول، فإذا ما رجعوا تبينت لهم الأمور وانجلت لهم خوافيها، ولم يفد الشرط معنى التوقف ، لأن القصد بيان حالة من حالات المسلمين وما يجب عليهم حيالها . ولا يقصد بالتعليق مفهوم المخالفة ، بأن ينتفى الحكم وهو إرجاع الأمر إلى الله والرسول عند عدم التنازع.

٣- قال تعالى ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعاً حَكِيماً ﴾ (سورة النساء ١٣٠).

وقد علقت هذه الآية إغناء الزوجين على تفرقهما. أى أنهما إذا لم يستطيعا أن يوفقا أمورهما وأن يقيما العدل واشتدت الخلافات وأصبح الطلاق أمرا ضروريا فإن الإيمان يملأ القلب ثقة فى الله بأنه لن يضيع فقيرهما، ما داما قد حاولا جهدهما

(١) تفسير الطبرى ١٥٨/٢

للتوفيق والإصلاح ، والشرط هنا لا يفيد التوقف ، بمعنى أن إغنـــاء الله لا يكـــون إلا عند التفرق ، لأنه لا يستقيم ولا يوافق الكرم الإلهى. والمراد هنا ترتب الغنى بفضل الله على الشرط . لأن الآية فى مقام بيان حالة معينة تمر بها بعض الأسر المسلمة، طمأنة لها وتسكينا لقلوبهما . والله أعلم.

• **الشرط لمفهوم المخالفة** :

والمتتبع لأقوال العلماء يجد أنهم قد أصلوا قاعدة عامة يقوم على أساسها اعتبار مفهوم المخالفة فى الأمثلة التى يكون فيها دلالة عليه. فاشترطوا لذلك أن لا يكون لتخصيص المقيد بالقيد فائدة خلاف نفى الحكم عن المسكوت عنه.[1]

ويلاحظ أن هذا استثناء من عموم إفادة التقييد بالـــشرط معـــنى التوقـــف، وكون الأصل فيه ذلك، لأنه إذا ما دلت القرائن على إرادة معنى آخر خـــلاف نفـــى الحكم عند عدم وجود الشرط فلا مانع . ثم هو لا يبطل كون الشرط فى الأصـــل – بحكم كونه شرطا– يفيد ثبوت الحكم على تقدير وجود الشرط، ونفيه عند انتفائـــه، ومما يدل على تأصل دلالة الشرط على معنى التوقف اعتماد عدم دلالته عليـــه علـــى وجود قرائن من المقام والسياق مما يدل على فرعية عدم الدلالة عن معـــنى التوقـــف. ويزيد ذلك وضوحا أن الأمثلة التى لا يراد منها مفهوم المخالفة كثيرا ما تحتمل المعـــانى المختلفة، مما يؤكد الدلالة على فرعيتها عن أصل الإفادة فى أسلوب الـــشرط، وهـــو إفادة معنى التقييد . وقد ذكر السعد عدة احتمالات يحتملها الشرط عند بيانه التعليق وفائدته فى قوله تعالى: ﴿ وَلاَ تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً ﴾ (ســـورة النور ٣٣).

قال : " فإن قيل : تعليق النهى عن الإكراه بإرادتهن التحصن يقتضى جـــواز الإكراه عند انتفائها. أجيب بوجوه: الأول : لا نسلم أن التعليق بالـــشرط يقتـــضى انتفاء المعلق عند انتفائه ....

الثانى : أنه لا خلاف فى أن التعليق بالشرط إنما يقتضى انتفاء الحكـــم عنـــد انتفائه إذا لم يظهر للشرط فائدة أخرى.

ويجوز أن تكون فائدته فى الآية المبالغة فى النهى عن الإكراه. يعنى أنهـــن إذا أردن العفة فالمولى أحق بإرادتها، أو أن الآية نزلت فيمن يردن التحصن ويكرههن المولى على الزنا.

---

(١) ينظر فى ذلك التوضيح والتلويح عليه ١/ ١٤١ وما بعدها، وكذلك مختصر ابن الحاجب وشروحه ٢/ ١٧٤.

الثالث : أنّ (لا تكرهوا) معناه يحرم الإكراه، أو أطلب منكم الكف عن الإكراه ، وعند عدم إرادة التحصن تنتفى حرمة الإكراه، أو طلب الكف عن الإكراه ضرورة انتفاء الإكراه حينئذ، لأنه إنما يكون على فعل يريد الفاعل نقيضه. فعند عدم إرادقمن الامتناع عن الزنا لا يتحقق الإكراه عليه.

الرابع : أنا سلمنا أن الآية تدل على انتفاء حرمة الإكراه بحسب الظاهر نظرا إلى مفهوم المخالفة لكن الاجماع القاطع عارضه ، والظاهر يدفع بالقاطع"[١].

وقد أشار السعد بما ذكره فى الوجه الثانى إلى أن الشرط قد لا يفيد معنى التوقف، بأن لا يدل على انتفاء الجزاء عند انتفاء الشرط كما فى الآية. لأن المقصود به فائدة أخرى خلاف ذلك كنوع من المبالغة. أو لأن الآية جاءت فى مناسبة خاصة. كما أنه أشار فى الثانى أيضا إلى دفع الخلاف ونفيه فى كون الشرط يدل على انتفاء المشروط عند انتفاء الشرط وإن كان فيه احتمال وجود فائدة تمنع هذه الدلالة بمعونة القرائن.

وخلاصة القول أن الشرط يدل على مفهوم المخالفة بحكم وضعه واستعماله لأن التقييد لابد أن يكون لغرض وفائدة. وهذه الفائدة هى الدلالة على وجود المشروط عند وجود الشرط وانتفائه عند انتفائه.

---

(١) المطول ١٦٣ ، ١٦٤.

الفصل الثانى
أسرار تقييد المسند بـ (إن)
فى القرآن الكريم

المبحث الأول: (الأصل فى استعمال إن)

تشترك أداتا الشرط (إن وإذا) فى كونهما للشرط فى الاستقبال. أى يفاد بهما تعليق حصول الجزاء بحصول الشرط فى المستقبل. لكنهما مختلفتان فى كون (إن) تستعمل فى غير المقطوع به، وتستعمل (إذا) فى المقطوع به. وهذا ما أتى به الاستعمال وأفاده كلام البلاغيين، فلا يخرجان عن ذلك إلا لغرض ونكتة.

كلام السكاكى:

قال السكاكى: "... أما (إن) فهى للشرط فى الاستقبال. والأصل فيها الخلو عن الجزم بوقوع الشرط. كما يقول القائل: إن تكرمنى أكرمك، وهو لا يعلم أتكرمه أم لا"[(١)] فمدخول (إن) نوعان: الشرط الذى لا يجزم بوقوعه. والشرط الذى لا يجزم بعدم وقوعه. وقد صرح السكاكى بالأول، ونبه بالمثال على الثانى.[(٢)] ومحل التنبيه على اعتبار عدم الجزم باللاوقوع أيضاً من مواضع (إن) عند بيان الاستعمال فى المثال بقوله: أم لا.[(٣)]

كلام الخطيب:

قال الخطيب: "أصل (إن) عدم الجزم بوقوع الشرط، وأصل (إذا) الجزم"[(٤)] ولم يصرح الخطيب كما لم ينبه على أن عدم الجزم بلا وقوع الشرط موضع لإن. وقد علله السعد بكون "الغرض بيان وجه الافتراق بين (إن) و(إذا) بعد اشتراكهما فى كونهما للشرط فى الاستقبال. وذلك بالجزم بوقوع الشرط وعدم الجزم به، وأما عدم الجزم بلا وقوع الشرط فمشترك بينهما"[(٥)] .

ولا تدخل (إن) على المجزوم بوقوعه ولا على المجزوم بانتفائه إلا على وجه من التأويل. قال السعد: "تدخل –أى (إن)– فى أمر على خطر الوجود، أى متردد بين أن يكون وأن لا يكون. ولا تستعمل فى ما هو قطعى الوجود أو قطعى الانتفاء إلا على تنزيلهما منزلة المشكوك لنكتة"[(٦)]

---

(١) مفتاح العلوم ١٢٩
(٢) ينظر المطول ١٥٤
(٣) تنظر حاشية عبد الحكيم = فيض الفتاح ٣/٥٤
(٤) تلخيص المفتاح عليه المطول ١٥٤
(٥) المطول ١٥٤
(٦) التلويح على التوضيح ١/١٢٠

ومفاد كلامهم لتعليل ذلك أن (إن) تفيد الحث على فعل الشرط لاستحقاق الجزاء. وإنما يحث على فعل ما يجوز ألا يقع. أما ما لابد من وقوعه أولاً يمكن وقوعه فلا يحث عليه.[1] لذا يتعين البحث عن نكتة لاستعمالها معهما. وهى شئ آخر غير الحث على وقوع الشرط.

أحوال المتكلم بالنسبة للاعتقاد فى الشرط:

ولما كان مدار التفريق بين (إن وإذا) فى الاستعمال هو الجزم بوقوع الشرط أو عدمه، تعين النظر إلى أحوال المتكلم بالنسبة لذلك، لكونه- أى حال المتكلم- هو مناط استعمال الحرف أصالة، أو تفريعا لنكتة، ولأنه لا يكون التروع إلى حال المخاطب أيضا إلا لاعتبار وغرض. لذا كانت معرفة هذه الأحوال والأداة التي يتأصل استعمالها فيها أمراً مهماً.

وأحوال المتكلم بالنسبة لاعتقاده وقوع الشرط أو عدم وقوعه أربعة: ذلك لأنه قد يكون جازماً بالوقوع، أو عدم الوقوع، وقد يكون غير جازم بالوقوع، أو عدم الوقوع. هذا ما تقتضيه القسمة العقلية من أحواله:

١-الجزم بالوقوع، ٢-الجزم بعدم الوقوع، ٣-عدم الجزم بالوقوع، ٤-عدم الجزم بعدم الوقوع.

وفى ما يلى بيان لهذه الأحوال والأداة التى تستعمل معها.

١. الجزم بالوقوع:

ويتحقق عندما يكون الشرط مقطوعاً بوقوعه لا يعارضه أحد، أو يجزم المتكلم بوقوعه. وذلك مثل قول أبى محجن الثقفى:

إِذَا مِتَ فَادْفِنِّى إِلى جَنْبِ كَرْمَةٍ .·. تُرَوِّى عِظَامِى بَعْدَ مَوْتِى عُرُوقُهَا[2]

وقول النابغة الذبيانى:

إِذَا مَا غَزَا بِالْجَيْشِ حَلَّقَ فَوْقَه .·. عَصائِبُ طَيْرٍ تَهْتَدِى بِعَصَائِبِ[3]

وهذا الموضع خاص بإذا. ولا يخالف باستعمال (إن) فيه إلا لنكتة. وتفصيله فى الفصل التالى إن شاء الله تعالى.

---

(١) ينظر البرهان للزركشى ٢٠١/٤

(٢) البيت مذكور مع أبيات للشاعر في كتاب الشعر والشعراء ٤٢٤/١

(٣) الشعر والشعراء ١٦٩/١

٢. **الجزم بعدم الوقوع**:

وهو أن يتيقن المتكلم عدم وقوع الحدث فى الزمن المستقبل. وهو نوعان:

-نوع يكون ممكن الوقوع، لكن المتكلم يجزم بعدم وقوعه لعلمه هو بأسباب عدم الوقوع. وهذا النوع لا يقع شرطاً لتنافى الجزم بعدم الوقوع مع المجئ به شرطاً المقتضى أن يكون على خطر الوقوع، أى غير ممتنع الوقوع. فالإتيان به شرطاً يوقع فى لبس بين أمرين متناقضين: جزمه بعدم وقوعه، وإمكان وقوعه بدليل وقوعه شرطاً فى كلامه.

-ونوع يكون مستحيل الوقوع، معلومًا للمتكلم ولغيره استحالة وقوعه، وهذا النوع قد يسلك به مسلك الممكن فى مواقف المحاجة والاستدلال. فيكون سوقه فى معرض الممكن عندئذ على سبيل الفرض والتقدير لغرض، كما فى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ (الزخرف:٨١) وتكون استحالة الوقوع دليل تنزيله منزلة الممكن. وبهذا الاعتبار يصير المجزوم بعدمه من مواضع (إن) لنكتة. لكنه لا يكون من مواضع (إذا) لنكتة. ويدل على ذلك تتبع الشرط بإذا فى القرآن الكريم.

والعلة فى ذلك كما يبدو لى، أن المستحيل إن ناسبه اعتباره ممكناً فرضاً وتقديراً فتستعمل معه (إن) لا يناسبه أن يعتبر واجباً أى مجزوماً به فتستعمل معه (إذا) وذلك لنوع مناسبة بين عدم الجزم بالشرط الذي هو موضع (إن) وبين الجزم بعدمه. لإمكان أن يصدق عدم الجزم بالجزم بعدم الشرط، بأن يكون غير الجازم بالشرط جازماً بعدمه.

ولعل هذا الملحظ هو الذى حمل ابن يعقوب على أن يجعل الجزم بالعدم مما يحتمله عدم الجزم. إذا لم يفسر بدلالته العرفية التى هى التردد بين الوقوع وعدم الوقوع. والتى هى مقصودة ومرادة فى التعليق بالشرط فقال عن عدم الجزم: إنه "صادق بالشك فى الوقوع، وتوهمه، وظنه، والجزم بعدمه"[1] ولا شك أن هذا الصدق من جهة الدلالة العقلية، لكن الجزم بعدمه كما قلت لا يعتبر مقصوداً هنا. وطبيعة الجزم بالوقوع الذى هو موضع (إذا) تناقض الجزم بعدم الوقوع فلا يجتمعان، كما أنه لا يقوم أحدهما مقام الآخر. لذا أرى أن ما ذهب إليه السبكى ووافقه فيه الدسوقى من التسوية بين (إن وإذا) فى جعل الجزم بعدم الوقوع صالحاً لهما لنكتة يحتاج إلى التدليل

---

(١) مواهب الفتاح = شروح ٢/ ٣٩.

عليه بالمثال من القرآن الكريم، أو الاستعمال العربي الفصيح. ولا يكتفي بالتمثيل بالمستحيل مع (إن) دون التمثيل له مع (إذا). وعبارة السبكي: "إن وإذا يشتركان في عدم الدخول على المستحيل إلا لنكتة نحو: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ (الزخرف: ٨١) ...."[١] وعبارة الدسوقي: "إذا تشارك (إن) في عدم الدخول على المستحيل وهو المجزوم بعدم وقوعه إلا لنكتة على ما سيأتي في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ ﴾ (الزخرف: ٨١)...."[٢]

واضح إذا من العبارتين فضلاً عن متابعة الدسوقي للسبكي وأخذ كلامه مع عدم التمثيل لما ذهبا إليه –كون المجزوم بعدم وقوعه يستعمل مع إذا لنكتة. وكان عليهما أن يمثلا له تدليلاً على صحة ما ذهبا إليه.

٣. عدم الجزم بالوقوع:

ومعناه انتفاء تيقن المتكلم وقوع الشرط. أو عدم وقوعه. ويدخل في إطاره: ظن الوقوع، والشك في الوقوع، وتوهم الوقوع. والجزم بعدم الوقوع.

قال ابن يعقوب: "إنه صادق بالشك في الوقوع وتوهمه وظنه والجزم بعدمه"[٣] على أن المعتبر في بناء الشرط بحكم دلالته على توقع الوقوع وكونه على خطر الوقوع دائماً– أن لا يدخل المجزوم بعدمه في بناء الشرط إلا على سبيل التأويل. ولذلك نلاحظ أن عبد الحكيم عندما بين المتبادر من عدم الجزم بالوقوع قال: "لك أن تقول المتبادر من عدم الجزم بالوقوع في العرف التردد"[٤] وبهذه الدلالة العرفية تدخل الأنواع الثلاثة الأولى: الظن، والشك، والتوهم، على أن كون التردد ليس تردداً بين متساويين في احتمال الوقوع وإنما هو التردد الدال على عدم الجزم. ولا يدخل المجزوم بعدمه، لأنه لا تردد مع الجزم بالعدم.

–أما الظن فهو رجحان أحد طرفي التجوز بحيث يبلغ المعنى في النفس حداً دون حال الثقة الثابتة. مع تجويز أن يكون المظنون على خلاف ذلك.

–وأما الشك فهو استواء طرفي التجوز دون تقوية أحدهما عن الآخر.

---

(١) عروس الأفراح = شروح ٢/٤٠.

(٢) حاشية الدسوقي على المختصر = شروح ٢/٣٩.

(٣) مواهب الفتاح = شروح ٢/٣٩

(٤) حاشية عبد الحكيم على المطول = فيض الفتاح ٣/٥٣

-والتوهم تجويز ما لا يمتنع من الجائز والواجب مع رجحان العدم على الوجود.

وهذا الموضع- أى عدم الجزم بالوقوع- خاص بـ (إن). ولا تستعمل فيه (إذا) إلا على ضرب من التأويل.[(١)]

٤. عدم الجزم بامتناع الوقوع:

وهذا الموضع لازم لكل من الجزم بالوقوع وعدم الجزم بالوقوع. لذا كان مشتركاً بين (إن وإذا). ولأجل اشتراكهما فى هذا الموضع- كما يشتركان فى كونهما للشرط فى الاستقبال- لم يذكره الخطيب عند بيان الأصل فى استعمالها ووجه الافتراق بينهما.[(٢)] لأنه بعد التأمل يتضح "(أنه كما أن (إن) لعدم الجزم بوقوع الشرط، كذلك هى لعدم الجزم بلا وقوعه، كما ذكره جميع النحاة. وصرحوا بأنها إنما تستعمل فى المعانى المحتملة المشكوكة. وأن (إذا) كما أنها للجزم بوقوع الشرط كذلك هى لعدم الجزم بلا وقوعه. بل ذلك لازم للجزم بوقوعه، فعدم الجزم باللاوقوع مشترك بينهما، فلم يتعرض له فى مقام الفرق بينهما لعدم مدخليته فيه فتأمل (ابن قاسم)، لكن يبقى هنا شئ، وهو أن عدم الجزم بلا وقوع الشرط فى (إذا) بمعنى أنه منتف، وفى (إن) بمعنى أنه يجوز، فلا اشتراك فى الحقيقة، تأمل. يس. أى فعدم الجزم بلا قوع الشرط فى (إن) لوجود الشك، وفى (إذا) لوجود الجزم بوقوعه فبينهما فرق"[(٣)]

على أن عبد الحكيم لم يرتض هذا الملحظ للاختلاف بينهما مشيراً إلى بقاء الاشتراك فى عدم الجزم باللاوقوع. يقول: (كون عدم الجزم باللاوقوع فى (إن) بسبب التردد وفى (إذا) بواسطة الجزم بالوقوع، لا ينافى اشتراكهما فى عدم الجزم باللاوقوع على ما وهم[(٤)].

والواقع أنهما يختلفان فى الأفراد التى يدل عليها كل واحد منهما. ولذلك أشار ابن يعقوب إلى الاكتفاء بذلك قائلاً: "مصدوقه فى (إذا) نفى عدم الوقوع جزماً. وفى (إن) احتمال النفي، فلم يشتركا فى مصدوق"[(٥)]

على أنى أرى أن عدم الجزم باللاوقوع مع كونه مظنة الاستعمال مع (إذا) أو (إن) لكونه مشتركاً بينهما. إلا أنه لا أهمية لاعتباره فى الاستعمال.

---

(١) ينظر الفروق في اللغة للعسكرى ٩١ وما بعدها

(٢) ينظر المطول على التلخيص ١٥٤

(٣) حاشية البنانى على المختصر = تقرير الإنبابى ٣٥٦/٢

(٤) حاشية عبد الحكيم على المطول ٥٣/٣

(٥) مواهب الفتاح = شروح ٣٩/٢

ذلك لأن الاهتمام بأسلوب الشرط إنما يرتبط بالشرط من حيث وقوعه وكون هذا الوقوع معلقاً عليه الجزاء، لا من حيث نفى هذا الوقوع. فالقائـــل: إن تكـــرمنى أكرمك، يضع فى اعتباره وقوع الشرط وهو الإكرام له من مخاطبه ويعلق عليه إكرامه مخاطبه. ولا ينظر إلى ترتب انتفاء إكرامه له لانتفاء إكرام مخاطبه إياه، وإن صح فهـــم ذلك تبعاً. والتى هى دلالة مفهوم المخالفة. فالقصد الأصلى فى الشرط دلالة المنطـــوق لا دلالة المفهوم. أى ما يترتب على وجود الشرط وهو وجود الجـــزاء. أمـــا دلالـــة المفهوم فينظر إليها تبعاً. هذا على ما فى ذلك من الاختلاف فى دلالة الشرط عليهـــا كما بينته ثمة. أى دلالة الشرط على التوقف أولاً.[1]

والشأن كذلك مع (إذا). فالقائل: إذا طلعت الشمس سأزورك يضع طلـــوع الشمس المتيقن نصب عينيه، ويعلق عليه الجزاء وهو الزيارة. ولا يقصد تعليـــق عـــدم الزيارة على عدم طلوع الشمس الذى هو مجزوم بعدمه.

وبهذا يثبت أنه لا معنى للدوران فى إفادة المعنى أو استفادته من العبـــارة بـــأن يتجه به إلى اللازم الذى هو تعليق الزيارة فى المثال السابق على انتفاء جـــزم المـــتكلم بعدم طلوع الشمس، والذى مفاده وقوع الشرط وهو طلـــوع الـــشمس. ذلـــك أن الذوق البلاغى يرفض الجرى وراء التكلفات وإفادة المعنى أو استفادته من هذه الطرق الملتوية مع يسر الوصول إليه، وقرب مأخذه بعيداً عن هذه التأويلات. وإنى أعتقـــد أن السكاكى لم يشر إلى عدم الجزم باللاوقوع إلا بالمثال عند شرحه له، وكـــذلك عـــدم تصريح الخطيب به وذلك لعدم الحاجة إليه. وبعداً عن بعض التكلفات التى ظهرت فى بعض الحواشى عند بيان بعض المسائل البلاغية، التى جدت بعدهما.

خلاصة: مما سبق يخلص ما يأتى:

أولاً: تستعمل (إذا) مع أحوال المتكلم كالآتى:

١. الأصل فيها استعمالها مع الشرط المجزوم بوقوعه.
٢. لا تستعمل مع عدم الجزم إلا لنكتة.
٣. لا تستعمل مع الجزم بعدم الوقوع.

ثانياً: وتستعمل (إن) مع أحوال المتكلم كالآتى:

١. الأصل فيها استعمالها مع عدم الجزم بوقوع الشرط.
٢. لا تستعمل مع الجزم بالوقوع إلا لنكتة.

---

(١) تنظر ص ٨٧ وما بعدها.

٣. لا تستعمل مع المجزوم بعدمه إلا لنكتة.

ثالثاً: تشترك (إن وإذا) فى عدم الجزم باللاوقوع. على أن هذا نوقش فيما سبق. لأن اعتبار كونه موضعاً لهما باعتباره لازماً لكل من الجزم بالوقوع الذى هو محل (إذا) ولعدم الجزم بالوقوع الذى هو محل (إن) كما سبق بيانه.

رابعاً: يتناول عدم الجزم بالشرط الذى هو موضع استعمال (إن): الظن والشك، والتوهم. وإن صدق عقلاً على الجزم بالعدم إلا أنه لا اعتبار له فى الاشتراط، لكون الشرط على خطر الوقوع. ولذلك لا يستعمل فيه إلا لنكتة كما سبق بيانه.

طريق وقوع إن فى كلام الله تعالى:

من الثابت المسلم أمران: أولهما: ثبوت صفة العلم لله تعالى علماً محيطاً بجميع الأشياء ما كان وما سيكون. هذه حقيقة عقلية ودينية ثابتة، وتستقر فى قلوب المؤمنين. ثانيهما: أن الأصل فى استعمال (إن) أن يكون فى الشرط المشكوك فيه، أى غير المجزوم به المتردد بين الوقوع وعدمه. هذه حقيقة لغوية ثابتة أيضاً– ومن هذين الأمرين ينشأ البحث عن وجه صحة وقوع الشرط بـ(إن) فى كلام الله تعالى وهو سبحانه يستحيل عليه الظن، أو الشك، أو التوهم.

كلام السعد:

وقد وجه السعد وقوعها فى القرآن الكريم قائلاً: بأنها "لا تقع فى كلام الله تعالى على الأصل إلا حكاية أو على ضرب من التأويل"[1] ومعنى الحكاية أن يحكى القرآن الكريم عن المخلوقين ما قالوه.

وقد أصاب البنانى فى بيان معنى الحكاية، وإن كان كلامه عن التأويل ليس بشئ. قال: ".... إلا حكاية، كقوله حكاية عن زليخا ﴿وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ (يوسف:٣٢) وعن يوسف ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (يوسف:٣٣) وعن إخوته ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ (يوسف:٧٧) وقوله أو على ضرب من التأويل، كالنظر إلى حال المخاطب الغير الجازم بوقوع الشرط كما سيأتى..."[2]. فقد أشار بقوله: (كما سيأتى)

---

(١) المختصر على التلخيص = شروح ٣٩/٢

(٢) حاشية البنانى على المختصر = تقرير الإنبابى ٣٥٥/٢

إلى ما فى التلخيص والمختصر عليه من قولهما: "كقولك لمن يكذبك إن صدقت فماذا تفعل- مع علمك بأنك صادق- أو تنزيله- أى المخاطب- العالم بوقوع الشرط- منزلة الجاهل.... الخ"[١] ففى المثالين المذكورين نظر إلى حال السامع كما ذكر البنانى وبينه فى هذا الموضع[٢]. على أن الوجه فى الأمثلة التى أشار إليها البنانى أنها من الأمثلة التى استعملت فيها (إن) فى غير موضعها. لأن الشأن فى المتكلم العلم بها لا الشك فيها. فاستعملت (إن) موضع (إذا) فيها. والمطلوب نوع من التأويل بإبقاء (إن) على أصلها من إفادة الشك شكاً مرتبطاً بالمتكلم نفسه، مع أن المتكلم هو الله تعالى. ويدل على ذلك بل هو صريح فيه جعل السعد التأويل قسيم الحكاية وأنهما نوعان من استعمال (إن) على أصلها فى كلام الله تعالى. كما هى عبارته: "لا تقع فى كلام الله تعالى على الأصل. إلا....."[٣].

وقد أحسن الدسوقى إدراك ذلك قائلاً: "فقوله: إلا حكاية أو على ضرب إلخ... أى فتقع حينئذ فى كلام الله على الأصل"[٤] وبناء على هذا ينبغى أن يبحث على وجه من التأويل بعيداً عن كون (إن) مستعملة فى موضع (إذا) الذى هو الجزم بوقوع الشرط.

وقد اختلف مسلك العلماء فى إبانتهم وتعليلهم ما جاء من كلام الله تعالى بإن وليس عن طريق الحكاية. فمنهم من يرى أن يكون (إن) ليس بمعناه تحاشياً نسبة الشك إلى الله تعالى. ومنهم من يغير طبيعة الدلالة للحرف (إن) فى اللغة. ومنهم من يذهب مذهباً مرتضى فى هذا الباب.

فالكوفيون مثلاً عندما يتناولون بعض الأمثلة من هذا النوع ويبينون المعنى المقصود يغيرون (إن) إلى معنى (إذْ) يقول الرضى: "وعند الكوفيين يجئ (إن) بمعنى (إذ). قالوا فى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ﴾ (البقرة:٢٣) إنها بمعنى إذ، لأن (إن) مفيدة للشك. تعالى الله عنه"[٥] فهم بذلك قد غيروا معناها إلى معنى حرف آخر. على أن التحقيق وإدراك المقصود لا يساعد على هذا التأويل. ذلك لأن طلب مثل القرآن لا يكون إلا وهم مرتابون فى الحال ووقت الطلب، ولا يكفى فيه أن يقع منهم الريب

(١) المختصر على التلخيص = تقرير الإنبابى ٣٥٩/٢
(٢) ينظر تقرير الإنبابى ٣٥٥/٢
(٣) المختصر على التلخيص = تقرير الإنبابى ٣٥٥/٢
(٤) حاشية الدسوقى على المختصر = شروح ٣٩/٢
(٥) شرح الكافية ٢٥٣/٢

فى الزمن الماضى، بل لابد أن يستمر لأن التحدى لهم لا يكون إلا على الريب الواقع، لأن من ينقطع ريبه لا يطلب منه أن يأتى بسورة من مثله. والله أعلم.

أما الإمام الرازى فيذهب إلى تغيير دلالة الحرف (إن) فعند تفسيره قـــول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (الأنفال:٢٩)

يقول: "لقائل أن يقول: إدخال الشرط فى الحكم إنما يحسن فى حق من كـــان جاهلاً بعواقب الأمور. وذلك لا يليق بالله تعالى. والجواب أن قولنا: إن كان كذا كان كذا. لا يفيد إلا كون الشرط مستلزماً للجزاء، فأما أن وقوع الشرط مشكوك فيه أو معلوم فذلك غير مستفاد من هذا اللفظ..."[١] ويبدو واضحاً أنه ينظر إلى مجرد الـــربط بين الشرط والجزاء، ويجرد اللفظ من دلالته فى أصل وضعه على كون الشرط معـــه غير مجزوم به.

على أن الرأى والمسلك المرضى فى ذلك أن يقال: إن ما جـــاء فى القـــرآن الكريم بأداة الشرط (إن) وليس من طريق حكاية كلام البشر الذى قالوه- يكون على طريقة مجئ أسلوب العرب فى لغتهم، بأن يتصور هذا الكلام صادراً من إنسان فى مقام الآية التى جاءت فيه. فإن تصور الشك من المتكلم كانت الأداة (إن) وإن كان الجـــزم كانت الأداة (إذا).

قال الدسوقى رحمه الله: "..... أو على ضرب من التأويل أى بأن يفـــرض أن هذا الكلام واقع على لسان شخص عربى تكلم بهذا الكلام"[٢] فالمرجع فى ذلـــك أن يتصور الكلام صادراً من إنسان وتراعى حال هذا الإنسان عند المجئ بأداة الشرط. ولا شك أن حاله تدور بين أن يكون جازماً أو غير جازم، فالأداة تكون تبعاً لـــذلك، أى لاعتقاد المتكلم، لا كون الشرط فى نفسه صالحاً للشك.

ولذلك يسلم لابن القيم أول كلامه دون آخره من قوله: "الخصائص الإلهية لا تدخل فى الأوضاع العربية، بل الأوضاع العربية مبنية على خصائص الخلق. والله تعالى أنزل القرآن بلغة العرب وعلى منوالهم. فكل ما كان فى عادة العرب حـــسناً أنـــزل القرآن على ذلك الوجه، أو قبيحاً لم ينزل فى القرآن. فكل ما كان شأنه أن يكون فى العادة مشكوكاً فيه بين الناس حسن تعليقه بإن من قبل الله ومن قبل غيره. سواء كان

---

(١) تفسير الرازى ٤/ ٣٦٥

(٢) حاشية الدسوقى على المختصر = شروح ٢/ ٣٩.

معلوماً للمتكلم أو للسامع أو لا. وكذلك يحسن من الواحد منا أن يقول: إن كان زيد فى الدار فأكرمه، مع علمه بأنه فى الدار. لأن حصول زيد فى الدار شأنه أن يكون فى العادة مشكوكاً فيه. فهذا هو الضابط لما تعلق على (إن) فاندفع الإشكال"[1]

فقد صح له قوله: "فكل ما كان شأنه أن يكون فى العادة مشكوكاً فيه بين الناس حسن تعليقه بإن من قبل الله ومن قبل غيره" أما ما كان من قبل غير الله فلشكهم وأما من قبل الله فمراعاة لأوضاع اللغة وكونها مبنية على أحوالهم وخصائصهم.

ولا يصح ما ادعاه من صحة مجئ (إن) مع التسوية بين العلم بالشرط وعدم العلم به وكون ذلك أصلاً فى استعمالها. كما أن وجه الحسن فى قول الواحد منا: إن كان زيد فى الدار فأكرمه وهو يعلم بأنه فى الدار- ليس كون الشأن عادة أن يشك فى وجوده فى الدار، وإنما الوجه فيه نكته من نكات استعمال (إن) موضع (إذا) لأن ذلك ليس موضعاً لأداة الشرط (إن). وذلك بأن تكون النكتة فى المثال التجاهل أو مراعاة حال المخاطب مثلاً.. ما دام قد تحقق العلم بأنه فى الدار. أى أن القرآن الكريم قد يأتى بـ(إن) على أصلها لإفادة أن الشرط من شأنه فى العادة أن لا يقطع به، لكن عندما يتعين القطع لكون الجزم ليس راجعاً إلى كونه مرتبطاً بالعادة وإنما لكونه خبراً من الله تعالى بأمر سيقع بعيداً عن كونه من عادات الناس- فإنه والحالة هذه يتعين أن تكون الأداة (إذا). وكذلك فيما كان من العادات ولكنه جئ به على سبيل الجزم. قال المبرد: "إذا قلت: إذا أتيتنى- وجب أن يكون الإتيان معلوماً ألا ترى إلى قوله عز وجل: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ (الانفطار:١) و ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ (التكوير:١)، ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾ (الانشقاق:١) فإن هذا واقع لا محالة ولا يجوز أن يكون فى موضع هذا (إن) لأن الله عز وجل يعلم و(إن) إنما مخرجها الظن والتوقع فى ما يخبر به المخبر. وليس هذا مثل قوله: ﴿إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ (الأنفال:٣٨) لأن هذا راجع إليهم"[2].

خلاصة:

وخلاصة ما يقال : إن مجئ إن فى القرآن الكريم على ضربين : الأول: أن يكون مجيئها على سبيل الحكاية. أى حكاية الشرط الذى جاء على لسان البشر، فى معرض

(١) بدائع الفوائد ١/٤٦، ٤٧

(٢) المقتضب ٢/٤٥، ٥٥

القصص والإخبار عما كان منهم، وهذه الشروط المحكية قد تأتى على الأصل من استعمال (إن) فى غير المجزوم به. بأن يكون المتكلمون بها غير جازمين، وأن تكون مستعملة فى موضع (إذا) عندما يكون المتكلمون المحكى عنهم جازمين لكنهم أتوا بإن لنكته.

الآخر: أن يكون الشرط من الله تعالى لكن يؤول بكونه واقعاً على لسان البشر، وأنه لو كان على لسانهم لكان بصورته التى أوجدها القرآن الكريم. وهذا الضرب -أيضاً- قد تجئ أمثلته مفاداً بها عدم الجزم وتكون (إن) مستعملة فى موضعها. وقد تجئ (إن) فى موضع (إذا) بأن يكون ما هو مفروض على لسان البشر واقعاً لكن ينزل منزلة المشكوك فيه لنكتة. والله أعلم.

تعيين رتبة ما يصدق به عدم الجزم:

قلت: إن الشرط غير المجزوم به يصدق بالمظنون والمشكوك فيه والمتوهم، ومما يلحظ أن تبين ملامح الجزم بوقوع الشرط عندما تكون الأداة (إذا) وملامح عدم الجزم عندما تكون الأداة (إن) ليس أمر صعباً، لكن إدراك رتبة عدم الجزم من الظن، أو الشك، أو التوهم أمر يحتاج إلى مزيد من التنبه وإنعام النظر للوصول إليه وتحديده. والعمدة فى ذلك الاعتماد على دلالة الحال والمقام وما يصحب ذلك من عناصر السياق التى تساعد على تحديد المقصود بالشرط تحققاً أو ظناً أو شكاً أو توهماً.

وحسبى شاهداً على ذلك الآيات الآتية:

قال الله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِى الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً * وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً * إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً* سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً مُبِيناً﴾ (النساء: ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩١)

فهذه الآيات فى معرض الحديث عن المنافقين. وعن طوية نفوسهم تجاه المسلمين، فهى تبرز خصائصهم وصفاقم التى يتصفون بها حال السلم والقتال للمسلمين.

فالآية الأولى: "فما لكم فى المنافقين فئتين...." تنكر على المسلمين اختلافهم فى المنافقين فئتين، وتدعوهم إلى أن يبتّوا الحكم فى المنافقين ويحددوا هويتهم بضلالهم وخروجهم عن طاعة الرسول. وأن يقطع المسلمون الرجاء فيهم لأنهم خرجوا عن دائرة الإيمان.

ثم تأتى الآيات الثلاث التالية تتحدث كل واحدة منها عن طائفة معينة من هؤلاء المنافقين وتنوط بكل طائفة حكماً معلقاً على شرط.

ومع اختلاف خصائص هذه الطوائف الثلاث تتفق الشروط الثلاثة فى كونها مظنونة الوقوع قريبة من اليقين. وهذه الدلالة على الظن مستفادة من المقام وبمساعدة السياق. فالشرط فى أولى الآيات الثلاث: "فإن تولوا...." يساعد مقام الآيات على ظن وقوعه. لكون الغالب فى أحوال هؤلاء المنافقين التولى والإعراض عن الجهاد وعن الهجرة والسعى فى سبيل الله....

أما الآية الثانية فيُبين سياق الآية أنها تتحدث عن طائفة أخرى لها سماتها الخاصة بها، والتى تتميز بها عن عامة المنافقين، وهى خصائص مستفادة من السياق، فقد ذكرت الآية وبينت صلتهم بقوم بينهم وبين المؤمنين عهد مع امتلاء قلوبهم خوفاً من قتالهم مع المؤمنين أو قتالهم مع قومهم الكافرين، ثم يجئ الشرط بلو فى قوله تعالى (ولو شاء الله لسلطهم عليكم) للدلالة على أن الله منع تسليطهم على المؤمنين قبل ذلك. كل هذه قرائن دالة على أن الشرط فيها وهو قوله تعالى: "فإن اعتزلوكم وألقوا إليكم السلم...." مظنون الوقوع.

ثم يأتى فى الآية الأخيرة شرط ثالث (فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم...." وهو نقيض الشرط السابق فى الآية التى قبلها. فلو أخذ بعيداً عن دلالة السياق وأن المقصود طائفة أخرى تتميز عن التى قبلها لكان مقتضى الظن بوقوع الشرط فى الآية السابقة أن يكون نقيضه هنا فى هذه الآية متوهم الوقوع لا مظنوناً. لكن الآية هنا تحدثت عن صنف آخر، بينت أنه يميل إلى الشر ويرغب فى القتال، ولا يهادن إلا مخادعة وختلا، وأنهم مذبذبون لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، كلما رأوا فتنة وقعوا فيها.

كل هذه الأمارات التى أشار بها السياق إلى صفات هذه الطائفة تدل على ظن وقوع الشرط، وأنه غالب حال هذه الطائفة، وهو عدم الاعتزال وإلقاء السلم.

وقد ذكر أبو حيان عن ابن عطية كلاماً طيباً يكشف فيه عما أضفاه السياق على ظن وقوع الشرط، ثم أثر ذلك وظلاله على الجزاء وما يتعين ويترتب على الشرط

المظنون الوقوع. قال: "وهذه الآية حض على قتل هؤلاء المخادعين إذا لم يرجعوا عن حالهم إلى حال الآخرين المعتزلين الملقين للسلم. وتأمل فصاحة الكلام، فى أن ساقة فى الصيغة المتقدمة قبل هذه سياق إيجاب الاعتزال، وإيجاب إلقاء السلم، ونفى المقاتلة إذ كانوا محقين فى ذلك، معتقدين له. وسياقه فى هذه الصيغة المتأخرة سياق نفى الاعتزال، ونفى إلقاء السلم إذ كانوا مبطلين فيه مخادعين. والحكم سواء على السياقين. لأن الذين لم يجعل عليهم سبيلاً لو لم يعتزلوا لكان حكمهم حكم هؤلاء الذين جعل عليهم السلطان المبين. وكذلك هؤلاء الذين عليهم السلطان إذا لم يعتزلوا لو اعتزلوا لكان حكمهم حكم الذين لا سبيل عليهم ولكنهم بهذه العبارة تحت القتل إن لم يعتزلوا. انتهى كلامه"(١)

واضح إذا أن إدراك الظن أو الشك أو التوهم يعتمد على إدراك عناصر المقام والسياق للوصول إليه. وهذا هو المعتمد – إن شاء الله تعالى– فى تتبع الآيات القرآنية، وتحديد ما يفيده الشرط فيها ظنا، أو شكاً، أو توهماً. والله من وراء القصد.

مجئ (إن) مع المظنون:

لما كان المعتمد فى تعيين كون الشرط مظنوناً أو مشكوكاً أو متوهماً هو اعتقاد المتكلم، وما يصاحب ذلك فى قرائن الأحوال والسياق التى تدل على هذا الظن– فإن تتبع أساليب الشرط بـ (إن) فى القرآن الكريم فى هذا الإطار يجلى مجئ الشرط مظنوناً فى الحالات الآتية:

الحالة الأولى:

أن يكون الشرط دالاً على عادة من العادات التى لا تكاد تتخلف. لكن مقام الآية وسياقها يفيدان كون الشرط مظنوناً. وشواهد هذه الحالة عشرة شروط تقع فى عشر آيات هى ما يأتى:

١. قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران:٦٤)

فالشرط (فإن تولوا) لا يكاد يتخلف لأنه شأنهم دائماً، بما جبلوا عليه من المماطلة وعدم الاستجابة، فلا يتوقع منهم إلا التولى والميل عن الطريق المستقيم. وكان يمكن أن يكون الموضع لـ (إذا) بهذا الاعتبار، ويكون استعمال (إن) هنا مكانها لنكتة. لكن لما

(١) البحر المحيط ٣/٣١٩

كان المقام مقام دعوة لهم إلى الإيمان، وترك ما يشركونه آلهة مع الله تمحض الموضع للحرف (إن) لوجود نوع من الاحتمال لاستجابتهم وإن كان احتمالاً ضعيفاً. فكان الشرط بهذا الاعتبار مظنوناً. ولا يتأتى كونه مجزوماً به مع أمر الرسول صلى الله عليه وسلم- بدعائهم إلى كلمة سواء.... ولا يغيبن عن الذهن أن الدعوة باقية إلى ما شاء الله رجاء إجابة من يرد الله به الخير. والله أعلم

٢. قال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً﴾ (النساء:٨٩)

ووجه كون الشرط (فإن تولوا) مظنوناً مع أنه من عادتهم المألوفة أن الآية الكريمة نهت عن أخذ أولياء منهم حتى يهاجروا. فالتغيية بالهجرة جعلت الشرط وهو التولى مظنة عدم الوقوع، لكن هذا الاحتمال مرجوح، لما جبلوا عليه من العداوة وودادتهم كفر المؤمنين، لذلك رتبت على الشرط- لكونه مظنوناً- أموراً فى غاية الفظاعة من قتلهم وعدم ولايتهم.

٣. قال تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ (المائدة:٤٩)

فشأن التولى هنا كما كان فى الآيتين السابقتين من ثباتهم عليه، لكن ما صاحبه من الأمر بالحكم بينهم بما أنزل الله.. أضعف كونه محقق الوقوع وصار مظنون الوقوع.

٤. قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(المائدة:٧٣)

فالشرط (وإن لم ينتهوا) مظنون الوقوع. وهو من عاداتهم الثابتة التى تعودوا عليها. إصراراً على الكفر والشرك بالله. لكن لما كان الشرط فى سياق التخويف والإنذار لهم لينتهوا عما يقولون صار فى مرتبة مظنون الوقوع، لأنهم يخوفون وينبهون مع بقائهم فى غالب أحوالهم على ما هم عليه. والله أعلم.

٥. قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ (هود:٥٧)

فالشرط (فإن تولوا) من كلام هود عليه السلام يحكيه القرآن الكريم عنه، وهو مظنون الوقوع، لأن ذلك وإن كان المعهود ممن يرسل إليهم الأنبياء فإن مقام الدعوة والإرشاد يجعل توليهم مظنوناً لا محققاً.

٦. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِى الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (الحج:٤١)

فالشرط وهو تمكين الله عباده المؤمنين فى الأرض محقق لا شك فيه. لكن لما كان ذلك على شريطة أن يقوموا بأداء ما عليهم من واجب نصر دينه كما أشارت الآية قبل ذلك ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾(الحج:٤٠) لما كان كذلك أشعر هذا بكون التمكين على ظن الوقوع. والله أعلم.

٧. قال تعالى: ﴿وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الحج:٦٨) فجدال الكافرين رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر ثابت مستمر، لكن لما كانت الآية مسبوقة بقوله تعالى: ﴿ فَلا يُنَازِعُنَّكَ فِى الْأَمْرِ﴾(الحج:٦٧) صار الشرط مظنوناً. قال أبو حيان: "أى وإن أبوا للجاجهم إلا المجادلة بعد اجتهادك أن لا يكون بينك وبينهم تنازع فادفعهم بأن الله أعلم بأعمالهم وبقبحها...."[(١)].

٨. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ (الروم:٥٨)

فالشرط وهو (ولئن جئتهم بآية) مظنون الوقوع. ومجئ الرسول صلى الله عليه وسلم لهم بالآيات وإن كان أمراً محققاً إلا أن مقام هذا الشرط وكما يدل على ذلك سياق الآية يدل على أن المجئ بها هنا مظنون، ذلك لأن الشرط مسبوق بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فى هَذَا الْقُرْآن مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾. مما يدل على اليأس منهم، وعدم الرجاء فيهم. وأن مجئ الآيات بعد ذلك يصير مظنوناً لا مؤكداً.

بون واسع بين كلام الله وكلام البشر:

وعند تفسير الزمخشرى هذه الآية يتجلى الفرق المترامى الذى لا يحد بين كلام الله وكلام البشر. فبينما يأتى الشرط فى الآية الكريمة بحرف الشك (إن) لكون الشرط مظنوناً- والله أعلم- وكما بينت ذلك قبل- يقول الزمخشرى: "ولقد وصفنا لهم كل صفة كأنها مثل فى غرابتها، وقصصنا عليهم كل قصة عجيبة الشأن كصفة المبعوثين يوم القيامة، وقصتهم وما يقولون وما يقال لهم، وما لا ينفع من اعتذارهم ولا يسمع من استعتابهم، ولكنهم لقسوة قلوبهم ومج أسماعهم حديث الآخرة إذا جئتهم بآية من آيات القرآن قالوا جئتنا بزور وباطل"[(٢)]

---

(١) البحر المحيط ٣٨٨/٦

(٢) الكشاف ٢٢٨/٣

فانظر كيف أتى مع الشرط بالحرف (إذا) دون (إن) وهو لا يتناسب مع كل ما مهد به وذكره قبل الشرط، والذى يرشح ظن وقوع الشرط. هذا فضلاً عن مخالفته نظم القرآن الكريم. وفى هذا دليل علي فرق ما بين النظمين. والله أعلم.

٩. قال تعالى: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ﴾ (فصلت:٣٨)

فالشرط وهو الاستكبار- وإن كان ديدنهم- إلا أنه صار مظنوناً بحكم سبقه بما أمر به الرسول من دعوتهم إلى الله، واحتمال طاعتهم.

١٠. قال تعالى: ﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾ (الدخان:٢١)

فالشرط (إن لم تؤمنوا) وإن أكدت الحوادث تحققه إلا أنه مسبوق بالدعوة إلى الإيمان وعدم العلو والاستكبار مما يجعله مظنوناً. والله أعلم.

الحالة الثانية:

أن يكون الشرط دالاً على حالة وعادة غالبة الوقوع فيكون لأجل ذلك مظنوناً ، وشواهدها اثنا عشر شرطاً فى عشر آيات ، هى ما يأتى:

١. قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِى الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾ (النساء:٣)

فالآية تخاطب المؤمنين وتأمرهم بأن ينكحوا نساء غير اليتامى إن خافوا ظلمهن، والشواهد تدل على أن خوف عدم القسط مظنون الوقوع. بل قد وقع لكثير منهم وتحرجوا من أكلهم وشربهم معهم. ووجه الربط بين الشرط والجزاء. أى إن خفتم أن تظلموا اليتامى عند نكاحهن فانكحوا ما طاب لكم من النساء. أو إن خفتم ترك العدل فى حقوق اليتامى فتحرجتم منهم فكونوا خائفين أيضاً من ترك العدل بين النساء، فتزوجوا مثنى وثلاث ورباع ولا تزيدوا على ذلك، لأن هذا العدد مظنة العدل والقسط، لكون الظلم غالباً ما يكون فى الأكثر عن ذلك[١].

ولذا فالشرط الثانى (فإن خفتم ألا تعدلوا) مرجوح الوقوع لغلبة الظن فى عدم الجور، وإمكان التسوية فى القسم والنفقة بين الأربعة، ويرشد إلى ذلك أمر الآية الكريمة بنكاحهن. وإلا لأصلت عدم زواجهن.

---

(١) ينظر تفسير الطبرى ٢٣١/٤ وما بعدها، وكذلك البيضاوى ١٠/٣ وابن كثير ٤٥٠/١

فإن قيل إن الآية تقول: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ (النساء:١٢٩) قلنا: إن المقصود العدل الكامل فى كل شئ حتى فى الميل القلبى، وهذا غير مستطاع، أما العدل المخوف عدم تحققه فى الآية السابقة فهو العدل المستطاع. ذكر القرطبى قول مجاهد: (لا تتعمدوا الإساءة بل الزموا التسوية فى القسم والنفقة لأن هذا مما يستطاع"[١] وبهذا يتضح أن خوف عدم العدل فى الشرط الثانى مرجوح الوقوع، لأنه مستطاع ولا يخاف من عدم الوصول به إلى درجة القبول عند زواج الأربعة. والله أعلم.

٢. قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلاحاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً﴾ (النساء:٣٥)

فى هذه الآية الكريمة شرطان. وهما مظنونا الوقوع، لأن ذلك من عادات الناس وأحوالهم. فالشرط الأول وهو قوله تعالى: "وإن خفتم" مظنون الوقوع يؤكد ذلك أن الآية قبلها (واللاتى تخافون نشوزهن) فهى مظنة خوف اشتداد الخلاف ووصوله إلى الشقاق والطلاق والشرط الآخر (إن يريداً إصلاحاً) شأنه الظن أيضاً. لأن إرادتهما الإصلاح أمر غالب. ويندر عدم تحققه. قال أبو السعود: "وعدم التعرض لذكر عدم إرادتهمن الإصلاح لما ذكر من الإيذان بأن ذلك ليس مما ينبغى أن يفرض صدوره عنهما وأن الذى يليق بشأنهما ويتوقع صدوره عنهما هو إرادة الإصلاح...."[٢] فالشرطان فى الآية من العادات الكثيرة الوقوع، كما قوّى ظن وقوعهما أيضاً معرض الآية.

٣. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾" (الأنفال:٢٩)

فالشرط (إن تتقوا) مظنون الوقوع لأن شأن الإيمان الذى وصفوا به أن تكون معه التقوى أكثر، لأنها به أوثق وأوفق، ولما كانت مظنة أن تتخلف فى بعض الأحيان بأن تقع بعض الذنوب والسيئات من المؤمن، إذ ليست العصمة إلا للأنبياء عليهم الصلاة والسلام. لما كان الأمر كذلك جاءت التقوى شرطاً مرتباً عليه جزاؤه دفعاً ومنعاً لما يمكن أن يبدر منهم. والله أعلم.

---

(١) تفسير القرطبى ١٩٧٧

(٢) تفسير أبى السعود ١٤٠/٣

٤. قال تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ * وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾" (الأنفال: ٥٧، ٥٨)

فالشرط الأول (فإما تثقفهم) مظنون الوقوع. والوجه فى ذلك أن الثقفة فى الحرب والغلبة والظفر بالكافرين من غالب أحوال المؤمنين. والشرط الثانى (وإما تخافن من قوم خيانة....) مظنون أيضاً لأن الخيانة عادة مألوفة من فئات الكفر، لذا كان خوف ذلك منهم مظنوناً وغالباً، بل يكاد لا يتخلف.

قال أبو حيان: "قيل الخوف على بابه. فالمعنى أنه يظهر منهم مبادئ الشر، وينقل عنهم أقوال تدل على الغدر. فالمبادئ معلومة، والخيانة التى هى غاية المبادئ مخوفة لا متيقنة"[١] والسياق أيضاً يساعد على رجحان الخوف، وذلك من مجئ (ما) مع (إن) وتأكيد الفعل بالنون (تخافن).

٥. قال تعالى: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً﴾(الإسراء:٨)

ووجه الظن فى وقوع الشرط (وإن عدتم) كونه عادة من عادات يهود. من نكث العهد، وقلة اتعاظهم بما نزل بهم ويحل عليهم من عقاب على عودهم إلى الإفساد. كما أن الفعل (عاد) يشعر بتكرر هذا منهم، وأن الاحتمال الغالب رجوعهم إلى إنكار العهود ومخالفة المواثيق.

٦. قال تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً﴾ (الإسراء:٢٣)

فالشرط فى الآية (إما يبلغن) مظنون الوقوع، ولذلك جاء الفعل مسبوقا بما ومؤكداً بالنون، فتوافق السياق مع دلالة الأحوال. ومما ينبغي أن يلحظ أن بلوغ الأبوين أو أحدهما أمر واقع فى حياة الناس. لكن اعتبار الظن نظراً لخطاب الآية للواحد، لذا يكونه مظنوناً غير مجزوم به، والعطف (بأو) يدل على عدم تحقق بلوغ كل منهما، وإنما هو فى دائرة المتوقع المظنون. والله أعلم.

---

(١) البحر المحيط ٥٠٩/٤

٧. قال تعالى:﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِى الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ (غافر: ٢٩)

فالشرط وهو مجئ العذاب غير مجزوم به، لأنه أمر غيبى لا يعلمه إلا الله، لكنه مظنون الوقوع بحكم المشاهد من أحوال الأمم مع أنبيائهم، ووقوع العذاب على ما كان منهم. فحال المخاطبين من الإصرار والعناد وإضلال فرعون لهم تستوجب نزول العقاب بهم. لذا خوفهم به موسى عليه السلام.

٨. قال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (الممتحنة: ١٠)

فالشرط فى الآية (فإن علمتموهن مؤمنات) مظنون الوقوع، لأن شأن الهجرة غالباً أن تكون عن إيمان، لما فيها من ترك الأولاد والأموال. فكان الأمر بامتحانهن تأكيداً لصدق نيتهن.

٩. قال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(التغابن: ١٤)

فالشرط فى الآية (وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا) مظنون الوقوع، لأنه فى غالب أحوال الناس مع أهليهم وأولادهم، خاصة أهل الإيمان والتقوى.

١٠. قال تعالى: ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ (التغابن: ١٧)

فالشرط وهو (إن تقرضوا الله قرضاً حسناً) مظنون الوقوع. ويساعد على ذلك سياق الآية قبلها، وحثها على التقوى قدر الاستطاعة، والسمع والطاعة، والإخبار بالفلاح لمن يوقى شح نفسه، قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (التغابن: ١٦)

الحالة الثالثة:

أن يتحقق للشرط بعض الأسباب التى قميئ لوقوعه، وتكون أمارة على ظن الوقوع، وشواهد هذه الحالة أحد عشر شرطاً فى إحدى عشرة آية هى ما يأتى:

١. قال تعالى: ﴿فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(البقرة:١٩٢)

فالشرط فى الآية وهو انتهاء الكافرين عن قتال المؤمنين مظنون غالب لوجود أسباب من شأنها أن تحققه. وهى تمكن المؤمنين منهم، وقتلهم والضرب على أيديهم، وإخراجهم كما أخرجوهم، قال تعالى: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ...﴾ (البقرة:١٩١) فقتالهم عند التمكن منهم يهيئ لانتهائهم وانزجارهم. والله أعلم.

٢. قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة:١٩٣)

وهذه الآية كسابقتها فى كون الشرط (فإن انتهوا) مظنوناً.

٣. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلأِ مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُقَاتِلْ فى سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فى سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بالظَّالِمِينَ﴾ (البقرة:٢٤٦)

فالشرط (إن كتب عليكم القتال) مظنون الوقوع، لأن نبيهم يعلم شكاقمم وأهم أخرجوا من ديارهم وأبنائهم مما يهيئ لكتابة القتال عليهم، ويؤيد ذلك أن القتال من أحوال أتباع الأنبياء الغالبة.

٤. قال تعالى: ﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾ (النساء:١٦)

فالشرط (فإن تابا) مظنون الوقوع لوجود أسبابه من التضييق عليهما وإنزال العقوبات والتعذيرات المختلفة بهما. ويشعر بذلك الإتيان بالشرط عن التوبة وما يترتب عليها، وإلا لو كان عدم التوبة هو الراجح لأُتِىَ به شرطاً ورتب عليه حكمه.

٥. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فيه خَيْراً كَثِيراً﴾ (النساء:١٩)

فالشرط فى الآية (فإن كرهتموهن) مظنة الوقوع، لكثرة أسباب الخلاف ودواعيه فى حياة الناس. والنواهى الموجودة فى الآية الكريمة علامات على ظن وقوع

الكراهة، ولذلك حثت الآية على الإبقاء عليهن مع الكراهة، فقد يكون معها الخير الكثير.

٦. قال تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً﴾ (النساء: ٣٤)

فالشرط (فإن أطعنكم)، مظنون الوقوع لكونه مسبوقاً بأمور تستدعي تحقق الطاعة وتساعد عليها، وهي الوعظ والهجر في المضاجع والضرب إذ يرضخ كثيرات منهن لذلك ولا يشذ معه إلا القليلات.

٧. وقال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً﴾ (النساء: ٩٠)

فالشرط (فإن اعتزلوكم...) مظنون الوقوع لوجود أسباب هيئ له، من صلة هؤلاء القوم بقوم بينهم وبين المؤمنين عهد، وخوفهم من قتال المؤمنين، فضلاً عن صرف الله لهم في الزمن الماضي والمدلول عليه بالحرف (لو). كل هذا يجعل الشرط وهو اعتزالهم مظنون الوقوع. والله أعلم.

٨. وقال تعالى: ﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً مُبِيناً﴾ (النساء: ٩١)

فالشرط (لم يعتزلوكم) يصاحبه ما يرجح وقوعه من ارتكاسهم في الفتنة وترددهم في بقائهم على العهد.

٩. قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ * وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ"﴾ (الأنفال: ٦٠،٦١)

فالشرط في الآية الثانية (وإن جنحوا للسلم) مظنون الوقوع، ذلك لأن جنوحهم مرتبط بأحوال المسلمين. فلو نظرنا إلى الشرط بعيداً عن المقام والسياق

لاحتمل الظن، والشك، ومرجوحية وقوعه، لأن ظن جنوحهم إليه يكون عند قوة المسلمين والشك فيه يكون عند تساوى القوتين، وتوهم جنوحهم عند ضعف المسلمين، والبراهين على ذلك أكثر وأوضح أن تخفى. لكن المقام والسياق للشرط فى الآية الكريمة يشير إلى تحقق أسباب القوة التى تجعل جنوحهم مظنوناً، فقد أشارت الآية الأولى إلى الإعداد لهم من كل قوة عدة وعدد ليرهبوهم ويرهبوا من يفكر فى نصرهم سراً أو علانية. والله أعلم.

١٠. قال تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة:٥)

فالشرط الثانى فى الآية الكريمة (فإن تابوا وأقاموا الصلاة....) مظنون الوقوع، لوجود أسبابه ودوافعه، من شدة المؤمنين عليهم ومن الأخذ والحصار والتربص لقتلهم فى كل مكان، فهي مهيئات لأن يثوبوا إلى رشدهم ويدخلوا فى دين الله أفواجاً.

١١. قال تعالى: ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ (الكهف: ٧٠)

فالشرط فى الآية (فإن اتبعنى) والذى ذكره الرجل الصالح لموسى عليهما السلام ليرتب عليه عدم سؤال موسى له عن شئ حتى يبدى له حكمته- هذا الشرط مظنون الوقوع والتحقق لدى الخضر بعد موافقة موسى على أن يصبر على ما لم يحط به خبراً، وأن يطيعه ولا يعصى له أمراً. ولم تبق على موسى تبعة إلا ما رتبه الخضر واشترطه للاتباع. فالشواهد والأمارات كلها شاهدة على قرب اتباع موسى له وسيره معه.

ولهذا من الشعر العربى نظائر. أنشد عنترة:

إن كُنت أَزْمَعْت الفراقَ فإنما ∴ زُمّت ركابُكم بليل مُظلم
ما راعَنى إلا حَمُولةُ أهلها ∴ وسْط الديار تَسَفُّ حب الخمخم
فيها اثنتان وأربعون حلوبةً ∴ سُوداً كخافية الغراب الأسْحَم[1]

فالشرط وهو إزماع الفراق مظنون عند عنترة، لذا أخبر بأنه قد بيت بليل. وأكد ظنه ما راعه من رؤية إبل أهلها وسط الديار بعيدة عن المرعى تسف يابس

(١) الأبيات من معلقة عنترة وهي في ديوانه ص ١٣ وموجودة فى شرح القصائد السبع الطوال ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٥

النبت، والحال هذه لا تكون إلا عند الاستعداد للرحيل. وقد يظن غافل ممن لا يعرفون طريقة الشعر الجاهلى ولا يذهبون وراء أغوار النفس الشاعرة التى أبدعته أن البيت الثالث نوع من الانتقال الذى يفصم الأفكار عن بعضها، لكن التأمل الواعى يكشف أن له صلة كبيرة بما قبله فى ما يرمى إليه. ذلك لأن وجود الإبل وفيها هذا العدد الذى يحتاج إلى الرعى للحلاب والصر، مما يؤكد روعه وظنه الفراق، ويجعله ينام على حسك السعدان.

الحالة الرابعة:

أن تكون الأمارات والشواهد واضحة الدلالة على ظن المتكلم وقوع الشرط مع كون الشرط واقعاً فعلاً، أو ممكناً، أو مستحيلاً.

ظن وقوع الشرط مع كونه محقق الوقوع:

وشواهد ما يظن المتكلم وقوعه مع أنه واقع فعلاً لكونه يجهل تحقق وقوعه أربعة شروط تقع فى أربع آيات هي ما يأتى:

١. قال الله تعالى: ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فيه وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِه فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً منَ الصَّاغرِينَ﴾ (يوسف:٣٢)

فالشرط فى الآية (لم يفعل) محقق الوقوع مجزوم به لكن زليخا لا تعتقد ذلك. لأن حالها حال من لا يدرك مترلته فى النبوة والطهارة ، وتجهل حفظه وعصمته من المنكرات.

وإنما كانت ظانة وقوع الشرط أى عدم الفعل وعدم طاعته لها لما رأته وشاهدته وكان مما ألقى فى نفسها استبعاد أن يفعل ما يأتى:

- ما رأته من الإعراض والانصراف عن مراودتها له، لذا غلب على ظنها أنه لن يفعل.
- ما كان من شغلها الشاغل الذى أرقها من عدم فعله، ولذلك كان جل اهتمامها ذكر العقوبات التى تترتب على الشرط، وعدم الفعل، مؤكدة ذلك بوسائل التأكيد المختلفة من القسم، واللام، ونون التوكيد. فكان المظنون عندها عدم الفعل، وإلا لكان حديثها وإخبارها بما تعد به لا بما تتوعد.
- أنها أخبرت بأنها راودته عن نفسه فاستعصم، فدلت بذلك على استبعادها أن يقبل مراودتها، وأن امتناعه هو المظنون الغالب.

واضح إذا تحقق ظنها عدم فعله وعدم استجابته لها مع أنه ليس فى الواقع مظنوناً بل محققاً ثابتاً. ونظير ذلك الآية الآتية:

٢. قال تعالى: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً﴾ (مريم:٤٦)

فالشرط فى الآية (لم تنته) من قبيل الشرط فى الآية السابقة، إذ هو مجزوم به فى الحقيقة والواقع، لأن ذلك عماد دعوة إبراهيم عليه السلام، وهو العزيمة والإصرار على تبليغ الدعوة. لكن جهل آزر بحقيقة النبوة أفقده اليقين فى استمرار إبراهيم عليه السلام فى دعوته وجعله يظن أن التهديد يغيره ويمنعه من دعوته. لكنه لما وجد من صلابته عليه السلام كان تحقق الشرط عنده مظنوناً. فكان يغلب على ظنه عدم انتهاء إبراهيم لذا ساق حديثه سوقاً مناسباً لهذا الظن، فقدم الوصف الذى هو (راغب) لإنكاره عليه. ثم أقسم مهدداً على بقائه فى طريق دعوته. وإلا لو كان يأمل منه الاستجابة لكان منه الترغيب لا الترهيب. والله أعلم.

٣. قال تعالى: ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ (الشعراء:١١٦)

٤. قال تعالى: ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ (الشعراء:١٦٧)

وهاتان الآيتان من قبيل هذا النوع الذى نحن بصدده من وقوع الشرط وتحققه خارجاً. لكن جهل المتكلم يبقى له من الاعتقاد المرجوح فى عدم وقوع الشرط، لكن وقوعه يكون مظنوناً عنده لما يرى من الآيات والعلامات التى ترجح وقوعه فى نظره. ولذلك أتى هؤلاء الضالون بما يؤكد وعيدهم على حصول ما يظنون ويكرهون.

ظن وقوع الشرط مع إمكانه:

وشواهد ما يظن وقوعه لوجود أمارات دالة على هذا الظن مع كونه ممكناً- ثمانية شروط فى ثمانى آيات هى ما يأتى:

١. قال الله تعالى: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (المائدة:٢٨)

فقد كان هابيل يظن من أخيه قابيل السوء، وأن يقدم على الاعتداء عليه قال الرازى: "لاح للمقتول بأمارات تغلب على الظن أنه يريد قتله فذكر له هذا الكلام على سبيل الوعظ والنصيحة"[١] ولذلك ذكره بخوف الله رب العالمين. ويساعد السياق

(١) تفسير الرازى ٣٩٢/٣

أيضاً على وجود هذا الظن، فقد قال له: ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك حثاً له أن لا يقابل هذا الخلق بالجحود والنكران.

٢. قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (الأعراف:١٨٩)

فالشرط فى الآية (آتيتنا صالحاً) مظنون الوقوع، لكونهما يطلبان ذلك من ربهما وهو رحيم بعباده، وفى قوله تعالى: دعوا الله ربهما. إشعار بأنهما كانا كبيرا الرجاء فى قبول دعائهما وقد حقق الله لهما ما رغبا فيه، ثم جعلا له شركاء فى ما آتاهما فتعالى الله عما يشركون. ولا يقال إن هذا من الظن السابق الذى هو مع محقق الوقوع لقوله تعالى: "حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً" لأنا نقول: إن المؤتى مقيد بكونه (صالحاً) وهذا لم يتحقق بعد، وهذا ملحظ مهم.

ونظير ذلك:

٣. قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (التوبة:٧٥)

فقد كان ثعلبة بن حاطب يؤمل ذلك وينتظره، وقد حقق الله له هذا المؤمل المرغوب.

٤. قال تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة: ٨٠)

فالشرط (إن تستغفر لهم) مظنون الوقوع لأن الظن أكثر مناسبة بحال المصطفى صلى الله عليه وسلم، لغلبة جانب الرحمة عنده واختياره الأرفق بأصحابه بعد أن خيره الله فى الاستغفار، يشهد لذلك ما اتصل بالآية من حوادث تدل على عظمته صلى الله عليه وسلم ورفقه بمن معه. فقد جاء فى صحيح مسلم "عن ابن عمر قال: لما توفى عبد الله بن أبي بن سلول جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه، فأعطاه، ثم سأله أن يصلى عليه، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلى عليه، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال يا رسول الله أتصلى عليه وقد نهاك الله أن تصلى عليه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنما خيرنى الله فقال: "اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ

لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ" فقال إنه منافق. فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله عز وجل– وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ[1] وعند تعليقه على هذه القصة، وبيانه مدى تلمس الرسول صلى الله عليه وسلم الدلالات من العبارات، والأخذ بالأرفق منها يقول الشيخ دراز: "اقرأ هذه القصة الثابتة برواية الصحيحين وانظر ماذا ترى؟ إنها لتمثل لك نفس هذا العبد الخاضع، وقد اتخذ من القرآن دستوراً يستملي أحكامه من نصوصه الحرفية، وتمثل لك قلب هذا البشر الرحيم وقد آنس من ظاهر[2] النص الأول تخييراً له بين طريقين، فسرعان ما سلك أقربهما إلى الكرم والرحمة، ولم يلجأ إلى الطريق الآخر إلا بعد ما جاءه النص الصريح بالمنع"[3]

واضح إذاً أن الشواهد والأمارات كثيرة مما تهيئ لظن وقوع الشرط. والله أعلم.

٥. وقال تعالى: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً﴾ (الإسراء: ٦٢)

فالشرط (أخرتن) أمر جائز ممكن الوقوع عندما طلب إبليس اللعين ذلك. أما ظنه تحققه فلاعتقاده أنه خير من يقوم بهذه المهمة، وتوسمه فى آدم وذريته أن يسمعوا داعى الشر. قال الزمخشرى: "فإن قلت: من أين علم أن ذلك يتسهل عليه وهو من الغيب؟ قلت: إما أن سمعه من الملائكة، وقد أخبرهم الله به، أو خرجه من قولهم: أتجعل فيها من يفسد فيها. أو نظر إليه فتوسم فى مخايله أنه خلق شهوانى"[4] فالشرط واضح الإمكان، وواضح كونه مظنوناً عند المتكلم.

٦. قال تعالى: ﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ * رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي فِى الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ﴾ (المؤمنون: ٩٣، ٩٤، ٩٥)

فالشرط فى الآية (ترينى) ممكن الوقوع وتدل الآية الأخيرة على ذلك. كما أنه كان مظنون الوقوع له فى الدنيا أو الآخرة. قال الزمخشرى: "(ما) والنون مؤكدتان.

---

(١) صحيح مسلم ٨/١٢٠

(٢) نقول ظاهر النص لأن العطف بأو = يحتمل أن يكون للتسوية لا للتخيير، كما أن صيغة العدد تحتمل أن تكون للمبالغة لا للتحديد، وكلاهما احتمال قوى. إلا أن معنى التخيير والتحديد آت على أصل الوضع وعلى مقتضى كرم الطبع، فلم يعدل عنه الرسول الكريم إلا بنص آخر. هامش النبأ العظيم ٢٧

(٣) النبأ العظيم ٢٧

(٤) الكشاف ٢/٤٥٦

أى إن كان لابد من أن تريني ما تعدهم من العذاب فى الدنيا أو فى الآخرة فلا تجعلني قريناً لهم ولا تعذبني بعذابهم... وقوله: (رب) مرتين قبل الشرط وقبل الجزاء حث على فضل تضرع وجؤار"(١)

وزيادة التضرع والجؤار لكونه عليه الصلاة والسلام كان يتوقع أن يرى ما يقع عليهم من العذاب.

٧. قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (القصص:٢٧)

فالشَرط (أتممت عشرا) ممكن الوقوع ومظنون أيضا، لأن أحوال الأنبياء عليهم السلام مبناها المساهلة والإجابة وبسط الجانب. ولذلك أخبر شعيب موسى – عليهما السلام – أنه ما طلب منه إلا ما سهل ولم يرد المشقة عليه. ثم قوّى فى نفسه الاستعداد لإتمام العشر بترغيبه فى معاملته بأنه سيجده من الصالحين.

ولم يكن الشرط مجزوما به بحكم ما يقتضيه التمييز بين ما هو واجب مفروض وهو أصل الصداق الذى اتفقا عليه وبين ما هو من الإحسان والتفضل. فإنه ما على المحسنين من سبيل. والله أعلم.

٨. قال تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الحجرات:١٤)

فالشرط (وإن تطيعوا الله ورسوله) مظنون الوقوع ووجه الظن أنه تعالى قال: (ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم) وذلك لدلالة حرف الجزم (لما) على التوقع والانتظار، فطاعتهم مظنونة عند دخول الإيمان فى قلوبهم. والله أعلم.

ومن هذا النوع فى الشعر كثير. ومن أمثلة ذلك ما قالته كبشة أخت عمرو بن معد يكرب عند استعداد عمرو أن يأخذ دية أخيه عبد الله:

فَإِنْ أَنْتُمُ لَمْ تَثْأَرُوا بِأَخِيكُمُ ∴ فَمَشُّوا بِآذَانِ النَّعَامِ الْمُصَلَّمِ
وَدَعْ عَنْكَ عَمْراً إِنَّ عَمْراً مُسَالِمٌ ∴ وَهَلْ بَطْنُ عَمْرٍو غَيْرُ شِبْرٍ لِمَطْعَمِ(٢)

فقد تكشف لها ما جعلها تظن ميلهم إلى المسالمة وعدم الثأر.

---

(١) الكشاف ٤١/٣

(٢) الأبيات في الشعر والشعراء لابن قتيبة ٣٧٤/١

ظن وقوع الشرط مع استحالته:

ويكون ذلك عندما يظن المتكلم وقوع الشرط مع أن الشرط يستحيل وقوعه. على أنه ينبغى التمييز بين هذا النوع وبين ما يأتى فيه الشرط ويكون المتكلم عالماً باستحالته. لكن يأتى به على سبيل فرض المستحيل -كما سيعرف فى موضعه إن شاء الله تعالى- لكن المتكلم هنا يعتقد إمكانه ويظن وقوعه مع أنه غير ممكن الوقوع. والشروط التى جاءت على هذه الطريقة ثلاثة شروط فى ثلاث آيات هى:

١. قال تعالى: ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ (يوسف:٧٤)

فالشرط فى الآية (إن كنتم كاذبين) مظنون الوقوع لكنه مستحيل. أما وجه الظن فلأنهم كانوا يرتابون فيهم، ولذلك بدهوهم أول الأمر بقولهم: إنكم لسارقون، وفى ذلك أمارة واضحة على ظنهم السرقة ، وتكذيب من ينفى ذلك. أما كونه مستحيلاً فلما تَرَبَّوْا عليه من أخلاق أبيهم يعقوب عليه السلام، لأن الخيانة لا توجد فى بيوت الأنبياء، ولذلك أجابوهم بنفى ذلك قائلين: تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين. ولذلك عندما تبدلت الشواهد والأمارات بخروج الصواع من رحل بنيامين ظنوا السرقة فى حقه كما فى الآية الآتية:

٢. قال الله تعالى: ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَاناً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ"﴾ (يوسف:٧٧)

والوجه فى استحالة الشرط ما تقتضيه عصمتهم من الكبائر والمنكرات ، لكن الشرط فى نظرهم ممكن مظنون الوقوع ظنا راجحا حسب ظاهر الأمر المشاهد عندهم.

قال أبو حيان: "وقولهم: إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل، لا يدل على الجزم بأنه سرق، بل أخرجوا ذلك مخرج الشرط، أى إن كانت وقعت منه سرقة فهو يتأسى بمن سرق قبله. فقد سرق أخ له من قبل. والتعليق على الشرط بـ (إن) مبناه على أن السرقة فى حق بنيامين وأخيه ليس مجزوماً بها. كأنهم قالوا إن كان هذا الذى رمى به بنيامين حقاً فالذى رمى به يوسف من قبل حق. لكنه قوى الظن عندهم فى حق يوسف بما ظهر لهم أنه جرى من بنيامين. ولذلك قالوا: إن ابنك سرق..."[1] فالشرط مع أنه مستحيل لكنهم يعتقدون جوازه ويعلقون عليه الجزاء.

٣. قال تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ * لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ (الشعراء: ٣٩، ٤٠)

---

(١) البحر المحيط ٣٣٣/٥

فالشرط وهو غلبة السحرة موسى مستحيل الوقوع ، لاستحالة أن يغلب السحر المعجزة. لكنهم بكفرهم ظنوا وقوع الشرط. وإنما لم يجزموا بوقوعه، لأن الحال حال مغالبة ومنابذة تقتضى من المتربص أن لا يجزم بالنتائج. خاصة وأن موسى عليه السلام قد أظهر لهم من الآيات ما جعلهم يتحسبون ويستعدون. وما كان إتيانهم بالسحرة من المدائن حاشرين إلا تخوفاً من نصر موسى عليهم واهتزاز ثقتهم بأنفسهم. لكنهم غلب عليهم الشيطان بما حاك فى صدورهم بأنهم غالبون، ولما كانوا يعتقدون أن ما جاء به سحر، وأنهم بالسحر أعلم وبالغلبة أحق رجوا وقالوا: لعلنا نتبع السحرة- والله أعلم.

مجيء (إن) مع المشكوك فيه:

تستعمل (إن) مع الشرط المشكوك فيه، وهو الذى لا يميل المتكلم فى اعتقاد وقوعه إلى رجحان الوقوع أو عدم رجحانه ، وإنما يتردد بينهما على التساوى- ويكون ذلك فى المواضع الآتية:

الموضع الأول: عند وجود جو نفسى مضطرب ملبس ، لا يتبين فيه المتكلم كون الشرط يغلب وقوعه أو يقل. والشواهد الواضحة على ذلك أربعة شروط فى أربع آيات، هى ما يأتى:

١. قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (الأنعام:٦٣)

فالآية الكريمة تعرض صورة جو مظلم كئيب ممتلئ بظواهر طبيعية مخيفة تنزع النفس من طمأنينتها وتقلقها. حتى يكاد المرء فى هذا الجو يشك فيما يراه أمامه وتحت بصره فعلاً. فكيف بشئ يتمناه ويرغب فيه ، من النجاة من هذا الجو الصاخب. فإنه لا يبقى له إلا أمل فى الله يعيد إليه شيئاً من سكينته. فيسأل الله النجاة معلقاً عليها الشكر والطاعة.

٢. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرائيلَ﴾ (الأعراف:١٣٤)

ووجه الشك ما يستدعيه المقام من التردد بين وقوع الشرط وعدمه. لاشتمال المقام على دواعى الأمرين معاً. ذلك لأنهم يعرفون أنه نبى مجاب الدعوة، وكان لهم تجارب بكشف الضر عنهم فى مرات سابقة ، فهذا يقوى ظن وقوع الشرط. ثم يوجد

ما يقتضى عدم كشف الضر عنهم وهو عنادهم وإصرارهم على الكفر والمعاصي. وليس أدل على ذلك من المناقضة العجيبة التي هم عليها من كونهم تارة يكذبون موسى عليه السلام ولا يستجيبون له. وأخرى يفزعون إليه فزع الأمة إلى نبيها سائلين كشف الضر عنهم، وهذا فى ظاهره تسليم بأنه نبي مجاب الدعوة.[1]

٣. قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (يونس: ٢٢)

فالشرط (لئن أنجيتنا) مشكوك فيه، لتردد النفس بين ظن الهلاك وعدم النجاة، وبين الرجاء فى الله أن ينقذهم من هذه الشدة التي تحيط بهم.

٤. وقوله تعالى: "فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيّاً" (مريم: ١٧، ١٨)

ففى هذا الجو الذى كانت تعيش فيه مريم عليها السلام تتبتل إلى الله بعيداً عن قومها وعن الناس جميعاً، وتتخذ بينها وبينهم حجاباً يفاجئها شخص لا تعرف هويته فتتجه إلى الله تعلق رجاءها به فى أن يعيذها منه، سواء كان ممن يتقى الله ويقبل الرجاء بتركها والابتعاد عن مكانها ، أو ممن يُتّقى منه ويستعاذ من شره. فهى لا تتبين إن كان صالحاً أو طالحاً. وتتردد فى الأمر. وترجو الإعاذة على جميع الأحوال.

الموضع الثاني: ويكون عندما يتعارض ظاهر الحال مع ما يعتقده المتكلم، وهو بسبيل من الموضع الأول من جهة الإلباس ووجود التردد فى وقوع الشرط من ناحية هذا الإلباس. وإن كان يفترق عنه فى كون التردد فى هذا الموضع نشأ بعد الاعتقاد فى الشرط، ثم وجود قرائن تخالف هذا الاعتقاد. ويتضح ذلك فى شرطين يقعان فى آيتين كريمتين هما ما يأتى:

١. قال تعالى: ﴿قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (المائدة:٢٣)

فالشرط فى الآية (إن كنتم مؤمنين) مشكوك فيه. لأنه لما كانت حقيقة أمرهم الإيمان ثم عارض ذلك تخاذلهم وامتناعهم عن الدخول اقتضى ظاهر أمرهم هذا أن يشك الرجلان فى حقيقة أمرهم ، فقالا شاكين: (إن كنتم مؤمنين).

(١) ينظر تفسير الرازى ٢٨١/٤

قال أبو حيان: "لما رأيا بنى إسرائيل قد عصوا الرسول فى الإقدام على الجهاد مع وعد الله له السابق استرابا فى إيمانهم، فأمراهم بالتوكل على الله إذ هو الملجأ والمفزع عند الشدائد. وعلقا ذلك بشرط الإيمان الذى استرابا فى حصوله لبنى إسرائيل:[1] فقد تعارض ظاهر حالهم من عدم الإقدام مع حقيقة أمرهم الثابتة من الإيمان بالله وبموسى عليه السلام.

٢. قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (المائدة:١١٢)

فقد تعارض- أيضاً- فى هذه الآية ما هو واقع وهو دعواهم الإيمان وظاهر حالهم من سؤالهم عن قدرة الله تعالى على إنزال مائدة. فحصل الشك فى إيمانهم. قال الزمخشرى: "فإن قلت: كيف قالوا: هل يستطيع ربك بعد إيمانهم وإخلاصهم؟ قلت: ما وصفهم الله بالإيمان والإخلاص وإنما حكى ادعائهم لهما ثم أتبعه قوله: إذ قال الحواريون. فآذن أن دعواهم كانت باطلة وأنهم كانوا شاكين. وقولهم: هل يستطيع ربك كلام لا يرد مثله من مؤمنين مطيعين لربهم. وكذلك قول عيسى عليه السلام لهم، معناه اتقوا الله ولا تشكوا فى اقتداره واستطاعته ولا تقترحوا عليه ولا تتحكموا ما تشتهون من الآيات فتهلكوا إذا عصيتموه بعدها (إن كنتم) مؤمنين إن كانت دعوتكم للإيمان صحيحة"[2]

والشرط فى الآية يفيد الشك سواء كان مراداً بالإيمان أصله كما ذهب إليه الزمخشرى ، أو مراداً به كمال الإيمان كما ذهب إليه النيسابورى.

قال: "ومن قرأ بالياء وبالرفع فمشكل- أى يستطيع- لأنه تعالى حكى عنهم أنهم (قالوا آمنا) فكيف يتصور مع الإيمان شك فى اقتدار الله تعالى؟ وأجيب بوجوه: منها أن حكاية الإيمان عنهم لا يوجب كمالهم وإخلاصهم فى ذلك. ولهذا قال لهم عيسى: (اتقوا الله إن كنتم مؤمنين)...."[3] فالشرط مشكوك فيه سواء كان أصل الإيمان أو كماله وهو المراد فى الآية الكريمة والله أعلم.

الموضع الثالث: أن يكون الشرط مرغوباً فيه مع عدم امتلاك القدرة على تحقيقه ، لكونه من الأمور الغيبية التى لا تدخل فى قدرة المتكلم ، فيقع عندئذ الشك فيه. وذلك واقع في شاهدين فى الآيتين الآتيتين.

---

(١) البحر المحيط ٣/٤٥٥، ٤٥٦

(٢) الكشاف ١/٦٥٤

(٣) غرائب القرآن للنيسابورى ٧/٥٣

١. قال تعالى: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوّاً إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ (التوبة:٨٣)

فالشرط وهو رجوعه عليه الصلاة والسلام من غزوه سالماً أمر مرغوب فيه لكنه أمر غيبي لا يعلمه إلا الله. فهو يفيد الشك لكونه جارياً على مقتضى الأسلوب العربي كما بين ذلك قبل. قال أبو حيان: "ودخول إن هنا وهي للمكن وقوعه غالباً إشارة إلى أنه صلى الله عليه وسلم لا يعلم بمستقبلات أمره من أجل وغيره. إلا أن يعلمه الله. وقد صرح بذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (الاحقاف:٩) و ﴿قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف:١٨٨) قال نحوه ابن عطية وغيره"[١]

٢. قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ (المنافقون:٨)

فالسر في مجئ (إن) دون (إذا) – والله أعلم – كون الشرط مشكوكاً فيه. لأن الرجوع من الحرب غير متيقن الوقوع. لاحتمال الأمرين القتل أو الرجوع، ولا يمكن ترجيح أحدهما على الآخر. لأنه متروك لله جل وعلا.

ومن هذا القبيل ما قاله النابغة الجعدى لامرأته عندما خرج غازياً:

فَإِنْ رَجَعْتُ فَرَبُّ النَّاسِ يُرْجِعُنِي ... وَإِنّ لَحِقْتُ بِرَبِّي فَاتْبَعِي بَدَلاً[٢]

فالشرطان أمران مغيبان. كما أن ذكر الحالتين معاً– كما سيتبين بعد– يقتضي الشك في وقوع الشرط أيضاً.

الموضع الرابع: أن يقع فعل المشيئة شرطاً فلا يفيد عندئذ الظن ولا التوهم وإنما يفيد الاحتمال والتردد.

وأمثلة هذا الموضع تتنوع إلى نوعين:

النوع الأول: وهو أن يكون فعل المشيئة متعلقاً بفعل يقع من المخلوقين، فعندئذ يفيد التردد وعدم الجزم في وقوع المشيئة على سبيل الأدب مع الله تعالى.

---

(١) البحر المحيط ٨٠/٥

(٢) البيت مذكور في الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٩٣/١

وأمثلة هذا النوع يصلح إدخالها بهذا الاعتبار فى أمثلة الموضع الثالث السابق على هذا الموضع كما يصح إدراجها فى هذا الموضع باعتبار كون الأمثلة جميعها لفعل المشيئة الواقع شرطاً. وشواهده ستة شروط تقع فى ست آيات هى ما يأتي:

١. قال الله تعالى: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ (البقرة: ٧٠)

فقد جاءت الهداية معلقة على المشيئة. فاهتداؤهم على ذلك محتمل مشكوك فيه ، لأن المشيئة ليست مجزوماً بها. وقد ذكر الشهاب ما يفيد أن الشرط وهو المشيئة غير مجزوم به. قال: "وكلمة (إن شاء الله) تسمى استثناء لصرفها الكلام عن الجزم وعن الثبوت فى الحال من حيث التعليق على ما لا يعلمه إلا الله"[١] وقد ذهب أبو حيان إلى عدم خلوص الشرط فى الآية لمعنى التعليق قال: "ولم يأتوا بهذا الشرط إلا على سبيل الأدب مع الله تعالى. إذ أخبروا بثبوت الهداية وأكدوا تلك النسبة. ولو كان تعليقاً محضاً لما احتيج إلى تأكيد، ولكنه على قول القائل: أنا صانع كذا إن شاء الله وهو متلبس بالصنع. فذكر إن شاء الله على طريق الأدب"[٢]

على أن هذا لا يسلم لأبي حيان ، لأن هدايتهم لم تقع بالفعل وإنما كانوا ينتظرونها، على أن التأكيد ينصب على وقوع الجواب بعد تحقق شرطه وهو المشيئة.

٢. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ (يوسف: ٩٩)

وتعليق الجزاء هنا على الشرط وهو المشيئة من باب الأدب المقتضى ترك الأمر دون جزم، أو ترجيح وقوع، أو عدم ترجيح، خاصة وأن المعلق هو الدخول مع الأمن ، وهذا بعون من الله ورحمة. قال الزمخشرى: "فإن قلت: بم تعلقت المشيئة؟ قلت: بالدخول مكيفا بالأمن ، لأن القصد إلى اتصافهم بالأمن فى دخولهم. فكأنه قيل لهم: اسلموا وآمنوا فى دخولكم إن شاء الله. ونظيره قولك للغازى: ارجع سالماً غانماً إن شاء الله، فلا تعلق المشئية بالرجوع مطلقاً، ولكن مقيداً بالسلامة والغنيمة مكيفاً بهما. والتقدير: أدخلوا مصر آمنين إن شاء الله دخلتم آمنين"[٣]

---

(١) حاشية الشهاب على البيضاوى ١٨١/٢

(٢) البحر المحيط ٢٥٤/١

(٣) الكشاف ٣٤٤/٢

٣. قال تعالى: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِراً وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْراً﴾ (الكهف:٦٩)

والشرط هنا في محل التردد قال الزمخشري "وعده بالصبر معلقاً بمشيئة الله علماً منه بشدة الأمر وصعوبته"[١] وهذه الصعوبة تقتضي أيضاً عدم الجزم بالفعل والتردد فيه.

ولأبي السعود كلام يفهم عدم تعلق الشرط بالصبر مع أن المعنى يضم الجملة بقيودها ، فالجزاء هو الوجدان على حالة الصبر لا مطلق الوجدان ، قال: ((وتوسيط الاستثناء بين مفعولي الوجدان لكمال الاعتناء بالتيمن، ولئلا يتوهم تعلقه بالصبر[٢])) وليس من شك في توهمه عدم تعلقه به، لأنه من حيث كونه قيداً لفعل الجزاء (ستجدني) يدخل فيه، لأن الجزاء يضم الفعل بجميع متعلقاته من فاعل ومفعولات. فكيف ينفي تعلقه بالصبر؟

٤. قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (القصص:٢٧)

فعل الشرط (إن شاء الله) أمر محتمل لا يلحظ فيه المتكلم به كونه راجحاً أو مرجوحاً.

٥. وقال تعالى في قصة إسماعيل عليه السلام: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ (الصافات:١٠٢)

وهذا نظير الشرط في الآية السابقة، فقد علق إسماعيل صبره على مشيئة الله تعالى كما علق موسى عليه السلام صبره على مشيئة الله، وعلق شعيب عليه السلام صلاحه على المشيئة في الآيتين السابقتين:

٦. قال تعالى: ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً﴾ (الفتح:٢٧)

ذكر الزمخشري وجوها في بيان التعليق على الشرط في الآية قائلاً: "فإن قلت: ما وجه دخول (إن شاء الله) في إخبار الله عز وجل؟ قلت: فيه وجوه: أن يعلق عدته

---

(١) الكشاف ٢/٤٩٣

(٢) تفسير أبي السعود ٦/٥٢٦

بالمشيئة تعليماً لعباده أن يقولوا في عداهم مثل ذلك متأدبين بأدب الله ومقتدين بسنته. أو أن يريد لتدخلن جميعاً إن شاء الله ولم يمت أحد. أوكان ذلك على لسان ملك فأدخل الملك إن شاء الله. أو هي حكاية ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه وقص عليهم"(١) على أن الكلام الذى قاله من احتمال أن يكون اشتراط المشيئة من إدخال الملك ليس بشئ. كما أنّ هذه الوجوه لا تخرج بالشرط عن كونه محتمل الوقوع متردداً فيه. والله أعلم.

النوع الثانى: أن يكون فعل المشيئة متعلقاً بفعل يصدر عن الله تعالى لا من المخلوقين. وتفيد أمثلة هذا النوع معان ثلاثة:

١. إمكان وقوع الجزاء لكون العقل يجوزه ولا يعارضه.

٢. أن الجزاء متوقف على المشيئة ويدور معها وجوداً وعدما.

٣. دلالة هذا التعليق وتوقف فعل الجزاء على مشيئة الله تعالى على صفة القدرة لله تعالى وما يناسب جلاله جل وعلا، وشواهده فى القرآن الكريم ستة عشر شرطاً جاءت فى ست عشرة آية هي ما يأتى:

١. قال تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيراً﴾ (النساء:١٣٣)

والذى يلحظ أن المعانى الثلاثة المشار إليها سابقاً موجودة ومفادة بهذا الشرط، ويساعد مقام الآية – وهو الحديث عن قدرة الله تعالى على الفعل والترك – على كون فعل الشرط هنا للشك، أى احتمال الوقوع وعدمه احتمالاً متساوياً.

٢. قال تعالى: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام:٤١)

فمشيئة قبول الدعاء محتملة الوقوع وعدمه. وفى الآية دليل على قدرة الله ووحدانيته، وأن كشف الضر متوقف على مشيئة تعالى.

٣. قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ (الأنعام:١٣٣)

فالشرط يدل على جواز المشيئة جوازاً متساوياً. والأدب مع الله يقتضى عدم ترجيح جانب على الآخر لأنها من صفات الجلالة التى تقتضى الإيمان بها دون افتراء فى تعيين ما يتعلق بها. والآية تدل على غنى الله ورحمته. قال أبو السعود: "والشرطية

---

(١) الكشاف ٥٤٩/٣

استئناف مقرر لمضمون ما قبلها من الغنى والرحمة"[1] فالمعانى الثلاثة المشار إليها ثمة موجودة هنا. والله أعلم.

٤. قال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (هود:٣٣)

فقد علق نوح عليه السلام مجيء العذاب الذى استعجله قومه على المشيئة، ومقتضى خلق النبوة التسليم، وعدم الجزم بمشيئة الله الإتيان بالفعل، وترك ذلك لله جل وعلا.

٥. قال تعالى: ﴿وَلا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (هود:٣٤)

فالشرط وهو فعل الإرادة (إن كان الله يريد أن يغويكم) مشكوك فيه لكون الإرادة بالفعل أو الترك، فيكون وقوع الإرادة بهذا الاعتبار مشكوكاً فيه ، ويستلزم الشك- أيضا- ما يقتضيه الأدب مع الله تعالى. والشرط المذكور وإن كان متأخراً فى الذكر عن الشرط الأول إلا أنه على نية التقديم، لكونه متقدماً فى الوجود عن الشرط (إن أردت) وهو بمنزلة القيد فيه، فالتقدير إن أراد الله أن يغويكم فإن أردت أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحى، فاعترض الشرط الثانى على الشرط الأول فى الذكر والله أعلم.[2]

٦. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (ابراهيم:١٩) والمعانى المشار إليها موجودة هنا أيضاً.

٧. قال تعالى: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾ (الاسراء:٥٤) ويبرز فى الآية معنى الإمكان والتوقف، وبيان رحمة الله وغناه.

٨. قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً﴾ (الإسراء:٨٦) والشرط على شاكلة ما سبق من تعليق الإذهاب على مشيئة الله تعالى وقدرته.

٩. قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً﴾ (الفرقان:١٠)

قال أبو حيان: "ودخلت (إن) على المشيئة تنبيها أنه لا ينال ذلك إلا برحمة الله وأنه معلق على محض مشيئته، ليس لأحد من العباد على الله حق لا فى الدنيا ولا فى الآخرة"[3] والمعنى الذى يشير إليه هو معنى التوقف كما ذكر قبل. والله أعلم.

---

(١) تفسير أبي السعود ٢٩٦/٤

(٢) ينظر البرهان للزركشى ٢/ ٣٧٣

(٣) البحر المحيط ٤٨٤/٦

١٠. قال تعالى: ﴿إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ (الشعراء:٤)

فالشرط هنا لإفادة الإمكان وتوقف الجزاء عليه، وأن ذلك راجع إلى قدرة الله تعالى.

١١. قال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ (الأحزاب:٢٤)

عند تفسير هذه الآية دفع الزمخشرى الإشكال الذى يعرض على تعليق عذاب المنافقين على مشيئة الله مع الإخبار عنه بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِى الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرا﴾ (النساء:١٤٥) قائلاً: "ويعذبهم إن شاء إذا لم يتوبوا أو يتوب عليهم إذا تابوا"(١) وقد ذكر أبو حيان ما يدفع بهذا الإشكال ثم اعترض على ما قاله الزمخشرى.

قال: "ليعذب المنافقين إن شاء، وعذابهم متحتم، فكيف يصح تعليقه على المشيئة وهو قد شاء تعذيبهم إذا بقوا على النفاق؟ فقال ابن عطية: تعذيب المنافقين ثمرته إدامتهم الإقامة على النفاق إلى موتهم. والتوبة موازية لتلك الإقامة. وثمرة التوبة تركهم دون العذاب. فهما درجتان: إقامة على نفاق، أو توبة منه. وعنهما ثمرتان: تعذيب أو رحمة. فذكر الله تعالى على جهة الإيجاز واحدة من هاتين وواحدة من هاتين. ودل ما ذكر على ما ترك ذكره. ويدلك على أن معنى قوله: ليعذب أى ليديم على النفاق فيموتوا عليه، إن شاء فيعذبهم أو يتوب عليهم فيرحمهم. فحذف سبب التعذيب وأثبت المسبب وهو الرحمة والغفران وهذا من الإيجاز الحسن. وقال الزمخشرى: ويعذبهم إن شاء إذا لم يتوبوا ، ويتوب عليهم إذا تابوا انتهى. ولا يجوز تعليق عذابهم إذا لم يتوبوا بمشيئته تعالى، لأنه تعالى قد شاء ذلك، وأخبر أنه يعذب المنافقين حتماً لا محالة"(٢) على أن دفع ما ذكره أبو حيان معترضاً به على الزمخشرى واضح. حيث إنَّ التعليق على الشرك لا يقتضى لزوم وجود الشرط فى المستقبل، بل إن الشرط التعليقى قد يسبق فى الوجود وجود الاشتراط ويكون المتأخر ظهوره والعلم به كما سبق بيانه(٣)

(١) الكشاف ٢٥٧/٣

(٢) البحر المحيط ٢٢٣/٧

(٣) تنظر ص ٦٠ وما بعدها.

١٢. وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ (سبأ:٩) والتعليق هنا على الشرط نظير ما سبق من آيات هذا النوع فى الدلالة.

١٣. وقال تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (فاطر:١٦)

وهو كالشروط السابقة فى الدلالة على قدرة الله على فعل المشروط.

١٤. وقال تعالى: ﴿وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنْقَذُونَ﴾ (يّس:٤٣) والشرط هنا أيضاً غير مجزوم به ومحتمل الوقوع كما هو الشأن فى هذا النوع والاستثناء بقوله تعالى: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ﴾ (يّس:٤٤) دليل على الاحتمال.

١٥. قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (الشورى:٢٤) والذى يبدو -والله أعلم- أن القصد فى الآية إلى بيان إمكان ما تتعلق به المشيئة عقلاً، وإن كان الختم مستحيلاً شرعاً باعتبار استحالة سببه. لكون الختم مسبباً عن الافتراء، والافتراء يحيله الشرع.(١)

وللزمخشرى مسلك آخر يجعل فيه الختم سبباً فى الافتراء. يقول: "فإن يشأ الله يجعلك من المختوم على قلوبهم حتى تفترى عليه الكذب، فإنه لا يجتزئ على افتراء الكذب على الله إلا من كان فى مثل حالهم، وهذا الأسلوب مؤداه استبعاد الافتراء من مثله وأنه فى البعد مثل الشرك بالله والدخول فى جملة المختوم عليهم"(٢) وعلى كلا التأويلين فإن الختم جائز عقلاً وإن امتنع من جهة الشرع، والتعليق يفيد الإمكان عقلاً لا شرعاً. والله أعلم.

١٦. قال تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (الشورى:٣٣)

ومجيء فعل المشيئة مع (إن) يفيد الاحتمال، وذلك باعتبار متعلقها وهو جعل الريح ساكنة. وفى هذا دلالة على قدرة الله تعالى. ومما ينبغى أن يتنبه له أن عدم وجود متعلق المشيئة فى الأمثلة السابقة كما هو الحال فى أكثرها- وعلى سبيل المثال قول الله

---

(١) ينظر الطبرى ٢٥/٢٨

(٢) الكشاف ٣/٤٦٨

تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيراً﴾ (النساء:١٣٣) - لا يكون ذلك سببا فى اعتبار الشرط من المتوهم مرجوح الوقوع. كما أن وجود متعلق المشيئة كما فى قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ (الأحزاب:٢٤) - لا يدل على رجحان الوقوع ، وذلك لتحتم عذابهم بدلالة القرآن الكريم، لأن وجود ذلك وتحتمه لا يقتضى اعتبار الشرط من المظنون الراجح الوقوع. والسبب فى ذلك أن مقام الآيات يفيد أنها مسوقة لإفادة جواز وقوع الفعل دون راجحية أو مرجوحية، دلالة على قدرة الله تعالى على إيجاد الفعل وعدمه. فمجئ فعل المشيئة شرطاً فى الأمثلة السابقة يفيد احتمال وقوعها وعدم وقوعها احتمالاً متساوياً بمعنى إمكان الوقوع، والله أعلم.

ويدل على ذلك فضل تأكيد مجئ فعل المشيئة معلقاً عليه الشئ ونقيضه فى سياق واحد. وذلك كما فى قوله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾ (الإسراء:٥٤) فإنه لا يتأتى أن يكون المعلق على المشيئة راجح الوقوع فيهما ولا مرجوحه، لأن رجحان تعلق المشيئة بالرحمة فى الشرط الأول يستلزم عدم رجحان تعلقها بالعذاب، كما أن رجحان تعلق المشيئة بالعذاب فى الشرط الثانى يستلزم عدم رجحان تعلقها بالرحمن. وفى هذا تناقض واضح ناتج من اعتبار التعليق على المشيئة مفيداً لرجحان وقوع المشيئة. والشأن- أيضا- حصول هذا التناقض لو اعتبرنا التعليق على المشيئة مفيداً عدم رجحان وقوعها. لكن عند اعتبار معنى التردد دون رجحان أو عدمه فإنه لا يكون فيه تناقض. لأن احتمال وقوع متعلقى المشيئة فى الشرطين فى الآية الكريمة احتمالاً متساوياً هو مقصود الآية. والله أعلم.

وحيثما تصفحنا الشعر العربى وجدنا لهذا نظائر. من ذلك ما قاله طرفة ابن العبد يصف ناقته وطاعتها له فى حركاتها وسيرها، وأنه كلما شاء أمرا يستدعيه حاله أجابت، لأنه عودها ذلك.

قال:

وَإِنْ شِئْتُ سَامَى وَاسِطَ الْكُورِ رَأْسُهَا ∴ وَعَامَتْ بِضَبْعَيْهَا نَجَاءَ الْخَفَيْدَدِ
وَإِنْ شِئْتُ لَمْ تُرْقِلْ وَإِنْ شِئْتُ أَرْقَلَتْ ∴ مَخَافَةَ مَلْوِيٍّ مِنَ الْقِدِّ مُحْصَدِ [1]

---

(١) الأبيات من معلقة طرفة بن العبد والتى مطلعها:

لِخَوْلَةَ أَطْلَالٌ بِبُرْقَةِ ثَهْمَدِ ∴ ظَلِلْتُ بِهَا أَبْكِي وَأُبكِي إلى الْغَدِ =

فمجئ فعل المشيئة شرطاً فى كلامه لا يدل على رجحان ما تعلق به أو عدم رجحانه، وإنما قصد الشاعر أنه يملك تصريف ناقته على أى وجه يريد. يساعده على ذلك تعويده لها على طاعته.

وبتتبع الأمثلة للشرط فى القرآن الكريم وجدت فعل المشيئة لم يقع مع (إذا) للدلالة على جزم الوقوع إلا فى ثلاث آيات فقط. ومقامها الحديث عن النشر والبعث يوم القيامة. لكن من الآيات الثلاثة آيتان متفق على كون (إذا) فيهما فى موضعها، وهو الجزم بالشرط. وهما:

١. قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ (الشورى:٢٩)

٢. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾ (عبس: ٢١، ٢٢)

وأما الآية المختلف فى كون الشرط فيها مجزوماً به فهى:

٣. قول الله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً﴾: (الإنسان:٢٨)

قال الزمخشرى: "وحقه أن يجئ بإن لا بإذا كقوله: ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ﴾ (محمد:٣٨) – ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ﴾ (النساء:١٣٣) ..."[١]

وقال الرازى بعد أن ذكر كلام الزمخشرى السابق: "واعلم أن هذا الكلام كأنه طعن فى لفظ القرآن. وهو ضعيف، لأن كل واحد من (إن) و (إذا) حرف الشرط. إلا أن حرف (إن) لا يستعمل فيما يكون معلوم الوقوع. فلا يقال: إن طلعت الشمس أكرمتك أما حرف (إذا) فإنه يستعمل فيما كان معلوم الوقوع. تقول آتيك إذا طلعت الشمس ، فهنا لما كان الله تعالى عالماً بأنه سيجئ وقت يبدل الله فيه أولئك الكفرة بأمثالهم فى الخلقة وأضدادهم فى الطاعة لا جرم حسن استعمال حرف إذا"[٢] ومبنى الاختلاف كون متعلق المشيئة سيحصل أم أنه جائز الحصول ، فعلى الأول تكون (إذا) فى موضعها وعلى الثانى تكون فى موضع (إن).

= والمعلقة في ديوانه ص ٤١ والأبيات في شرح القصائد السبع الطوال ١٧٩، ١٨٠ ومعاني الكلمات: سامى: ارتفع– الكور: الرحل – عامت: أسرعت – ضبعاها: عضداها– الخفيدد: ذكر النعام– الإرقال: أن تنفض الناقة رأسها وترتفع عن الزميل.

(١) الكشاف ٢٠١/٤

(٢) تفسير الرازى ٢٨٧/٨

الموضع الخامس: القصد إلى إفادة مجرد الربط

وتستعمل (إن) مقصوداً بالشرط الاحتمال دون ترجيح أحد الطرفين عندما يقصد إفادة الارتباط بين الشرط والجزاء دون نظر إلى اعتبارات أخرى. ويكون ذلك في الحالات الآتية:

الحالة الأولى: أن يقصد بيان ما يترتب على حالتين متقابلتين أو حالات متقابلة، دون نظر إلى الوقوع أو عدمه، أو الرجحان أو عدمه، وشواهد هذه الحالة أحد عشر ومائة شرط تقع في ثمان وستين آية هي ما يأتي:

١. قال الله تعالى ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (البقرة:١٣٧)

فالقصد – والله أعلم بمراده– إفادة الربط بين الشرطين المذكورين وجوابهما بدون قصد إلى رجحان أو عدمه.

٢. قال تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (البقرة: ٢٧١)

فالشرطان في الآية لبيان حالتين وما يترتب عليهما دون قصد إلى ترجيح.

٣. قال تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (آل عمران: ٢٠)

والشاهد في الشرطين: الثاني (فإن أسلموا) والثالث (وإن تولوا) أما الشرط الأول (فإن حاجوك) فـ (إن) مع المجزوم به للتوبيخ ، ولم يأت في سياق ذكره مع الحالة التي تقابله، وهي عدم الحجاج فيقال لقصد مجرد الربط.

٤. قال تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران:٧٥)

الغرض بيان ما يترتب على حالين.

٥. قال تعالى: ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (آل عمران: ١٢٠)

فالقصد بيان ما يترتب على حالتين: مس الحسنة، وإصابة السيئة دون نظر إلى رجحان أو عدمه.[1]

٦. قال تعالى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (آل عمران: ١٦٠)

٧. قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً * وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ (النساء: ٧٢، ٧٣)

٨. قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً﴾ (النساء: ٧٨)

٩. قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً * وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلّاً مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعاً حَكِيماً﴾ (النساء: ١٢٩، ١٣٠)

١٠. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾ (النساء: ١٤١)

١١. قال تعالى.... ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (المائدة: ٤١)

١٢. قال تعالى: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (المائدة: ٤٢)

---

(١) سيعقد للحسنة والسيئة موضع في فصل (إذا) إن شاء الله تعالى.

١٣. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (المائدة:١٠١)

١٤. قال تعالى: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (المائدة:١١٨)

١٥. قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الأنعام:١٧)

١٦. قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ (الأعراف:١٤٦)

١٧. قال تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأنفال:١٩) وفيها ثلاثة شروط لبيان ثلاثة أحوال.

١٨. قال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ * وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ (الأنفال:٣٨، ٣٩، ٤٠)

١٩. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ * الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (الأنفال:٦٥، ٦٦)

٢٠. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال:٧١)

٢١. قال تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (التوبة:٣)

٢٢. قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ (التوبة: ١١ ، ١٢)

ويلاحظ فى هذه الآية اعتبار الشك والتردد نظراً لذكر حالتين وما يترتب عليهما دون وجود مرجح بخلاف قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾ (التوبة:٥) لأن هذه الآية قد صاحب الشرط فيها من مهيئات الوقوع ما يجعله مظنوناً[١].

٢٣. قال تعالى: "إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ" (التوبة: ٥٠)

٢٤. قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ (التوبة:٥٨)

٢٥. قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾ (التوبة:٧٤)

٢٦. قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (يونس:١٠٧)

٢٧. قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ (هود:٩، ١٠)

٢٨. قال تعالى: ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (يوسف: ٢٦، ٢٧)

٢٩. قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (إبراهيم:٧)

٣٠. قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ (النحل:١٢٦)

---

(١) تنظر ص ١٢٥ وما بعدها.

٣١. قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً﴾ (الإسراء:٧)

٣٢. قال تعالى: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾ (الإسراء: ٥٤)

٣٣. قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (الحج: ١١)

٣٤. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (النور: ٦، ٧، ٨، ٩)

٣٥. قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (النور:٢٨)

٣٦. قال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ (النور: ٥٤)

٣٧. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً * وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً﴾ (الأحزاب:٢٨، ٢٩)

٣٨. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ (سبأ: ٥٠)

٣٩. قال تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (الزمر:٧)

٤٠. قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (الزمر:٣٨)

والشاهد فى الشرطين: الثانى (إن أرادنى الله بضر) والثالث (أو أرادنى برحمة) وهو على تقدير الأداة أى أو إن أرادنى ... أما الشرط الأول فموضعه مجرد الربط دون قرائن الترجيح وسيأتى.

٤١. قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ (غافر:٢٨)

٤٢. قال تعالى: ﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ (فصلت:٢٤)

٤٣. قال تعالى: ﴿لا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ (فصلت:٤٩ ، ٥٠)

ومحل الشاهد الشرطان الأولان، أما الشرط الثالث (ولئن رجعت) فموضعه فى المستحيل وسيأتى بعد.

٤٤. قال تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ * أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ﴾ (الزخرف:٤١ ، ٤٢)

٤٥. قال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ (الفتح:١٦)

٤٦. قال تعالى: "وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الحجرات:٩)

والشاهد فى الشرطين الثانى (فإن بغت) والثالث (فإن فاءت)

٤٧. قال تعالى: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾ (الواقعة: ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣)

٤٨. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ﴾ (الحشر: ١١، ١٢)

ومحل الشاهد الشروط الأربعة الأولى، أما الشرط الخامس (ولئن نصروهم) فمستحيل يدل على ذلك قوله تعالى (ولئن قوتلوا لا ينصرونهم) وسيأتى موضعه.

٤٩. قال تعالى: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ (التحريم: ٤)

ويدخل- أيضا- فى أمثلة هذه الحالة الشواهد التى يكون فيها بيان إحدى الحالتين بغير أسلوب الشرط كما فى الآيات الآتية:

٥٠. قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (البقرة: ٢٦٥)

فالآية اشتملت على بيان حالين للجنة حال إصابة الوابل وهو دون أسلوب الشرط، وحال إصابة الطل وذلك بأسلوب الشرط. فالشرط هنا محتمل مشكوك فيه، وليس راجحاً ولا مرجوحاً لأنه فى سياق ذكر الحالتين معا. والله أعلم.

٥١. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْراً لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ (النساء: ١٧٠)

فقد تضمنت الآية حالتين حالة الإيمان عن طريق الأمر به (فآمنوا خيراً لكم) وبينت ما يترتب على الإيمان. وحالة الكفر عن طريق أسلوب الشرط (وإن تكفروا) وما يترتب عليه من غنى الله عنهم وحاجتهم إليه.

٥٢. قال تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ (هود: ٣)

فالشرط (وإن تولوا) بين ما يترتب على حالة التولى بعد أن بين أول الآية- وإن كان بغير أسلوب الشرط- ما يترتب على حالة التوبة، والرجوع إلى الله تعالى، فالحالتان فى دائرة الاحتمال والتردد.

٥٣. قال تعالى: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ (الأحزاب:٥)

فالشرط (فإن لم تعلموا آباءهم) يفهم منه الشك والاحتمال لأن الآية فى معرض بيان حالتين: الحالة الأولى حالة العلم بالآباء والمترتب عليها دعاؤهم بآبائهم بدلالة قوله تعالى (ادعوهم لآبائهم) فإنها لا تكون إلا عند العلم بهم، وقد عرضت هذه الحالة بغير أسلوب الشرط.

والحالة الثانية وهى حالة العلم بالآباء والمدلول عليها وعلى ما يترتب عليها- بأسلوب الشرط (فإن لم تعلموا آباءهم) هذا. والله أعلم.

٥٤. قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْأِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (البقرة:٨٥)

فالشرط (وإن يأتوكم) في معرض بيان حالة الأسر عند الحرب مع بيان حالة سلمهم مع غيرهم وإخراج بعضهم من ديارهم، وهما حالتان محكوم عليهما بقوله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ أى إيمان به عند الفداء، وكفر به بالإخراج.

• **تقديم أحد الشرطين لا يفيد الظن:**

ومما ينبغى ملاحظته أنه لا اعتبار لتقديم أحد الشرطين لأن يكون من المظنون، حتى وإن ساعد على ذلك مقام الآية.

ذلك لأن الاعتبار عندئذ هو الشك في الشرطين والتردد في وقوعهما فمثلا قول الله تعالى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (آل عمران: ١٦٠) نلاحظ أن مقام الخطاب للمؤمنين يقتضى أن يكون نصرهم مظنون الوقوع إن لم يكن مؤكدا.

وكذلك قول الله تعالى: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (المائدة:١١٨) الشأن في الآية أن يساعد مقامها الذى جاءت فيه من اتخاذ النصارى آلهة من دون الله أن يكون العذاب مظنون

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ (النحل:١٢٦) مقام الحديث عن العقاب وأخذ الحق يقوى احتمال العقوبة عن الصفح، لما جبلت عليه النفوس من حب الانتقام ورد الإساءة بمثلها.

فمع كون الشروط المتقدمة ساعدها بعض دلالات المقام والأحوال فضلا عن تقدمها في الذكر لأن تكون مظنونة إلا أنه لا اعتبار لذلك ما دام الشرط مذكورا في سياق يضمه مع شرط آخر قصدا إلى بيان ما يترتب عليهما. وذلك بدليل وجود بعض الشروط في شواهد هذا النوع قد تقدمت. مع دلالة الأحوال على رجحان وقوع المتأخر منهما وذلك كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ (سبأ:٥٠) فإن الشرط الأول ليس مظنونا ولا متوهما فى الحقيقة وإنما هو مستحيل الوقوع، وقد تقدم فى سياق إبانة ما يترتب على الشرطين على التردد فى وقوعهما، ففى سياق بيان حالتين مختلفتين يعتبر الشرطان فى موضع المشكوك فيه.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ (غافر:٢٨)

فإن مقام الشرط المقتضى للكتمان يوحى بكون اعتقاد الكذب مظنونا الذي هو المقدم. لكن وجود الشرطين فى سياق واحد يدل على أنه يقصد بهما التردد فى كونهما واقعين على السواء.

ومما يؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (المائدة:٤٢) فالآية تفيد تخيير الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحكم بين أهل الكتاب أو الإعراض عن ذلك. ثم أفاد الشرطان الآخران ما يترتب على كل منهما مع أن الشرط الأول هو المذكور ثانيا فى أسلوب التخيير. وهذا. والله أعلم – يدل على أن القصد إلى بيان ما يترتب على الشرطين على سبيل التردد فى وقوعهما من غير قصد إلى كون أحدهما راجحا أو مرجوحا، لأن مناسبة التقديم لرجحان الوقوع تقتضى تقديم مدلول الشرط فى الموضعين.

وخلاصة القول فى ذلك أن الشرطين المذكورين فى سياق واحد قصدا إلى بيان حالتين متقابلتين أو أحوال متعددة يقصد بهما معنى اشك ، أى التردد بين الوقوع وعدمه دون رجحان لأحدهما على الآخر ، وإفادة ما يترتب على كل منهما دون النظر إلى الترجيح. والله أعلم.

وفى الشعر العربى من هذا النوع نظائر وشواهد :

قال الحارث بن حلزة فى مجلس عمرو بن هند يرد على تغلب عندما طالبت قبيلته بكر بن وائل بديات من مات منهم بعد الصلح. ذاكرا ما يمكن أن يكون من احتمالات وما يترتب عليها.

قال الحارث:

أَيّماَ خُطَّة أَرَدْتُمْ فَـأَدّو ∴ هَا إلَيْنا تَمْشى بهَا الأَمْـلاَءُ

إنْ نَبَشْتُمْ مَا بَيْنَ ملْحَةَ فَالصَّـا ∴ قب فيه الأَمْوَاتُ والأَحْيَـاءُ

أَوْ نَقَشْتُمْ فَالنَّقْشُ تَجْشَمُهُ النَّـا ∴ سُ وَفيه الصَّلاَحُ والإبْـرَاءُ

أَوْ سَكَتُم عَنَّاَ فَكُنَّا كَمَـنْ أغْـ ∴ مَضَ عَيْنَاً في جَفْنهَا أَقْـذاءُ

أَوْ مَنَعْتُمْ مَا تُسْأَلُونَ فَمَـن حُـ ∴ دّثْتُمُوهُ لَهُ عَلَيْنَا العَـ(1)ـلاءُ

فقد عدد بعض الحالات بأسلوب الشرط وبين ما يترتب عليها دون دليل على أن يكون أحد الشروط راجحا أو مرجوحا ، كما أنه لا يقصد إلى ذلك.

• الحالة الثانية:

أن يؤتى بشرطين أو ما فى قوة الشرطين ويرتب عليهما جزاء ويسوى بينهما فيه، فلا يكون لأحدهما أولوية الوقوع والتحقق من الآخر. وشواهد هذه الحالة اثنان وأربعون شرطا تقع فى عشرين آية.

١. قال تعالى: ﴿للَّه مَا في السَّمَاوَات وَمَا في الْأَرْض وَإنْ تُبْدُوا مَا في أَنْفُسكُمْ أَو تُخْفُوهُ يُحَاسبْكُمْ به اللَّهُ فَيَغْفرُ لمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَديرٌ﴾ (البقرة:٢٨٤)

فقول الله تعالى: (وَإنْ تُبْدُوا مَا في أَنْفُسكُمْ أَو تُخْفُوهُ) بمثابة شرطين أى إن تبدوا وإن تخفوا وقد سوت الآية بينهما فى الحساب والجزاء إن خيرا فخيرا وإن شرا فشرا.

---

(١) الأبيات من معلقة الحارث بن حلزة. والأبيات فى شرح القصائد السبع الجاهليات صـ ٤٦٤ وما بعدها.
مفردات: الأملاء: الجماعات الواحد ملأ ولا يكون الملأ امرأة– نبشتم: أثرتم ما كان بيننا. ملحة: مكان. الصاقب: جبل. نقشتم: استقصيتم. تجشم الأمر: تكلفه.

٢. قال تعالى: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة:٢٨٦)

فالدعاء بعدم المؤاخذة على ما يكون من النسيان أو الخطأ.

٣. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران:٢٩)

فالقصد التسوية بين الإخفاء والإبداء فى العلم بهما.

٤. قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران:١٤٤)

فقد جاءت الآية بالموت والقتل معا فى سياق المحتمل المشكوك فيه ، لأن القصد الإنكار لانقلابهم المترتب على أى منهما. قال الزمخشرى:" فإن قلت: لم ذكر القتل وقد علم أنه لا يقتل؟ قلت: لكونه مجوزا عند المخاطبين. فإن قلت: أعلموه من ناحية قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (المائدة:٦٧) قلت: هذا مما يختص بالعلماء منهم وذوى البصيرة، ألا ترى أنهم سمعوا بخبر قتله فهربوا"[١] وهذا كلام جيد.

٥. قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (آل عمران:١٥٧)

٦. قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ (آل عمران:١٥٨) والشأن فى هذه الآية كالآيتين السابقتين.

٧. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ (النساء:١٣٥)

فقد اشتملت الآية على التسوية بين الشرطين (إِنْ يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً) فى ولاية الله لهما، وكذلك التسوية بين الشرطين (وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا) فى كون الله عالما بذلك ويجزى عليه.

---

(١) الكشاف ٤٦٨/١

٨. قال تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً﴾ (النساء:١٤٩) وفى الآية تسوية بين ثلاثة شروط.

٩. قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الأعراف:١٧٦)

١٠. قال تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ (يونس:٤٦)

١١. قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْ نَهَاراً مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (يونس:٥٠)

١٢. قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (الأنعام:٤٠)

١٣. قال تعالى: ﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ (الرعد:٤٠)

١٤. قال تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ (الأحزاب:١٦) أى إن فررتم من الموت أو فررتم من القتل فلن ينفعكم ذلك شيئا.

١٥. قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً﴾ (الأحزاب:١٧)

١٦. قال تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ (الأحزاب:٥٤)

١٧. قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ (غافر:٧٧)

١٨. قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ (الفتح:١١)

١٩. قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الملك:٢٨)

٢٠. قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى . أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى.أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى.أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ (العلق: ١١، ١٢، ١٣، ١٤)

وهذه الآيات تختلف نظرة العلماء عند تفسيرها. فبينما يذكر الطبرى أن المراد بمن هو على الهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبمن هو على التكذيب أبو جهل.[1]

يرى الزمخشرى أن المراد بمن هو على الهدى الناهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة وهو أبو جهل وهو المراد - أيضا- بمن يكذب الحق ويتولى عنه. قال: (..أخبرنى عمن ينهى بعض عباد الله عن صلاته، إن كان ذلك الناهى على طريقة سديدة فيما ينهى عنه من عبادة الله، أو كان آمرا بالمعروف والتقوى فيما يأمر به من عبادة الأوثان كما يعتقد وكذلك إن كان على التكذيب للحق والتولى عن الدين الصحيح....."[2]

وينبغى أن يلحظ- كما هو الشأن فى جميع الآيات السابقة- أن المراد بالشرطين الشك والتردد. حتى وإن كان الشرطان مجزوما بهما على تأويل الطبرى وهما ثبات الرسول عليه الصلاة والسلام على الهدى وثبات أبي جهل على التكذيب.

وكذلك يبقى اعتبار التردد مع كون الشرط الأول على سبيل الفرض والثانى محققا كما هو تأويل الزمخشرى قال أبو السعود:" ونظم الأمر والتكذيب والتولى فى سلك الشرط المتردد بين الوقوع وعدمه باعتبار نفس الأفعال المذكورة من حيث صدورها عن الفاعل، فإن ذلك ليس فى حيز التردد أصلا بل باعتبار أوصافها التى هى كونها أمرا بالتقوى وتكذيبا وتوليا"[3]

ومما سبق يتضح أن شواهد التسوية وصورها بين الشرطين – فى الجزاء لا يقتضى صحة وجودهما معا، بل يمكن بناء الجزاء عليهما على فرض وقوع أحدهما دون الآخر وهو الأكثر فيها.

• الحالة الثالثة:

أن يكون الشرط فى معرض بيان حكم من الأحكام الشرعية المتعلقة بالأحوال المحتملة الوقوع، فيبنى الحكم عل فرض وقوع الشرط دون النظر إلى كونه راجحا أو مرجوحا. وشواهد هذه الحالة ستة وستون شرطا تقع فى تسع وثلاثين آية هى ما يأتى:

١- قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ١٨٠) فمجيء شرط ترك

---

(١) ينظر تفسير الطبرى ٢٥٤/٣٠

(٢) الكشاف ٢٧١/٤

(٣) تفسير أبي السعود ٤٩٦/٨-٤٩٧

الخير وبناء حكم الإيصاء عليه على سبيل فرض وجوده دون اعتبار لكونه راجحا أو مرجوحا.

٢- قال تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلا تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذىً مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (البقرة:١٩٦)

٣- قال تعالى: ﴿فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة:٢٢٠)

فقد رتب على مخالطة اليتامى الصلة بالمعروف وبما تقتضيه الأخوة فى الدين ، من الإصلاح دون الإفساد، دون نظر إلى كونه مظنونا أو متوهما.

٤- قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة:٢٢٦)

فقد رتبت الآية الجزاء على الشرط (فَإِنْ فَاءُوا) دون اعتبار لظن الوقوع أو توهمه.

٥- قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:٢٢٧)

والشأن هنا كالشأن فى الشرط فى الآية السابقة ، كما أنه يصح اعتبار الآيتين من الحالة الأولى، وهو ذكر ما يترتب على حالتين مختلفتين دون نظر إلى الظن والتوهم.

٦- قال تعالى: ﴿الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (البقرة:٢٢٩)

٧- قال تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:٢٣٠)

٨- قال تعالى: ﴿لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة:٢٣٦)

٩- قال تعالى: ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (البقرة:٢٣٧)

١٠- قال تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:٢٣٩)

جيء بـ (إن) مع الشرط (خفتم) في سياق بيان الحكم المترتب على الشرط دون نظر إلى كونه راجحًا أو مرجوحًا ، أما مجيء (إذا) مع الشرط (أمنتم) المحتمل الوقوع على سبيل الرجاء والتفاؤل ، والله أعلم.

١١- قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة:٢٤٠)

١٢- قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ﴾ (البقرة:٢٧٩)

ويصح اعتباره مشكوكا فيه من جهة كونه لذكر حالتين متقابلتين.

١٣- قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٨٠)

١٤- وقال تعالى فى آية المداينة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:٢٨٢) والشروط: (فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ) و (فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ) و (وَإِنْ تَفْعَلُوا) في معرض بيان الحكم.

١٥- قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِباً فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:٢٨٣)

١٦- قال تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً﴾ (النساء:٦)

١٧- قال تعالى فى أحكام الميراث: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً" . وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ (النساء:١١، ١٢)

وفى الآيتين الكريمتين أحد عشر شرطا ولا يقصد فيها رجحان أو عدمه.

١٨- قال تعالى: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً﴾ (النساء:١٥)

١٩- قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَاراً فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً﴾ (النساء: ٢٠)

٢٠- قال تعالى فى آية المحرمات: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ (النساء:٢٣)

٢١- وقال تعالى فى حق الإماء: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (النساء:٢٥)

٢٢- قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلا جُنُباً إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً﴾ (النساء:٤٣)

٢٣- قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ (النساء:٥٩)

٢٤- قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ (النساء:٩٢)

وفى الآية شرطان: (فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ ..) و (وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ)

٢٥- قال تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوّاً مُبِيناً﴾ (النساء:١٠١)

٢٦- قال تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذىً مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً﴾ (النساء:١٠٢)

٢٧- قال تعالى: ﴿وَإِن امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلا جُنَاحَ عَلَيهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ (النساء:١٢٨)

٢٨- قال تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (النساء:١٧٦) وفى الآية أربعة شروط.

٢٩- قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (المائدة:٦)

٣٠- قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذاً لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾ (المائدة:١٠٦)

فى الآيتين ثلاثة شروط بأداة الشرط (إن)

٣١- قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ﴾ (التوبة:٦)

٣٢- قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْأِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (التوبة:٢٣)

٣٣- قال تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (النور:٣٣)

وبناء الحكم بالمكاتبة على علم الخير فيهم على سبيل الندب. كما لا تتوقف صحة المكاتبة على علم الخير فيهم إذ تصح دونها.

٣٤- قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ (الأحزاب: ٥٠)

٣٥- قال تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الحجرات: ٩)

والشروط الثلاثة في معرض بيان حكمها الشرعي.

٣٦- قال تعالى: ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ (الممتحنة: ١١)

٣٧- قال تعالى: ﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً﴾ (الطلاق: ٤)

٣٨- قال تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى﴾ (الطلاق: ٦)

وفى الآية ثلاثة شروط كلها لبيان حكم شرعى يترتب على كل منها، والله أعلم.

* **الحالة الرابعة**:

أن لا يصاحب الشرط من قرائن المقام أو المقال ما يدل على كونه راجحا أو مرجوحا وليس من الحالات السابقة فيكون الشرط مشكوكا فيه لكون القصد إلى مجرد الربط بينه وبين الجزاء. وشواهد هذة الحالة ثمانية وعشرون شرطا تقع فى ثمان وعشرين آية. ومواضعها فيما يأتى:

١- قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ (آل عمران: ٣١، ٣٢)

جاء الشرطان المذكوران فى هاتين الآيتين (إِنْ كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ) - (فَإِنْ تَوَلَّوْا) بعد أن أخبرت الآية التى قبلهما بأن كل نفس ستجد ما عملته محضرا، ثم وجه هذا الخطاب للناس ربطًا بين الشرط والجزاء فيهما، دون قصد إلى كونه راجحا بالنسبة للمخاطبين أو مرجوحا، لكون الآيتين بمثابة المعيار الذى يزن فيه كل إنسان نفسه به ويعرضه عليه.ليظهر صدقه أو كذبه.

قال ابن كثير:"هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية ، فإنه كاذب فى دعواه فى نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدى والدين النبوى فى جميع أقواله وأفعاله" [1] وحاكمية الآية تواجه الناس جميعا دون ميل إلى ترجيح الإيمان الذى هو مدلول الشرط الأول أو التولى الذى هو مدلول الشرط الثانى، ودون ميل إلى كونهما مرجوحين أيضا. والله أعلم.

٢- قال تعالى:﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلا جُنَاحَ عَلَيهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ (النساء:١٢٨)

فقد جاء هذا الشرط بعد الحث على الصلح بين الزوجة وزوجها، ويطرد دائما اعتبار مجرد الربط بين الشروط التى تأتى بعد توجيه الأمر من الله تعالى ولا توجد قرينة ترجح الوقوع أو عدمه ، ويكون الشرط محل اختبار للمأمورين. كما فى هذه الآية وآية الشاهد السابق.

٣- قال تعالى:﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحاً وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة:٢٢٨)

إرادة الإصلاح من الأمور الخفية ولا توجد قرائن تدل على أن الشرط راجح أو مرجوح.

٤- قال تعالى:﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيّاً حَمِيداً﴾ (النساء:١٣١)

---

(١) تفسير ابن كثير ٣٥٩/١

الشرط فى الآية الكريمة (إِنْ تَكْفُرُوا) محتمل الوقوع، وقد جيء به بعد الأمر بالتقوى وليس مصحوبا بما يدل على ظن وقوعه أو توهمه.

٥- قال تعالى:﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ (التوبة:٦٥) المقصود مجرد الربط بين الشرط والجزاء.

٦- قال تعالى:﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (إبراهيم:٣٤)

فالقصد بالشرطية الربط بين إرادة عد نعم الله تعالى إجمالا أو تفصيلا وبين عدم القدرة على ذلك.

٧- قال تعالى:﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (النحل:١٨) القصد مجرد الربط، كالآية السابقة.

٨- قال تعالى:﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً﴾ (الإسراء:٢٥)

الشرط وهو الكون على الصلاح محتمل متردد فيه بالنسبة لجميع الناس وليس فيه من القرائن الدالة على الترجيح أو عدمه.

٩- قال تعالى:﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً﴾ (الإسراء:٢٨)

الإعراض عن إعطاء ذوى القربى لقصد وجه الله فى ذلك محتمل الوقوع.

١٠- قال تعالى:﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً﴾ (الكهف:٢٠)

الشرط (إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ) لا يصاحبه قرائن ترجح ظن أهل الكهف وقوعه أو توهم وقوعه. وإنما هو متردد فيه لوجود ما يناسب الظن، وهو ما كان عليه أهل مدينتهم من طلبهم والبحث عنهم، وما يناسب توهم ظهورهم عليهم من تلطفهم وحيطتهم من أن يشعر بهم أحد. ولم يوجد ما يقوى أحد الاحتمالين. فالقصد بالشرط إفادة مجرد الربط.

١١- قال تعالى:﴿وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ (طـه:٧)

الشرط هنا مشكوك فيه. لأن القصد إفادة الربط بينه وبين الجزاء. دون دليل على كونه راجحا أو مرجوحا. قال الزمخشرى فى وجه المناسبة بين الشرط والجزاء:"فإن قلت: كيف طابق الجزاء الشرط؟ قلت: معناه وإن تجهر بذكر الله من

دعاء أو غيره فاعلم أنه غني عن جهرك" [١] واضح أن القصد إفادة الارتباط بين الشرط والجزاء.

١٢- قال تعالى:﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ﴾ (الأنبياء:١٠٩)

القصد بالشرطية مجرد الربط بين الشرط وهو توليهم بعد إخبارهم بالوحى والتوحيد وبين الجزاء وهو إعلامهم بأنه قد بلغ الرسالة ولم يقصر فى إنذارهم.

١٣- وقال تعالى:﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ (الحج:٧٣)

فالشرط (وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ) أى ما عليهم من طيب يضعونه عليها أو تراب يترل بها مشكوك فيه، لأنه لم يصحب بقرائن ترجح كونه يقع أو لا يقع.

١٤- وقال تعالى:﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (النور:٣٢)

فالشرط (إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ) لا ينظر فيه إلى كونه راجح الوقوع أو مرجوحه، وإنما القصد إفادة الربط بين الشرط والجزاء، وعدم انفراد نقيد الشرط بالجزاء. ولابن المنير- رحمه الله- كلام جيد فى هذا المعنى قال:" فمعنى قوله حينئذ أن يكونوا فقراء.... الآية أن النكاح لا يمنعهم من الغنى من فضل الله، فعبر عن نفى كونه مانعا من الغنى بوجوده معه، ولا يبطل المانعية إلا وجود ما يتوهم ممنوعًا مع ما يتوهم مانعا، ولو فى صورة من الصور على أثر ذلك" [٢] أى أن الآية تشير إلى إمكان الارتباط بين زواج الفقيرات وبين تحقق غناهم. والله أعلم.

١٥- وقال تعالى:﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ . ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ . مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ (الشعراء:٢٠٥ ،٢٠٦ ،٢٠٧)

فالقصد إفادة الارتباط بين الشرط وهو تمتعهم سنين – وهو محتمل- وبين عدم إغناء ذلك عنهم عند مجيء يوم القيامة أو أجلهم.

١٦- وقال تعالى:﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (العنكبوت:٨)

---

(١) الكشاف ٥٣٠/٢

(٢) الإنصاف..... ٦٥/٣

فالشرط هنا محتمل الوقوع، وجيء به لإفادة ترتب الجزاء عليه، ولا توجد قرائن ترجح الوقوع أو عدمه.

١٧- قال تعالى:﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (العنكبوت:٦١)

١٨- قال تعالى : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ (العنكبوت:٦٣)

فالقصد بجملتي الشرط في الآيتين السابقتين مجرد الربط بين الشرط والجزاء، والله أعلم.

١٩- قال تعالى:﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (لقمان:١٥)

٢٠- وقال تعالى:﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ (لقمان:٢٥)

٢١- وقال تعالى:﴿أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلا يُنْقِذُونِ﴾ (يـس:٢٣)

٢٢- وقال تعالى:﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (الزمر:٣٨)

الشاهد فى الشرط الأول (ولئن سألتهم ...) أما الشرطان الآخران فلبيان ما يترتب على حالتين متقابلتين، دون نظر إلى الوقوع وعدمه.

٢٣- وقال تعالى:﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ (الزخرف:٩)

٢٤- وقال تعالى:﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (الزخرف:٨٧)

٢٥- وقال تعالى:﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ (التغابن:١٢)

٢٦- وقال تعالى:﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً﴾ (التحريم:٥)

فالقصد الربط بين الطلاق عل فرض وقوعه وبين إبداله بمن وُصفن فى الآية.

٢٧- قال تعالى:﴿إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً﴾ (نوح:٢٧)

فنوح عليه السلام يقصد مجرد الربط بين الشرط والجزاء.

٢٨- قال تعالى:﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ (الأعلى:٩)

فالربط بين الشرط والجزاء لا يقصد معه ترجيح وقوع النفع أو كونه مرجوحا. والله أعلم.

• مجىء (إن) مع النادر:

يرتب البلاغيون على الحكمين الخاصين بـ (إذا) و(إن) من كون الجزم خاصا بإذا، وعدم الجزم خاصا بإن أمرين مناسبين لكل منهما: هما تغليب لفظ الماضى مع (إذا) واختصاص (إن) بالحكم النادر. قال الخطيب:" ولذلك كان الحكم النادر موقعا لإن لأن النادر غير مقطوع به فى غالب الأمر" [١]

وقال السعد:" - ولذلك - أى ولأن أصل (إن) عدم الجزم بالوقوع وأصل (إذا) الجزم به، كان الحكم النادر الوقوع موقعا لـ (إن) لأن النادر غير مقطوع به فى الغالب ..." [٢]

مفهوم النادر:

والذى يفهم من الكلام السابق للخطيب والسعد أن النادر نوعان:

<u>النوع الأول</u>: وهو غالب النوعين - ما يكون راجح العدم على الوجود وهو ما يعنى عندهم بالمتوهم. [٣] وهو من مواضع (إن) أصالة. ولم أجد من خالف فى ذلك إلا العلامة السيد، فقد نفى كونه موضعا لـ (إذا) و (إن) واعتبر مجيئه معهما على ضرب من التأويل. قال:" الضابط أن الراجح الوقوع موقع لإذا، والمتساوى الطرفين موقع لإن، وأما الذى رجح لا وقوعه فليس موقعا لشىء منهما إلا بتأويل "[٤] وكأنه يجرى بتأويله مجرى تأويل الشرط المستحيل بجعله فى صورة الممكن المشكوك فيه.

---

(١) الإيضاح ٥٣
(٢) المطول ١٥٤
(٣) تنظر حاشية الدسوقى = شروح ٢/٤٠
(٤) حاشية السيد على المطول ١٥٤

النوع الآخر: وهو أقل النوعين – ما يكون محقق الوقوع، ولكنه يقع مـرة أو مـرات قليلة. وهذا النوع جزء مقتطع من المجزوم به الذى حقه أن يؤتى معه بـ (إذا)، لكن قلة وقوعه آذنت بعدم الجزم بأنه سيقع لا أنه مما يقع، وجعلته موقعا لـ (إن) دون (إذا) كما جعلته بهذا الاعتبار مقارنا للنوع الأول وداخلا معه فى النادر الوقوع. وكان وجه المناسبة بين النادر و(إن)"أنه لما كان وضع (إن) عدم الجزم كان النادر سواء كان مقطوعا به أولا – موقعا لـ (إن) لمناسبة الندرة لعدم القطع الذى هو الغالب فيه" (١) أى غالب في النادر.

وكما يفهم من كلام الإيضاح والمطول- كون النادر يضم النوعين السابقين يفهم- أيضا- أن استعمال (إن) مع النادر بنوعيه استعمال على سبيل الحقيقة والأصل فيها، بل صريحه أنه وإن كان مقطوعا به فهو من مواضع (إن) لكون القطع قليلا.

لكن كلام العصام عن النوع الثانى من النادر وهو محقق الوقوع مرة أو مرتين – يفيد أنه ملحق بمواضع (إن) على سبيل التجوز. (٢) أى أنه في الأصل موضع لأداة الشرط (إذا) واستعملت معه (إن) لنكتة الندور في وقوعه. قال: "كان الحكم النادر محل وقوع (إن) والمراد كونه لـ (إن) حقيقة وتجوزاً. فإنه لندرته إما مشكوك فيكون موقع (إن) حقيقة، وإما مجزوم به، فهو لكونه ملحقاً بالمشكوك موقع لإن"(٣) .

وممن جرى على اعتبار استعمال (إن) مع النادر عدولاً عن حقيقة الاستعمال- ابن المنير. فقد قال عند بيانه كلام الزمخشرى عند تفسيره قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (الحجرات:٦) قال: "وعدل عن (إذا) إلى (إن) لأن مجئ الفاسق بالكذب لرسول الله ولأصحابه مما يندر"(٤) فهذا صريح في أن استعمالها مع محقق الوقوع الذي يقع نادراً على سبيل التجوز.

وفى كلام الدسوقى- رحمه الله- عن النادر خلط واضح. فبعد أن يلحظ ما هو صريح كلام السعد من كون النادر في الغالب غير مقطوع به يقرر أن "النادر هو ما يقل وقوعه جداً، كأن يقع مرة أو مرتين وإن كان وقوعه لابد منه"(٥)

---

(١) تقرير الشربينى (فيض الفتاح) ٥٦/٣

(٢) الخروج بإن وإذا عن وضعهما الأصلى في الاستعمال يعد من المجاز وهو جدير ببحث مستقل يثرى المباحث البيانية.

(٣) الأطول على التلخيص ١٧٦/١

(٤) الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال = الكشاف ٥٦٠/٣

(٥) حاشية الدسوقى على المختصر = شروح ٤٠/٢

فواضح التناقض بين القول بغير القطع به في الغالب وبين قوله (لابد منه) كما أنه يذكر أن قول السعد: "كان النادر لكونه غير مقطوع به في الغالب موقعاً لإن"[١] قد بين فيه بقوله (غير مقطوع به) علة كون النادر نادراً. والحق أن السعد قد علل كون النادر موقعاً لإن، بأن ذلك راجع لكونه غير مقطوع به في الغالب، فقد نظر إلى الغالب فيه وهو غير المقطوع بوقوعه.

وفيما يلي عرض ودراسة لشواهد النوعين اللذين يضمهما النادر.

النوع الأول (متوهم الوقوع)

وهو ما يكون غير محقق الوقوع ويترجح عدمه على وجوده، فسبيل المجئ به شرطاً هو التوهم. ويفترق هذا النوع عن المستحيل من حيث إن المستحيل لا يقع ألبته ولا يؤتى به إلا على سبيل الفرض والتقدير، لكن المتوهم ممكن الوجود لكن غلبة العدم عليه تقربه إلى المستحيل، ولكنه غيره. وشواهد هذا النوع خمسة وعشرون شرطاً تقع في خمس وعشرين آية. كما يأتي:

١- قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾ (النساء:٣)

فالشرط (فإن خفتم ألا تعدلوا "مرجوح الوقوع وقد سبق أن ذكرت الشرط الأول في مواضع المظنون لكونه من العادات الغالبة الوقوع. أما الشرط الثاني (فإن خفتم) فهو مرجوح لغلبة الظن في عدم الجور وإمكان التسوية في هذا العدد، لأن العدل المطلوب- من التسوية في القسم والنفقة- مستطاع.[٢]

٢- قال تعالى: ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾ (آل عمران:١١١)

فالشرط (إن يقاتلوكم) بعد قوله تعالى: (لن يضروكم إلا أذى) أى بقول في الدين، وطعن فيه، أو تهديد مما هو من هذا القبيل[٣] - بعد راجح العدم على الوجود. فقد اكتنف الشرط ما يدل على بعد وقوعه، الأول: ما يفيد حصر ضررهم على القول، والثاني: حالهم من الجبن والخوف وتوليتهم الأدبار على فرض وجود قتال منهم. وهذا القتال وإن كان متوهماً إلا أنه ممكن الوقوع.

---

(١) المختصر على التلخيص = شروح ٢/٤٠

(٢) ينظر تفسير القرطبي ١٩٧٧

(٣) ينظر الكشاف ١/٤٥٤، ٤٥٥

٣- قال تعالى: ﴿بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ (آل عمران:١٢٥)

والشرط بما اشتمل عليه من أمور بعيد الوقوع (إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا) وقد ذكروا أن هذه الشروط الثلاثة لم تتحقق. قال الرازي: "جعل مجيء خمسة آلاف من الملائكة مشروطاً بثلاثة أشياء: الصبر والتقوى ومجيء الكفار على الفور فلما لم توجد هذه الشرائط لا جرم لم يوجد المشروط"(١) فهو يرى أن هذه الشروط متعلقة بغزوة أحد. ولعل ما أفاد التوهم وبُعد تحقق الشرط اشتماله على مجيئهم فور ذلك، وإلا فإن الصبر والتقوى ليسا متوهمي الوقوع. والله أعلم.

٤- وقال تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ (المائدة:٢٢)

فالشرط وهو خروج الجبارين متوهم في نظر قوم موسى عليه السلام يدل على ذلك إحساسهم بقوتهم. وكان خروجهم عندهم متوهماً. ولذلك قيل: إن قولهم هذا كان استبعاداً لخروجهم.(٢) والسياق يساعد على هذا ويدل عليه. فقد حكت الآيات قصة الرجلين اللذين حثاهم على الدخول... ثم هم يصرون على جبنهم ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ (المائدة:٢٤) فقد قاربوا اليقين بأنهم لن يخرجوا. وإلا لما طلبوا من موسى عليه السلام أن يذهب هو وربه لقتالهم.

٥- وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ (المائدة:٩٢)

فالشرط (توليتم) مرجوح الوقوع لدلالة المقام، فإن الآية تخاطب المؤمنين بعد أن قدمت براهين التحريم للخمر والميسر والأنصاب والأزلام. مما يقلل عدم الامتثال للأمر، ويزيد احتمال الطاعة رجاء الفلاح والمثوبة.

٦- قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنعام:٦٨)

---

(١) تفسير الرازي ٣/٦٦ وينظر الكشاف ١/٤٧٠

(٢) ينظر تفسير الرازي ٣/٣٨٨

فالشرط (ينسينك الشيطان) بعيد الوقوع بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ويراعى في اعتباره من المتوهم كون الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم. ويقصد منه تعليم أمته. وقد لاحظت ابن كثير- رحمه الله- عند تفسيره الآية يتحاشى نسبة ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. يقول: " وإما ينسينك الشيطان"- والمراد بذلك كل فرد من آحاد الأمة أن لا يجلس مع المكذبين الذين يحرفون آيات الله ويضعونها على غير مواضعها. فإن جلس أحد منهم ناسيا فلا تقعد- بعد التذكر- مع القوم الظالمين " (١)

وبهذا الاعتبار من مراعاة كل فرد من آحاد الأمة يكون من النادر(النوع الثانى) محقق الوقوع مع قلته لأن ذلك لا يكون من المؤمن المهتدى بهدى الله إلا قليلا والله أعلم. وتراعى الاعتبارات المذكورة في الآية السابقة في الآيتين التاليتين:

٧- قال تعالى:﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الأعراف:٢٠٠)

٨- وقال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (فصلت:٣٦)

٩- قال تعالى: ﴿قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (لأعراف:٢٣)

ساق آدم عليه السلام الشرط(إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا) سوق الراجى في عفو الله وكرمه، يساعد في الدلالة على ذلك اعترافه بظلمه وأنه سيكون خاسرا إن لم يرحمه ربه. ودعاؤهما بلفظ (ربنا) المشعر بمعنى التربية والرعاية واتساع أملهم في رحمته يصير معه عدم المغفرة وهو مفاد الشرط أمرا متوهما بعيد الوقوع والله أعلم.

١٠- وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ﴾ (الأعراف:٩٠) فالشرط (اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً) متوهم الوقوع، لأن المخاطب به ضعفاء المشركين، والشأن فيهم عدم مخالفة الأمر رغبة أو رهبة، فرجح عدم وقوعه. يؤكد ذلك ما أخبرت به الآية بعدها (فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ...) وهو أخذ اعتقب عصيانهم وعدم اتباعهم، يدل على ذلك مجيء الفاء فيه ونظيرها.

---

(١) تفسير ابن كثير ١٤٥/٢ وينظر الكشاف والإنصاف ٢/ ٢٦ ، ٢٧

١١- وقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ﴾ (المؤمنون:٣٤) فالشرط (أطعتم) مرجوح الوقوع. لذا أخبر الله عنهم بقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (المؤمنون:٤١) فهلك قوم هود كما هلك قوم نوح من قبلهم.

١٢- قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الأعراف:١٤٩)

وهى نظيرة آية الأعراف السابقة (٢٣)

١٣- قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ (الأنعام:٧٧)

فالشرط (لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي) جاء به إبراهيم عليه السلام على سبيل التوهم، لأنه كان من المهتدين فعلا. وإنما جاء به على سبيل إرشاد قومه وتنبيههم إلى ما يترتب على عدم الهداية. قال الزمخشرى:"- ولئن لم يهدنى ربى- تنبيه لقومه على أن من اتخذ القمر إلها وهو نظير الكواكب في الأفول فهو ضال" [١] واعتبار التوهم نظـرًا لمقـام الآيـة وإرشاده قومه وتجويز ذلك- وإلا لكان من فرض المستحيل شرعا. ومما هو من قبيـل هذه الآية ويحكيه الله تعالى في كلام الأنبياء الراجين فيه ما يأتى:

١٤- قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (هود:٤٧)

فالشرط (وإِلَّا تَغْفِرْ لِي) متوهم بعيد الوقوع لأن مقام النبوة يجعل نوحا عليـه السلام راجيا المغفرة من الله تعالى متوقعا رحمته.

١٥- وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّـي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (يوسف:٣٣)

فالشرط (وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ) مرجوح الوقوع لأن مقام النبوة يـستأهل الرجاء في الإجابة إلى درجة تقارب اليقين وإن لم تصل إليه أدبا مع رب العالمين.

١٦- وقال تعالى:﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ (الأنفال:٧٣)

فالشرط إلا تفعلوه- أى إلا تفعلوا الولايـة بيـنكم والتواصـل بـالمعروف والتواصى بالصبر والحق، وهذا الشرط مرجوح الوقوع لأن الشأن وجود الصلة بـين المؤمنين فهى لا تتخلف مع الإيمان الصادق.

---

(١) الكشاف ٣١/٢

قال الزمخشري:" أي إلا تفعلوا ما أمرتكم به من تواصل المسلمين وتولى بعضهم بعضا حتى في التوارث تفضيلا لنسبة الإسلام على نسبة القرابة، ولم تقطعوا العلائق بينكم وبين الكفار، ولم تجعلوا قرابتهم كلا قرابة- تحصل فتنة في الأرض ومفسدة كبيرة، لأن المسلمين مالم يصيروا يدا واحدة على الشرك كان الشرك ظاهرا والفساد زائدا" [1] ولا يظنن ظان أن حال المسلمين الآن تدل على أن الشرط مظنون الوقوع لأن الآية خطاب للمؤمنين حقا، الصادقين إيمانا.

١٧- وقال تعالى:﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلّاً وَلا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (التوبة:٨)

فقد جاء الشرط (وإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ) على سبيل الاحتمال المرجوح. ذلك لما في المخاطبين من قوة الإيمان وغلبة الحق مما يجعل غلبة الكافرين بعيدة الحصول. والآية بمترلة التعليل لأمرهم بأن يأخذوا الكافرين بالشدة وأن لا يقام معهم عهد بعد انتهاء مواعيدها. لأن من شأنهم أن لا يراعوا لله عهدا، ولا يحفظوا للمؤمنين ذمة. والله أعلم.

١٨- وقال تعالى:﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلا تَقْرَبُونِ﴾ (يوسف:٦٠) فالشرط وهو عدم إتيانهم بأخيهم مرجوح التحقق بدلالة الحال والسياق. أما الحال فما كانوا عليه من شدة الفاقة وحاجتهم إلى الميرة، ولن يجدوا لها منفذا غير مصر، ويوسف يعلم ذلك عنهم. وأما السياق فما تضمنه من أساليب الحض على ما أمرهم به وتشجيعهم على ذلك بوعده بإكرامهم وتوفيه الكيل لهم. وما أخبروه به من أنهم سيُراودون أباهم في ذلك. كل هذه أمارات على كون الشرط مرجوحا ومتوهم الوقوع.

١٩- وقال تعالى:﴿قَالَ هَؤُلاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (الحجر:٧١)

فالشرط هنا متوهم الوقوع لما يعرفه لوط عليه السلام من أخلاقهم الخسيسة وطباعهم اللئيمة. قال الزمخشري:" شك في قبولهم لقوله كأنه قال: فإن فعلتم ما أقول لكم وما أظنكم تفعلون. وقيل: إن كنتم تريدون قضاء الشهوة وفيما أحل الله دون ما حرم " [2] وقد أطلق الزمخشري الشك هنا وأراد به عدم التيقن لا مستوى الطرفين، يدل على ذلك قوله: وما أظنكم تفعلون.

٢٠- وقال تعالى:﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً﴾ (الكهف:٧٦)

(١) الكشاف ١٧٠/٢

(٢) الكشاف ٣٩٦/٢

فالشرط وهو سؤال موسى بعد ذلك متوهم الوقوع، لأن حالته أصبحت تستلزم الحذر الشديد بعد هذه الحوادث المثيرة والاعتذار عما كان منه مرة بعد مرة. قال الرازي:" قال موسى : إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي مع العلم بشدة حرصه على مصاحبته، وهذا كلام نادم شديد الندامة" [1] فالشرط متوهم في نظره بعيد الحصول. والله أعلم.

٢١- وقال تعالى:﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(النور:٥٣)

فالشرط وهو أمر الرسول عليه الصلاة والسلام لهم بالخروج مرجوح الوقوع بدلالة الحال. لأن الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم كذبهم ونفاقهم فقد أعلمه ربه بضرر خروجهم معه قال تعالى:﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً وَلَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (التوبة:٤٧) ونهاه عن خروجهم معه قال تعالى:﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوّاً إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ (التوبة:٨٣) كما أنهم يعلمون حالهم هذه وأن الرسول لن يأمرهم بذلك. لذا كان منهم بذل النفس في إيمانهم. محاولين أن يزيلوا عن أنفسهم ما أحاط بهم من الإحساس بنفاقهم قولا وعملا. وللآية الكريمة براعة لا تضاهى في تصوير الخوف الذى ملك نفوسهم، والوهم الذى تعلق بأفئدتهم فأقسموا واشترطوا وأكدوا. وما كان ذلك إلا لحال السوء التى أركسوا فيها.

٢٢- وقال تعالى:﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (فاطر:١٨)

فالشرط (وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا) مرجوح الوقوع لأنه لا يكون إلا على سبيل التوهم لعلمهم ذلك اليوم أن كل إنسان يحمل وزره لكن قد يقع من هذه النفوس المهلكة شيء من توهم التخفيف عنها لشدة الأحمال وقسوة العذاب. لكنها إن دعت فلا مجيب. والله أعلم.

٢٣- وقال تعالى:﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً﴾ (فاطر:٤٢) فالشرط غير محقق ولم يكن مظنونا ولا مشكوكا فيه عندهم. فقد قالوا ذلك متمنين ولعل هذا التوهم في

---

(١) تفسير الرازي ٥/٥٠٥

نفوسهم هو الذى حملهم على أن يجهدوا أنفسهم في إيمانهم ويؤكدوا ما يعدون به. لأن الشأن فيمن يشك ويستبعد ما يرجوه أن يكثر العدة على تحققه. والله أعلم.

٢٤- وقال تعالى:﴿إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ (الممتحنة:٢)

فالشرط وهو ثقفة المشركين المؤمنين متوهم الوقوع لعزة المؤمنين ومنعتهم بنصر الله. والله أعلم.

٢٥- وقال تعالى:﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلاً﴾ (الأحزاب:٢٠)

فالشرط وهو مجيء الأحزاب بعد فرارهم جيء به على سبيل توهم وقوعه. والله أعلم.

•النوع الثانى (ما يقل وقوعه):

وهو ما يكون مجزوما بوقوعه لكنه قليل الوقوع. وترجع قلة الوقوع في المعنى إلى أمرين:

الأمر الأول: أن يكون النادر قليل الوقوع في ذاته بأن يقع مرة أو مرات قليلة بحيث لا تصل إلى حد يعتبر معها كثير الوقوع. فقلته عندئذ قلة مطلقة لا بالنسبة إلى غيره.

الأمر الآخر:أن يكون في ذاته كثير الوقوع لكن تعرض له القلة لأحد اعتبارين:

الاعتبار الأول: أن ينظر إليه بالنسبة إلى غيره والذى يكون أكثر وقوعا منه. فيتصف بالقلة لهذا الاعتبار.

الاعتبار الآخر: أن تعتبر فيه خصوصية تقلل شياعه وانتشاره في أفراد الجنس كله. وذلك بأن ينظر فيه إلى نوع معين فيكون بهذا الاعتبار قليلا. وبهذا يتضح أن قليل الوقوع ثلاثة أضرب:

الضرب الأول: ما يكون قليل الوقوع في ذاته، بأن يقع مرات قليلة.

الضرب الثانى: ما يكون قليل الوقوع بالنسبة إلى غيره، وإن كان في ذاته كثيرا.وقد أشار العصام إلى هذين الضربين قائلا:" المراد بالنادر أعم من النادر المطلق والنادر بالنسبة" [١]

الضرب الثالث: ما يكون قليل الوقوع لكون المراد به نوعا من الجنس، لا الجنس على شياعه وانتشاره. وكلام السكاكى- رحمه الله – واضح الدلالة بصورة مجملة على هذه

(١) الأطول على التلخيص ١/١٧٦

الأضرب الثلاثة قال: قال تعالى:﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف:١٣١) بلفظ (إذا) في جانب الحسنة حيث أريدت الحسنة المطلقة لا نوع منها، كما في قوله تعالى:﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً﴾ (النساء:٧٨) لكون حصول الحسنة المطلقة مقطوعا به كثرة ووقوع واتساعا، ولذلك عرفت ذهابا إلى كونها معهودة، أو تعريف جنس، والأول أقضى لحق البلاغة، وبلفظ (إن) في جانب السيئة مع تنكير السيئة، إذ لا تقع إلا في الندرة بالنسبة إلى الحسنة المطلقة ولا يقع إلا شيء منها، ولذلك قيل: قد عددت أيام البلاء فهل عددت أيام الرخاء" [1]

هذا كلامه وهو واضح الدلالة على الأضرب الثلاثة التى ذكرها قبل.وفيما يلى بيان لأمثلة هذه الأضرب.

الضرب الأول:

وهو ما يكون قليل الوقوع بذاته بأن يقع مرة أو مرات قليلة لا تصل به إلى حد الكثرة، ويتضح هذا الضرب في اثنى عشر شرطا جاءت فى اثنتى عشرة آية، وهى ما يأتى:

١- قال تعالى:﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة:١٩١)

فالشرط (فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ) أى في المسجد الحرام قليل الوقوع يشعر بذلك الاستثناء من النهى عن قتالهم عند المسجد الحرام، بأن يكون منهم قتال كما أن هذه الآية والتى قبلها والتى بعدها جاءت في مناسبة صد المسلمين عن البيت عام الحديبية، ومثل هذه الحادثة قليل. [2] فالشرط في الآية من النادر قليل الوقوع. والله أعلم بمراده.

٢- قال تعالى:﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً﴾ (النساء:٤) فالشرط (طِبْنَ) نادر الوقوع فلا يقع إلا قليلا. قال الزمخشرى:"وفى الآية دليل على ضيق المسلك في ذلك، ووجوب الاحتياط حيث بنى

---

(١) مفتاح العلوم ١٣٠

(٢) ينظر أسباب النزول للسيوطى ٢٥

الشرط على طيب النفس. فقال : (فَإِنْ طِبْنَ) ولم يقل: فإن وهبن أو سمحن. إعلاما بأن المراعى هو تجافى نفسها عن الموهوب طيبة " [١] ويتعاون سياق الآية– أيضا– على هذه الدلالة. فقد جيء فى الآية بقيد (منه) وفى ذلك أبلغ الدلالة على أن نفوس النساء تشح بالمهر ولا تجود منه إلا بالقليل. ولست أرى ما قيل: إن قوله تعالى(منه) لبعثهن على تقليل الموهوب [٢] ذلك لأنه لو كان حثا على ذلك لناسبه المجيء بـ (إذا) إشعارا بتحقق الشرط وهو طيب النفس بالعطاء، ثم يكون الحث على قلة ذلك. ويظهر أيضا معنى التقليل إن كان المخاطب بذلك أولياء النساء، ويكون المعنى طيب نسائهن لأوليائهن. [٣] وهذا ولا شك نادر قليل الوقوع.

٣– قال تعالى:﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً﴾ (النساء:٤٠)

فالشرط وهو كون مثقال الذرة حسنة قليل من حيث ذاته ووزنه، وقليل من حيث وجوده، لأن الحسنة لا تكون مثقال ذرة إلا مرة واحدة وبعدها تكون مثاقيل كثيرة. فالشرط قليل الوقوع يقع مرة واحدة. ومن قبيل هذه الآية الآيتان الآتيتان:

٤– قال تعالى:﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (الأنبياء:٤٧)

٥– وقال تعالى:﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (لقمان:١٦)

٦– قال تعالى:﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (المائدة:٤٢)

فالشرط وهو مجيء أهل الكتاب للرسول عليه الصلاة السلام قليل الوقوع. وكان من هذا القبيل أيضا الآية الآتية:

٧– قال تعالى:﴿وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾(النور:٤٩)

٨– قال تعالى:﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنعام:١٣٩)

---

(١) الكشاف ٤٩٩/١

(٢) ينظر تفسير البيضاوى ١٠٤/٣

(٣) ينظر تفسير الطبرى ٢٤١/٤ وابن كثير ٤٥٣/١

فالشرط في الآية (وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً) مما يقع لكنه قليل، فاستعملت معه (إن) لندرته والله أعلم.

٩- وقال تعالى:﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (الأنفال:٧٢)

فالشرط (وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ) قليل الوقوع، لأن شأن من ينقطع عن الهجرة أن يكون قليل الارتباط بمن هاجروا، وطلب النصرة في الدين يقل نظرا لأن وجود الإيمان يخلعهم من البقاء دون هجرة. والله أعلم.

١٠- وقال تعالى:﴿وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (الأنبياء:٤٦)

فالشرط (مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ...) نادر الوقوع لما في المس والنفح من معنى القلة والندارة. (١)

١١- وقال تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (النور:٣٣)

فالشرط وهو إرادة التحصن قليل، قال الزمخشري: "وكلمة (إن) وإيثارها على (إذا) إيذان بأن المساعيات كن يفعلن ذلك برغبة وطواعية منهن، وأن ما وجد من معاذة ومسيكة من حيز الشاذ النادر"(٢) فتندر إرادة التحصن فيمن يمشين في البغاء وتقل منهن الرغبة عن الفحش والفجور.

١٢- وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (الحجرات:٦)

فالشرط (إن جاءكم فاسق بنبأ) مما يندر وقوعه. وقد ألمع الزمخشري- رحمه الله- إلى دليل هذه الندرة وأنه يكمن في الضمير (كم) قال: "ولما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم والذين معه بالمترلة التي لا يجسر أحد أن يخبرهم بكذب، وما كان يقع

---

(١) ينظر الكشاف ٥٧٤/٢

(٢) الكشاف ٦٧/٣

مثل ما فرط من الوليد إلا في الندرة– قيل: إن جاءكم بحرف الشك، ونبه أن على المؤمنين أن يكونوا على هذه الصفة لئلا يطمع فاسق في مخاطبتهم بكلمة زور"[1] ووجه التنبيه على أن يكونوا بهذه الصفة لكونها تقطع أرب الفاسقين الذين يحاولون الإفساد بين المؤمنين.

الضرب الثاني:

وهو ما يكون قليل الوقوع بالنسبة إلى غيره وإن كان في ذاته كثيرا. وشواهد ذلك أربعة شروط جاءت في أربع آيات هي ما يأتي:

١. قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِه وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ١٣١) وقد أفاد كلام السكاكي عند حديثه عن النادر أن لفظ (إن) جاء مع السيئة مع مجيء لفظ (إذا) مع الحسنة لكون وقوع السيئة بالنسبة لوقوع الحسنة أقل.[2]

٢. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ (الروم: ٣٦) فقد جاءت (إن) مع السيئة لقلة إصابتها بالنسبة للحسنة.

٣. وقال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ (الشورى: ٤٨)

هذه الآية نظير الآيتين السابقتين فقد جاءت (إن) مع السيئة لقلتها بالنسبة إلى الرحمة. ويمكن اعتبار الآيتين الأخريين من ضرب القليل لإرادة النوع، إذ المقصود إصابة سيئة من نوع معين، وهي كونها جزاء ما قدموا.

٤. قال تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأنفال: ٦٢) الشرط هنا– والله أعلم بمراده– قليل الوقوع وذلك نظراً إلى الشرط في الآية التى قبلها (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها...) فقد ذكرت في موضع الظن: أن جنوحهم للسلم مظنون نظراً للمقام وما يفرضه من إعداد المؤمنين لهم العدة، وبمقتضى ذلك تكون خديعتهم في جنوحهم من علمهم بقوة المؤمنين مما يقل. والله أعلم.

---

(١) الكشاف ٣/٥٦٠

(٢) ينظر مفتاح العلوم ١٣٠

الضرب الثالث (إرادة النوع):

ويكون ذلك في الأمثلة التى يراد فيها نوع من الجنس فيقل وقوعه لهذا الاعتبار. وينبغي أن يلاحظ أن فيه فرقاً بين هذا الضرب وبين الضرب الثانى الذى سبقه من حيث إن القلة في هذا الضرب ترجع إلى قلة الأفراد المرادة من الجنس المذكور في أسلوب الشرط، لكن القلة في الضرب السابق تكون قلة جميع أفراد الجنس عن أفراد جنس آخر ليس في جملة الشرط كما في مقابلة السيئة للحسنة مثلاً. وشواهد ذلك ثلاثة شروط جاءت في ثلاث آيات هي ما يأتى:

١. قال تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(البقرة:٢٣٣)

فالشرط وهو (أرادا فصالاً) نادر الوقوع، لأن الغالب في أحوال الوالدين الحرص على تمام مدة الرضاعة. لذا قدمت الآية- والله أعلم بمراده- ذكر الأمر الغالب في حياة الناس ثم جاءت بما هو نادر قليل استثناء من البيان الأول في الآية الكريمة قال أبو السعود: "-فصالاً- أى فطاماً من الرضاع قبل تمام الحولين، والتنكير للإيذان بأنه فصال غير معتاد"[1] أى أن المراد نوع خاص يستوجب حكماً خاصاً به والله أعلم.

٢. وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ (العنكبوت:١٠)

فالنصر المراد هنا نصر من نوع خاص، يدل على ذلك تنكير لفظة (نصر) فهو نصر مصحوب بالغنيمة، لكون الآية في معرض الحديث عن كثرتهم عند الطمع. قال الرازى: "قال: ولئن جاء نصر من ربك ولم يقل من الله مع أن ما تقدم كان كله بذكر الله كقوله: (أوذى في الله) وقوله: (كعذاب الله) وذلك لأن الرب اسم مدلوله الخاص به الشفقة والرحمة، والله اسم مدلوله الهيبة. فعند النصر ذكر اللفظ الدال على الرحمة

---

(١) تفسير أبي السعود ٢/٤٦

والعظمة، وعند العذاب ذكر اللفظ الدال على العظمة[1] وهذا تعليل لا يستقيم لأنـــه قد جاء. ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِـــنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (آل عمران: ١٦٠) وقوله تعالى ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّـــهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِـــيمِ﴾ (آل عمران: ١٢٦) ولو علل الرازى مجئ لفظ الرب هنا لكون المقام مقام الحديث عن نوع خاص من النصر فيه غنيمة تسد حاجة المحاربين وتصلح شؤونهم وعـــدهم للحـــروب المقبلة. كما أن لفظ (الله) جاء مع الآيتين الأخريين لكون الحديث عن الغلبة والنـــصر الذى يتحقق للمؤمنين، فناسب لفظ الجلالة المقام- لو علل بـــذلك لكـــان أولى. والله أعلم.

٣. وقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرّاً لَظَلُّوا مِـــنْ بَعْـــدِهِ يَكْفُـــرُونَ﴾ (الروم: ٥١) فالريح في الآية هنا من نوع خاص. ليست ريحاً طيبة وإنما هى من ريـــاح فيها عذاب ونذير، وقد أفيدت النوعية الخاصة من الوصف بأنها ممـــا يـــرى مـــصفرّاً. فالوصف – في المعنى- أفاد خصوصية هذا النوع من الريح بعد أن أشار التـــنكير إلى كونها نوعاً ما. وبهذه الدلالة كان الشرط وإن كان محقق الوقوع قليلاً ينـــدر بالنـــسبة لغيره من الرياح. من أجل ذلك كان موضعاً لـــ (إن) والله أعلم.

---

(١) تفسير الرازى ٤٧٣/٦

المبحث الثاني: مخالفة الأصل في استعمال (إن):

• مواضع المخالفة:

تبين من خلال المبحث السابق أن الأصل في استعمال (إن) أن لا تكون مع الشرط المجزوم بعدمه، ولا مع الشرط المجزوم بوقوعه.

ولا يخالف هذا الأصل بمجيئها مع الشرط المجزوم بعدمه لاستحالته ، أو المجزوم بوقوعه إلا لنكتة.

ولما كانت طبيعة الشرط الدلالة على الوقوع في الاستقبال فإنه يتعين أن يكون فعل الشرط بلفظ المضارع ليوافق اللفظ المعنى، فإن خالف ذلك تعين وجود نكتة وغرض.

وعلى هذا قد تبين أن مخالفة الأصل في استعمال (إن) يكون في المواضع الآتية:

الموضع الأول: استعمال (إن) مع المجزوم بعدمه (المستحيل)

الموضع الثانى: استعمال (إن) مع المجزوم بوقوعه

الموضع الثالث: مجئ فعل الشرط معها بلفظ الماضى.

ودراسة هذه المواضع وتجلية ما فيها من نكات من خلال القرآن الكريم مطالب هذا البحث.

الموضع الأول : استعمال (إن) مع المستحيل:

لما كان مفاد جملة الشرط هو تعليق دخول الجزاء في الوجود على دخول الشرط فيه، وكونهما على خطر الوقوع – أفاد ذلك حتمية أن يكون الشرط أمراً ممكن الوقوعِ والوجود في المستقبل. لذا لا يكون الشرط أمراً مجزوماً بعدمه، ممكنا كان أو مستحيلاً. لتعارضه مع طبيعة ما يفاد بالتعليق. على أن نتتبع شواهد الشرط في القرآن الكريم يكشف عن مجئ المستحيل شرطاً في كثير من الآيات. وكذلك كان الشأن في أساليب العرب. لذا يتعين تفسير طريقة الشرط في هذه الأساليب. وهو لا يخرج عن نوع من التأويل يكشف عن غرض ونكتة وراء المجئ به شرطاً. ودراسة هذه الأساليب تتناول أمرين:

الأول: بيان نوع الجهة التى يكون منها استحالة وقوع الشرط فهى تتنوع إلى جهات أربعة: العقل، والشرع، والعادة، واعتقاد المتكلم.

وينبغي أن أشير إلى أن جهة المتكلم مهمة من حيث إنها الفيصل بين كون الشرط مجزوماً بعدمه مع إمكانه أو مع استحالته في نظر المتكلم، وإن كان في حقيقته جائز الوقوع. وسأذكر مثالين فقط لكل جهة من هذه الجهات لمجرد الإبانة.

الآخر: معرفة الأغراض التي يؤتى من أجلها بالمستحيل شرطاً، مع استقصاء أمثلته في القرآن الكريم.

جهة الاستحالة:

اشتمل القرآن الكريم على شواهد كثيرة لمجئ المستحيل شرطاً من جهات الاستحالة الأربعة المشار إليها. ويتضح ذلك فيما يأتي:

الاستحالة من جهة العقل:

وتكون عندما يحكم العقل باستحالة وقوع الشرط من ذلك ما يأتي:

١. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾(الزخرف: ٨١) فالولد لله أمر مستحيل يحيله العقل ولا يجيزه على الله سبحانه وتعالى. وهذه الآية هي أم الشواهد على مجئ المستحيل شرطاً.

٢. وقال تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (الأنبياء: ١٧)

فالشرط وهو فعل اللهو مستحيل على الله تعالى، إذ لا يليق بجلاله، قال أبو حيان: "والظاهر أن (إن) هنا شرطية. وجواب الشرط محذوف يدل عليه جواب (لو) أي إن كنا فاعلين اتخذناه إن كنا ممن يفعل ذلك، ولسنا ممن يفعله"[1]. فالشرط على سبيل الفرض.

الاستحالة من جهة الشرع:

وذلك بأن يكون الشرع دالاً على استحالة الشرط، وكل شرط من هذا القبيل يجرى على سنن المعقول لا يعارضه العقل بل يعضده ويقويه. ومن شواهد ذلك:

١. قول الله تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾ (البقرة: ١٢٠)

فالشرط وهو (اتبعت أهواءهم) مستحيل شرعاً، والآية نفسها دليل الاستحالة، ويعضد ذلك أيضاً العقل، لأن من يأتي بدين الله يستحيل عليه أن يكون متبعاً لهوى أعدائه استحالة التقاء النقيضين.

٢. قال الله تعالى: ﴿وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام: ١٢١)

---

(١) البحر المحيط ٣٠٢/٦

فالشرط وهو طاعة المؤمنين للشياطين مستحيل شرعاً وعقلاً كما في الآية السابقة. قال أبو السعود: "وإن أطعتموهم في استحلال الحرام وساعدتموهم على أباطيلهم إنكم لمشركون. ضرورة أن من ترك طاعة الله إلى طاعة غيره واتبعه في دينه فقد أشركه به تعالى، بل آثره عليه سبحانه"(1). فطاعة الشياطين تستلزم عدم إيمانهم، وهذا باطل، لأنهم خوطبوا بذلك لأنهم مؤمنون.

الاستحالة من جهة العادة:

ويكون ذلك عندما يكون نقيض الشرط هو الشائع المنتشر فيحكم على الشرط بمقتضى ذلك بالاستحالة. وإن جوز العقل وجوده.

ومن شواهد ذلك ما يأتي:

١. قال الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة:٢١٧)

قال الزمخشري: "إن استطاعوا- استبعاد لاستطاعتهم كقول الرجل لعدوه: إن ظفرت بي فلا تبق علي وهو واثق أنه لا يظفر به"(2) وكلامه والمثال الذي مثل به يفيد أن المعنى الاستحالة في العادة. إذ الاستبعاد لا يدل على الاستحالة عقلاً.

٢. وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (القصص: ٧١،٧٢)

فالشرطان في الآيتين (إن جعل الله عليكم الليل سرمداً) و (إن جعل الله عليكم النهار سرمداً) مستحيلان بحكم العادة المشاهدة، لكنهما لا يستحيلان عقلاً، لأنهما سيقا لبيان قدرة الله على ذلك لكن تركه رحمة وفضلاً. إذ لا معنى للاستدلال على القدرة بأمر مستحيل.

---

(1) تفسير أبي السعود ٢٨٠/٤

(2) الكشاف ٣٥٧/١

المستحيل في نظر المتكلم:

وذلك بأن يكون مصدر الاستحالة اعتقاد المتكلم الخاطئ، لكن الشرط قد يكون واجب الوقوع ، وقد يكون جائز الوقوع خارجاً ولا يحيله العقل.

ومن شواهد ذلك ما يأتي :-

١. قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الأنفال:٣٢)

فالشرط وهو كون القرآن حقاً أمر ثابت تزول الجبال الراسيات ولا يزول. لكنهم يذهبون إلى إنكار كونه حقاً. وأنه مستحيل . قال الزمخشرى: "وهذا أسلوب من الجحود بليغ. يعنى إن كان القرآن هو الحق فعاقبنا على إنكاره بالسجّيل كما فعلت مع أصحاب الفيل، أو بعذاب آخر، ومراده نفى كونه حقاً. وإذا انتفى كونه حقاً لم يستوجب منكره عذاباً. فكان تعليق العذاب بكونه حقاً مع اعتقاد أنه ليس بحق كتعليقه بالمحال في قولك: إن كان الباطل حقاً فأمطر علينا حجارة"[1]. وعندى أن وجه الدلالة على استحالة الشرط- وهو غرضهم- كون الإنسان لا يتمنى العذاب ولا يرغب فى نزوله، فجعله لازماً مرتباً على كون القرآن حقاً- مع انتفاء الرغبة في وقوع الجزاء- يدل على اعتقادهم في الشرط بأنه مستحيل، لأن انتفاء اللازم يدل على انتفاء الملزوم. وهو كون القرآن حقاً.

٢. وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ"﴾ (القصص:٥٧)

فالشرط فى الآية (نتبع الهدى) مستحيل فى نظرهم، لأنه نظير الشرط فى الآية السابقة من حيث ترتب شئ يكرهونه عليه، فاستحال الشرط لاستحالة رغبتهم فى الجزاء، لكن الشرط هنا جائز الوقوع، أما فى آية الأنفال فهو واجب ومحقق الوقوع.

اغراض مجئ المستحيل شرطا:

تتبعت شواهد القرآن الكريم التى جاء فيها المستحيل شرطاً على سبيل الفرض فوجدت مجيئة فيها لأحد غرضين:

---

(١) الكشاف ١٥٥/٢

الغرض الأول: (وضرباه):

هو أن يقصد إلى تقرير انتفاء الشرط وعدم تحققه ولو ادعاء عن طريق انتفاء ما علق عليه وهو الجزاء. وذلك عندما لا يستطيع المخاطب أن يعارض فى كون الجزاء غير متحقق خارجاً. ولا يملك القدرة على إثباته ولو ادعاء. ذلك لأن انتفاء اللازم وهو الجزاء يدل على انتفاء الملزوم وهو الشرط وعدم تحققه خارجاً. وهو استدلال على طريقة (لو) بأن يكون امتناع جزائها دليلاً على امتناع شرطها بحكم اللزوم. وتكون أمثلة هذا الغرض عادة فى مقام المحاجة، والحوار قصداً إلى بطلان مضمون الشرط الذي يعتقد المخاطب وجوده وتحققه. وتأتى شواهد هذا الغرض فى القرآن الكريم على ضربين:

- ضرب يكون الشرط فيه موجهاً من الله تعالى إلى عباده لتقرير حقيقة غائبة، وهى عدم صدقهم فى دعواهم، أو إيمانهم كما يدعون.
- وضرب يصور ما يقوله الكافرون أو غيرهم- قصداً إلى إثبات صحة ما يدعون أو معارضة منهم لما يسمعون.

والضربان يتفقان فى طريق الدلالة على الغرض ولا يختلفان إلا فى المصدر، أى فيمن يقع منه أسلوب الشرط. وفى كون استحالة الشرط فى الضرب الأول صادقة، وأما استحالة الشرط فى الضرب الثانى فهى على سبيل الإدعاء الكاذب.

الضرب الأول:

وهو الكلام الموجه من الله إلى عباده لتقرير حقيقة.. وشواهده فى القرآن الكريم ثلاثون شرطاً فى تسع وعشرين آية.

١. قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة:٢٣)

فالشرط (إن كنتم صادقين) مستحيل جئ به على سبيل الفرض والتقدير، ليرتب عليه طلب الإتيان بسورة مثل سور القرآن وبمن يشهد بأنها مثله. ولما كان المرتب على الشرط مستحيلاً لا يمكنهم تحقيقه دل ذلك على استحالة ملزومه، وهو صدقهم وحثهم على التسليم بالعجز والكذب ومراجعة أنفسهم فى أمرهم. والله أعلم.

٢. قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة:٣١)

بين الله تعالى للملائكة أنهم ليسوا أحق بالاستخلاف. وأنه لا وجه لسؤالهم إلا إذا أنبؤوه بأسماء الأشياء المعروضة عليهم. فلما انتفت استطاعتهم ذلك انتفى صدقهم فى دعواهم ، وثبت أن وراء ذلك حكمة لا يعلمونها.

٣. قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة: ٩١)

فالشرط فى الآية وهو كونهم مؤمنين غير واقع، ولذلك رتبت عليه الآية لازماً له وهو الجزاء المقدر بأخبرونا، أى عللوا قتل أنبياء الله الذى تدعون الإيمان به، وعدم استطاعتهم الإخبار بذلك وتبريره دليل على انتفاء إيمانهم بالله، فاستدل بانتفاء اللازم وهو الجزاء على انتفاء الملزوم.

وقد قيل: إن (إن) فى الآية نافية. أى ما كنتم مؤمنين وإلا لما قتلتموهم[١]. ومن ذهب إلى هذا نظر إلى مفاد التعليق بالشرط الذى هو الغرض من هذا النوع من الأمثلة. على أن وضوح الشرط هنا لا يخفى. قال الشهاب: "وأما كون (إن) نافية فخلاف الظاهر"[٢]. لكن مفاد الجملة نفى صدقهم.

٤. قال تعالى: " وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ "(البقرة: ٩٣)

ذهب الزمخشرى إلى أن هذا "تشكيك فى إيمانهم وقدح فى صحة دعواهم"[٣] وذهب الشهاب إلى أنه إبطال لدعواهم الإيمان ، وهو أولى كما هو واضح من أمثلة هذا النوع. قال: "والتقدير إن كنتم مؤمنين بها فبئس ما أمركم به إيمانكم، أى فقد أمركم إيمانكم بالباطل. لكن الإيمان لا يأمر بالباطل، فإذن لستم مؤمنين أى لكن اللازم باطل فالملزوم مثله"[٤]

٥. قال تعالى: "قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (البقرة: ٩٤)

---

(١) ينظر تفسير أبي السعود ٣٠٨/١، ٣٠٩، وكذلك حاشية الجمل على الجلالين ٩٤/١

(٢) حاشية الشهاب ٢٠٥/٢

(٣) حاشية الشهاب ٢٠٧/٢

(٤) الكشاف ٢٩٧/١

يظهر فى الآية الكريمة الاستدلال بانتفاء اللازم على انتفاء الملزوم الذي هو الشرط كما هو استعمال (لو) عند المنطقين، وفى هذا دلالة على إمكان استعمال (إن) فيما هو متيقن الانتفاء تتريلاً له مترلة المشكوك فيه. ثم يستدل بانتفاء الجزاء المسلم به على انتفاء الشرط واستحالته. وقد تكرر الشرط فى الآية الكريمة بقوله تعالى: "إن كنتم صادقين" وذلك لتشديد الإلزام، وللتنبيه على أن ترتب الجواب ليس على تحقق الشرط فى نفس الأمر فقط، بل اعتقادهم أيضاً– وأهم قد ادعوا ذلك"[١]

٦. قال تعالى: "وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (البقرة: ١١١)

فقد جاءت (إن) مع المقطوع بعدمه وهو صدقهم لإظهاره فى معرض المشكوك فيه عند طلب البرهان حثا لهم على أن يقدموا الدليل، فيظهر عجزهم وتبطل دعواهم.

٧. وقال تعالى: "كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حلاً لِبَنِي إِسْرائيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرائيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (آل عمران: ٩٣)

فقد اقتضى مقام الحجاج الترول على اعتقادهم وفرض صدقهم واقعاً، وطلب منهم ما يدل على صدقهم.

٨. قال تعالى: "الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (آل عمران: ١٦٨)

قال الزمخشرى: "قل إن كنتم صادقين فى أنكم وجدتم إلى دفع القتل سبيلاً وهو القعود عن القتال فجدوا إلى دفع الموت سبيلاً، يعنى أن ذلك الدفع غير مغن عنكم...."[٢]

٩. قال تعالى: "الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (آل عمران: ١٨٣)

١٠. قال تعالى: "قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (الأنعام: ٤٠)

---

(١) تفسير أبى السعود ٣١٣/١

(٢) الكشاف ٤٧٨/١

فالشرط الثالث في الآية (إن كنتم صادقين) مستحيل الوقوع خارجـا، وهـو صدقهم في شركهم وكفرهم. ولو كانوا صادقين لأمكن لهم أن يدعوا غير الله، فلمـا انتفى دعاؤهم غيره انتفى ملزومه وهو صدقهم فى الشرك بالله.

١١. قال تعالى: "وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّه مَا لَـمْ يُنَزِّلْ به عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ" (الأنعام: ٨١)

أى لو كنتم تعلمون الحق ما أشركتم، ولكنكم أشركتم لجهلكم.

١٢. قال تعالى: "ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَـامُ الْـأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُـونِي بِعِلْـمٍ إِنْ كُنْـتُمْ صَـادِقِينَ" (الأنعام: ١٤٣)

قال أبو حيان: "أى إن كنتم صادقين فى نسبة ذلك التحـريم إلى الله عـن علم لا بافتراء وتخرص، وأنتم لا علم لكم بذلك، إذ لم يأتكم بذلك وحى من الله تعالى فلا يمكن منكم تنبئة بذلك...."[1]

١٣. قال تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (الأعراف: ١٩٤)

فالآية قد رتبت على صدقهم أن يدعوا شركاء الله ليجيبوهم عما يطلبون. ولما كان ذلك منفياً انتفى بناء على ذلك صدقهم.

١٤. قال تعالى: "يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُـوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ" (التوبة: ٦٢)

أى عندما جهلوا من هو الجدير بالإرضاء ثبت عدم إيمانهم.

١٥. قال تعالى: "أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِـنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (يونس: ٣٨)

فعدم تمكنهم من الإتيان بسورة مثل القرآن الكريم حتى وإن دعوا ما يرغبـون الاستنجاد به دليل واضح على عدم صدقهم.

١٦. قال تعالى: "أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَـنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (هود: ١٣)

١٧. قال تعالى: "بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَـيْكُمْ بِحَفِـيظٍ" (هود: ٨٦)

---

(١) البحر المحيط ٤/ ٢٤٠

أى إن كنتم مؤمنين احترزتم من الحرام ورضيتم بما بقى لكم من الحلال. ولكنكم لم تفعلوا فلستم بمؤمنين.

١٨. قال تعالى: "أَمَّنْ يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (النمل: ٦٤)

فعدم ثبوت قدرهم على البرهان دليل على عدم صدقهم.

١٩. قال تعالى: "قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (القصص: ٤٩)

٢٠. قال تعالى: "وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ" (العنكبوت: ١٦) أى إن كنتم تعلمون عبدتم الله فكان ذلك خيراً لكم، لكنكم لم تفعلوا ذلك لجهلكم.

٢١. قال تعالى: "فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (الصافات: ١٥٧)

٢٢. قال تعالى: "قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (الأحقاف: ٤)

٢٣. قال تعالى: "يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (الحجرات: ١٧)

٢٤. قال تعالى: "فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ" (الطور: ٣٤)

٢٥. قال تعالى: "فَلَوْلا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (الواقعة: ٨٦، ٨٧)

والشرطان فى الآية (إن كنتم غير مدينين و (إن كنتم صادقين) غير محققين ودليل ذلك امتناع جزائهما وهو استطاعتهم أن يرجعوا الروح إلى الجسد مرة أخرى، فثبت بذلك استحالة الملزوم وهو الشرطان المذكوران: أى كونهم غير محاسبين وغير مبعوثين.

٢٦. قال تعالى: "قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (الجمعة: ٦)

فعدم تمنيهم الموت يدل على كذبهم فى دعواهم أنهم أولياء لله من دون الناس، والشرط المستحيل هو (إن كنتم صادقين)

٢٧. قال تعالى: "أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ" (القلم: ٤١)

العجز منهم عن الإتيان بشركائهم دليل على كذبهم وأنهم غير صادقين فيما يدعون. والله أعلم.

٢٨. قال تعالى: "فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ"(المرسلات:٣٩)

قال الزمخشري: "تقريع لهم على كيدهم للدين وذويه وتسجيل عليهم بالعجز والاستكانة"[١] ، أي انتفى وجود كيد وقوة لهم بعجزهم عما طلب منهم وتحدوا به. والله أعلم.

الضرب الثاني:

وهو ما يصور إنكار الكافرين مضمون الشرط معتقدين عدم تحققه واستحالته كذباً وبهتاناً منهم- وشواهده في القرآن الكريم تسعة عشر شرطاً في تسع عشرة آية، وهي ما يأتي:

١. قال الله تعالى: "قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ" (الأعراف: ٧٠)

هؤلاء قوم هود يعتقدون كذب هود عليه السلام ويرتبون على صدقه أمراً لا يملكه هو، ولا يترتب حقيقة على صدقه وهو الإتيان بالعذاب، واستدلوا بعدم إتيانه به على انتفاء صدقه وأنه مستحيل، وهذه الاستحالة في نظرهم هم.

٢. قال تعالى: "فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ" (لأعراف:٧٧)

قد عكس أبو حيان طريق الاستدلال، فجعلهم يستدلون على عدم نزول العذاب بكونه ليس مرسلاً قال: (استعجلوا ما وعدهم به من ذلك إذ كانوا مكذبين له في الإخبار بذلك الوعيد وبغيره. ولذلك علقوه بما هم به كافرون، وهو كونه من المرسلين)[٢]

وهو في ذلك موافق لما قاله الزمخشري عند تفسير الآية. قال: "واستعجالهم له لتكذيبهم به. ولذلك علقوه بما هم به كافرون وهو كونه من المرسلين"[٣].

على أن سياق الآيات وقصها خبر الأنبياء وتحدى المعاندين لهم بتعليق أمور على كونهم صادقين هم لا يملكون تحقيقها- يؤيد أن يكون الغرض الاستدلال منهم

---

(١) الكشاف ٢٠٥/٤.

(٢) البحر المحيط ٣٣١/٤

(٣) الكشاف ٩١/٢

على استحالة كونه عليه السلام مرسلاً بعدم ما يترتب على ذلك من إجابة مطلبهم إرسال العذاب. ولذلك كانت الصيحة تكذيباً لهم وتصديقاً لرسالته بعد أن لجّوا فى عتوهم وإعراضهم. والله أعلم.

٣. قال تعالى: "قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ" (الأعراف:١٠٦)

ففى الآية شرطان مستحيلان فى نظر فرعون- قاتله الله- الأول (إن كنت جئت بآية) وقد برهن على استحالة مجئ موسى بذلك بأن رتب عليه إتيان موسى عليه السلام بها وإظهارها، فهو فى نظره لا يستطيع، فالشرط للتعجيز. ثم أكد هذا بقوله: (إن كنت من الصادقين) أى فأت بما طلب منك. فهما شرطان يتعاوران على تأكيد استحالة صدق موسى عليه السلام. ومحل الشاهد هو الشرط الثانى.

٤. قال تعالى: "وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (يونس:٤٨)

الشرط ايضاً فى نظرهم مستحيل، واستدلوا على ذلك بعدم القدرة على ما رتبوه عليه من مجئ الوعد بالعذاب.

٥. قال تعالى: "قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ" (هود:٣٢)

الشرط فى نظرهم وهو كونه من الصادقين مستحيل فى اعتقادهم.

٦. قال تعالى: "لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ" (الحجر:٧)

قال الرازى: "فلو كنت صادقاً فى ادعاء النبوة لوجب فى حكمة الله تعالى إنزال الملائكة الذين يصرحون بتصديقك، وحيث لم يفعل ذلك علمنا أنك لست من النبوة فى شئ"[١]

٧. قال تعالى: "وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (الأنبياء:٣٨)

أى إن كنتم صادقين فأرونا هذه الآيات من العذاب والتى ذكرها الله تعالى (سأريكم آياتى فلا تستعجلون) فاستدلوا بعدم مجئ العذاب على كون المرسلين كاذبين. ومثله أيضاً ما حكاه القرآن عن فرعون.

٨. قال تعالى: "قَالَ فَأْت به إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ" (الشعراء:٣١)

٩. قال تعالى: "مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ" (الشعراء:١٥٤) وهى نظيرة الآيات السابقة.

---

(١) تفسير الرازى ٢٥٦/٥

١٠. قال تعالى: "فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ" (الشعراء:١٨٧)

وهذا من عناد قوم شعيب قاتلهم الله. قال الزمخشرى: "وما كان طلبهم ذلك إلا لتصميمهم على الجحود والتكذيب، ولو كان فيهم أدنى ميل إلى التصديق لما أخطروه ببالهم فضلاً أن يطلبوه"[١].

١١. وقال تعالى: "وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (النمل:٧١)

وهذه صورة أيضاً لاستمرار الكافرين فى عنادهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

١٢. قال تعالى: "أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ" (العنكبوت:٢٩)

فالشرط (إن كنت من الصادقين) غير محقق فى نظرهم- قاتلهم الله. قال أبو حيان: "جوابهم له أن قالوا: ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين فيما تعدنا به من نزول العذاب، قالوا ذلك وهم مصممون على اعتقاد كذبه فيما وعدهم به"[٢]

١٣. قال تعالى: "وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (السجدة:٢٨)

فالشرط (إن كنتم صادقين) غير واقع لأنهم يعتقدون كذب المؤمنين. قال الزمخشرى: "كان غرضهم فى السؤال عن وقت الفتح استعجالهم على وجه التكذيب والاستهزاء"[٣]

١٤. قال تعالى: "وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (سبأ:٢٩)

قال أبو حيان: "حكى الله تعالى عنهم مقالتهم فى الاستهزاء بالبعث واستعجالهم على سبيل التكذيب".[٤]

١٥. قال تعالى: "وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (يس:٤٨)

وهى كالآية السابقة.

١٦. قال تعالى: "فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (الدخان:٣٦)

إنكار لصدق القائلين بالبعث.

---

(١) الكشاف ١٢٧/٣

(٢) البحر المحيط ١٥٠/٧

(٣) الكشاف ٢٤٧/٣

(٤) البحر المحيط ٢٨٢/٧

١٧. قال تعالى: "وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (الجاثية:٢٥)

١٨. قال تعالى: " قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ" (الاحقاف:٢٢)

أى إن كنت من الصادقين فى إخبارك بالبعث أو بإنزال العذاب.

١٩. قال تعالى: "وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (الملك:٢٥)

فى هذا زعم باطل فى أساليب هذا الضرب من ادعاء استحالة مضمون الشرط وأنه غير موجود على أن الواقع يكذب المتكلمين به. والله أعلم.

الغرض الثانى: إفادة ما يترتب على الشرط:

وذلك عندما يسلم الشارط بوقوع الشرط على سبيل الفرض ليفيد ترتب الجزاء على الشرط، ويدل هذا الترتب على معنى من المعانى الآتية:

المعنى الأول: تأكيد امتناع الشرط واستحالة وقوعه.

ويكون ذلك عند دلالة القرائن والشواهد على عدم الرغبة فى تحقق الجزاء ووجوده. فيدل ذلك على امتناع الشرط الذى هو ملزوم هذا الجزاء. وينبغى التنبه إلى فرق مهم بين أمثلة هذا المعنى وبين أمثلة الغرض الأول الذى يفيد تقرير انتفاء الشرط وعدم تحققه. والفرق أن الجزاء فى شواهد هذا المعنى أمر ممكن الوقوع، لكن ثقة المتكلم فى عدم وقوعه، أو رغبته فى عدم الوقوع، هو القرينة على كونه ساق كلامه سوق التأكيد لامتناع الشرط واستحالته ولو فى اعتقاده- بخلاف أمثلة الغرض الأول بضربيه، فإن الجزاء فيهما مستحيل الوقوع. وشواهد هذا المعنى ثلاثة عشر شرطاً فى ثلاث عشرة آية، وهى ما يأتى:

١. قال تعالى: "وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ" (المائدة:١١٦)

فالشرط (إن كنت قلته) مستحيل أن يقع من الرسل عليهم الصلاة والسلام ورتب عيسى عليه السلام (فقد علمته) وهو واثق من نفسه أنه لم يقل ذلك وأن الله لا يعلم عنه إلا خيراً. وكان غرضه تأكيد استحالة الشرط مستدلاً بعلم الله عدم وقوع الشرك منه.

٢. وقال تعالى: "قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ" (الأنعام:١٥)

فالشرط (عصيت ربى) مستحيل بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم بحكم ما يعلمه من جلاله وعزته. كما أن كراهة ما يترتب على المعصية من العذاب يؤكد امتناع الشرط واستحالته.

٣. وقال تعالى: "قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ" (الأعراف:٨٩)

فالشرط (إن عدنا فى ملتكم) مستحيل الوقوع، وقد جئ به على سبيل الفرض لبيان ترتب الافتراء عليه، وهو أمر لا يناسب الرسل وأتباعهم ولا يرغبون فيه، فدل ذلك على تأكد امتناع الشرط واستحالته.

٤. وقال تعالى: "وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ" (الأنفال:٣٢)

فقد جاء الكافرون بجزاء يعضد اعتقادهم استحالة الشرط، وهو كون القرآن حقاً- ذلك لأن ترتب العذاب- وهو غير مرغوب فيه- على كون القرآن حقاً، دليل على أنهم بحكم كراهتهم له لا يعلقونه على الشرط إلا وهم موقنون بعدم تحققه ووقوعه. وهذا يؤكد ما يعلنونه- قاتلهم الله- من كون القرآن ليس حقاً. إذ لو كانوا يؤمنون بأنه حق أو يشكون فى ذلك لما رتبوا عليه نزول العذاب، لأنه مكروه. وقد حكى الزمخشرى قصة. قال: "عن معاوية أنه قال لرجل من سبأ: ما أجهل قومك، حين ملكوا عليهم امرأة. قال: أجهل من قومى قومك، قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم- حين دعاهم إلى الحق: (إن كان هذا هو الحق عندنا فأمطر علينا حجارة من السماء) ولم يقولوا: إن كان هذا هو الحق فاهدنا)[1]

على أنى لا أفتات إن قلت: إن هذه القصة لو صحت عن العربى فإنه قد التبس عليه الأمر وغاب عنه أنهم ما قالوا ذلك إلا لإنكارهم كون القرآن هو الحق، وكان ذلك تكذيباً للقرآن صراحاً واضحاً. فلو كانوا شاكين لصح أن يقال: إن المناسب أن يكون الجزاء فاهدنا. أما وإنهم جازمون بعدم صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما جاء به فقد رتبوا عليه أمراً آخر هم له كارهون. دلالة على انتفاء الشرط وتأكيداً منهم لذلك. والله أعلم بمراده.

---

(١) الكشاف ١٥٥/٢

٥. قال تعالى: "يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ" (التوبة:٩٦)

قال أبو حيان: "أبرز النهى عن الرضا فى صورة شرطية، لأن الرضا من الأمور القلبية التى تخفى. وخرج مخرج المتردد فيه وجعل جوابه انتفاء رضاء الله عنهم فصار رضا المؤمنين عنهم أبعد شئ فى الوقوع لأنه معلوم منهم أنهم لا يرضون عمن لا يرضى الله عنه"[١] وواضح أن الغرض تأكيد استحالة الشرط. بالدلالة المذكورة.

٦. قال تعالى: "وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَات قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآن غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءَ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ" (يونس:١٥)

قال أبو حيان عن الشرط (إن عصيت): "وهو شرط جوابه محذوف دل عليه ما قبله... ثم قال: وانظر إلى حسن هذا الجواب، لما كان أحد المطلوبين التبديل بدأ به فى الجواب. ثم أتبع بأمر عام يشمل انتفاء التبديل وغيره. ثم أتى بالسبب الحامل على ذلك، وهو الخوف وعلقه بمطلق العصيان فبأدنى عصيان ترتب الخوف"[٢]

وهذا الكلام واضح الدلالة على تأكد امتناع الجزاء وهو خوف العذاب، لكون العذاب مكروهاً. فتأكد بذلك انتفاء المعصية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لخوفه من الله إجلالاً وإعظاماً، وخوفه من عذابه ا لأليم.

٧. وقال تعالى: "وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ" (هود:٣٠)

فالشرط (إن طردهم) تأكدت استحالة وقوعه من الرسول شرعاً وعادةً يترتب الجزاء عليه لأن مدلوله انتفاء وجود نصير له من دون الله ، فيدل ذلك على انتفاء ملزومه وهو طرده عليه الصلاة والسلام للفقراء الذين اتبعوه .

٨. قال تعالى: "أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ" (هود:٣٥)

ترتب الجزاء وهو نسبة الإجرام إليه مكروه فيستلزم ذلك استحالة ملزومة.

٩. وقال تعالى: "قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخَاسِرُونَ" (يوسف:١٤)

---

(١) البحر المحيط ٥/٩٠

(٢) البحر المحيط ٥/١٣٢

فالشرط (لئن أكله الذئب ونحن عصبة) مستحيل عادة نظراً إلى التقييد بالحال (ونحن عصبة) وأكدوا استحالة ذلك بحرصهم على فلاحهم وكراهتهم الخسران، فدل ذلك على استحالة الشرط.

١٠. قال تعالى: "لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ"(الانبياء:١٧)

الشرط (كنا فاعلين) أى اللهو مستحيل على الله تعالى. ودل جواب (لو) على جواب (إن) قال أبو حيان: "وجواب الشرط محذوف يدل عليه جواب (لو) أى إن كنا فاعلين اتخذناه إن كنا ممن يفعل ذلك. ولسنا ممن يفعله"(١)

ولما كان الجزاء منتفياً بدلالة الواقع المشاهد كان سوق الشرط سوق التأكيد لاستحالة مضمون الشرط بعد أن أفاد الشرط بلو نفى اتخاذ اللهو من الله تعالى. فاتفقا فى الدلالة على نفى اتخاذ اللهو تأسيساً وتأكيداً. والله أعلم.

١١. قال تعالى: "رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ" (المؤمنون:١٠٧)

تتحدث الأية عن نداء الكافرين وهم فى نار جهنم أن يخرجهم الله من النار ظانين أنه يستحيل أن يعودوا إلى الكفر والمعاصي لو خرجوا منها، مؤكدين ذلك بما يترتب على عودهم من ظلم أنفسهم. ولما كانوا يوهمون أنهم لن يظلموا أنفسهم وأن ذلك لن يكون منهم أكدوا بذلك أنهم لن يعودوا بل يستحيل ذلك عليهم. هكذا ظنهم والله أعلم.

١٢. قال تعالى: "قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ" (الزمر:١٣)

وقد سبق نظيرات لها. رقم (٢، ٦)

١٣- قال تعالى: "أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ" (الأحقاف: ٨)

فالشرط (افتريته) مستحيل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرتب عليه أمراً مفاده وقوع العذاب على فرض وقوعه. ووقوع العذاب مكروه يجتنبه العقلاء. مما يؤكد استحالة وقوع الشرط الذي هو ملزومه.

واضح من الأمثلة السابقة أن الشرط مستحيل، وقد أكدت استحالته بإبراز جزاء غير مرغوب فيه. ولما كان الجزاء المرتب عليه مما يتحاماه المرء الذى يفترض وقوع مضمون الشرط منه دل ذلك على تأكد استحالته وامتناعه. والله أعلم.

---

(١) البحر المحيط ٦/٣٠٢

المعنى الثاني: الدلالة على تمكن الجزاء واستمراره حتى وإن كان الشرط مستحيلاً، لكون بقائه مع عدم الشرط واستحالته أولى من وجوده معه على سبيل الفرض والتقدير، وهو ما يفيده المعنى الثالث بـ (لو). وشواهده أحد عشر شرطاً فى إحدى عشرة آية:

١. قال الله تعالى: "وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ" (البقرة:١٤٥)

فى الآية الشرط (أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية) مستحيل من جهة العقل والشرع لكون آيات الله جل وعلا لا تنفد. وقد علق عليه عدم اتباعهم قبلة الرسول صلى الله عليه وسلم. والمعنى المفاد بهذا التعليق على المستحيل المفروض إفادة أن حالهم من الإعراض مستمرة لا تنقطع، وعنادهم باق لا يزول.

و (إن) هنا شبيهة بأداة الشرط (لو) فى إفادتها وجود الجزاء مع عدم الشرط فى أحد معانيها- كما سيتضح ذلك فى موضعه إن شاء الله.

وقد أشار الطبري إلى ذلك قائلاً: "وأجيبت (لئن) بالماضى من الفعل وحكمها الجواب بالمستقبل تشبيهاً لها بلو فأجيبت بما تجاب به (لو) لتقارب معنييهما...."[١].

والشرط الثانى (اتبعت أهواءهم...)وإن كان -أيضا- مستحيلاً إلا أنه لا يفيد المعنى الذى أفاده الشرط الأول، لأن له معنى آخر سيأتى بعد، وهو الإرشاد والتنبيه.

٢. قال تعالى: "وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ" (الأنعام:٢٥)

الشرط فى الآية (يروا كل آية...) كالشرط فى الآية السابقة.

قال أبو حيان: "ومقصود هذه الجملة الشرطية الإخبار عن المبالغة التامة والعناد المفرط فى عدم إيمانهم، حتى إن الشئ المرئى الدال على صدق الرسول حقيقة لا يرتبون عليه مقتضاه بل يرتبون عليه ضد مقتضاه"[٢].

---

(١) تفسير الطبرى ٢/٢٤

(٢) البحر المحيط ٤/٩٨ .

وواضح أن الجزاء المرتب على الشرط مقصود به تمكنه واستمراره على جميع الأحوال.

٣. قال تعالى: "وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ" (الأنعام: ٧٠)

فالشرط فى الآية (تعدل كل عدل) مستحيل لأنها لا تملك شيئاً فضلاً عن فدائها نفسها بكثير أو قليل. وإذا كان لا يقبل منها الكثير على فرض امتلاكها له فمن باب أولى لا يقبل منها القليل. والله أعلم.

٤. قال تعالى: "سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ" (الأعراف: ١٤٦)

فالشرط (وإن يروا كل آية) مستحيل التحقق، فرؤية جميع الآيات لا تتحقق لهم ولن تتحقق. وإذا كانوا لا يؤمنون برؤية جميع الآيات فإيمانهم لا يتحقق مع البعض بطريق أولى. قال أبو السعود: "وإن يشاهدوا كل آية من الآيات لا يؤمنوا بها على عموم النفى لا على نفى العموم، أى كفروا بكل واحدة منها لعدم اجتلائهم إياها كما هى..."[١]

أما الشرطان الثاني والثالث فقد مر ذكرهما فى المشكوك فيه . والله أعلم

٥. قال تعالى: "وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ" (إبراهيم: ٨)

فالشرط (إن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعاً) مستحيل بحكم ما تشهد به العادة والمشاهدة، وبما تقتضيه الحكمة الإلهية من إيمان البعض وكفر البعض، فلا يكون كفران من الجميع، وقد رتب عليه الجزاء المفيد غنى الله تعالى عن الناس جميعاً ليلفت نظر هؤلاء المعاندين إلى ما ينبغى لهم أن يؤمنوا به، لأنه إذا كان- سبحانه- وتعالى- غنياً عن الناس جميعاً والمخلوقات كلها فمن باب أولى غنى عنكم يا من يوجه إليكم الخطاب والنداء بالإيمان والطاعة.

---

(١) تفسير أبي السعود ٤/ ٤٧٧ .

٦. قال تعالى: "قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْأِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً" (الإسراء:٨٨)

فالشرط وهو اجتماع الإنس والجن للإتيان بمثل القرآن مستحيل، وإذا كانوا على فرض اجتماعهم لا يستطيعون الإتيان بمثل القرآن فمن باب أولى يمتنع أن يأتي عربي أو قبيلة بمثله، وفى هذا من تأكيد إثبات إعجاز القرآن للإنس والجن عامة.

٧. قال تعالى: "وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنْقَلَباً" (الكهف:٣٥، ٣٦)

فالشرط وهو (رددت إلى ربى) مستحيل فى نظر المتكلم، لأنه لا يؤمن بالبعث، كما تدل أخبار القصة من دخوله الجنة وهو ظالم لنفسه، وقول صاحبه لـه: أكفرت بالذى خلقك من تراب. ولذلك قال العلماء إن الظن هنا بمعنى العلم. وجاء بالشرط على سبيل فرض المستحيل. قال الزمخشرى: "إقسام منه على أنه إن رد إلى ربه على سبيل الفرض والتقدير، وكما يزعمه صاحبه ليجدن فى الآخرة خيراً من جنته فى الدنيا تطغما وتمنياً."[1] أى إن الجزاء مدلوله مستمر وهو كون الحياة الرغيدة ملازمة له على جميع الأحوال، نعوذ بالله من سوء المعتقد والمنقلب.

ونظير هذه الآية الآية الآتية :

٨. قال تعالى: "وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ" (فصلت:٥٠)

ما يفيده الشرط والجزاء هو ترتب الجزاء على الشرط واستمراره على جميع الأحوال كما هو فى ظن المتكلم. أى إنه إذا كان ينال الحسنى عند ربه يوم القيامة فهو جدير بها فى الدنيا.

٩. قال تعالى: "قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ" (الزخرف:٨١)

الشرط وهو أن يكون لله تعالى ولد مستحيل، وقد رتبت عبادة الرسول وسبقه إلى ذلك مع فرض هذا المستحيل، فيكون ذلك مع عدم هذا الفرض أولى وآكد. والمعنى –والله أعلم بمراده– إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين النافين لذلك أو أنا أول العابدين له بذلك[2]. قال ابن كثير: "أى لو فرض هذا لعبدته على ذلك، لأنى عبد

---

(١) الكشاف ٤٨٤/٢

(٢) ينظر تفسير الطبرى ١٠١/٢٥، ١٠٢

من عبيده مطيع لجميع ما يأمرني به، ليس عندي استكبار ولا إباء عن عبادته، فلو فرض هذا لكان هذا ولكن هذا ممتنع في حقه تعالى، والشرط لا يلزم منه الوقوع ولا الجواز أيضاً"[1]

وقد أبان الزمخشري عن معنى التأكيد لوقوع الجزاء على جميع الأحوال فيما كان من هذا النوع فضل إبانة ووضوح، قال: "وهذا كلام وارد على سبيل الفرض والتمثيل لغرض، وهو المبالغة في نفي الولد والإطناب فيه وأن لا يترك الناطق به شبهة إلا مضمحلة، مع الترجمة عن نفسه بثبات القدم في باب التوحيد. وذلك أنه علق العبادة بكينونة الولد وهي محال في نفسها فكان المعلق بها محالاً مثلها. فهو في صورة إثبات الكينونة والعبادة وفي معنى نفيهما على أبلغ الوجوه وأقواها"[2].

وتعد هذه الآية العمدة في التمثيل بفرض المستحيل الواقع شرطاً وعلى طريقتها أمثلة هذا المعنى.

١٠. قال تعالى: "وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطاً يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ" (الطور: ٤٤)

فالشرط وهو رؤيتهم قطعة عذاب واقعة عليهم مستحيل في حكم العادة والمشاهدة، وقد رتب الله تعالى على فرض وقوع هذا الشرط تغافلهم وعنادهم وإنكارهم لما هو محسوس ومشاهد من العذاب، وفي هذا من تأكيد استمرار هذا العناد في جميع الأحوال ما لا يخفى.

١١. قال تعالى: "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ" (الحشر: ١١، ١٢)

فالشرط (ولئن نصروهم) مستحيل الوقوع بدلالة الآية (ولئن قوتلوا لا ينصرونهم) قال الزمخشري: "فإن قلت: كيف قيل: ولئن نصروهم بعد الإخبار بأنهم لا ينصرونهم؟ قلت: معناه ولئن نصروهم على الفرض والتقدير..."[3] وتعليق الجزاء على الشرط كما هو في هذا القبيل من هذه الآيات يفيد استمرار معناه على جميع الأحوال. فالمنافقون يعدون ولا يوفون دائماً. والله أعلم.

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/١٣٧

(٢) الكشاف ٣/٤٩٧

(٣) الكشاف ٤/٨٥

المعنى الثالث: إلزام الحجة بالتنبيه على ترتب الجزاء على الشرط. وهذا المعنى وإن اتفق مع المعنى السابق فى كونهما يقرران معنى الجزاء إلا أن هذا المعنى ينفرد عن سابقه فى أن القصد بهذا التقرير لمعنى الجزاء إلزام الحجة، والتنبيه على حقيقة قد تكون خافية فى مجال الدعوة إلى الإيمان وإثبات القدرة لله تعالى، ولذلك يكثر مجئ أسلوب الاستفهام فى الجزاء للتقرير أو النفى. وشواهده أحد عشر شرطاً فى إحدى عشرة آية. هى ما يأتى:

١. قال تعالى: "لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" (المائدة:١٧)

فالشرط (أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعاً) مستحيل بحكم العادة وإن كان جائزاً بحكم العقل. وقد فرض هذا المستحيل عادة ليترتب عليه الجزاء الذي دل عليه الاستفهام السابق المفيد معنى النفى، ويكون التقدير: إن أراد... فلا أحد يدفعه ويمنعه، وفى هذا إلزام لمن ادعوا ألهوية عيسى بفساد ادعائهم. لأن من يعجز عن دفع الموت عن نفسه وعن من يهمه أمره وعن الناس فأمره فى العبودية واضح، لكن لا يراه من طبع على قلبه. ونظير ذلك.

٢. قوله تعالى: "قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ" (الأنعام:٤٦)

٣. وقوله تعالى: " قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ" (الأنعام:٤٧)

والشرطان في الآيتين لا يقعان في العادة

٤. قال تعالى: "وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ" (لأعراف:١٩٣)

أى تدعون الأصنام– وهذه الدعوة لا تقع عادة

٥. قال تعالى: "وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ" (لأعراف:١٩٨)

فالشرط وهو دعوة الأصنام إلى الهدى مستحيلة، لأن الأحجار لا تخاطب، وإنما جاء ذلك على سبيل الفرض والتقدير لإفادة ترتب الجزاء المشعر بخطأ المخاطبين فى اتخاذهم آلهة.

٦. قال تعالى: "فَإِنْ كُنتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ" (يونس: ٩٤)

فالشرط (كنت فى شك) مستحيل بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد بين الزمخشرى الفرق بين إسناد الشك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإسناده إلى غيره من الناس قائلاً: "فإن قلت: كيف قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: (فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك) مع قوله فى الكفرة: (وإنهم لفى شك منه مريب)[1]؟ قلت: فرق عظيم بين قوله: وإنهم لفى شك منه مريب بإثبات الشك على سبيل التأكيد والتحقيق وبين قوله : " فإن كنت فى شك بمعنى الفرض والتمثيل"[2]

والمقصود بالشرط- والله أعلم بمراده- بيان نمط يكون به إلزامَ الحجة بمعرفة ما يترتب على الشرط. ففى جواب من سبق لهم علم بالكتب والرسالات بيان للذين يرغبون فى دخول الإسلام ويترددون فيه. وإذا كان المصطفى عليه الصلاة والسلام وهو ممن يستحيل عليه الشك أمر بذلك فمن يشكون أولى بإزالة الشبهة والتزامهم بالحجة. والله أعلم.

٧. قال تعالى: "قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ" (القصص: ٧٢)

فالشرطان فى الآيتين وإن جازاً عقلاً إلا أنهما مستحيلان عادة. وجزاء الشرطين مقدر، أى أخبرونى هل إله غير الله يأتيكم بذلك؟ فهو استفهام إنكارى، أى لا يأتى بذلك إلا الله تعالى. وإذا كان الأمر لله والشأن له فإن الحجة تلزمهم توحيد الله وطاعته.

٨. قال تعالى: "يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ * إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ" (فاطر: ١٣، ١٤)

فالشرط (إن تدعوهم) مستحيل الوقوع. لأن المراد- والله أعلم- دعاء إجابة ونجدة ونصرة، وهذا لا يكون. وإنما جئ به على سبيل الفرض لبيان ما يترتب عليه، ثم الإلزام لهم بدعوة الإيمان المصرح بها فى الآية الأولى (ذلكم الله ربكم).

---

(١) سورة هود ١١٠ وسورة فصلت ٤٥

(٢) الكشاف ٢/٢٥٢

٩. قال تعالى: "إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً" (فاطر: ٤١)

فالشرط (إن زالتا) مستحيل الوقوع بحكم المشاهد المعروف، لأن بقاء الحياة الدنيا ببقائهما. أما إن كان المراد حصوله فى الآخرة فلا يكون الشرط مستحيلاً، وذلك بدلالة النصوص على طى السموات ونسف الجبال، فيكون ممكناً[1].

وإذا كان المترتب على الشرط المفروض اختصاص الله تعالى بالقدرة على إمساكهما كان ذلك إلزاماً لكل ما يتأتى خطابه بالحجة، وحثاً لهم على الإيمان بصاحب القدرة جل وعلا.

١٠. قال تعالى: "قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ" (الملك: ٣٠)

فالشرط (أصبح ماؤكم غوراً) مستحيل عادة، والجزاء المقدر بـأخبرونى هو الذي يلزم المخاطبين الحجة.

المعنى الرابع: الإرشاد والتحذير:

وذلك عندما يكون فى ترتب الجزاء على الشرط على فرض وقوعه من الخطورة التى تستوجب من المخاطب الحذر والحيطة ممن يخبر بخبره ويحدث عنه.

ويلاحظ فى أمثلة هذا المعنى استحالة الشرط من حيث الشرع أو العادة، ولذا أمكن الإرشاد والتحذير من تخلف العادة ليبقى المخاطب على الشأن المعهود فيه.

وشواهد ذلك أربعة عشر شرطاً فى أربع عشرة آية، هى ما يأتى:

١. قال الله تعالى: "وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ" (البقرة: ١٢٠)

فالشرط (وهو أتبعت أهواءهم...) مستحيل الوقوع بحكم الشرع، وقد رتب عليه الجزاء على فرض تحققه تنبيهاً للرسول صلى الله عليه وسلم وأمته. لأجل أن يكونوا دائماً على حذر وحيطة من مكرهم. ولا يليق أن يحمل على الوعيد لرسول الله صلى الله عليه وسلم، لأن الشأن فى الوعيد أن يكون على أمر متوقع محتمل الوقوع.

وقد جاء فى تفسير الرازى ما لا أرتضيه من كون ذلك يصح حمله على الوعيد قال: "الآية تدل على أمور منها: أن الذى علم الله منه أنه لا يفعل الشئ يجوز منه أن

---

(١) ينظر البحر المحيط ٣١٨/٧

يتوعده على فعله. فإن في هذه الصورة علم الله أنه لا يتبع أهواءهم، ومع ذلك فقد توعده عليه. ونظيره قوله: (لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ) وإنما حسن هذا الوعيد لاحتمال أن الصارف له عن ذلك الفعل هو هذا الوعيد أو هذا الوعيد أحد صوارفه"[1]

وهو كلام ليس بشيء. ولا يناسب مقام المصطفى عليه الصلاة والسلام، إذْ إن الصارف له هو سلامة فطرته عليه الصلاة والسلام.

٢. قال تعالى: "وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَة مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ" (البقرة:١٤٥)

فالشرط (اتبعت أهواءهم...) مستحيل الوقوع كالشرط في الآية السابقة وبدلالة السياق أيضاً. قال النيسابوري: "كلام على سبيل الفرض والتقدير، لقرينة (وما أنت بتابع قبلتهم)[2]. وجئ بالشرط وما رتب عليه للتنبيه والإرشاد للرسول صلى الله عليه وسلم ولأمته بعده.

٣. قال تعالى: "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ" (البقرة:٢١٧)

فالجملة الشرطية (إن استطاعوا) أي إن استطاعوا .... ردوكم. والشرط هنا مستحيل الوقوع. فقد اشتمل النظم على ما يؤكد استحالة الارتداد قبل مجئ جملة الشرط وهو قوله تعالى (يردوكم عن دينكم). قال أبو السعود: "وإضافة الدين إليهم لتذكير تأكد ما بينهما من العلاقة الموجبة لامتناع الافتراق"[3]. والمعنى المفاد من ترتب الجزاء على الشرط هو الإرشاد إلى خطورة أهل الشرك والضلال والتنبيه لما يحاولون فعله من قتالهم المؤمنين. وقد أفاد كلام المفسرين أن الشرط في الآية يفيد الاستبعاد. قال الزمخشري: "وإن استطاعوا- استبعاد لاستطاعتهم كقول الرجل لعدوه: إن ظفرت بي فلا تبق علي. وهو واثق بأنه لا يظفر به"[4]

---

(١) تفسير الرازي ٤٦٢/١

(٢) غرائب القرآن ٢٣/٢

(٣) تفسير أبي السعود ١١/٢

(٤) الكشاف ٣٥٧/١

وذكرهم الاستبعاد غرضاً للشرط لا يتعارض مع كـون الغـرض الإرشـاد والتنبيه، لأن ذكر ما فيه خطر يتهدد المخاطب فيه إرشاد وتنبيه له. على أن اسـتفادة معنى الاستبعاد من الآية- فيما أرى- ناشئ من مجئ الجملة التى دلت علـى الـشرط وهى (يردوكم...) غاية لحتى، والغاية مظنونة الوقوع للمعنى المـذكور قبلـها وهـو يقاتلونكم. فلما جاء الشرط قيد هذه الغاية بالاستطاعة التى هى مستحيلة، فاسـتفيد بذلك استبعاد وقوع الشرط كما استفيد الاستبعاد فى المثال المذكور بقرينة طلب عدم الإبقاء عليه، لأن الإنسان لا يطلب ذلك لنفسه، فدل ذلك على أن القصد اسـتبعاد الشرط. والله أعلم.

٤. قال تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّـذِينَ أُوتُـوا الْكِتَـابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ" (آل عمران:١٠٠)

الشرط (إن تطيعوا فريقا..) مستحيل الوقوع استحالة اجتماع النقيضين، لأن الإيمـان الذى وصفوا به عند ندائهم لا يجامع طاعة الكافرين ألبته.

قال أبو حيان: "وأبرز نهيه عن موافقتهم وطواعيتهم فى صورة شرطية، لأنـه لم تقع طاعتهم لهم"[١]. فالجملة الشرطية أريد بها الإرشاد والتنبيه. والله أعلم.

٥. قال تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ" (آل عمران:١٤٩) الشرط عند إدراك القصد منه يلتقى مع الشرط فى الآية السابقة فى المقصود منه. ولعل الآية السابقة والله أعلم قد خصـصت الطاعـة التى تسبب الكفر بفريق من أهل الكتاب، لأن منهم من كان يلين قلبه للإسلام وتتهيأ نفسه للإيمان وقد كان.. والله أعلم بمراده.

٦. قال تعالى: "يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ" (المائدة:٦٧)

فالشرط فى الآية (لم تفعل) أى تبليغ الرسالة مستحيل على الرسول صـلى الله عليه وسلم. وقد جاء الجزاء تنبيهاً له وحثا على ما ينبغى أن يكون من تبليغ الـدعوة والتحمل فى سبيلها.

٧. قال تعالى: "وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ" (الأنعام:١١٦)

(١) البحر المحيط ١٥/٣

فالشرط وهو طاعة الرسول لمن فى الأرض... مستحيل، والقصد بيان ما يترتب على الشرط على فرض وقوعه تنبيهاً وتحذيراً للرسول وأمته.

٨. قال تعالى: "وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ" (الأنعام: ١٢١)

فالشرط وهو طاعة المؤمنين للشياطين وأوليائهم مستحيلة شرعاً وعقلا لأن الإيمان والكفر لا يجتمعان فى قلب واحد. والقصد بيان ما يترتب على الشرط للتحذير من الوقوع فى الشرك.

قال أبو السعود: "وإن أطعتموهم فى استحلال الحرام وساعدتموهم على أباطيلهم إنكم لمشركون، ضرورة أن من ترك طاعة الله إلى طاعة غيره واتبعه فى دينه فقد أشرك به تعالى، بل آثره عليه سبحانه"[١]. فالله تعالى حذرهم من الوقوع فى ذلك. والله أعلم.

٩. قال تعالى: "قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ" (التوبة: ٢٤)

فالشرط وهو محبة الآباء والأبناء.. أكثر من حب الله مستحيل بالنظر للمؤمنين المخاطبين بهذه الآية. ذلك لأنه لا يتصور أن يكون المؤمن محباً لغير الله أكثر من حبه لله جل وعلا. بل شأنه أن يكون الله والرسول أحب إليه مما سواهما. فكل مؤمن بالله ورسوله إيماناً صحيحاً يجد من نفسه رجحان محبة الله والرسول، بل إن كثيراً من المستغرقين فى الشهوات يشتاقون لرؤية الرسول صلى الله عليه وسلم ويؤثرونه على أهليهم وأموالهم لما وقر فى قلوبهم من محبته، إلا أن الغفلات كثيراً ما تشغل الناس عن ملاحظة ذلك.[٢]

١٠. قال تعالى: "إِلاَّ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" (التوبة: ٣٩)

---

(١) تفسير أبي السعود ٤/٢٨٠

(٢) ينظر المختار من تيسير الوصول إلى أحاديث الرسول للشيخ دراز ٣٤٩

فالشرط وهو عدم نفور المؤمنين في سبيل الله تعالى مستحيل الوقوع، وقد رتب الله على فرض وقوعه عذابهم واستبدال قوم غيرهم يؤمنون به ويجاهدون في سبيله. وفى هذا من التحذير لهم من مخالفة أمره مالا يخفى.

١١. قال تعالى: "إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" (التوبة: ٤٠)

الشأن في الشرط وهو عدم نصرة المؤمنين للرسول عليه الصلاة والسلام مثل شأن الشرط في الآية السابقة من الاستحالة. وفى ترتب الجزاء عليه تحذير للمؤمنين من التباطؤ عن نصرة الرسول عليه الصلاة والسلام.

١٢. قال تعالى: "وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ" (يونس: ١٠٦)

فالشرط وهو دعاء مالا ينفع ولا يضر من دون الله مستحيل بالنسبة للرسول صلى الله عليه وسلم ومن تبعه، وقد رتب على ذلك الحكم بالظلم وهو الشرك بالله تعالى، وفى ذلك من تشديد التخويف والتحذير ما لا يخفى.

١٣. قال تعالى: "وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا وَاقٍ" (الرعد: ٣٧)

فقد رتب على الشرط وهو إتباع أهواء المشركين الضالين الخذلان وعدم النصرة تحذيراً وتنبيهاً للرسول وأمته. قال الزمخشري: "هذا من باب الإلهاب والتهييج والبعث للسامعين على الثبات في الدين والتصلب فيه. وأن لا يزل زال عند الشبهة بعد استمساكه بالحجة، وإلا فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم من شدة الشكيمة بمكان"[1].

١٤. قال تعالى: "وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ" (الزمر: ٦٥)

الشرط في الآية (أشركت) مستحيل على الرسول صى الله عليه وسلم، وقد جئ به على سبيل الفرض والتقدير لبيان ما يترتب عليه تحذيراً وتنبيهاً له ولأمته بعده.

---

(١) الكشاف ٣٦٣/٢

وقد جاء في كلام الزمخشري عند تفسير هذه الآية ما يفهم أن الشرط وإن كان مجزوماً بعدمه إلا أنه ليس مستحيلاً. قال: "فإن قلت: كيف صح هذا الكلام مع علم الله تعالى أن رسله لا يشركون ولا تحبط أعمالهم؟ قلت: هو على سبيل الفرض. والمحالات يصح فرضها لأغراض فكيف بما ليس بمحال؟"(١)

وهذا الكلام يدل على أنه يخصص المحال بما كان من جهة العقل، فما يجوزه العقل لا يعد محالاً، وإن دلت العقيدة على كونه محالاً فإنه لا يصح وقوعه من الرسول صلى الله عليه وسلم، على أني قد ارتضيت إدخال مالا يمكن وقوعه بجهة العقل أو الشرع أو العادة أو حتى اعتقاد المتكلم في دائرة المستحيل الذي يعد المجئ به شرطاً على خلاف الأصل لنكتة.

ويختلف المستحيل عن المجزوم بعدمه من جهة أن المجزوم بعدمه يكون المتكلم بالشرط جازماً بأنه لن يكون لسبب ما، غير أسباب المنع في المستحيل. فالقائل: إن زرتني أكرمك يتعين فيه عدم الجزم بالوقوع، ولا يصح قطعاً أن يكون هذا المثال صورة للمجزوم بعدمه على سبيل الفرض، لأنه متى جزم المتكلم بعدمه تعين أن يكون غير محتمل الوقوع فلا يعلق عليه الجزاء. وإنما يؤتى بما هو مستحيل على سبيل الفرض، لأن استحالته كافية في الدلالة على هذا الفرض والتقدير. والله أعلم.

ولأبي حيان تكلف لا يحتاج إليه عند تفسير هذه الآية. قال "ولما كان الإشراك مستحيلاً على من عصمه الله وجب تأويل قوله (لئن أشركت) أى أيها السامع ومضى الخطاب على هذا التأويل...."(٢) وكان يكفيه أن يتأمل في قوله تعالى: "قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ" (الزخرف: ٨١) فقد افترض المستحيل بالنسبة لله تعالى. ولا يتعين التأويل الذى سلكه أبو حيان ولا يستطاع.

المعنى الخامس: تعليل انتفاء الشرط واستحالته. وذلك لكون ما يترتب عليه غير مرغوب فيه. فيستحيل لأجل ذلك وقوع الشرط.

وشاهده شرطان في آيتين كريمتين.

---

(١) الكشاف ٤٠٧/٣

(٢) البحر المحيط ٤٣٩/٧

١. قال تعالى: "وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ" (القصص:٥٧)

فالشرط في الآية (نتبع الهدى معك) مجزوم بعدمه مستحيل بحكم عادهم المألوفة، وقد فسروا استحالة ذلك وبينوا علته، وهي خوفهم من تسلط القبائل عليهم والاستيلاء على ما يملكون: وما أشبه اليوم بالبارحة.

فالإتيان بالشرط المستحيل بحكم العادة في الآية الكريمة لتعليل استحالته وامتناعه بما يترتب عليه، والذى هو علة وسبب في استحالة الاتباع. والله أعلم.

٢. وقال تعالى: "إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ * إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ" (محمد:٣٦، ٣٧)

فالشرط وهو (يسألكموها) أى يسألكم فيحرجكم ويشق عليكم بذلك مستحيل بحكم الشرع وما أوجبه الله على نفسه (لا يكلف الله نفعاً إلا وسعها) وجئ به لبيان ما يترتب عليه وهو (تبخلوا) وأن علة عدم سؤاله تعالى أموالهم لكى لا يشق عليه، لأنهم سيبخلون بها ويعصون الله فيصيبهم العذاب على مخالفة أمره. لذا تركها الله تعالى لهم ولم يطلب منهم إلا زكاة وجزءاً قليلاً لطهارة نفوسهم وأموالهم. والله أعلم.

المعنى السادس: التعجيز وذلك بأن يطلب من المخالف المجئ بمضمون الجزاء ليتنبه لعجزه عنه فيثنيه ذلك عن شئ لا يرغب منه وشواهده في القرآن الكريم أربعة شروط في أربع آيات. هى ما يأتى:

١. قال الله تعالى: "وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ" (الأنعام:٣٥)

فالشرط الثاني في الآية (استطعت أن تبتغى نفقاً في الأرض...) مستحيل الوقوع عادة، وتتقوى هذه الاستحالة بما قرن بفعل الشرط وتعلق به وهو الإتيان بآية فهو متيقن الاستحالة. والقصد- والله أعلم- من فرض هذا الأمر المستحيل أن يبنى عليه الجزاء الذى هو مقدر: بافعل ما يطلب منك... فإذا ما خوطب الرسول وكذلك غيره بذلك فإنه سيتبين له عجزه وعدم قدرته أن يفعل شيئاً ليحقق هداية العصاة والمعاندين. فتلزمه بذلك الحجة ويخفف عن نفسه من قلقه وضيقه من إعراضهم.

قال الرازى في علة حذف الجواب: "الجواب محذوف، وحسن هذا الحذف لأنه معلوم في النفوس"[1] ، على أن وراء هذا الحذف نكتة جليلة. وهو أن ترك التصريح به يشير إلى أنه مستحيل معلوم عدمٍ وقوعه علماً يغنى عن التصريح به، فوافقت صـورة اللفظ استحالته في الوقوع خارجاً.

٢. قال تعالى: "قَالَ إنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَة فَأْت بهَـا إنْ كُنْـتَ مِـنَ الـصَّادقِينَ" (لأعراف:١٠٦) فالشرطُ الأول هو (إن كنتَ جئتَ بآيةٍ) مستحيل في نظر فرعـون– قاتله الله– وجاء به قصداً لتعجيز موسى عليه السلام.

٣. قال تعالى: ")قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَـذَا فَاسْـأَلُوهُمْ إِنْ كَـانُوا يَنْطِقُـونَ) (الأنبياء:٦٣)

فالشرط (إن كانوا ينطقون) مستحيل، وقد رتب عليه الجزاء ليظهر عجـزهم وفساد مذهبهم. قال الزمخشرى: "فلما ألقمهم الحجر وأخذ بمخانقهم رجعـوا إلى أنفسهم فقالوا: أنتم الظالمون على الحقيقة، لا من ظلمتموه حين قلتم– من فعـل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين"[2]

٤. قال تعالى: "يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْأِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ" (الرحمن:٣٣)

الشرط في الآية (استطعتم أن تنفذوا) مستحيل، وإنما جئ بـه علـى سـبيل الفرض والتقدير بحيث يترتب على عدم إجابتهم ومجيئهم بما رتب على الشرط علمهم بعجزهم وضعف قدرتهم. فيكون في ذلك حافزاً لهم أن يرجعـوا إلى ربهـم ويعترفـوا بقدرته عليهم.

المعنى السابع: بيان استحالة الجزاء:

وذلك لأن الشرط عند استحالته يدل على استحالة مشروطه لأن المعلق على مستحيل مستحيل أيضاً.

وقد انفردت الآية الآتية ببيان هذا المعنى: إفادة استحالة وقوع الجزاء.

قال تعالى: "وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ

---

(١) تفسير الرازى ٤/ ٣٦

(٢) الكشاف ٢/ ٥٧٧

جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ"(الأعراف:١٤٣)

فالشرط (فإن استقر مكانه) أى حال تجلى الله له– مستحيل بحكم العادة، وإن كان جائزاً عقلاً. والدليل على استحالته عادة قوله (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا) فلما تبين لموسى عليه السلام استحالة ذلك بما شاهده كان ذلك دليله على استحالة رؤية ربه جل وعلا في الدنيا.

ولعلماء الكلام آراء في هذه المسألة بين مثبت للرؤية وناف لها [1]. والذى يهمنا فى هذا البيان معرفة الغرض الذى جاءت من أجله الجملة الشرطية، وواضح منها أن القصد– والله أعلم بمراده– إعلام موسى عليه السلام استحالة رؤيته لله تعالى في الدنيا لعدم تحمله لها. ولا يعارض ذلك بما قيل من وقوع الرؤية لخاتم المرسلين ليلة الإسراء والمعراج، ذلك لأن خرق العادة له عليه الصلاة والسلام لا ينفى كون ذلك مستحيلاً عادة، أى أنه غير واقع لجميع الناس. ولكل نبى من المعجزات الخارقة التى تختلف عن معجزة غيره. وخرق العادة دليل على الإمكان العقلى وعدم استحالته من جهة العقل. لكن لا يدل على إمكانه عادة وإلا لما كان في ذلك دليل على المعجزة. والله أعلم.

الموضع الثاني : استعمال (إن) مع المجزوم به:

قد تخالف (إن) الأصل في استعمالها مع عدم الجزم إلى استعمالها مع المجزوم به الذى هو موضع (إذا). ذلك لما يعرض للمقام من الاعتبارات والدواعى التى يتعين معها أن تكون الأداة (إن) دون (إذا) فيتجاوز المتكلم عندئذ عن علمه وتيقنه بوقوع الشرط.

وكلام السكاكى صريح في إفادته حتمية هذا التصرف نزولاً على حكم ما تفرضه هذه الدواعى مراعاة لبلاغة الأسلوب. ففى معرض حديثه عن نكتة الإتيان (بإن) مع الشرط المقطوع به في قوله تعالى: "وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (البقرة:٢٣) وقوله تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ

(١) ينظر الكشاف ١١٤/٢ ، وتفسير الرازى ٤/ ٢٨٧ ، والبحر المحيط ٤/ ٣٨٣، وشرح الجوهرة للبيجورى ١٠٣.

نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ .." (الحج:٥) يقول: "ويتأبى أن يقال: وإذا ارتبتم"[١] ووجه التأبي أن مجئ (إذا) هنا وإن كان الشرط محقق الوقوع وموضعاً لها قد يترك في ذهن السامع أنه مقبول في حكم العقول. وأنه لا يعترض عليه ولا مجال للشك فيه. وكان المناسب أن تكون الأداة (إن) إشارة إلى أنه لا ينبغي أن يكون، وأنه لا يذكر إلا على سبيل الفرض والتقدير. فيكون حثا لأهل الريب على مراجعة أنفسهم وتدبر أمرهم. والله أعلم.

أغراض هذا الاستعمال:

والأصل في هذا الاستعمال أن يكون تنزيل المعلوم منزلة المجهول لغرض ونكتة وراءه وقد ذكر البلاغيون أغراضاً لذلك صرح بها الخطيب قائلاً: "وقد تستعمل (إن) في مقام القطع بوقوع الشرط لنكته، كالتجاهل لاستدعاء المقام إياه، وكعدم جزم المخاطب كقولك لمن يكذبك فيما تخبر: إن صدقت فقل ماذا تفعل؟ وكتنزيله منزلة الجاهل لعدم جريه على موجب العلم، كما تقول لمن يؤذى أباه: إن كان أباك فلا تؤذه، وكالتوبيخ على الشرط وتصوير أن المقام لاشتماله على ما يقلعه من أصله لا يصح إلا لفرضه كما يفرض المحال لغرض، كقوله تعالى: "أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ" (الزخرف:٥) فيمن قرأ (إن) بالكسر[٢] لقصد التوبيخ والتجهيل في ارتكاب الإسراف، وتصوير أن الإسراف من العاقل في هذا المقام واجب الانتفاء، حقيق أن لا يكون ثبوته له إلا على مجرد الفرض، وكتغليب غير المتصف بالشرط على المتصف به، ومجئ قوله تعالى: "وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (البقرة:٢٣) بـ (إن) يحتمل أن يكون للتوبيخ على الريبة لاشتمال المقام على ما يقلعها عن أصلها، ويحتمل أن يكون لتغليب غير المرتابين منهم فإنه كان فيهم من يعرف الحق وإنما ينكر عناداً"[٣] هذه هى الأغراض التى ذكرها الخطيب وذكرها أيضاً من بعده من البلاغيين.

---

(١) مفتاح العلوم ١٣٠

(٢) قرأ بالكسر على الشرطية نافع وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف "ينظر إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربع عشر ٤٥٣/٢.

(٣) الإيضاح ٥٤

الأساس الذى تتفرع عنه الأغراض:

على أن البلاغيين وإن ذكروا هذه الأغراض إلا أهم لم يوضحوا الأساس الذى تتنوع على حسبه، وبم يكون الفيصل بين هذا الغرض وبين ذاك؟ وقد تتبعت الأمثلة والشواهد فوجدت أن هذا التنوع للخروج بإن عن أصل استعمالها بأن تستعمل في المجزوم به في اعتقاد المتكلم. يأتى على أحد اعتبارين:

الاعتبار الأول: أن تكون المراعاة في الاستعمال لحال المتكلم وحده دون نظر إلى المخاطب أو السامع، وعلى هذا الاعتبار يكون الغرض من مجئ (إن) في مقام الجزم قصداً إلى غرض (التجاهل).

ومن أمثلة ذلك ما ذكره السعد قائلاً: "كما إذا استطلت ليلتك فتقول: إن يطلع الصبح وينقض الليل أفعل كذا. فتتجاهل تولها وتضجراً وقس على ذلك"[1]

فالنظر فى هذا المثال لحال المتكلم، والدليل على هذا الغرض كون المتكلم عالماً بوقوع الشرط. فأتى بـ (إنْ) لإفادة استبعاده مجئ الصبح وضجره بالليل.

الاعتبار الآخر: أن يراعي المتكلم عند استعماله (إن) حال المخاطب ويعتبره عند مجيئه بإن مع المجزوم به. وعند ذاك لا يخلو حال المخاطب من أحد حالين:

الحال الأولى: أن يكون المخاطب غير عالم بوقوع الشرط. وعندئذ يكون خروج المتكلم بـ (إن) عن أصل استعمالها بمجيئها مع المجزوم به لأحد غرضين:

- **الأول**: (التجاهل) بأن يخفى عن المخاطب علمه بوقوع الشرك.
- **الآخر**: (مراعاة حال المخاطب) من عدم العلم بوقوع الشرط فيأتى المتكلم بـ (إن) مع المجزوم لهذا الاعتبار.

الحال الثانية: أن يكون المخاطب جازماً بوقوع الشرط كما هو حال المتكلم، وعندئذ يكون المجئ بـ (إن) لأحد الأغراض الآتية:

- **الأول**: (تتريل العالم مترلة الجاهل) وذلك عندما يفعل المخاطب فعلاً لا يناسب علمه بالشرط. فيترل مترلة الجاهل به.

- **الثاني**: (التهييج) وذلك عندما يكون المخاطب عاملاً بمقتضى علمه- خلافاً لحاله مع الغرض السابق- لكن المتكلم يخشى أن يصيبه شئ من الفتور ونسيان ما يقتضيه هذا الشرط، فيأتى بالشرط مع (إن) تهييجاً له وحثاً على بقاء علمه بمقتضاه.

---

(١) المطول ١٥٧

- **الثالث**: (التوبيخ) وذلك عندما يكون مدلول الشرط غير مرغوب فيه، فيظهره المتكلم فى صورة المشكوك فيه. وذلك لكثرة الأسباب والدواعى التى تقلعه من أساسه.

- **الرابع**: (التغليب) وذلك عندما يكون مضمون الشرط مجزوماً به بالنسبة لبعض من يصدر منهم، ومشكوكاً فيه بالنسبة للبعض الآخر، فيبرز فى صورة المشكوك فيه تغليبًا لمن يشك في الشرط على من لا يشك فى وقوع الشرط منهم.

وبهذا يتضح أن الأغراض التى يؤتى من أجلها بـ (إن) مع المجزوم به هى: التجاهل، مراعاة حال المخاطب، تنزيل العالم منزلة الجاهل، التهييج، التوبيخ التغليب.

وفيما يلى تتبع لمواقعها فى القرآن لكريم.

١- التجاهل:

وهو إظهار المتكلم عدم جزمه بوقوع الشرط الذى يجزم بوقوعه لسبب ما.

وقد ذكر السعد سببين للتجاهل قائلاً: "التجاهل كما إذا سئل العبد عن سيده هل هو فى الدار؟ وهو يعلم أنه فيها، فيقول: إن كان فيها أخبرك. فيتجاهل خوفاً من السيد. وكما إذا استطلت ليلتك فتقول: إن يطلع الصبح وينقض الليل أفعل كذا فتتجاهل تولها وتضجراً، وقس على هذا"[1] فالأول التجاهل والآخر التضجر.

التجاهل فى القرآن الكريم:

ومجئ (إن) فى القرآن الكريم مع المجزوم به لغرض التجاهل لا يوجد على سبيل الحكاية إلا فى آية واحدة، وأما ما كان الشارط فيه هو الله تعالى فقد جاء فى آيتين.

على أنه ينبغى أن لا يحمل ذلك على التجاهل بمعنى إظهار عدم العلم، لأن ذلك لا يناسب جلال الألوهية. لثبوت علمه بجميع الأشياء، وعدم جواز الجهل عليه سبحانه وتعالى حقيقة أو ادعاء. وإنما ينبغى أن يقال إن الغرض إظهار عدم الاعتناء والاعتداد بما يقصد به الكلام. على حد قوله تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ" (آل عمران:٧٧) فإنه "مجاز عن الاستهانة بهم والسخط عليهم، تقول: فلان لا ينظر إلى فلان تريد نفى اعتداده به وإحسانه إليه"[2].

---

(١) المطول ١٥٧

(٢) الكشاف ٤٣٩/١

وإنما أشير إلى هذا بالنسبة لغرض التجاهل دون غيره من الأغراض. مع أن كون الشأن فى(إن) للمشكوك فيه المجهول به فى جميع الأغراض- لكون التتريل فى الأغراض الأخرى مراعى فيه حال المخاطبين. لكن فى غرض التجاهل التصرف فيه يكون بالنظر إلى حال المتكلم نفسه، وحاشا لله أن يترل مترلة الجاهل. والآية التى جاءت على سبيل الحكاية هى:

١. قول الله تعالى: "وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ" (الأنعام: ١٠٩)

فالشرط (لئن جاءهم آية) على معنى أنهم ينتظرون مطلق آية. وهم يعلمون بترول الآيات وتتابعها ودلالتها على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم، وأقواها حجة وألزمها لهم آيات القرآن الكريم. لكنهم يتجاهلون ذلك صرفاً للناظرين عن ضلالهم، وهروباً من إفحامهم وإصابتهم فى مقاتلهم، وإبقاء لأنفسهم العذر فى العناد والكفر. لأن مجيئهم بـ (إذا) فى كلامهم اعتراف منهم بلزوم الحجة عليهم. كما يحتمل أن يكون المراد آية من مقترحاتهم بعد أن نزل قوله تعالى: (إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ) (الشعراء: ٤) فطلبوا إنزالها[١] وعندئذ تكون (إن) مستعملة فى موضعها أى عدم الجزم بالوقوع، لأن الله لم يعدهم بذلك، كما أنهم لا يستطيعون.

وقد ألمع أبو السعود- رحمه الله- إلى حسن المعنى الأول قائلاً: "لئن جاءهم آية- "من مقترحاتهم أو من جنس الآيات، وهو الأنسب بحالهم فى المكابرة والعناد، وترامى أمرهم فى العتو والفساد، حيث كانوا لا يعدون ما يشاهدونه من المعجزات الباهرة من جنس الآيات"[٢] لذا لم تتركهم الآية الكريمة إلا بعد أن بهتتهم بردها على تجاهلهم أبلغ رد، فجاءت بـ (إذا) فى جملة الشرط (إذا جاءهم لا يؤمنون) إبانة أن ما يطلبون متجاهلين وقوعه ماضياً وحاضراً ومستقبلاً- هو حاضر بينهم ودائم على التوالى ظهوراً وحصولاً. والله أعلم.

أما الآيتان اللتان فيهما الشارط هو الله تعالى فهما:

---

(١) ينظر الكشاف ٤٣/٢ وتفسير الرازى ١٢٥/٤، والبحر المحيط ٢٠٠/٤

(٢) تفسير أبى السعود ٢٦١/٤

٢. قول الله تعالى: "إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ" (آل عمران: ١٤٠)

فالشرط (إن يمسسكم) مجزوم به، لأنه وقع فعلاً فى غزوة أحد ويقع كثيراً فى حياة المؤمنين. وقد علل الشهاب كون فعل الشرط فى الآية بمعنى الماضى قائلاً: "إن يمسسكم قرح قيل المضارع لحكاية الحال لأن المساس مضى، وأما استعمال (إن) فبتقدير كان أى إن كان مسكم قرح، وإن لا تقلب كان لقوته فى المضى، أى على ما قيل[١] إنها قد تعلق فى الماضى من غير قلب"[٢]

وقد ذكر الله تعالى (إن) مع المجزوم به إشعاراً للمؤمنين بأنه ينبغى أن لا يغتم بما يصيبهم ماداموا سيأخذون أجر الشهادة والجهاد. وأن ما أصابهم ليس فى الحقيقة كما يتصورونه قرحًا، وإنما هو شهادة ومنزلة حسنى عند الله تعالى.

٣. وقال تعالى: "وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا" (الكهف: ٢٩)

فالشرط وهو (إن يستغيثوا) محقق الوقوع لأن شأن الكافرين دائماً الاستغاثة والجؤار. وإنما جئ بإن موضع (إذا) لعدم الاعتداد بهم والنظر إليهم. فهم لا يعبأ بهم، وكأن استغاثتهم كلا استغاثة، ولذلك جاء قوله تعالى رداً عليهم "يغاثوا على سبيل المقابلة وليست إغاثة:[٣] والله أعلم.

٢-مراعاة حال المخاطب:

وهو الإتيان بإن مع الشرط المجزوم به مراعاة لحال المخاطب لكونه شاكا فى وقوعه. على سبيل المساهلة لاستدراجه وإثبات الحجة. وهذا مظهر من مظاهر طواعية اللغة فى الاستعمال وطريق الأداء للوصول إلى الغرض والمعنى فهما وإفهاما. وشواهد ذلك فى القرآن الكريم ستة عشر شرطاً فى ست عشرة آية وهي ما يأتي:

١. قال تعالى: "فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ" (البقرة: ٢٤)

---

(١) ينظر المطول ١٦٣

(٢) حاشية الشهاب ٦٥/٣

(٣) البحر المحيط ١٢١/٦

أى إن لم تأتوا بسورة مثل سور القرآن لإثبات تحديكم له.. والشرط وهو عدم فعلهم أمر ثابت محقق ومجزوم به. لكن لما كانوا معاندين مدعين أهم يستطيعون الإتيان بمثله روعى حالهم وجئ بأداة الشرط (إن) وقد ذكر الزمخشرى هذا الغرض فى الآيـة قائلاً: فإن قلت: انتفاء إتيانهم بالسورة واجب، فهلا جئ بإذا الـذي للوجـوب دون (إن) الذى للشك؟ قلت: فيه وجهان: أحدهما أن يساق القول معهم علـى حـسب حسبانهم وطمعهم، وأن العجز عن المعارضة كان قبل التأمل كالمشكوك فيه لـديهم لا تكالهم على فصاحتهم واقتدارهم على الكلام. والثانى أن يتهكم بهـم. كمـا يقـول الموصوف بالقوة الواثق من نفسه بالغلبة على من يقاويه: إن غلبتك لم أبق عليك وهـو يعلم أنه غالبه ويتيقنه تهكما به"[1]

وقد فسر العلامة السيد وجه كون العجز كالمـشكوك فيـه- كمـا ذكـر الزمخشرى- قائلاً: "وإنما جعل العجز مشبهاً بما يشك فيه لا مشكوكاً فيه لأن قولـه: فإن لم تفعلوا- ورد عقيب (وإن كنتم فى ريب) قبل أن يتأملوا فى حالهم أيقدرون على مثله أم لا؟ فلا يكون هناك شك حقيقة إذ لا يتصور حصوله إلا بعد حـضور طـرفى النسبة والتأمل فيها. لكنهم لما كانوا متكلين على فصاحتهم واقتدارهم علـى أفـانين الكلام كان عجزهم بالقياس إلى ظاهر حالهم كالمشكوك فيه لديهم. وفى ذلك رمز إلى أنهم لو تأملوا لم يشكوا فيه، بل قطعوا به"[2]. وعلى هذا يكون القطع بـالعجز بعـد التأمل الذى أشار إليه الزمخشرى هو المهيئ لاعتبار الوجه الثانى الـذى ذكـره وهـو التهكم.

٢. قال تعالى: "فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَـاعْلَمُوا أَنَّ اللَّـهَ عَزِيـزٌ حَكِيمٌ" (البقرة:٢٠٩)

فقد جاءت الآية بإن- والله أعلم- مراعاة لحال المخاطبين من كونهم يـشكون فى الزلل بعد إيمانهم، ويساعد السياق على ذلك إذ جاء الحديث عن الزلل الحاصل بعد مجئ البينات كما أشارت الآية الكريمة، ومجئ البينات يطرح فى نفوس من خوطبوا بهـا الثقة فى الهداية والاستقامة، ولا يتصور إلا على سبيل الشك فى نفوس بعضهم. لـذلك راعت الآية حالهم من كونهم يستبعدون الخطأ بعد بيان الأمور المهمة لهم.

---

(١) الكشاف ٢٤٧/١

(٢) حاشية السيد على الكشاف ٢٤٧/١ وينظر أيضاً تفسير البيضاوى والشهاب ١٢٦/٢

ويتأبى أن يقال: فإذا زللتم من بعد ما جاءتكم البينات. لأن مجئ البينات شأنه أن يقلع الزلل والمخالفة. وذلك كما أشار السكاكى إلى أنه يتأبى أن يقال فى قوله (وإن كنتم فى ريب): وإذا كنتم فى ريب[1] لأن مقام الحديث عن القرآن والآيات البينات فيهما يدل على امتناع الريب وامتناع الزلل. وبهذا الاعتبار يصح أن يجعل الغرض هنا من مجئ (إن) التوبيخ لوجود ما يقلع الزلل والضلال من أساسه وهو وجود الآيات البينات. والله أعلم.

٣. قال تعالى: "وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ" (الأعراف:١١٣)

فالشرط وهو كونهم غالبين مجزوم به إذ كان حال السحرة حال من ركب الشيطان رأسه وعشش فيه باطله. كما دل السياق على ذلك من قولهم: إن لنا لأجراً مؤكدين ذلك بصور شتى من التأكيد، وبقولهم فى الشرط مؤكدين- أيضاً- إن كنا نحن الغالبين "وقولهم: إن كنا لمجرد تعيين مناط ثبوت الأجر لا لترددهم فى الغلبة. وتوسيط الضمير وتحلية الخبر باللام للقصر أى إن كنا نحن الغالبين لا موسى"[2] وإنما جاءوا بإن- والله أعلم- مراعاة لحال فوعون لما فى نفسه من الترقب والإنتظار ومثل هذه الحال تملأ نفسه اضطراباً وقلقاً، وتجعله يضع الاحتمالات كلها أمام ناظريه، فراعوا حاله وجاءوا بـ (إن).

ونظير الآية السابقة الآية الآتية:

٤. قال تعالى: "فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ" (الشعراء:٤١)

فقد جاءوا بـ (إن) فى الشرط (إن كنا...) مراعاة لحال فرعون من التردد والشك.

٥. قال تعالى: "فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ" (الأعراف:١٦٩)

---

(١) ينظر مفتاح العلوم ١٣٠

(٢) تفسير أبي السعود ٤/ ٤٥٢

فالشرط (وإن يأهم عرض مثله) متحقق الوقوع، لأن أعراض الدنيا عليهم كثيرة. لكن دقة النظم استدعت أن تكون الأداة هنا (إن) للإشعار بأهم دائماً فى حال المترقب المنتظر لأعراض الدنيا. وكأهم إذا أخذوا حظاً منها ترقبوا غيره خائفين شاكين فى مجيئة. فإذا ما جاءهم أسرعوا إلى أخذه. وللمضارع (يأخذوه) دلالته على هذه الحال من استمرار أخذهم ما تصل إليه أيديهم.

٦. قال تعالى: "لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ" (التوبة:٦٦)

كتب التفسير ذكرت أن هذه الآية إخبار من الله تعالى بأنه سيعفو عن طائفة من المنافقين لإحداثهم التوبة ويعذب طائفة بقوا على نفاقهم[١]، فالشرط محقق الوقوع، وإذا كان الشرط محقق الوقوع لأنه إخبار الله تعالى فإن (إن) هنا تكون فى موضوع (إذا) وذلك مراعاة لحال المخاطبين، لأهم كانوا شاكين فى كوهم سيغفر لهم أو يعذبون، يدل على ذلك مقام الاعتذار كما أشارات الآية (لا تعتذروا...) كما أهم يشكون أيضاً فى كون العفو المنتظر هل سيكون شاملاً للجميع أم يشمل بعضاً دون بعض؟

٧. قال تعالى: "فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ" (هود:١٤)

الآية خطاب للمؤمنين، وهى تبين موقفهم من الكفار إذا لم يأتوا بما طلب منهم وهو عشر سور مثله مفتريات. والشرط (فإن لم يستجيبوا) مجزوم به فهم لم يستجيبوا ولن يستجيبوا، وإنما استعملت معه (إن) دون (إذا) مراعاة لحال المخاطبين ومن تعلق بهم الخطاب، لأن المخاطبين كانوا فى موقف المتحدى المترقب، ومن تعلق بهم الخطاب وهم الكافرون فى موقف المجادل الذى يرغب ويتمنى أن يجد له فرصة للطعن فى كتاب الله. والله أعلم.

٨. قال تعالى: "قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ" (هود:٢٨)

فالشرط (إن كنت على بينة من ربى...) محقق الوقوع يجزم به نوح عليه السلام كما هو شأن الأنبياء فى ثقتهم بأهم على بينة من رهم وعلى صلة به. ذلك لأن "الوحى الشرعى بكل أنواعه يصاحبه علم من الموحى إليه بأن ما ألقى إليه حق معصوم

---

(١) ينظر تفسير الطبرى ١٠/ ١٣٣، وكذلك الكشاف ٢/ ٢٠٠، وابن كثير ٢/ ٣٦٨.

من عند الله ليس من خطرات الأوهام ولا من نزغات الشيطان. وهذا العلم ضروري لا يخالجه شك ولا يتولد من مقدمات، بل هو من قبيل إدراك الأمور الوجدانية كالجوع والشبع والحب والبغض"(١)

والوجه في مجئ (إن) مراعاة حالهم من الشك في نبوته وتوزعهم بين مؤمن به وكافر، قال أبو حيان: "وهو متيقن أنه على بينة من معرفة الله وتوحيده وما يجب له وما يمتنع. ولكنه أبرزه على سبيل الغرض لهم والاستدراج للإقرار بالحق وقيام الحجة على الخصم، ولو قال على أني على حق من ربي لقالوا له كذبت"(٢)

٩. قال تعالى: "وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ" (هود:٣٤)

فالشرط (إن أردت أن أنصح لكم) مجزوم به ويتيقن منه نوح عليه السلام، لأن ذلك هدفه ورسالته. لكن أتى بـ (إن) مراعاة لحال الشك في نصحه التي استحوزت على قومه. والله أعلم.

١٠. قال الله تعالى حكاية لما قاله صالح لقومه: "قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ"(هود:٦٣)

فقد جاء الشرط بإن التي شأنها المشكوك فيه إبعاداً للمشاكسة والمخاصمة في دعواه، فتترل معهم في كونهم ينتظرون منه طاعتهم.

قال الزمخشري: "إن كنت على بينة بحرف الشك وكان على يقين أنه على بينة لأن خطابه للجاحدين. فكأنه قال: قدروا أني على بينة من ربي، وأني نبي على الحقيقة، وانظروا إن تابعتكم وعصيت ربي في أوامره فمن يمنعني من عذاب الله"(٣) فقد راعى في ذلك حالهم.

١١. وقال تعالى حكاية لما قاله شعيب عليه السلام: "قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ" (هود:٨٨)

---

(١) المختار من تيسير الوصول إلى أحاديث الرسول لفضيلة الشيخ محمد عبد الله دراز ٨

(٢) البحر المحيط ٥/٢١٥

(٣) الكشاف ٢/٢٨٧

النكتة فى مجئ الشرط بإن (إن كنت على بينة من ربى...) هو مراعاة حال المخاطبين كالآيات السابقة. قال أبو السعود: "وإيراد حرف الشك مع جزمه عليه السلام بكونه على ما هو عليه من البينات والحجج لاعتبار حال المخاطبين ومراعاة حسن المحاورة معهم"(١)

١٢. قال تعالى: "فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَـذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً" (الكهف:٦)

فالشرط وهو (لم يؤمنوا...) محقق الوقوع لأن مقام الآية مقام الحديث عن الكافرين المدعين أن لله ولداً بعد أن بشرت الآيات فى أول السورة المؤمنين بأن لهم أجراً حسناً. فتزلت الآية بالمجئ بإن على حال الرسول عليه الصلاة والسلام من ترقبه إيمانهم وحرصه الشديد على دعوتهم إليه حتى إنه كاد يهلك نفسه أسفاً عليهم. فراعت الآية حاله إيناساً له وتطييباً لخاطره.

١٣. قال تعالى: "قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى" (طـه:١٢٣)

فالشرط (يأتينكم) قد جاء بإن مع أنه مجزوم الوقوع وذلك مراعاة لحال آدم وحواء من كونهما لا يعلمان هل سيأتى لذريتهما هداية من السماء ورسالة إليهم أم لا. فتزلت الآية مراعية حالهم. والله أعلم.

١٤. قال تعالى: "فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ" (القصص:٥٠)

فالشرط وهو (لم يستجيبوا لك) محقق الوقوع، إذ أنهم لن يستطيعوا الإتيان بالكتاب الذى أمرهم به فى الآية السابقة عليها: "قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّـهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (القصص:٤٩) أو إن لم يستجيبوا لك ويؤمنوا بك ويتبعوك.. وعلى هذا المعنى يكون مجزوماً به أيضاً، ولكن مجئ (إن) مراعاة لحال الرسول صلى الله عليه وسلم فى كونه يرجو أن يستجيبوا بعد عجزهم عن الإتيان بكتاب. وعلى المعنى الأول أى عدم الاستجابة للإتيان بكتاب يكون الشرط مجزوماً به صدوراً من الله تعالى وتلقيا من الرسول صلى الله عليه وسلم. ويحمل مجئ (إن) على معنى الحث والتهييج لأن الشرط يضم عدم الاستجابة وما يترتب عليه من العلم باتباعهم الهوى، وأن الله لا يهديهم. والله أعلم.

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/٥٠٣

١٥. قال تعالى: "قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ" (فصلت:٥٢)

فالشرط فى الآية الكريمة وهو كون القرآن من عند الله محقق مجزوم بـه لا يشك فى ذلك إلا الجهلاء المعاندون، ولذلك راعى القرآن حالهم وأتى بـ (إن) مكان (إذا). قال أبو حيان: "أبرزه فى صورة الاحتمال وهو من عند الله بلا شك، ولكنه تترل معهم فى الخطاب"[1] والشأن فى مقام المناظرة والحجاج أن يتترل الخصوم على ما يذهب إليه خصومهم على سبيل الغرض لكى يلقموهم الحجة ويلزموهم الدعوة.

١٦. قال تعالى: "قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ" (الأحقاف:١٠)

فالشرط (إن كان من عند الله) مجزوم به ويعلم ذلك إمام المصدقين صلوات الله وسلامه عليه، ولكن جاء مع الشرط (إن) وكان الموضع لإذا تترلا على طريقتهم فى الاعتقاد واستدراجاً لهم. والله أعلم.

٣- تنزيل العالم منزلة الجاهل:

وهو أن يجعل المتكلم مخاطبه الجازم بوقوع الشرط فى مترلة الجاهل به، لكون المخاطب على حال لا تناسب علمه بالشرط وإنما تناسب كونه جاهلاً بـه. فيأتى فى كلامه- عند الاشتراط- بـ (إن) دون (إذا) مراعاة لهذا التتريل.

وشواهد هذا الغرض عشرة شروط فى عشر آيات. هي ما يأتي:

١. قال تعالى: "فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ" (البقرة:٢٤)

قد ذكرت الشرط (فإن لم تفعلوا) فى غرض (مراعاة حالة المخاطب) على اعتبار شكهم فى قدرهم. وذلك لمجئ الآية مباشرة بعد قوله تعالى فى الآية السابقة عليهما (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ). ويمكن حمل الغرض على تتريلهم مترلة الجهلاء الذين لا يعلمون عدم قدرهم وأنهم لن يستطيعوا الإتيان بسورة من مثله. فجاء حرف الشك (إن) لهذا التتريل هكمها بهم لعدم ترتيبهم على علمهم اتقاء النار والدخول فى حظيرة الإيمان.

٢. قال تعالى: "قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ" (البقرة:٣٨)

---

(١) البحر المحيط ٥٠٥/٧

فقد جاء الشرط (فإما يأتينكم...) بحرف الشك (إن) تنزيلاً لعلمهم بمجيء الرسل والهدايات منزلة جهلهم بذلك، لكون بنى آدم يرتبون على علمهم هذا خلاف ما يقتضيه.. من الكفر والعناد والإسراف على أنفسهم.

وعلل الزمخشرى مجئ (إن) بأنه لإفادة أن بعثة الرسل ليست واجبه عقلاً. قال: "فإن قلت: فلم جئ بكلمة الشك وإتيان الهدى كائن لا محالة لوجوبه؟ قلت: للإيذان بأن الإيمان بالله والتوحيد لا يشترط فيه بعثة الرسل وإنزال الكتب، وأنه إن لم يبعث رسولاً ولم ينزل كتاباً كان الإيمان به وتوحيده واجباً، لما ركب فيهم من العقول ونصب لهم من الأدلة، ومكنهم من النظر والاستدلال"[1] وذكر الآلوسى احتمالين فى الشرط قائلاً: "وجئ بحرف الشك إذ لا قطع بالوقوع، فإنه تعالى لا يجب عليه شئ بل إن شاء هدى وإن شاء ترك. وقيل: بالقطع واستعمال (إن) فى مقامه لا يخلو عن نكته، كتنزيل العالم منزلة غيره لعدم جرية على موجب العلم ويحسنه سبق ما سبق وقوعه من آدم"[2] على أنه لا يخفى ما بين الاحتمالين: الأول الذى ذكره الآلوسى وبين ما ذكره الزمخشرى من الاختلاف من كون الشرط غير مجزوم به فى كلام الآلوسي، ومجزوم به فى كلام الزمخشرى. مع اتفاقهما فى تعليل الجزم وعدمه. وهذا ليس بشئ.

٣. قال تعالى: "يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ" (الأعراف:٣٥)
وهى كالآية السابقة.

٤. قال تعالى: "وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ" (الأعراف:٨٧) فالشرط فى الآية وهو إيمان بعضهم وكفر بعضهم الآخر محقق، بدلالة الحال ودلالة السياق بقوله تعالى: "قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ" (الأعراف:٨٨) ولأنهم يعلمون ذلك نزلهم شعيب عليه السلام منزلة من لا يعلمون.

قال أبو حيان: "هذا كلام من أحسن ما تلطف به فى المحاورة، إذ برز المتحقق فى صورة المشكوك فيه. وذلك أنه قد آمن به طائفة بدليل قول المستكبرين عن الإيمان:

---

(١) الكشاف ٢٧٥/١

(٢) روح المعانى ٣٣٩/١

لنخرجك يا شعيب والذين آمنوا معك"[1] فجئ بـــ (إن) فى الشرط: تتريلاً لهم متزلــة من يجهلون لاختلافهم طائفتين.

٥. قال تعالى: "وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَــوْتِ لَيَقُــولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ" (هود:٧)

فالشرط وهو إخبار الرسول صلى الله عليه وسلم- لهم بالبعث ومـــا يتعلـــق بالأمور الغيبية المختص بها محقق ثابت. وقد جاء معه (إن) تتريلاً لمن تعلق بهم الكـــلام متزلة الجهلاء لأنهم لا يعلمون بمقتضى هذا التنبيه.

٦. قال تعالى: "وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِـسُهُ أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ" (هود:٨)

فالشرط (أخرنا عنهم العذاب) أى عذاب يوم القيامة- مجزوم به- وإنما جـــاء حرف الشك (إن) تتريلاً لهم متزلة الجهلاء، لكونهم يستنكرون ذلك، ويتعجبون مـــن حبسه، وكان مقتضى علمهم تأخير الله له.. أن يذكروا فضل الله ورحمته. وإن أريد به عذاب خاص فى الدنيا كانت (إن) فى موضعها للشك، لأن عذاب الدنيا منه ما يعجل ومنه ما يؤجل. والله أعلم.

٧. قال تعالى: "وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَـــنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً" (الكهف:٥٧)

فالشرط (إن تدعهم إلى الهدى) مجزوم به محقق الوقوع والرسول يعلم ذلـــك لأنه الداعى عليه الصلاة والسلام. وإنما جاء حرف الشك (إن) نظراً إلى كون هـــؤلاء المدعوين الذين وجه إليهم النداء إلى الهدى نزلوا متزلة الجهلاء، بل هم الجهلاء حقـــاً، وكأن دعوتهم لم تكن، لأنهم لم يعلموا بمقتضاها ولم يهتدوا بها.

وقد أشار الزمخشرى إلى اعتبار النظر إلى من يتعلق بهم القصد من الكلام قائلاً: "و- إذا- جزاء وجواب. فدل على انتفاء اهتدائهم لدعوة الرسول، بمعنى: أنهم جعلوا ما يجب أن يكون سبب وجود الاهتداء سبباً فى انتفائه، وعلى أنه جواب للرســـول - على تقدير قوله: مَالِيَ لا أدعوهم حرصاً على إسلامهم؟ فقيل: وإن تدعهم إلى الهـــدى

---

(١) البحر المحيط ٣٤٠/٤

فلن يهتدوا"[1] فقوله: جعلوا– أى المدعوون– ما يجب أن يكون سبب وجود الاهتداء سبباً فى انتفائه– إشارة إلى علة مجئ (إن) فى موضع الجزم، وتنزيلهم منزلة الجهلاء. والله أعلم.

٨. قال تعالى: "وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ" (الانبياء: ٣٤)

فالشرط هنا وهو (أفئن مت) محقق الوقوع، وإنما جاء (إن) الذى للشك معه– والله أعلم– تنزيلاً للعالم منزلة الجاهل– أى أهل مكة الذين كانوا ينتظرون موته فرحين بذلك. والشأن أن لا يفرح المرء بالأمر المتوقع العادى فكأنهم يجهلون موته ويستبعدونه ويظنون لأنفسهم الخلود. ولست أرى ما قيل: إن مجئ (إن) فى مثل ذلك لكون الموت وقته غير معلوم[2]، ذلك لأن الآيات التى تحدثت عن الموت والبعث والنشور والحساب– وهى أوقات غير معلومة– قد جاء فيها الشرط بـ (إذا) وهى أكثر من أن تحصى[3].

٩. وقال تعالى: "قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَإِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ" (يس: ١٩)

فالشرط (إن ذكرتم) مجزوم به، لكن استعملت معه (إن) تنزيلاً لعلمهم به منزلة الجهل، لكونهم رتبوا عليه خلاف ما يقتضيه، ولم يعلموا به وتطيروا. ولذلك كان الحكم عليهم بالإسراف ومجاوزة الحد، ولا يكون ذلك إلا عند الجهل وعدم التدبر. وجواب الشرط محذوف تقديره: إن ذكرتم تطيرتم ومحل الاستفهام هو الجواب بإنكار التطير عند التذكير والدعوة إلى الله تعالى[4].

١٠. قال تعالى: "وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ" (القمر: ٢)

فالشرط وهو رؤيتهم الآيات مجزوم به ومستمر الوقوع. وإنما جئ بحرف الشك (إن) تنزيلاً لرؤيتهم المقتضية العلم ثم الإيمان منزلة المعدوم، لكونهم خالفوا ما تقتضيه الرؤية فنزلوا منزلة العمى الجهلاء. والله أعلم.

---

(١) الكشاف ٤٨٩/٢

(٢) ينظر البرهان للزركشى ٣٦٤/٢

(٣) ينظر فصل (إذا)

(٤) ينظر الكشاف ٣١٨/٣

٤-التهييج:

وحقيقته إلهاب نفس المخاطب وتحريكها بأسلوب الشرط، لكون الشرط يقتضى تعليق شئ على شئ، فيفيد كون مضمون الشرط وهو المعلق عليه غير موجود وأنه ليس على خطر الوجود تحريك النفس وتهييجها. ويحصل التهييج بنوعين من التعليق.

نوع يعلق فيه شئ على شرط مستحيل الوقوع فيكون الشرط- بحكم التعليق- متوقعاً على خطر الوجود، فتتحرك نفس المخاطب إلى إدراك كون هذا الشرط مستحيلاً وأنه ما جئ به إلا للإرهاب والتحذير والإرشاد لكون ما يترتب عليه غير مرغوب فيه عنده.

وقد مرت أمثلة هذا النوع فى مجئ المستحيل شرطاً للتحذير والإرشاد(١).

ونوع آخر- وهذا موضعه- يعلق المتكلم فيه أمراً على شرط فيحرك هذا التعليق نفس المخاطب لكون هذا الشرط- أى مضمونه- واقعاً فعلاً ومجزوماً به. وهو خلاف ما أفاده التعليق من كونه غير موجود وعلى خطر الوجود. وللقرآن الكريم شأو بعيد فى أمثلة هذا النوع. بتحريك نفوس المخاطبين بالأوصاف التى يتصفون بها عن طريق وضعها موضع الامتحان والاختبار أى فى موضع الشرط الذى هو بطبيعته مشكوك فيه. وذلك حفزا للنفوس إلى استكشاف حقيقتها، لكى تتقبل ما يتعلق ويبنى على الشرط تقبلاً يفرضه وجود سببه وهو الشرط. ولا يرفضونه لئلا يدل ذلك على أن ما رازوا فيه نفوسهم ليس له واقع فى حياتهم. وأكثر أمثلة هذا الغرض فى القرآن الكريم تتعلق بما يترتب عليه حقائق الإيمان، والصدق فى العقيدة، والجد فى القول والعمل.

وشواهده أربعون شرطاً فى أربعين آية. هى كما يأتى:

١. قال الله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ" (البقرة: ١٧٢)

فالشرط وهو تخصيصه سبحانه وتعالى بالعبادة موجود وهو حقيقة الإيمان الذى وصفوا ونودوا به. لكن جئ به شرطاً حثا لهم أن يكونوا عندما يقتضيه هذا الإيمان من عبادته وحده، وشكره على نعمة.

---

(١) تنظر ص ٢٠٦ وما بعدها.

٢. قال تعالى: "أَيَّاماً مَعْدُودَات فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ" (البقرة:١٨٤)

فالشرط وهو علمهم بما فى الصوم من فائدة وأنهم يعلمون الخير فيما يأمرهم به الله- جاء مع (إن) للحث والتهييج.

٣. قال تعالى: "وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحاً وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" (البقرة:٢٢٨)

فالشرط (إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر) موجود ثابت، لكنه نزل منزلة المشكوك فيه. هييجاً وتحريكا لنفوسهن. قال أبو حيان: "والمعنى أن من اتصف بالإيمان لا يقدم على ارتكاب مالا يحل له، وعلق ذلك على هذا الشرط ، - وإن كان الإيمان حاصلا لهن- إيعادا وتعظيما للكتم، وهذا كقولهم: إن كنت مؤمناً فلا تظلم وإن كنت حراً فانتصر، بجعل ما كان موجوداً كالمعدوم ويعلق عليه وإن كان موجوداً فى نفس الأمر"(١) وقوله: يجعل ما كان موجوداً كالمعدوم- هو معنى ما يقتضيه التعليق من كونه على خطر الوجود، وهذا يستدعى هييج المخاطب لعلمه بوجود الشرط.

٤. قال تعالى: "وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ" (البقرة:٢٤٨)

فالشرط وهو كونهم مؤمنين مجزوم به بدليل قوله تعالى حكاية عنهم (قالوا ابعث لنا ملكاً نقاتل فى سبيل الله) وجيء بإن هنا حثاً لهم أن يعملوا ويعتبروا بمقتضى إيمانهم. كما يصح أيضاً اعتبار ذلك من تنزيل العالم منزلة الجاهل وذلك لكثرة سؤالهم واعتراضهم بقولهم: (وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) (البقرة:٢٤٧) وذلك لأن النكات البلاغية لا تتدافع.

---

(١) البحر المحيط ١٨٧/٢

٥. قال تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ" (البقرة:٢٧٨)

فالشرط (إن كنتم مؤمنين) مجزوم به بدلالة ندائهم بوصف الإيمان فى أولها، وإنما جاء معه (إن) تهييجاً لهم وحثا على فعل ما يستلزمه إيمانهم.

٦. قال تعالى: "وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ" (البقرة: ٢٨٠)

فالشرط (إن كنتم تعلمون) مجزوم به وقد جاء معه (إن) للحث على ما يترتب عليه. أى إن كنتم تعلمون الخير فى الصدقة وما أرشدكم الله إليه فافعلوا. ولا شك أنهم مؤمنون عالمون بذلك. قال الزمخشرى: "إن كنتم تعلمون– أنه خير لكم فتعملوا به، جعل من لا يعمل به وإن علمه كأنه لا يعلمه"[١]. وواضح أن طريق هذا الجعل الإتيان به فى صورة المشكوك فيه مع حرف الشرط (إن) وذلك حثا لهم على العمل بمقتضى علمهم، والله أعلم بمراده.

٧. قال تعالى: "وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْأِنْجِيلَ * وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرائيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ" (آل عمران:٤٩)

فالتعليق على الشرط (إن كنتم مؤمنين) للتهيج، لأن صفة الإيمان موجودة فعلاً. كما يصح اعتبار النكتة للتغليب كما سيأتى. قال أبو حيان: "إن كان خطاباً لمن آمن فذلك على سبيل التثبيت وتطمين النفس وهزها، كما تقول لابنك: أطعنى إن كنت ابنى. ومعلوم أنه ابنك ولكن تريد أن تهزه بما هو محقق"[٢] وقوله: إن كان خطاباً لمن آمن.. إشارة إلى صحة كونه خطاباً لغيرهم وبذا يختلف الاعتبار كما بين قبل.

٨. قال تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ" (آل عمران:١١٨)

---

(١) الكشاف ٤٠٢/١

(٢) البحر المحيط ٤٦٨/٢

فقد جاء الشرط (إن كنتم تعقلون) بـ (إن) مكان (إذا) لأن "المقصود بعثهم على استعمال العقل فى تأمل هذه الآيات وتدبر هذه البينات"[١]

٩. قال تعالى: "إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ"(آل عمران: ١٢٠)

فقد جاء الشرط الثالث (وإن تصبروا وتتقوا) بـ (إن) للحث والتهييج.

١٠. قال تعالى: "وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ" (آل عمران: ١٣٩)

قال أبو حيان: "وتعلق قوله: (إن كنتم مؤمنين) بالنهى فيكون ذلك هزا للنفوس، يوجب قوة القلب والثقة بصنع الله وقلة المبالاة بالأعداء"[٢]

١١. قال تعالى: "إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ" (آل عمران: ١٧٥) هذا مسلك عجيب لتوسيع الكتابه وكثره الصفحات سامحهم الله ولذلك

قال الشهاب: "قوله: (إن كنتم مؤمنين) مع تحقق إيمانهم إلهاب وتهييج لهم، فإن كان خطاب الجميع ففيه تغليب"[٣] والله أعلم.

١٢. قال تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً" (النساء: ٥٩)

فالشرط الثانى (إن كنتم تؤمنون بالله) مجزوم به لكن جئ معه بأداة الشك (إن) دون (إذا) تهييجاً لهم وحثاً على أن يعملوا بمقتضى إيمانهم، لأن التنبيه لمعنى الشرط يستلزم التنبيه لمعنى الجزاء المترتب عليه.

١٣. قال تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ" (المائدة: ٥٧)

فالشرط (إن كنتم مؤمنين) جئ معه بأداة الشرط (إن) للتهييج بدلالة سبق ندائهم بصفة الإيمان. ويصح أن يكون الغرض التغليب نظراً لمناسبة نزول الآية، من

---

(١) تفسير الرازى ٣/٥٥

(٢) البحر المحيط ٣/٦٢

(٣) حاشية الشهاب على البيضاوى ٣/٨٣

كون بعض المسلمين كانوا يوادون بعض المنافقين. وهذا يخالف الإيمان الكامل. كما قيل: إن المعنى "إن كنتم مؤمنين حقاً فإن الإيمان حقاً يأبى موالاة أعداء الدين"[1]. فغلب هؤلاء على المؤمنين حقاً. والله أعلم.

١٤. قال تعالى: "فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ" (الأنعام:١١٨)

فتعليق الأمر على شرط الإيمان حث لهم أن يكونوا على ذلك.

١٥. قال تعالى: "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ" (الأنفال:١)

وهى كالآية السابقة فى تعليق الأمر على شرط الإيمان حثاً لهم أن يكونوا دائماً كذلك.

١٦. قال تعالى: "وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" (الأنفال:٤١)

قد جاء الشرط مشتملاً على عدة أوصاف مصحوباً بأداة الشرط (إن) حفزا لنفوسهم لاستكشاف حقيقة إيمانهم ليتقبلوا ما أمرهم به ربهم.

١٧. وقال تعالى: "أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَأُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ" (التوبة:١٣)

فالشرطُ (إن كنتم مؤمنين) جاء بحرف الشرط (إن) مع تحقق إيمانهم حثاً لهم وتهييجاً.

١٨. قال تعالى: "انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ" (التوبة:٤١)

قال أبو السعود: "إن كنتم تعلمون- أى تعلمون الخير- علمتم أنه خير أو إن كنتم تعلمون أنه خير، إذ لا احتمال لغير الصدق فى إخبار الله تعالى فبادروا إليه"[2] وكلام أبى السعود على المعنى الأول تكون الأداة (إن) مستعملة فى موضعها لعدم تحقق العلم بالخير لأن الإنسان لا يعلم الخير فى جميع الأحوال. وعلى المعنى الثانى: إن كنتم تعلمون أنه خير بأن يكون من قبل الله تعالى وإخباره قبل الشرط بقوله جل وعلا:

---

(١) الكشاف ٦٢٤/١

(٢) تفسير أبى السعود ١٣٠/٥

(ذلكم خير لكم) يكون الشرط محقق الوقوع، لأنهم بإخبار الله لهم بذلك قد علموا الخير فتكون الأداة فى غير موضعها للحث والتهييج. والله أعلم.

١٩. قال تعالى: "وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ" (يونس: ٨٤)

الشرطان فى الآية جاءا بأداة الشرط (إن) للحث والتهييج.

٢٠. قال تعالى: "قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ" (يوسف: ١٠)

قال الزمخشرى: "إن كنتم عازمين على أن تفعلوا ما يحصل به غرضكم فهذا هو الرأى"[١] وعزمهم على التخلص من يوسف عليه السلام محقق موثوق به بينهم، لكن هذا القائل أراد أن يهيج نفوسهم بإظهار ما عزموا عليه فى صورة المشكوك فيه.

٢١. قال تعالى: "وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ" (الرعد: ٥)

والشرط وهو وقوع العجب من رسول الله صلى الله عليه وسلم مجزوم به، لأن الأمور المختلفات فى حياة الدعوة تدعو إلى العجب من مواقف الكافرين المعاندين للحق دون سبب بين واضح. فمجئ حرف الشك (إن) حثا للتعجب من أمر شديد الغرابة وهو إنكارهم البعث.

٢٢. قال تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ * بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ" (النحل: ٤٣، ٤٤)

الشرط (إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر) مجزوم به لأنهم أمة أمية لا تقرأ ولا تكتب ونزل منزلة المشكوك فيه تحريكاً لنفوسهم وحفزا ليزيلوا ما هم من جهل بالكتاب الذى أنزل إليهم.

٢٣. قال تعالى: "وَلا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ" (النحل: ٩٥)

هم يعلمون أن ما عند الله خير، لكنه سيق فى معرض المشكوك فيه حثا لهم وتهييجاً.

---

(١) الكشاف ٣٠٥/٢

٢٤. قال تعالى: "فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ" (النحل:١١٤)

يختلف اعتبار الشرط (إن كنتم إياه تعبدون) مجزوماً به أو غير مجزوم به فإن كان الخطاب للمؤمنين كان مجزوماً به، وكان مجيء (إن) لقصد الحث والتنشيط لاستماع الأمر وتنفيذه. وإن كان خطاباً للكافرين كان الشرط مستحيلاً جئ به على سبيل الفرض مجاراة لهم وقصداً إلى إظهار كذبهم. وإن كان للاثنين معاً كان الخطاب على وجه التغليب.

٢٥. قال تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ" (الانبياء:٧)

الشرط (إن كنتم لا تعلمون) مجزوم به لأنهم لا يعلمون الكتب السابقة ولا أخبار المرسلين. وأتى حرف الشك (إن) حثاً لهم أن يزيلوا جهلهم.

٢٦. قال تعالى: "قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ" (الانبياء:٦٨)

الشرط مجزوم به لأنهم عازمون عزماً أكيدًا على نصرة آلهتهم وما كان مجيئهم بإبراهيم عليه السلام إلا نوعاً من هذا النصر. قال الزمخشرى: "إن كنتم ناصرين آلهتكم نصراً مؤزراً"[١] والشرط مجزوم به وأتى حرف (إن) تهييجاً لهم بإظهار ما هم عازمون عليه فى صورة المشكوك فيه. والله أعلم.

٢٧. قال تعالى: "إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ" (الشعراء:٥١)

فالشرط وهو (إن كنا أول المؤمنين) مجزوم به لأنهم كانوا يعلمون أنهم أول من آمن بموسى بعد ما ظهر لهم بطلان سحرهم، وأن ما أظهره موسى حق لا سحر. وقد جاءوا به فى صورة الشك تحريكاً لنفوسهم وتهييجاً لها بأن ما كان لهم من السبق يستحق أن يؤهل أصحابه لطلب المغفرة على ذنوبهم وآثامهم. والله أعلم.

٢٨. قال تعالى: "قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ" (المؤمنون:٨٤، ٨٥)

٢٩. وقال تعالى: "قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ" (المؤمنون:٨٨، ٨٩)

---

(١) الكشاف ٥٧٨/٢

فالشرط (إن كنتم تعلمون) فى الموضعين مجزوم به بدلالة الحال والسياق، فقد عقب بقوله تعالى: سيقولون لله. وهذا دليل على علمهم، وأن الشرط محقق. وإنما جئ به مع (إن) حفزا لهم أن يتذكروا ما يعلمونه ويرتبوا الجواب على السؤال. والله أعلم.

٣٠. قال تعالى: "الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ" (النور:٢)

قال الزمخشرى: "وقوله: "إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر" من باب التهييج وإلهاب الغضب لله ولدينه"(١) وذلك لأن المخاطب بذلك هم المؤمنون.

٣١. قال تعالى: "يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ" (النور:١٧)

قال الرازى: "هذه الآية على التهييج فى الاتعاظ والانزجار"(٢) فإيمانهم حق واقع وحثهم الله على عدم العودة إلى مثل ما قيل بمقتضى إيمانهم، والله أعلم.

٣٢. قال تعالى: "قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ" (الشعراء:٢٣، ٢٤)

٣٣. قال تعالى: "قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ" (الشعراء:٢٨)

قال الزمخشرى عند تفسيره الآية: "معناه إن كان يرجى منكم الإيقان الذى يؤدى إليه النظر الصحيح نفعكم هذا الجواب وإلا لم ينفع. أو إن كنتم موقنين بشئ قط فهذا أولى ما توقنون به لظهوره وإنارة دليله"(٣) وكلامه يشير إلى احتمال كون إن فى موضعها مع الشرط المشكوك فيه، ويفهم ذلك من أول عبارته، واحتمال أن تكون مع المجزوم به للتهييج وتحريك نفوسهم، وذلك لأن علم أى شئ كان- أمرٌ مجزوم به. وذلك ما أشارت إليه عبارة الزمخشرى فى الاحتمال الثانى، وهذا الشأن جار أيضاً فى الشرط الثانى (إن كنتم تعقلون) وقد ذكر هذين الاعتبارين- أيضاً- الرازى وأبو حيان(٤).

---

(١) الكشاف ٤٧/٣

(٢) تفسير الرازى ٢٤٥/٦

(٣) الكشاف ١١٠/٣

(٤) ينظر تفسير الرازى ٣٦٧/٦، والبحر المحيط ١٣/٧

٣٤. قال تعالى: "يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً" (الأحزاب: ٣٢)

الشرط هنا (إن اتقيتن) محقق الوقوع لأنهن رضى الله عنهن أهل التقوى وأهل المغفرة. ومن يكون أهلاً لها إذا لم يكن أهلاً لها؟ وقد جاءت (إن) مع الشرط المحقق حثاً لهن رضى الله عنهن وتذكيراً بصفتهن وخلقهن.

٣٥. قال تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ" (محمد: ٧)

نصر المؤمنين لله ولرسوله ودينه أمر ثابت لا يشك فيه، وإنما جاء نصرهم مع (إن) إبرازاً له فى صورة المشكوك فيه حثاً لهم ودفعاً إلى إبقاء أسباب نصر الله لهم أمام نواظرهم، وهى نصر دينه فى الأرض إخلاصاً وصدقاً لينصرهم الله ويثبت أقدامهم.

٣٦. قال تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ" (الممتحنة: ١)

الشرط (إن كنتم خرجتم...) للإيقاظ والتنبيه. وإن قيل إن الخروج قد يكون لمرضاة الله ولغيرها[١]– وإن كان يأباه الوصف بالإيمان والإخبار عن الذين نهوا عن ولايتهم بأنهم أعداؤهم– فعلي هذا يكون (إن) موضع (إذا) للتغليب.

٣٧. قال تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ" (الصف: ١٠، ١١)

أجرى الزمخشرى الشرط (إن كنتم تعلمون) على حقيقته باعتبار (إن) مع المشكوك فيه قال: "فإن قلت: ما معنى قوله (إن كنتم تعلمون) قلت: معناه إن كنتم تعلمون أنه خير لكم كان خيراً لكم حينئذ، لأنكم إذا علمتم ذلك واعتقدتموه أحببتم الإيمان والجهاد فوق ما تحبون أنفسكم وأموالكم فتفلحون وتفلحون"[٢]

ولم يرتض ذلك ابن المنير ورأى كون (إن) جاءت فى غير موضعها لكون الشرط مجزوماً به. قال: "كأنه يجري الشرط على حقيقته وليس بالظاهر، لأن علمهم

---

(١) ينظر تفسير الرازى ٨/١٣٢

(٢) الكشاف ٤/١٠٠

بذلك محقق إذ الخطاب مع المؤمنين، والظاهر أنه من وادى قوله: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (البقرة:٢٧٨) والمقصود بهذا الشرط التنبيه على المعنى الذى يقتضى الامتثال وإلهاب الحمية للطاعة. كما تقول لمن تأمره بالانتصاف من عدوه: إن كنت حراً فانتصر. تريد أن تثير منه حمية الانتصار لا غير. والله أعلم"[١]

٣٨. قال تعالى: "وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ" (الحديد:٨)

الشرط هنا (إن كنتم مؤمنين) مجزوم به لأن الآية فى سياق يدل على خطاب المؤمنين، ومجئ (إن) الدالة على الشك للحث والتهييج لكى ينفذوا ما يقتضيه إيمانهم. والله أعلم.

٣٩. قال تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ" (الجمعة:٩)

الشرط (إن كنتم تعلمون) نظير الشرط فى الآية السابقة.

٤٠. قال تعالى: "فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ * أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ" (القلم: ٢١، ٢٢)

جئ بـ (إن) فى الشرط (إن كنتم صارمين) للحث والتهييج على أمر بيتوه.

التهييج ومعنى التعليل:

يذهب الكوفيون بالأمثلة التى من باب التهييج إلى اعتبار (إن) فيها للتعليل ويجعلونها قسيما للشرطية وليست أداة شرط[٢]. وممن أشاروا إلى هذا المعنى الزمخشرى عند تفسيره قول الله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ" (الممتحنة:١) قال: "إن كنتم خرجتم" متعلق بلا تتخذوا. يعنى لا تتولوا أعدائى إن كنتم أوليائى. وقول النحويين فى مثله هو شرط جوابه محذوف– لدلالة ما قبله عليه"[٣]

---

(١) الإنصاف فيما تضمنه الكشاف ٤/١٠٠

(٢) ينظر البرهان للزركشى ٤/٢١٩

(٣) الكشاف ٤/٨٩

فقد أشار بذلك إلى كون إن للتعليل فى أول كلامه، ثم أشار بعد ذلك إلى اعتبار الشرطية فى آخره بتقدير جواب الشرط كما هو مذهب البصريين، وكلامه واضح الإشارة إلى رأيي الكوفيين والبصريين، لكن كلام الكوفيين بأنها للتعليل يكون بتجريدها من معنى الشرطية، أى أنها قسم آخر خلاف الشرطية، وهذا خلاف ما ذهب إليه الشهاب وفهمه من كلام الزمخشرى قائلاً عند تفسير قوله تعالى: "وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ" (آل عمران:١٣٩) : إن كنتم مؤمنين ليس على ظاهره، لأن إيمانهم مقرر ثابت، ولكنه تهييج لهم وتحريض ولذا قيل إنه تتميم كالتعليل، لأن الخطاب مع الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضى الله عنهم تسلية لهم عما أصابهم يوم أحد، فلا يجرى على ظاهره. وكون الشرط للتعليل فائدة حسنة أشار إليها الزمخشرى فى قوله تعالى: (لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ) إلى قوله تعالى:(إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ)[1] وذلك أن الكوفيين يعتبرونها للتعليل وليست شرطاً. أما البصريون فيبقونها شرطية ولما كان الشرط مفيداً كونه على خطر الوقوع اعتبر ذلك نوعاً من التجوز بتنزيل المحقق منزلة المشكوك فيه لنوع من المبالغة لإفادة الحث والتهييج، لتبين معنى الشرط خارجاً والتحقق منه لإيجاد ما يترتب عليه لكون الشرط علة فى حصول الجزاء.

٥-التوبيخ:

وحقيقته: هو تأنيب المخاطب وتبكيته على صدور الشرط منه لكونه غير مرغوب فيه بدلالة ترتب ما يوجب المساءة لمن يقع الشرط منه، وطريق الدلالة على التوبيخ أن يؤتى بالشرط المجزوم بوقوعه فى صورة المشكوك فيه إشارة إلى توفر الأسباب التى من شأنها أن تقلعه من أساسه فيكون وجوده على سبيل الفرض والتقدير كما تفرض المحالات. وشواهده أربعة وثلاثون شرطاً فى أربع وثلاثين آية.

فالسعد يقول فى بيان ذلك التوجيه فى قول الله تعالى:

١. "أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ" (الزخرف:٥) فيمن قرأ (إن) بالكسر. يقول: "الشرط وهو كونهم مسرفين أى مشركين أمر مقطوع به لكن جئ بلفظ (إن) لقصد التوبيخ على الإسراف وتصوير أن الإسراف من العاقل فى هذا المقام يجب أن لا يكون إلا على مجرد الفرض والتقدير، كما تفرض المحالات لاشتمال

---

(١) حاشية الشهاب على البيضاوى ٦٥/٣

المقام على الآيات الدالة على أن الإسراف مما ينبغى أن لا يصدر عن العاقل أصلاً، فهو بمنزلة المحال ادعاء بحسب مقتضى المقام"[١]

علة تنزيله منزلة المحال:

ومفاد كلامهم أن العلة فى تنزيله منزلة المحال أمران:

الأول: ما يشتمل عليه المقام من علامات وشواهد تدل على أن الشرط مما يجب أن يقلع من أساسه. وهذا يهيئ أن لا يكون إلا على سبيل الفرض والتقدير.

الثانى: أن فى ذلك ضرباً من المبالغة التى تناسب التبكيت على وقوع الشرط. قال السيد: "فإن قلت هذا تطويل للمسافة بلا طائل تحته إذ يكفى أن يقال: إنما استعمل (إن) فى هذا الشرط المقطوع به الواقع تنبيها على أنه لا ينبغى أن يكون صدوره من العاقل مقطوعاً به توبيخاً لهم، ولا حاجة إلى جعله محالاً ادعاء. ثم جعل ذلك المحال بمنزلة ما لا قطع بلا وقوعه. قلت فى تطويل المسافة فائدة جليلة هى المبالغة التامة فى التوبيخ التى يقتضيها المقام"[٢]

٢. قال تعالى: "وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (البقرة:٢٣)

فالشرط وهو ارتيابهم فى القرآن واقع حاصل، وهو الذى استوجب تحديهم والشأن أن تكون الأداة (إذا) مع المجزوم به. لكن لما كان المقام مشتملاً على الآيات والبراهين التى تقلع هذا الريب من أساسه نزل هذا الريب منزلة المحال ثم استعملت معه إن على سبيل الفرض والتقدير.

٣. قال تعالى: "فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ" (آل عمران: ٢٠)

فالشرط وهو حجاجهم واقع ومستمر، ومجئ (إن) للدلالة على أن هذا الشرط لا يأتى إلا بعد فرضه مستحيلاً، لكون البراهين والآيات البينات من شأنها أن تزيل حجاجهم وصلفهم. قال الرازى: "ظهر أنه لم يبق من أسباب إقامة الحجة على فرق الكفار شئ إلا وقد حصل. فبعد هذا قال: فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن"[٣]

---

(١) المطول ١٥٧

(٢) حاشية السيد على المطول ١٥٧

(٣) تفسير الرازى ٤١٨/٢

والتوبيخ هنا ليس للمخاطب وإنما لمن تعلق بهم الكلام، وهم المعاندون المجادلون.

٤. قال تعالى: "فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ" (آل عمران:٦٣)

الشرط وهو التولى عن المباهلة أو عن توحيد الله أو عن القرآن والذكر كل هذا حاصل ومجزوم به. فتزل مترلة المحال ثم جئ به مع (إن) للتبكيت والتوبيخ لهم.

٥. قال تعالى: "فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ"(آل عمران:١٨٤) تكذيبهم متيقن لأن هذا شأن المطبوع على قلوبهم دائماً. وقد جئ بـ (إن) على الفرض والتقدير، توبيخاً لهم، لكثرة الآيات التى تزيل أسباب التكذيب.

٦. قال تعالى: "وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً" (النساء:١٠٤)

الشرط وهو كونهم يتألمون محقق مجزوم به، وإنما جئ به هنا مع (إن) للتبكيت على ما كان منهم، قال البيضاوى: "إلزام لهم وتقريع على التوانى فيه بأن ضرر القتال دائر بين الفريقين غير مختص بهم. وهم يرجون من الله بسببه ما لا يرجو عدوهم. فينبغى أن يكونوا أرغب منهم فى الحرب وأصبر عليها"[(١)]

٧- قال تعالى: "وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ" (الأنعام:٣٥) الشرط فى الآية (وإن كان كبر عليك إعراضهم) محقق مجزوم به، ومعلوم للرسول صلى الله عليه وسلم بأنه يكلف نفسه أكثر مما يتحمله، وقد وضحت له الآيات والشواهد بأن هؤلاء طبع على قلوبهم، وأنه لا يملك من أمرهم شيئاً كما أخبره ربه جل وعلا بقوله: (إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء) وكما أخبره فى الآية بأنه لو تحققت مشيئته لهداهم جميعاً. فلا يتخطى حرصه عليه الصلاة والسلام هذا.

٨- قال تعالى: "أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ" (الأنعام:٨٩)

---

(١) تفسير البيضاوى ١٧٤/٣

فالشرط (إن يكفر بها هؤلاء) أى مشركو مكة أو كل كافر فى جميع الأزمنة- أمر محقق مجزوم به- وقد جئ معه بحرف الشك (إن) إفادة إلى أن الكفر منهم من حقه أن يكون مشكوكاً فيه لكثرة الأدلة والآيات التى تقطعه من أساسه، والله أعلم.

٩- قال تعالى: "فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ" (الأنعام:١٤٧)

الشرط فى الآية وهو تكذيب اليهود والمشركين الذين تتحدث عنهم الآيات ثابت ومنتظر منهم دائماً. وقد جاءت الآية بـ (إن) إنكاراً وتوبيخاً لموقفهم هذا. وفى هذه الآية دلالة على كون التوبيخ لا يتعين أن يكون موجهاً إلى المخاطب وإنما قد يكون موجهاً إلى فاعل الشرط وإن لم يكن هو المخاطب.

١٠- قال تعالى: "قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ" (الأنعام: ١٥٠)

دلالة السياق واضحة على أن (إن) مستعمل فى المجزوم به المحقق الوقوع. لأن المطلوب شهداء صفتهم الشهادة معهم، وأنهم يعضدونهم لأنهم على الباطل مثلهم، يدل على ذلك استدلال الزمخشرى على صفة هؤلاء الشهداء من الآية نفسها قائلاً: "وجئ بالذين للدلالة على أنهم شهداء معروفون موسومون بالشهادة لهم وبنصرة مذهبهم، والدليل عليه قوله تعالى: (فإن شهدوا فلا تشهد معهم) ولو قيل: هلم شهداء يشهدون لكان معناه هاتوا أناساً يشهدون بتحريم ذلك، فكان الظاهر طلب شهداء بالحق، وذلك ليس بالغرض، ويناقضه قوله تعالى: (فإن شهدوا فلا تشهد معهم)[1]".

ومجئ (إن) هنا توبيخاً لهم وتكذيباً لقولهم لأن الحق الصراح يكشف باطلهم ويعرى ضلالهم، فكان أولى لهم أن يمتنعوا عن الشهادة، لذا جئ بما يفيد الشك عن طريق تنزيل المحقق منزلة المستحيل لوجود الدلائل التى ينبغى أن تحول دون وجوده وتحققه والله أعلم.

١١- وقال تعالى: "وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ" (يونس: ٤١)

فالشرط (إن كذبوك) مجزوم به لأنه واقع وهم يستمرون عليه، فحزب الشيطان فى حرب دائماً مع حزب الله. ونزل هذا التكذيب منزلة المشكوك فيه توبيخاً

---

(١) الكشاف ٢/٦٠

هم. ويصح اعتبار النكتة– أيضاً– التغليب أى تغليب من يشك فى تكذيبهم على من لا يكذب عند قصدهم جميعاً بالضمير فى الفعل (يكذبوك)

١٢– قال الله تعالى: "وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنْظِرُونِ"(يونس: ٧١)

فالشرط وهو استعظامهم مقامه بينهم وتذكيرهم بالله ودعوقم إليه محقق الوقوع. ولما كان ينبغى أن لا يكون منهم ذلك فرض كما يفرض المحال ونزل منزلة ما شأنه أن يشك فيه توبيخاً لهم وتأنيباً على ذلك.

١٣– قال تعالى: "فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ" (يونس: ٧٢)

هذا الكلام حكاية من الله تعالى لما كان من نوح عليه السلام، وتصوير لما خاطبهم به، ولومه لهم على إعراضهم وتوليهم عن دعوته. فالشرط (فإن توليتم) مجزوم به. وجاء معه حرف الشك (إن) قصداً إلى توبيخهم. وإعلاماً لهم بأن ما يكون من توليهم لا ينبغى أن يكون منهم بحيث لا يتصور إلا مشكوكاً فيه. ذلك لما لدعوته من قوة الدليل ووضوح المنهج، مما يزيل كل سبب للإعراض والتولي. ويصح أن تكون الآية من شواهد التغليب.

١٤– قال تعالى: "قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ" (يونس: ١٠٤)

فقد جاء الشرط (إن كنتم فى شك) بحرف الشرط (إن) إظهاراً لشكهم فى معرض المشكوك فيه الذى لا يتقين وقوعه مع أنه واقع فعلاً. وذلك توبيخاً على تكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم. لأن الآيات الدالة على صدق دينه كفيلة بأن تقلع شكهم من أساسه، وأن يكونوا بحال من يشك فى تردده وعدم إيمانه. وفى هذا توبيخ على تبجحهم بالشك ومحاربة دين الله تعالى. وينبغى أن يتنبه إلى أن مفاد (إن) هو الشك فى كونهم شاكين مع العلم بشكهم، وهو محل الغرض لا إفادة شكهم فى الدين. قال الزمخشرى: "يا أهل مكة– إن كنتم فى شك من دينى وصحته وسداده فهذا دينى، فاسمعوا وصفه، واعرضوه على عقولكم، وانظروا فيه بعين الإنصاف لتعلموا أنه

دين لا مدخل فيه للشك، وهو أني لا أعبد الحجارة التي تعبدونها من دون من هو إلهم وخالقكم......"[1]

١٥- قال تعالى: "وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ" (هود:٣٨) جاء الشرط (إن تسخروا) بحرف الشك تجهيلاً لهم على سخريتهم وإظهاراً بأنه كان ينبغي منهم الإيمان، وأن يكون العناد والسخرية من الأمور التي يستبعد وقوعهما منهم.

١٦- قال تعالى: "إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ" (النحل:٣٧)

الشرط وهو حرصه عليه الصلاة والسلام مجزوم به، وجيء به في معرض المشكوك تنبيهاً وتوجيهاً له أن يخفف عن نفسه وأن لا يحرص حرصاً يحمله فوق طاقته.

١٧- قال تعالى: "فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ" (النحل:٨٢)

فالتولي مجزوم به واقع منهم وجيء بـ (إن) معه للتوبيخ.

١٨- قال تعالى: "وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَداً" (الكهف:٣٩)

فالشرط وهو رؤيته قليل المال والولد مجزوم به، لكنه أظهره في صورة المشكوك فيه توبيخاً له.

١٩- قال تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ" (الحج:٥)

وقد مر قبلها نظائر.

٢٠- قال تعالى: "وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ" (الحج:٤٢)

الشرط (وإن يكذبوك) جاء في معرض المشكوك. توبيخاً لهم على وجوده. لكثرة الآيات والبراهين المزيلة للشك والتكذيب مما يجعل شكهم وتكذيبهم في حكم المشكوك. وإن كان متيقناً ظاهراً.

---

[1] الكشاف ٢٥٥/٢

٢١- قال تعالى: "قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ" (الشعراء:٢٩)

الشرط وهو اتخاذ موسى عليه السلام ربه إلهاً لا يشك فيه ومجزوم به، ويعلم فرعون ذلك، لكنه نزله منزلة المشكوك فيه بعد ادعائه كونه محالاً توبيخاً وتهديداً، وأنه- فى نظره- ما ينبغي لموسى أن يأخذ إلهاً غيره. ويمكن - أيضا- أن يحمل على غرض التجاهل. إشعاراً منه - قاتله الله - بأنه لا يعلم أحدٌ منهم بإيمانه بإله غيره، وأنه لا يأبه به. والله أعلم.

٢٢- قال تعالى: "وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ" (العنكبوت:١٨)

الشرط مجزوم به، لكن الرسول صلى الله عليه وسلم عندما يخاطبهم يستنكر عليهم تكذيبهم كما علمه ربه، لأن الآيات واضحة على صدقة وبطلان ضلالهم.

٢٣- قال تعالى: "لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً" (الأحزاب:٦٠)

الشرط (لئن لم ينته...) مجزوم به وليس مشكوكاً، لأنهم لا يبرحون يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه. وأظهر فى صورة المشكوك فيه توبيخاً لهم وزجراً.

وما أشد هذا القول تأثيراً فيمن يتذوقون طرائق التعبير. وقد كانوا- قاتلهم الله- أهل اللسان.

٢٤- قال تعالى: "وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ" (فاطر:٤) والآية في سياق ما ذكرنا.

٢٥- قال تعالى: "وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ" (فاطر:٢٥) وهي مثل سابقتها.

٢٦- قال تعالى: "قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ" (يس:١٨)

فالشرط (إن لم تنتهوا) مجزوم به لأن المرسلين والمؤمنين هم لا ينثنون عن الدعوة إلى الله ولا هم يفترون. لكنهم أبرزوا- أى الكافرون- الشرط فى صورة المشكوك على سبيل التأنيب والتوبيخ.

٢٧- قال تعالى: "ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ" (غافر:١٢)

فالشرط وهو إشراكهم بالله محقق مجزوم به من طوائف المعاندين وهم الذين كفروا، وناداهم الله بقوله "قبل ذلك (لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون). وإنما جئ بأداة الشرط (إن) قصداً إلى توبيخهم وتقريعهم على ما كان منهم من الشرك والضلال.

٢٨- قال تعالى: "فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ" (فصلت:١٣)

فالشرط وهو إعراضهم واقع ومستمر بدلالة الحال وكذلك السياق فقد سبقت الآية بقوله تعالى: "قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ" (فصلت:٩) وكان كفرهم بعد تذكيرهم بالآيات والدلالات الواضحة على قدرة الله تعالى مما يستدعى التوبيخ عليه والإزراء به وأن يبرز فى صورة المشكوك فيه ويؤتى بالحرف (إن) لهذا الغرض . ويصح اعتبار الآية من قبيل التجاهل لمسلكهم ، ويساعد على ذلك الالتفات عن خطابهم فى الآيات السابقة إلى ضمير الغيبة فى فعل الشرط (أعرضوا) تجاهلا وإهمالا وعدم اكتراث بهم ، لأن أمثالهم مما ينبغى أن يبعد ويغيب . والله أعلم .

ومن قبيل هذه الآية .

٢٩- قول الله تعالى:"فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ " (الشورى:٤٨)

فالشرط (أعرضوا) كالشرط فى الآية السابقة . ويمكن حمله على التغليب لسبق الآية بدعوة إلى الاستجابة لله تعالى .

٣٠- قال تعالى:"فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ" (محمد:٢٢)

فالشرط وهو توليهم وإعراضهم عن الدعوة للإفساد مجزوم به واقع ، وأظهر فى معرض المشكوك فيه توبيخا لهم . والله أعلم

٣١- قال تعالى:"قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (الجمعة:٦)

الشاهد الشرط الأول (إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس) توبيخا لهم على هذا الافتراء.

٣٢- قال تعالى:"فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبا" (المزمل:١٧)

الشرط جيء معه بإن للتوبيخ . لأن الخطاب للكافرين . ذكر الطبرى ذلك قائلا : يقول تعالى ذكره للمشركين به فكيف تخافون أيها الناس يوما يجعل الولدان شيبا إن كفرتم بالله ولم تصدقوا به [١] " فبكتهم على ذلك ووبخهم.

٣٣- وقال تعالى:"أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى* أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى" (العلق:١٣، ١٤)

فالشرط وهو تكذيب من نزلت فيه الآية (أبو جهل ..) مجزوم به وأظهر فى معرض المشكوك توبيخا له .

٣٤- وقال تعالى:"كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ" (العلق:١٥)

جيء بإن قصدا إلى توبيخه ورميا له بالعمى عن الآيات المشاهدات الدالة على صدق الرسول والكف عن إيذائه . والله أعلم .

٦- ***التغليب*** :

والمراد به أن يغلب غير محقق الاتصاف بالشرط أى المشكوك فيه الذى حقه أن يكون معه (إن) على المتصف به أى المجزوم بوقوع الشرط معه الذى حقه أن تستعمل معه (إذا) . وبمقتضى هذا التغليب يخاطب الجميع بالشرط المصحوب بـ (إن) .

قال السعد :"كما إذا كان القيام قطعى الحصول بالنسبة إلى بعض وغير قطعي بالنسبة إلى آخرين . فتقول للجميع : إن قمتم كان كذا تغليبا لمن لا يقطع بأنهم يقومون أم لا على من حصل لهم القيام قطعا " [٢] وبهذا الاعتبار يصير الجميع كالمشكوك فيه ، لا مشكوكا فيه، لأن الواقع كما هو واضح من المثال أن البعض مشكوك في قيامه ، والبعض مجزوم بقيامه.

وبهذا يندفع توهم أن (إن) فى مثل هذا المثال مستعملة فى موضعها وهو ما يشك فيه، ذلك لأن صيرورة الجميع كالمشكوك فيه أمر تقديري، لكون الواقع حصول الشك فى البعض دون البعض الآخر[٣].

---

(١) تفسير الطبري ١٣٧/٢٩ .

(٢) المطول ١٥٨

(٣) تنظر حاشية الدسوقى = شروح ٤٨/٢

وشواهده ستة عشر شرطا فى ست عشرة آية . وهى كما يأتي:

" توجيه التغليب فى آية البقرة "

١. قال تعالى:"وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (البقرة:٢٣)

ذكر السكاكى فى هذه الآية أنها تحتمل التوبيخ وتحتمل التغليب قال : " وأما قوله : وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا – و – إن كنتم فى ريب من البعث بلفظ (إن) مع المرتابين فإما لقصد التوبيخ على الريبة لاشتمال المقام على ما يقلعها عن أصلها ... وإما لتغليب غير المرتابين ممن خوطبوا على مرتابيهم "[١] وقد تبعه أيضا الخطيب والسعد فى ذلك[٢] وقد وجها التغليب فى الآية كما وجهها السكاكى من تغليب غير المرتابين على المرتابين .

قال السعد : " وقوله تعالى : وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا – بـ (إن) مع المرتابين يحتملهما . أى يحتمل أن يكون للتوبيخ على الارتياب ...... وأن يكون لتغليب غير المرتابين من المخاطبين على المرتابين منهم، لأنه كان فيهم من يعرف الحق وإنما ينكر عنادا فجعل الجميع كأنهم لا ارتياب لهم "[٣]

إشكال فى هذا التوجيه :

وقد أوقع هذا التوجيه الذى ذكره السكاكى وتبعه شارحو المفتاح وتلخيصه فى إشكال. وهو أن تغليب غير المرتابين يقتضى أن يكون الشرط مقطوعا بعدمه لا مشكوكا فيه بحكم التغليب كما هو الشأن فى المثال الذى ذكره السعد :إن قمتم كان كذا، هذه واحدة .

وأخرى أنه يتعذر للخلوص من ذلك تنزيل المجزوم بعدمه منزلة المشكوك فيه. بأن يقال :نزل المقطوع بعدمه منزلة المحال ثم نزل هذا المحال منزلة المشكوك فيه. لأن المتعارف تنزيل المتيقن منزلة المحال ثم ينزل منزلة المشكوك فيه على سبيل الفرض والتقدير كما فى قوله تعالى :(إن كنتم مسرفين) عند إرادة التوبيخ[٤]

---

(١) مفتاح العلوم ١٣٠ ، ١٣١

(٢) ينظر التلخيص والإيضاح ومختصر السعد = شروح ٢/ ٤٨ وما بعدها والمطول ١٥٨

(٣) المطول ١٥٨

(٤) ينظر حاشية عبد الحكيم = فيض الفتاح ٣ / ٦٤

قال السيد:"اللازم من توجيه التغليب على التقدير السابق كون الشرط مقطوعا بعدمه، لا كونه محالا يستلزم القطع بعدمه حتى يجاب بما مر من تنزيل المحال منزلة مالا قطع بعدمه. فتعين أن يقرر التغليب على وجه يصير به الشرط مشكوكا كما قرره فى المثال المذكور أعنى قوله :إن قمتم" (١)

منشأ الإشكال توهم فى إدراك الشك :

ويبدو أن الذى أوقع السكاكى فى جعل الآية من قبيل التغليب ثم ما تبعه من وقوع فى الإشكال السابق هو نوع من اللبس أشار إليه البهاء السبكى رحمه الله ولم يلتف إليه غيره قال :"وأغلب ظنى أن الوهم سرى لهم من أن الريب هو الشك. وأن الذهن زاغ عن الريب الذى يطلبه (إن) وهو ريب الإنسان المتكلم – إلى الريب الذى هو فعل الشرط ...." (٢)

ولا مخلص من هذا الإشكال إلا بأحد أمرين :

الأول : ألا تعتبر الآية من قبيل التغليب . ويساعد على ذلك إشارة البهاء السبكى إلى سبب اللبس والخلط بين الشكين .

الثانى : ما تخلص به السعد عن طريق تفسير معنى المغلب، والمغلب عليه ، بحيث يؤول المعنى إلى التغليب القائم على تحقق الشك المناسب له (إن) دون أن يؤول إلى معنى الجزم بعدم وقوع الشرط، الذى يبعد معه فرض المجزوم بعدمه مستحيلا.

قال السعد : " ولا محيص عن هذا الإشكال إلا بأن يقال : غلب على المرتابين قطعا غير المرتابين قطعا ، أعنى الذين لا قطع بارتيابهم ، ممن يجوز منهم الارتياب وعدمه ، ويكون معنى الكلام : أو لتغليب غير المقطوع باتصافه بالشرط على المقطوع به كما أشرنا إليه فى المثال المذكور ثمة"(٣) ، على أن فيه ما فيه ! ذلك لأن مقام الآية وهو التحدى ينافى التغليب لغير المقطوع باتصافه على المقطوع به.

ومما هو من قبيل آية البقرة الآية الآتية وقد مثل بها – أيضا – السكاكى فى نصه السابق كما مثلت بها فى أمثلة التوبيخ :

٢. قال تعالى:"يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ .. " (الحج:٥)

---

(١) حاشية السيد على المطول ١٥٨

(٢) عروس الافراح = شروح ٢/ ٥٠ .

(٣) المطول ١٥٨

٣. وقال تعالى:"مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ" (آل عمران:١٧٩)

فالشرط (وإن تؤمنوا) جاء بـ (إن) تغليبا لمن يشك فى إيمانهم مع التقوى على من لا يشك فيهم ويساعد على ذلك إشارة الآية إلى ميز الخبيث من الطيب. والله أعلم.

٤. قال تعالى:"لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ" (آل عمران:١٨٦)

فالشرط فى الآية (وإن تصبروا وتتقوا) غلب فيه جانب المشكوك فيه على غير المشكوك فيه . ومن هذا القبيل:

٥. قوله تعالى:"إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيماً" (النساء:٣١)

٦. وقوله تعالى:"مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً" (النساء:١٤٧)

ويبدو أن الخطاب لبنى آدم جميعا ويساعد على ذلك عدم اتفاقهم على نوع المخاطبين قال أبو حيان:" الخطاب قيل للمؤمنين وقيل للكافرين.." [(١)] وعلى هذا مجيء (إن) للتغليب.

٧. وقوله تعالى:"وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ" (المائدة:١٢)

والشاهد فى (لئن أقمتم الصلاة..) حيث غلب المشكوك فيه.

٨. وقوله تعالى:"وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ" (لأعراف:٨٥)

---

(١) البحر المحيط ٣٨١/٣

فالشرط (إن كنتم مؤمنين) مجزوم به بالنسبة لبعض المخاطبين مشكوك فيه بالنسبة للبعض الآخر. فغلب جانب المشكوك في إيمانهم وتصديقهم على جانب المجزوم به وأتى (بإن). وقد جاء عن أبي حيان ما يدل على أن (إن) هنا مستعمل فى موضعه وأن المخاطبين لم يؤمنوا. لكن الأمر على خلاف ما ذهب إليه. قال:" وظاهر قوله: إن كنتم مؤمنين أنهم كانوا كافرين، وعلى ذلك يدل صدر الآية وآخر القصة.." [١] أما وجه كون الأمر على خلاف ما ظن فلأن آخر القصة يدل على أن منهم مؤمنين به، فقد قالوا له:"قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ" (الأعراف:٨٨)

وهذا واضح الدلالة على إيمان بعضهم، وقد اعترف به أبو حيان نفسه عند تفسيره قول الله تعالى:"وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ" (الأعراف:٨٧) فقد قال:" إنه – أى شعيب– قد آمن به طائفة بدليل قول المستكبرين عن الإيمان: لنخرجنك " [٢] وعلى هذا يخلص هذا الموضع لشواهد وضع (إن) فى المجزوم به للتغليب.

٩. قال تعالى:"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ" (التوبة:٢٨)

فالشرط فى الآية هو خوف العيلة والفقر وقع فى نفوس بعض المؤمنين عند النهى عن دخلوهم المسجد الحرام. ووثق الكثير فى فضل الله تعالى. ولعمرى إنها لحالة دائمة تصاحب بعض المسلمين، فهم يخافون من قطع دابر الكافرين ومنعهم من العثو فسادا فى ديارهم، خوفا من الموارد وحركة الاقتصاد، ولبئس ما يظنون.

وقد غلب جانب المشكوك فى كونهم يثقون فى فضل الله على جانب المتيقنين الموثوق بإيمانهم. ويمكن حمل الآية على معنى التوبيخ على ما كان منهم من خوف لوجود الإيمان فى قلوبهم.

١٠. قال تعالى:"لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ *فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) (التوبة: ١٢٨، ١٢٩)

---

(١) البحر المحيط ٣٣٧/٤

(٢) البحر المحيط ٣٤٠/٤

فالشرط (فَإِنْ تَوَلَّوْا) غلب فيه المشكوك فى توليهم على المجزوم بتــوليهم لأن منهم من يملكهم العنت والعناد.

١١. قال تعالى:"وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّــي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ" (الشعراء: ٢١٥، ٢١٦)

فالشرط (فإن عصوك) على سبيل التغليب.

١٢. قال تعالى:"وَمِنْ آيَاتِه اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلــشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّه الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ" (فصلت:٣٧)

فقد غلب جانب المشكوك فى إفراده الله بالعبودية على المتيقن توحيده الله.

١٣. قال تعالى:"رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ" (الدخان:٧)

فقد غلب المشكوك فيه على غير المشكوك فيه. وللزمخشرى كلام عند تفسيره الآية يفهم أن الشرط مجزوم به. كما يفهم فى قوله تعالى بعد الآية المذكورة (بل هم فى شك يلعبون) أن الشك منهم مجزوم به وأن إقرارهم لم يكن صادرا عن علم ويقين، مع أن الآيتين في سياق واحد. [١] ولذا اخترت اعتبار التغليب نظرا لكون الخطاب للناس جميعا. والله أعلم.

١٤. قال تعالى:"إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ" (محمد:٣٦)

١٥. قال تعالى:"هَا أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّه فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَــنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِه وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْــرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ" (محمد:٣٨)

فالشرط (وإن تتولوا) غلب فيه المشكوك في توليه على المتيقن منــه وســياق الآية يدل على قصد الفريقين.

١٦. قال تعالى:"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَــدَيْ نَجْــوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ" (المجادلة:١٢)

الشرط (فإن لم تجدوا) فيه تغليب أيضا كالآيات السابقة. أى تغليب من يشك في عدم مقدرته على من يوثق في قدرته على الوجدان. والله أعلم.

---

(١) ينظر الكشاف ٣/٥٠١

الموضع الثالث: مجيء الشرط بلفظ الماضي

عند حديثي في الفصل السابق عن حتمية كون الشرط بمعنى الحال أو الاستقبال بحكم ما يقتضيه التعليق وكونه على خطر الوقوع، وليس واقعا بالفعل، قلت إن الشرط لا يكون ماضيا في المعنى، لكن قد يخالف لفظه معناه فيأتي بلفظ الماضي وذلك لنكتة وأشرت إلى أن موضع ذلك سيكون هنا مع (إن) [١]

والناظر فيما قاله البلاغيون يلحظ أنهم ذكروا نكات لمجيء الشرط بلفظ الماضي مع إشارتهم إلى أنه قد يأتي ماضيا في المعنى مع (كان) أو (إن) التى للربط أو يكون ماضيا في أمثلة قليلة. [٢]

على أن تتبع الأمثلة والشواهد في القرآن الكريم يكشف أن أسلوب الشرط لا بد أن يدل على حصول معناه في الحال أو الاستقبال لكي يصح معنى التعليق الذى هو مفاد معنى الشرطية. فأى مثال لا يعدم هذا المعنى. أى وجود مضمون الشرط في الزمن الحالى عند التكلم أو الاستقبالي بعَد زَمَنِ التكلم، والذى هو مدلول الفعل المضارع. حتى ولو كان الفعل قد أتى بلفظ الماضي. ويدخل في ذلك- أيضا- ما مثل به البلاغيون لمجيء الشرط ماضيا في المعنى. وفى إطار هذه الحقيقة يلاحظ أن الشروط التى تأتى بلفظ الماضي تتنوع إلى نوعين:

<u>النوع الأول</u>:

أفعال تدل على وقوع الشرط في الحال مع اتصال هذا الوقوع بالزمن الماضي. أى أن معنى الشرط واقع فى الزمنين أما وقوعه في الزمن الماضي فبدلالة المقام والأحوال، وأما وقوعه في الحال فبدلالة الحال أيضا وبما يقتضيه كونه شرطا. ولكونه واقعا في الزمن الماضي يقع في الوهم كون الشرط ماضيا في المعنى. لكنه وإن دل على معنى الوقوع في الماضي فليس باعتبار كونه شرطا، ولكن من حيث كونه كان قد وقع قبل الاشتراط ثم لما صار شرطا اقتضى استمرار هذا الوقوع واتصاله بالحال بمقتضى التعليق. وأكثر أمثلة هذا النوع ما كان فيها فعل الشرط لفظ (كان) ويتجلى ذلك في الآيات الآتية:

١. قال تعالى: "وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (البقرة:٢٣)

---

(١) تنظر ص ٦٠ وما بعدها.

(٢) ينظر المطول ١٦٣ وشروح التلخيص ٦٥/٢ وما بعدها.

فالشرط في الآية (كنتم...) جاء بفظ الماضى وهو فعل الكينونة، وهو يفيد وقوع الريب في الزمن الماضى واستمراره إلى أن يتصل بزمن الخطاب، لأن طلب الإتيان بسورة وتحديهم ليس لكونهم ارتابوا في الزمن الماضى ثم انقطع هذا الريب، وإنما لاستمراره أيضا إلى أن تحداهم القرآن الكريم. وجعل شرطا في هذا التحدى.

ويلاحظ أن ابن يعقوب يقرر مجيء الشرط ماضيا مستشهدا بهذه الآية، لكنه لا يلبث أن يعترف بدلالته على الوقوع في الحال فيقول:" وقد تستعمل – أى إن– في غير ذلك الأصل فتدخل على الماضى حقيقة، ويقاس دخولها على الماضى إن كان الفعل الذى دخلت عليه (كان) وذلك كما في قوله تعالى: (وإن كنتم في ريب) (وإن كنتم في شك) كما تقدم. ولا يقال: إن كان المعنى. إن يتبين منكم أنكم مرتابون قبل فافعلوا كذا فهو تعليق على مستقبل. وإن كان المعنى إن حصل منكم الريب فافعلوا كذا، كما هو في الظاهر لزم تعليق مستقبل على ماض وهو غير صحيح، لأنا نقول: لا مانع من تعليق مستقبل على ماض.... ثم يقول في معرض بيان عدم اللزوم في الزمن: فالتقدير إن حصل منكم ريب فيما مضى يعنى واستمر إلى وقت الخطاب فأنتم مطالبون بما يزيله وهو طلبكم المعارضة المفيدة لعجزكم. وإنما قلنا: يعنى واستمر للعلم بأن من أمر يطلب المعارضة هو المرتاب في الحين لا الذى سبق منه الريب وهو الآن مؤمن فليفهم" [(١)]

والفهم الذى يطلبه ابن يعقوب يدل على حتمية دلالة الشرط وإن كان بلفظ الماضى على حلية معناه أو استقباليته باعتبار كونه شرطا وإن أفاد امتداد وقوع معناه في الزمن الماضى. وهو ما أذهب إليه من حتمية القصد إلى معنى المضارع لكونه شرطا. ونظير هذه الآية أيضا .

٢. قوله تعالى:"يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (الحج:٥)

٣. قال تعالى:"وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (البقرة:١١١)

فالشرط هنا يفيد الوقوع والحصول وقت التكلم وتحديهم بإثبات البرهان.

---

(١) مواهب الفتاح = شروح ٥٩/٢

٤. قال تعالى: "وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ" (البقرة:٢٤٨)

فشرط إيمانهم مراد به الحال، ولا ينظر إلى كونه في الماضي باعتبار كونه شرطا، لأنهم على فرض إيمانهم في الماضي دون الحال فلن يكون ذلك شرطا في كون ما يرونه آية لهم.

٥. قال تعالى "قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ" (آل عمران: ٣١)

فقد علق اتباعهم للرسول على كونهم محبين له في الحال. ولا يتصور تعليقه بحبهم إياه في الزمن الماضي وانقطاع هذا الحب منهم لله تعالى وقت التعليق.

٦. قال تعالى: "وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ" (آل عمران: ١٣٩)

فارتباط علوهم والأمر بعدم وهنهم وحزنهم بكونهم مؤمنين في زمن الخطاب، لا بكونهم مؤمنين في الزمن الماضي ثم زال هذا الإيمان.

٧. وقال تعالى في بيان المحرمات: "حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً" (النساء:٢٣)

وكون المعنى لم تدخلوا بهن حال رغبة النكاح واضح لا يخفى. لا كونه كان في الماضي دون وقت الرغبة.

٨. قال تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلا جُنُباً إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً" (النساء:٤٣)

المعنى وإن تكونوا حال رغبتكم الطهارة مرضى لا كون هذا المرض في الزمن الماضي ثم حصل الشفاء وبعده أردتم الطهارة. ومما هو واضح الدلالة على كون المعنى معنى الحال المتصل بالماضي الآيات الآتية.

٩. قال تعالى: "الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ" (النور: ٢)

فـ (كان) هنا تدل على وقوع الإيمان في حال إقامة الحد وحثهم عليه. ويدل على ذلك أيضا خبرها الذى هو (تؤمنون) فقد جاء بصيغة المضارع.

١٠. وقال تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً *وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً" (الأحزاب: ٢٨/، ٢٩)

واضح أن إعطاء زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم المتعة والمثوبة تكون على إرادتهن الواقعة وقت الخطاب وبدلالة صيغة الفعل المضارع (تردن) أيضا.

ومن أمثلة مجيء الفعل ماضيا مرادا به الحال مع اتصاله بالماضى أيضا وليس الفعل (كان) ما يأتى:

١١. قال تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ" (التوبة: ٢٣)

فالمراد يستحبون حال النهى، وأنهم استمروا على حبهم السابق له إذ لا مانع مع مولاة من استحبوا في الزمن الماضي ثم امتلأت قلوبهم إيمانا.

١٢. قال تعالى: "وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ" (يونس: ٤١) أى وإن يكذبوك مستمرين على تكذيبهم الماضى ففاصلهم واتركهم.

١٣. قال تعالى: "فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ" (النحل: ٨٢)

المعنى – والله أعلم– فإن يتولوا مستمرين على حالهم فليس عليك الهداية وإنما عليك البلاغ.

١٤. وقال تعالى: "ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً" (الأحزاب: ٥)

المعنى فإن لم تعلموا آباءهم الآن وقبل ذلك فليس يعقل انتفاء علمهم وقت الخطاب ووجوده قبله، كما أنهم لو لم يعلموا آباءهم في الماضى ثم علموا آباءهم وقت خطابهم وفى المستقبل لما أمروا أن يدعوهم بأنهم مواليهم.

١٥. وقال تعالى:"يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً" (الأحزاب:٣٢)

المعنى – والله أعلم– إن اتقيتن الآن تقوى موصولة بتقواكم المعهودة منكم، وليس المراد التقوى في الزمن الماضي فقط. كما يدل المقام على امتداد هذه التقوى في الزمن الماضي.

من هذه الشواهد السابقة يتبين أن هذا النوع يؤول فيه الفعل المضارع مع دلالة المقام على وقوع مدلوله– أيضا فى الزمن الماضى– ولوجود هذه الدلالة لصيغة الفعل على المعنى الواقع في الزمن الماضى يمكن أن يقال إنَّ الفعل قد بقى على لفظه ثم غير معناه إلى الاستقبال والحال بحكم كونه شرطا. ويتساوى في ذلك ما إذا كان الفعل لفظ (كان) أو فعلا آخر. وإن كان المبرد ذهب إلى اعتبار الشرط بـ (كان) دالا على المضى. كما حكاه عنه السعد قائلا عند حديثة عن قوله تعالى:"وإن كنتم في ريب.." : "زعم الكوفيون أن (إن) هنا بمعنى (إذ) وقد نص المبرد والزجاج على أن (إن) لا تقلب (كان) إلى معنى الاستقبال، وذكر كثير من النحاة أنه إذا أريد إبقاء معنى الماضى مع (إن) جعل الشرط لفظ كان.." [(١)]

النوع الثاني:

أفعال تدل على وقوع الشرط في الاستقبال بقرائن المقام والسياق. وهذا النوع هو الذى يبحث فيه عن النكتة والغرض من مجيء فعل الشرط بلفظ الماضى عند العدول عن لفظ المضارع.

فمن أمثلة هذا النوع مع بقاء لفظه على صيغة المضارع ما يأتى:

١. قال تعالى:"سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ" (الأعراف:١٤٦)

فمقام الآية وسياقها يدل على أن المراد بالشرط هنا الاستقبال وليس مقصودا به الوقوع في الزمن الماضى حتى ولو كان موجودا فعلا لأن الآية تتحدث عما سيكون لهؤلاء المعاندين من صرف الله لهم وبالطبع على قلوبهم وحصول ما يترتب على ذلك من معانى الشروط الثلاثة المذكورة. والسياق يساعد على ذلك أيضا فالسين في

---

(١) المطول ١٥٨

سأصرف تدل على استقبالية وقوع الصرف وما يترتب عليه بمعنى إنفاذه فيهم ووقوعه منهم. والله أعلم.

٢. قال تعالى:"يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ" (التوبة:٩٦)

فالشرط (ترضوا عنهم) مراد به الوقوع في الاستقبال لأن الآية في معرض النهي عن رضى المؤمنين عن المنافقين إذا جاءوا يحلفون لرسول الله وأصحابه ويعتذرون عن تخلفهم عن القتال وخروجهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

٣. قال تعالى:"قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ" (هود:٤٧)

فالشرط وهو المغفرة مدلوله في المستقبل ووقوعه بعد السؤال.

٤. قال تعالى:"وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ" (إبراهيم:٨)

فالشرط هنا وهو كفر بني إسرائيل ومن في الأرض جميعا مدلوله استقبالي وليس له صلة بالوقوع في الزمن الماضي كما في النوع الأول. ولا يقال إن الكفر هنا متصل بما وقع منهم في الماضي لأنا نقول: إن الكفر هنا له خصوصية تدل على أنه لم يقع منهم بعد، لأنه كفر مصحوب بكفر من في الأرض جميعا. ومن ثم كان هذا الشرط مستحيلا عادة وإنما جيء به على سبيل الفرض والتقدير. لضميمة كفر من في الأرض جميعا معهم، والقيد كما هو مقرر له مدخليته في مضمون الشرط، لأن القيد بمثابة جزء الشرط.

٥. قال تعالى:"إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً" (الكهف:٢٠)

فالشرط وهو ظهور أعداء أهل الكهف المخالفين له مرتبط بالاستقبال وليس له صلة بالماضي من جهة كونه امتدادا لوقوعه في الزمن الماضي. وإنما هو أمر متوقع في الزمن الاستقبالي لاستيقاظهم وعزمهم على أن يرسلوا أحدهم إلى المدينة.

٦. قال تعالى:"قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى" (طه:١٢٣)

فمدلول الشرط وهو إتيان الهدى من الله مرتبط بالمستقبل ولم يحصل قبل الأمر بالهبوط بحيث تصير امتدادا لوقوعه في الزمن الماضي.

٧. قال تعالى: "وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ" (القصص:٥٧)

فالشرط وهو إتباعهم الهدى استقبالى لأنهم لم يهتدوا بعد.

٨. قال تعالى: "يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلاً" (الأحزاب:٢٠)

فالشرط هنا وهو مجيء الكفار بعد الهزيمة مستقبل بدلالة المقام والسياق، من حسبانهم وانتظارهم له. فهو إتيان منهم بعد هزيمة ولم يحصل بعد. ثم هو بعيد.

وخلاصة القول أن هذا النوع يختلف عن النوع الأول من حيث دلالته على وقوع الشرط فى الاستقبال وليس لمدلوله سبق وقوع فى الزمن الماضى. وهذا النوع هو الذى يتسنى فيه اعتبار النكتة من مجيء فعل الشرط بصورة الماضى. ويكتفى فى النوع الأول بإشارته إلى اتصال وقوع الشرط فى الحال بوقوعه فى الاستقبال. أما أمثلة هذا النوع فإن مجيء الشرط بصورة الماضى لابد وأن يكون لنكتة كما يظهر من الأمثلة السابقة ومن شواهد الأغراض التى ستظهر بعد.

فمثلا قول الله تعالى: "هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ" (الأعراف:١٨٩)

جاء الشرط (آتيتنا) بلفظ الماضى والإيتاء لم يتم بعد. فكان مجيء الشرط بلفظ الماضى لنكتة وغرض، وهو إظهار الرغبة فى حصول ذلك لهما. وهكذا كل شرط جيء به بلفظ الماضى وهو خاص بالوقوع فى الاستقبال بدلالة السياق والمقام لابد وأن يكون لنكتة وغرض وراء هذا التغيير.

• المسلك فى تقدير التغيير فى الفعل:

وإذا كان مجيء الشرط بلفظ الماضى يدل على تصرف فى الفعل، لكونه يخالف فيه اللفظ المعنى، فإنه يعرض سؤال عن موضع التصرف فى فعل الشرط والتغيير فيه. أهو تصرف فى لفظ الفعل أم فى معناه؟ ذكر الزركشى فى ذلك عن العلماء تقديرين قائلا: " لا يتعلق –أى الشرط– إلا بمستقبل فإن كان ماضى اللفظ كان مستقبل المعنى كقولك: إن مت على الإسلام دخلت الجنة. ثم للنحاه فيه تقديران:

أحدهما: أن الفعل يغير لفظا لا معنى فكأن الأصل: إن تمت مسلما تدخل الجنة. فغير لفظ المضارع إلى الماضى تتريلا له مترلة المحقق.

والآخر: أنه تغيير معنى، وأن حرف الشرط لما دخل عليه قلب معناه إلى الاستقبال وبقى لفظه على حاله.

والأول أسهل لأن تغيير اللفظ أسهل من تغيير المعنى "[1] ثم ذكر بعد ذلك ما قاله المبرد والجمهور فى فعل الشرط إن كان لفظ (كان).

ما أراه فى هذا التقدير:

والذى أراه فى التقدير هو أن الاعتبار والتقدير الأول من كون التغيير حصل فى لفظ الفعل لا فى معناه يكون فى الشروط التى من النوع الثانى والتى يكون مدلولها استقباليا خالصا دون اتصال الوقوع بالزمن الماضى. لأن الشأن فيها أن تأتى من أول لحظة بلفظ المضارع، ثم لما عرض للمقام من نكتة وغرض غير اللفظ من لفظ المضارع إلى لفظ الماضى كما سيتضح فى نكات المجىء به ماضيا فيما بعد.

أما التقدير الثانى من تغيير معنى الفعل فيكون أنسب بالنوع الأول، وهى الأفعال التى مدلولها واقع فى الزمن الماضى ثم أريد به تعليق أمر على وقوعها أيضا فى الزمن المستقبل، وذلك كما ذكرت فى فعل الشرط إذا جاء بلفظ (كان) غالبا. فيفيد الفعل بطبيعته الدلالة عن طريق قرائن الأحوال على الوقوع فى الزمن الماضى، ثم لما جاء فى سياق الشرط تحول معناه بحكم الشرط إلى معنى الاستقبال. يؤيد ذلك تمسك بعض العلماء ببقاء (كان) على دلالتها على المضى وعدم تغيير الشرط لها. وهذا يدل على أن التغيير عند من قالوا به كان راجعا إلى المعنى دون اللفظ.

• أغراض مجىء الشرط بلفظ الماضى

وقد ذكر البلاغيون الأغراض الآتية لمجىء الشرط بلفظ الماضى. وقد سلكت مسلك اختيار بعض آيات القرآن الكريم التى تكون مفيدة لهذه الأغراض دون زيادة عما ذكره البلاغيون من أغراض.

• الأول: ما هو للوقوع كالواقع:

ذلك عندما يكون الشرط من شأنه الوقوع، فلأجل ذلك يبرز فى صورة الواقع فعلا، بالمجىء به على صورة الماضى. ومن شواهد ذلك ما يأتى:

---

(١) البرهان للزركشى ٣٥٦/٢

١. قال الله تعالى: "أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلأ مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ" (البقرة: ٢٤٦)

فالشرط هنا شأنه أن يقع كما دل سياق الآية بعد ذلك (فلما كتب عليهم القتال) وجيء به بلفظ الماضى (كتب عليكم) إبرازا له فى صورة الواقع فعلا. والله أعلم.

٢. قال تعالى: "لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" (المائدة: ١٧)

٣. وقال تعالى: "وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ" (الأنبياء: ٣٤)

وقد جاء الشرط (مت) بلفظ الماضى إشعارا بتحقق الوقوع.

٤. قال تعالى: "فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ" (الشعراء: ٤١)

فقد أتوا بالشرط بجملة مصدرة بكان – ماضية– إفادة بأن ما هو منتظر وقوعه ومؤكد فى نظرهم كأنه واقع أمام أعينهم عند تمنيهم على فرعون.

٥. قال تعالى: "إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً" (فاطر: ٤١)

فالشرط (زالتا) جاء بلفظ الماضى وهذا فى أحد معنيي تفسير الزوال بأنه فى الآخرة– واقع مؤكد ثم كان مجيء الفعل بصيغة الماضى إظهارا لما هو للوقوع فى صورة الواقع فعلا. وكذلك يجرى أيضا فى اعتبار الزوال فى الدنيا على سبيل الفرض والتقدير اعتباره من إحضار صورة ما هو على سبيل الفرض كأنه واقع فعلا.

٦. قال تعالى: "وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ"(فصلت: ٥٠)

فقد جاء الشرط (أذقناه) بلفظ الماضى إظهارا لما هو للوقوع بدلالة المقام المشتمل على الدعاء والجؤار إلى الله تعالى على وقوعه– فى صورة الواقع فعلا بالإتيان به على صورة الماضى الذى قد وقع فعلا وفرغ منه. والله أعلم.

• **الثاني: إبرازه في معرض الحاصل لقوة الأسباب:**

ومن أسباب مجيء الشرط بلفظ الماضى توفر الأسباب والدواعى لتحققه بحيث يكون الغالب على الظن تحققه" فإن الشيء إذا تقوت أسبابه يعد حاصلا فيعبر عنه بما يبرزه فى صورة الحاصل، بذلك يطابق المقام لما فيه من تأنيس النفس بحصوله والإشعار بأن حكمه حكم الواقع ليطيب بذلك وقت المخاطب والمتكلم"[1]

ومن شواهد ذلك فى القرآن الكريم ما يأتى:

١. قال تعالى:"وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِين .فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ.وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ" (البقرة: ١٩١ ، ١٩٢، ١٩٣)

الآيات فيها شروط ثلاثة: الأول (فإن قاتلوكم) وجاء بصورة الماضى لأن أسباب القتال ما أكثرها بين فريقى الإيمان والكفر، والثانى والثالث (فإن انتهوا) – مكررًا – وجاءا بصيغة الماضى لتهيؤ أسباب انتهاء الكافرين من قتالهم وقتلهم والتضييق عليهم، والله أعلم.

٢. وقال تعالى:"الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً" (النساء: ٣٤)

فالشرط وهو (أطعنكم) جاء بلفظ الماضى لوجود الأسباب والدواعى لتحققه من الوعظ والهجر والضرب، كل هذه دوافع وزواجر كافية لتحقيق طاعتهن.

٣. قال تعالى:"قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ" (الأنعام: ١٥٠)

قد جاء الشرط (شهدوا) بلفظ الماضى لأن أسباب شهادتهم مهيأة، من ضلالهم واتباعهم شياطين الكفر، فهم مثلهم فى الضلال.

---

(١) مواهب الفتاح= شروح ٢/ ٦٠

٤. قال تعالى: "وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ" (لأنفال: ٦١)

فلما كان الشرط مسبوقا ببيان الإعداد لهم كان ذلك من أقوى الأسباب التى تدفعهم إلى الجنوح إلى المسالمة خوفا من القوة التي يرونها للمسلمين.

٥. قال تعالى: "فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ" (التوبة: ٥)

فقد سبق الشرط بأسباب تهيىء لوقوعه، لأن حصارهم وقتلهم وأخذهم أسباب لتوبتهم ورجوعهم عن ضلالهم.

٦. قال تعالى: "قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً" (الكهف: ٧٠)

قد جاء فعل الشرط ماضيا (اتبعتنى) لأنه قد تم أخذ المواثيق على موسى وظهور استعداد موسى عليه السلام مما يرغب فيه الرجل الصالح لاتباعه.

٧. قال تعالى: "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ. لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ" (الحشر: ١١,١٢)

الشروط هنا توافر لها ظروف تحققها من خيانتهم ونقضهم المواثيق، فإخراجهم وقتالهم يتبدى للعيان. والله أعلم.

• **الثالث: إظهار الرغبة فى وقوع الشرط:**

ويؤتى بالشرط المتوقع حصوله فى الاستقبال فى صيغة الماضى الدالة على الوقوع من أجل إبراز كونه مرغوبا فيه.

"تأويل وقوعه فى القرآن"

لكن كيف يأتى تعليل هذا الإبراز فى كلام الله تعالى بإظهار الرغبة فى الشروط التى لا يقصد بذكرها حكاية ما قاله غير الله تعالى؟ لقد ذكروا أن المناسب لجلال الله تعالى أن يراد بالرغبة كمال رضاه جل وعلا ثم الإثابة على ذلك على سبيل المجاز، أو لكون القرآن الكريم يجرى على الأسلوب العربى [١]

---

(١) ينظر البنانى والأنبانى على المختصر ٣٨٥/٢

وعلل ابن يعقوب إظهار الرغبة قائلا:" والغرض من إظهار الرغبة إما استدعاء الامتثال أو الإعطاء أو الإعانة على المراد أو نحو ذلك" [1] ، وقال الدسوقى: "معنى إظهار الرغبة فى حقه تعالى إظهار كمال رضاه بإرادة التحصن، فهو مجاز فى لازمه. وقيل: إظهار كون الشيء مرغوبا فيه فى نفس الأمر لا إظهار الرغبة القائمة بالمتكلم، كذا فى الفنرى" [2] ، وعندى أن أولى التأويلات هو ما ذكره الدسوقى عن الفنرى.

ومن شواهد هذا الغرض فى القرآن الكريم ما يأتى:

١. قال الله تعالى:"وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِباً فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ" (البقرة:٢٨٣)

فقد جاء الشرط (فإن آمن) بصيغة الماضى– والله – أعلم إظهارا لكون وجود الأمن بين المؤمنين فى التعامل مرغوب فيه. ويلاحظ أن هذه الرغبة تكون من المدين.

٢. قال تعالى:"وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً" (النساء:٤)

فقد جاء الشرط (طبن) بلفظ الماضى لكون طيب النفس بين الزوجين فى العطاء مرغوب فيه بينهما.

٣. قال تعالى:"وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً" (النساء:١٥)

جاء الشرط (شهدوا) بلفظ الماضى إبرازا لهذه الرغبة فى الإعانة على إظهار فاحشتهن من الأزواج بالشهادة. والله أعلم.

٤. قال تعالى:"وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّاباً رَحِيماً" (النساء:١٦)

فقد جاء الشرط بلفظ الماضى (تابا) إظهارا للرغبة فى توبتهما وإصلاحهما على معنى إثابة الله لهما على ذلك.

---

(١) مواهب الفتاح = شروح ٦٢/٢

(٢) حاشية الدسوقى = شروح ٦٢/٢

٥. قال تعالى: "ولَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرائيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ" (المائدة:١٢)

فقد جاء الشرط (أقمتم الصلاة...) بلفظ الماضى إظهارا للرغبة في وقوعه والإثابة عليه، كما أشارت الآية إلى جزاء ذلك المرغوب فيه.

٦. قال تعالى:"قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ" (الأنعام:٦٣)

فصيغة الشرط (أنجانا) ماضية لإظهار الرغبة، لأن من يكون فى هذا الجو يكون شديد الرغبة فى النجاة وكثير السؤال عن المخلص من شدته. والله أعلم.

٧. قال تعالى:"وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ" (الأنعام:١٠٩)

فقد جاء الشرط (جاءهم) بصيغة الماضى إظهارا لرغبتهم فى ذلك، ويصح أن يستشهد بكون الرغبة قد تكون غير صادقة وإنما إبداؤها على سبيل الادعاء نفاقا وتمويها وتدليلا من هؤلاء المنافقين على ما هم عليه من الضلال، من كونهم حريصين على مجيء الآيات راغبين فيها وأن ما جاءهم لا يكفى، أو أنه ليس آية دالة على صدق الدعوة. بل إن اشتراط مجيء الآية لإيمانهم تجاهل منهم لما هو مشاهد لهم.

٨. قال تعالى:"وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرائيلَ" (لأعراف:١٣٤)

جاء الشرط (كشفت) بلفظ الماضى، لأن حالهم حال الراغب فى كشف هذا الضر الشديد عنهم.

٩. قال تعالى:"هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ" (لأعراف:١٨٩)

فقد رتبوا شكرهم على إيتائهم ما يرغبونه مؤكدين شكرهم على تحققه، لأنهم شديدو الرغبة فيه. لذا جاء الفعل بلفظ الماضى (آتانا) والله أعلم.

١٠. قال تعالى:"وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ" (التوبة:٧٥)

الشرط (آتانا) جاء بلفظ الماضى لرغبته فى ذلك وتمنيه. وما أكثر رغبة المنافقين.

١١. قال تعالى:"هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ" (يونس: ٢٢)

لما كان حالهم حال اليائس البئيس رغبوا فى النجاة وقالوا (أنجيتنا) كأن الشيء الذى يحضرهم هو هذا لا غير.

١٢. قال تعالى:"قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً" (الإسراء: ٦٢)

قد كان إبليس اللعين شديد الرغبة فيما طلب من التأخير فجاء الشرط بصيغة الماضى (أخرتن) لإظهار هذه الرغبة.

١٣. قال تعالى:"وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ" (النور: ٣٣)

قال السعد:"إن أردن تحصنا – جيء بلفظ الماضى دلالة على توفر الرغبة فى إرادهن التحصن" [١]

١٤. قال تعالى"قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ"(القصص: ٢٧)

قال شعيب لموسى عليهما السلام (فإن أتممت) بصيغة الماضى إظهارا لرغبته فى ذلك، ولذلك بين له أنه لا يريد أن يشق عليه بما يرغبه منه، وإنما هو على حسب الوسع والطاقة. والله أعلم.

١٥. قال تعالى:"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ

---

(١) المطول ١٦٣

وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ" (الممتحنة: ١٠)

الشرط (علمتموهن) جاء بلفظ الماضى لكون ذلك مرغوبا فيه، والله أعلم.

* الرابع: التفاؤل:

قد يكون إبراز غير الحاصل فى معرض الحاصل بالإتيان بفعل الشرط ماضيا للتفاؤل، وإيناس النفس بصورته واقعا.

وقد مثل له الخطيب قائلا: "نحو إن ظفرت بحسن العاقبة فهو المرام. ثم يقول السعد: هذا يصح مثالا للتفاؤل وإظهار الرغبة" (١) ولم يحدد ضابطا للمثال مع كل منهما. وقال السيد: "قيل التفاؤل من السامع، وإظهار الرغبة من المتكلم. فعلى هذا فإن قرىء قوله: (إن ظفرتَ) بالخطاب كان أظهر فى التفاؤل من الحكاية على عكس إظهار الرغبة" (٢) وقد جاء عن البهاء السبكى ما يفهم أن التفاؤل وإظهار الرغبة يقعان من المتكلم فى مثل ذلك. قال: "ومنها أن يقصد تفاؤل المتكلم بوقوعه فيعبر عنه بلفظ الماضى، أو لإظهار المتكلم رغبته فى وقوعه، نحو: إن ظفرت بحسن العاقبة فهو المرام" (٣)

على أنه يمكن القول: إن القصد إلى الرغبة أو التفاؤل قد يكون متعلقا بالمتكلم أو بالسامع أو بهما معا. بمعنى أن الشرط لكى يتحقق فيه الغرضان المذكوران أو أحدهما يعتبر فيه كونه مرغوبا فيه أو متفاءلا به، بصرف النظر عن تخصيصه بهذا أو ذاك، ويكون المرجع فى ذلك إلى المقام أو الغرض.

ومن شواهد ذلك فى القرآن الكريم ما يأتى:

١. قال تعالى: "وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً" (النساء: ٦)

فقد جاء الشرط (آنستم) بصيغة الماضى لكى يتفاءل السامعون بتحقق مرغوبهم وهو وصول أبنائهم إلى سن الرشد.

---

(١) المطول على التلخيص ١٦٣

(٢) حاشية السيد على المطول ١٦٤

(٣) عروس الأفراح = شروح ٢/ ٦٠

٢. قال تعالى:"فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوّاً إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ" (التوبة:٨٣)

فقد جاء فعل الشرط (رجعك) ماضيا لإلقاء البشاشة والتفاؤل فى نفس الرسول صلى الله عليه وسلم.

٣. قال تعالى:"وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ" (العنكبوت:١٠)

فقد جاء فعل الشرط بصيغة الماضى وهو (جاء) لكى يتفاءل الرسول بعد الذى كان من الأمر الذى زعزع المنافقين. فالمنافقون فى حال يأس ونفور، والرسول صلى الله عليه وسلم فى حال رضا وتبشير.

٤. قال تعالى:"يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ" (المنافقون:٨)

فقد تفاءلوا برجوعهم إلى المدينة وأظهروه أمام أعينهم فى صوره الأمر الواقع الذى استقر وثبت. والآية شاهد على صحة وقوع التفاؤل من المتكلم أيضا.

* **الخامس: التعريض**:

قد ذكروا معناه: بأن ينسب الفعل إلى واحد ويراد غيره، لدلالة القرائن على أن الفعل لا يقع منه وإنما يقع من المعرض به. [١] ومن شواهده ما يأتى:

١. قال تعالى:"وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ" (البقرة:١٢٠)

فقد جاء فعل الشرط (اتبعت) بصيغة الماضى تعريضا بمن وقع منهم اتباع هذا الهوى فعلا، وهم فريق الكفر جميعا اليهود والنصارى، وبتركهم العلم الذى جاءهم وسيرهم فى أهوائهم، وكذلك مشركو مكة، باتباعهم الهوى والغواية، أو تركهم الرسالة التى جاء بها نبيٌّ منهم.

وقد سها الرازى عن كون التوعد على أمر يكون مظنون الوقوع وليس مستحيلا، فظن أن هذا توعد للرسول صلى الله عليه وسلم مع أنه نَظَّر بآية هى واضحة فى معنى التعريض.

قال:" الآية تدل على أمور: منها أن الذى علم الله منه أنه لا يفعل الشىء يجوز منه أن يتوعده على فعله. فإن فى هذه الصورة علم الله أنه لا يتبع أهواءهم، ومع ذلك

---

(١) ينظر شروح التلخيص ٦٤/٢

فقد توعده عليه. ونظيره قوله:" لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ. وإنما حسن هذا الوعيد لاحتمال أن الصارف له عن ذلك الفعل هو هذا الوعيد. أو هذا الوعيد أحد صوارفه" (١)

ثم كيف يكون فيه احتمال صرف الوعيد عن هذا الفعل كما قال مع أنه قال فى أول كلامه: علم الله منه أنه لا يفعل. وللسبكى كلام جيد يُدْفَعُ به أيضا ما ذكره الرازى جاء فى سياق الحديث عن الآية التى نظر بها الرازى وهي:

٢. قول الله تعالى:"وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ" (الزمر:٦٥)

قال السبكى:"... إن قلت: ما الذى صرف هذا الخطاب عن أن يراد به النبى صلى الله عليه وسلم؟ قلت: لأن الأصل فى (إن) دخلوها على الممكن. والشرك فى حقه صلى الله عليه وسلم مستحيل شرعا، فجعلناه خارجا عن الأصل تتريلا للاستحالة الشرعية مترلة الاستحالة العقلية، ولاسيما الفعل بصيغة الماضى التى لا تستعمل غالبا إلا فى المتوقع" (٢)

وواضح أن إتباع الهوى هو شرك بالله حقيقة خاصة بالنسبة للرسول صلى اله عليه وسلم، وحاشاه.

واضح إذا أن القصد فى الآيتين السابقتين هو التعريض والوعيد فيهما بمقتضى هذا التعريض للمعرض بهم، والله أعلم.

٣. قال تعالى:"قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ" (الأنعام:١٥)

٤. قوله تعالى:"وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ" (يونس:١٥)

فقد جاء الشرط فى كلا الآيتين بلفظ الماضى (عصيت) وذلك تعريضا بهم، لأنهم هم الذين يعصون الله ويحرفون الكلم عن مواضعه، فعرض بهم لكى يدركوا أنهم يستحقون العذاب على معاصيهم فجدير بهم أن يستقيموا ويجيبوا. والله أعلم.

٥. قال تعالى:"وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ" (يونس:١٠٦)

ففى الآية تعريض بمجيء الشرط ماضيا (فعلت) كالآيات السابقة لأنه عليه الصلاة والسلام يستحيل عليه أن يدعو أحدًا غير الله جل وعلا. والله أعلم.

---

(١) تفسير الرازى ٧٠٢/١

(٢) عروس الأفراح = ٦١/٢

الفصل الثالث
أسرار تقييد المسند بـ (إذا)
فى القرآن الكريم

المبحث الأول: الأصل فى استعمال (إذا):

اختلاف العلماء فى موضعها:

تختلف نظرة العلماء فى حدود الأصل الذى تستعمل فيه (إذا) وإن كان أكثر العلماء على أنها تستعمل أصلاً فى المجزوم به دون المظنون ظناً راجحاً أو المشكوك فيه... وقليل يعتبر المظنون ظناً راجحاً موضعاً أصلياً لاستعمال (إذا).

فهم إذا فريقان:

الفريق الأول:

وهم الذين يعتبرون الأصل فى استعمال (إذا) أن يكون مع المجزوم به. وهم الأكثرية من النحويين والبلاغيين.

كلام سيبويه (١٨٨ هـ)

يفيد كلام سيبويه وما أثار من مناقشة مع شيخه الخليل عن سبب جزم الشرط بـ (إذا) كما يجزم بغيرها من أدوات الشرط أن (إذا) لإفادتها الوقت المعلوم ودلالتها على وقوع شرطها لم تجزم الشرط والجزاء. قال: "وسألته- أى الخليل- عن (إذا) ما منعهم أن يجازوا بها؟ فقال: الفعل فى (إذا) بمترلته فى (إذ) إذا قلت: أتذكر إذ تقول، فإذا فيما تستقبل بمترلة (إذ) فيما مضى. ويبين هذا أن (إذا) تجئ وقتاً معلوما. ألا ترى أنك لو قلت: آتيك إذا احمر البسر كان حسنا، ولو قلت: آتيك إن احمر البسر كان قبيحاً فـ (إن) أبداً مبهمة وكذلك حروف الجزاء. و (إذا) توصل بالفعل فالفعل فى و(إذا) بمترلته فى حين. كأنك قلت الحين الذى تأتينى فيه آتيك فيه"[(١)]

فالنحويين يرون أن العلة فى عدم جزم المضارع بعدها "أنها موضوعه لزمن معين واجب الوقوع. والشرط المقتضى للجزم لا يكون إلا فيما يحتمل الوقوع وعدمه"[(٢)]

كلام المبرد (٢٨٥ هـ)

ويسلك المبرد نفس المسلك فى التعليل قائلاً: "وإنما منع (إذا) من أن يجازى لأنها مؤقتة. وحروف الجزاء مبهمة. ألا ترى أنك إذا قلت: إن تأتنى آتك، فأنت لا تدرى أيقع منك إتيان أم لا؟ وكذلك، من أتانى أتيته إنما معناه: إن يأتنى واحد من الناس آته. فإذا قلت: إذا أتيتنى، وجب أن يكون الإتيان معلوماً. ألا ترى إلى قول الله عز وجل: ﴿إِذَا السَّمَاء انفَطَرَتْ﴾ (الإنفطار: ١) و﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ (التكوير: ١) و﴿إِذَا السَّمَاء انشَقَّتْ﴾ (الانشقاق : ١) أن هذا واقع لا محالة. ولا يجوز أن يكون فى موضع هذا (إن) لأن الله عز وجل يعلم"[(٣)]

---

(١) الكتاب ٣/ ٦٠

(٢) الصبان على الأشمونى ٤/ ١٠

(٣) المقتضب ٢/ ٥٤، ٥٥.

كلام ابن الشجري (٥٤٢ هـ):

ويعلل أيضا ابن الشجرى فى أماليه بهذا قائلاً: وإنما لم يجزموا بـه (أى إذا) فى حال السعة كما جزموا بمتى لأنه خالف (إن) من حيث شرطوا أنه فيما لابد من كونه، كقولك: إذا جاء الصيف سافرت، وإذا انصرم الشتاء قفلت: ولا تقـول: إن جـاء الصيف ولا إن انصرم الشتاء، لأن الصيف لابد من مجيئه، والشتاء لابد من انصرامه... فلما خالفت (إذا) (إن) فيما تقتضيه (إن) من الإبهام لم يجزموا بها فى سعة الكلام"[١]

كلام الرضى (٦٨٦ هـ):

وقال الرضى فى شرح الكافية: "والأصل فى استعمال (إذا) أن تكون لزمان من أزمنة المستقبل مختص من بينها بوقوع حدث فيه مقطوع بوقوعه فى اعتقاد المتكلم..... والدليل عليه استعمال (إذا) فى الأغلب الأكثر فى هذا المعنى، نحو: إذا طلعت الشمس. وقوله تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ (التكوير : ١) ولهذا كثـر فى الكتـاب العزيـز استعماله لقطع علام الغيوب سبحانه بالأمور المتوقعة"[٢]

واضح أن أهل اللغة يقول كثير منهم بكون (إذا) تستعمل فى المجزوم بوقوعه، ولأجل فقدان شرطها من الإبهام امتنع الجزم بها. وممن سلك أيضا هذا المسلك أكثـر البلاغيين. فمن كلام أعلامهم ما يأتى:

كلام عبد القاهر الجرجانى (٤٧١ هـ)

قال الإمام عبد القاهر الجرجانى فى سياق حديثه عن النظم، وما ينبغى للمتكلم أن يراعيه من سوق كلامه حسب ما تقتضيه قوانين النحو: "... فيعرف لكل من ذلك موضعه ويجئ به حيث ينبغى له. وينظر فى الحروف التى تشترك فى معنى ثم ينفرد كـل واحد منها بخصوصية فى ذلك المعنى. فيضع كلا من ذلك فى خاص معناه. نحو: أن يجئ بـ (ما) فى نفى الحال، وبـ (لا) إذا أراد نفى الاستقبال، وبـ (إن) فيما يترجح بـين أن يكون وألا يكون، وبـ (إذا) فيما علم أنه كائن"[٣]

كلام السكاكى (٦٢٦ هـ)

قال السكاكى: "وإذا للشرط فى الاستقبال.. والأصل فيها القطـع بوقـوع الشرط كما إذا قلت: إذا طلعت الشمس فإنى أفعل كذا قطعاً. إما تحقيقاً كما فى المثال المضروب أو باعتبار مّا خطابى"[٤]

---

(١) الأمالى الشجرية ٣٣٣/١

(٢) شرح الكافية ١٠٦/٢

(٣) دلائل الإعجاز ٥٥

(٤) مفتاح العلوم ١٣٠

كلام الخطيب (٧٣٩ هـ)

وقال الخطيب فى الإيضاح: "والأصل فى (إذا) أن يكون الشرط فيها مقطوعاً بوقوعه كما تقول: إذا زالت الشمس آتيك....."[١]

كلام العلوى (٧٤٥ هـ)

يقول فى الطراز: "إن الشرطية لا تقع إلا فى المواضع المحتملة المشكوك فيها قال الله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (الأنفال : ٦١) ..... وأما (إذا) فإنها تكون شرطاً فى الأمور الواضحة كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ (الروم : ٣٣) وتقول: إذا طلعت الشمس جئتك. وقال الله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (النساء : ٨٣)[٢]

كلام السعد (٧٩٣ هـ)

يقول فى مختصره على التلخيص: "إن وإذا يشتركان فى الاستقبال بخلاف (لو) ويفترقان بالجزم بالوقوع وعدم الجزم به"[٣] وفى المطول تفصيل ذلك.

كلام الزركشى (٧٩٤ هـ)

يقول فى بيان الفروق بين (إن) و(إذا): "الأول: ألا تدخل– أى إن– إلا على المشكوك. نحو إن جئتنى أكرمتك، ولا يجوز، إن طلعت الشمس آتك، لأن طلوع الشمس متيقن. ثم إن كان المتيقن الوقوع مبهم الوقت جاز، كقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ (الأنبياء : ٣٤) ونظائره، وأما (إذا) فظاهر كلام النحاه يشعر بأنه لا تدخل إلا على المتيقن، وما فى معناه، نحو: إذا طلعت الشمس فأتنى........"[٤]

واضح إذا من آراء هذا الفريق أن مدخول (إذا) المجزوم بوقوعه، ولم يصرحوا بأن المظنون ظناً راجحاً موضع لـ (إذا). بل كلامهم واضح فى كونه موضعاً لـ (إن).

---

(١) الإيضاح ٥٣

(٢) الطراز ٣/٢٩٨، ٢٩٩

(٣) المختصر = شروح ٢/٣٩

(٤) البرهان٤/٢٠٠

الفريق الثانى:

وهم الذين يرون أن المظنون ظناً راجحاً موضع لـ (إذا) كالمجزوم به، فيكون استعمال (إن) فيهما على الأصل. وسأذكر منهم هؤلاء:

كلام ابن مالك (٦٧٢ هـ)

يرى ابن مالك من النحويين أن (إذا) تستعمل مع الشرط المظنون ظناً راجحاً يقول: "ومنها (أى الظروف) إذا للوقت المستقبل مضمنة معنى الشرط غالباً. لكنها لما تيقن كونه. أو رجح بخلاف (إن)..."[١]

كلام أبى حيان (٧٥٤ هـ)

وقال أبو حيان فى معرض تفسيره قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّآلِّينَ﴾ (البقرة : ١٩٨) قال: "وإذا لا تدل على تعين زمانٍ بل تدل على تَيَقن الوجود أو رجحانه"[٢]

كلام البهاء السبكى (٧٧٣ هـ)

ويستعرض البهاء كلام ابن مالك ثم يقرر كونها لا تدخل فى الأصل على المظنون كما ذهب ابن مالك. قال: "وكون (إذا) موضوعة للمجزوم به خلاف ما ذكره ابن مالك وغيره من أنها لما تيقن كونه أرجح. والذى يتلخص أن (إن وإذا) يشتركان فى عدم الدخول على المستحيل إلا لنكتة، نحو: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ (الزخرف : ٨١) وتنفرد (إن) بالمشكوك فيه الموهوم. وتنفرد (إذا) بالمجزوم به. وهل تدخل على المظنون خلاف. لكن قول المصنف أصل (إن) عدم الجزم يدخل فيه الأربع فيرد عليه المستحيل والمظنون. وليس الأصل دخولها عليهما"[٣]

كلام السيد الشريف (٨١٦ هـ)

والعلامة السيد ممن يرون دخول إذا على المظنون والراجح كما تدخل على المتيقن. يقول : "إنه لم يرد بالجزم والقطع فى هذا الموضع معناه الحقيقى. بل أريد ما يعم الاعتقاد الراجح القائم مقام الجزم فى المحاورات . ولذلك كان مظنون الوقوع موقعاً لـ (إذا) دون (إن) فالضابط أن الراجح الوقوع موقع لـ (إذا)..."[٤]

---

(١) تسهيل الفوائد ٩٣

(٢) البحر المحيط ٩٥/٢

(٣) عروس الأفراح = شروح ٤٠/٢

(٤) حاشية السيد على المطول ١٥٤

ومما أخذ برأى السيد ومن معه الشيخ الدسوقى رحمه الله. قال: "تنفرد (إن) بالمشكوك والمتوهم وقوعه وتنفرد (إذا) بالمتيقن والمظنون الوقوع"[1]

ولا مانع ولا حرج فى أن يسلك الشيخ الدسوقى طريق فريق من الفريقين لكن الذى لا ارتضه أن يحمل الدسوقى كلام الخطيب ما لا يحتمله. ويصيره مفيداً دخول (إذا) على المظنون. مع عدم تصريح الخطيب بذلك.

فهو يشرح قول الخطيب فى التلخيص: "وأصل إذا الجزم بوقوعه "قائلاً: "أى جزم المتكلم بوقوعه فى المستقبل بحسب اعتقاده. لأن الشرط مطلقاً مقدر الوقوع فى المستقبل وقوله (أى الخطيب): الجزم بوقوعه. أى أو ظن وقوعه ففيه حذف. أو أن مراده بالجزم الرجحان فيشمل اعتقاد الوقوع أو ظنه"[2] وهذا الكلام واضح فيه الاعتساف وركوب التكلف بتحميل كلام الخطيب ما لا يحتمله.

مناقشة رأى السيد:

واضح أن الفريقين متفقان على كون المجزوم به موضعاً لـ (إذا) لكن اختلافهم فى المظنون ظناً راجحاً. على أنى بعد إمعان النظر لا أرى ما ذهب إليه العلامة السيد ومن وافقوه وذلك لما يأتى:

أولاً: إن نفيهم كون المراد بالجزم معناه الحقيقى وهو القطع بوقوع الشرط وإنما المراد به الاعتقاد الراجح إنما هو احتجاج بمذهبهم على مذهب من قالوا بالمعنى الحقيقى. فقد قيل: المراد بالجزم ظاهره، وقيل: المراد به الرجحان"

والقائل بالأول الفريق الأول، وبالثانى السيد ومن وافقه فلا يحتج السيد بما قاله فى معنى الجزم على كون المظنون محلاً لـ (إذا).

ثانياً: إن فيه بعدا وافتراقا بين الظن الراجح والجزم يدرك عند التنبه وإنعام النظر. ذلك لأن الظن الراجح من واد آخر غير وادى الجزم واليقين، لأن الوادى الذى يناسبه الظن الراجح هو عدم الجزم وليس الجزم. بدليل صدق عدم الجزم بالظن والشك والتوهم، لكن الجزم لا يصدق بالظن الراجح. وهذا ملحظ دقيق كاف فى دفع ما ذهب إليه السيد من جعله الجزم والظن الراجح موضعين لـ (إذا).

---

(١) حاشية الدسوقى = شروح ٣٩/٢

(٢) المرجع السابق الموضع نفسه

ثالثاً: إن البلاغيين قد لحظوا فى أساليب الشرط التى أتى فيها بفعل الـــشرط ماضياً مع (إن) نكتة جعل غير الحاصل فى معرض الحاصل لقوة الأسباب[١]

ومعلوم أن قوة الأسباب تجعل الشرط مظنوناً راجح الوقوع فلو كان المظنون موقعاً لإذا لكان بحثهم فى هذا الموضع عن النكتة فى العدول عن الإتيان بإذا فيه لكونه موضعاً لها إلى الإتيان بـــ (إن) بدلاً عنها. وهذا دليل واضح على أنهم يرون المظنون ظناً راجحاً موضعاً لـــ (إن) دون (إذا). والسيد نفسه قد شاركهم تقرير مسائل هـــذا الموضع[٢].

رابعاً:إن ما ذهب إليه السيد يحتاج إلى شواهد تدل على صحته، وهذا هو ما رد به عبد الحكيم بحث السيد الذى أثبت فيه كون المظنون موضعاً لإذا.

قال عبد الحكيم: "قال قدس سره: ههنا بحث. وهو أنه لم يرد بالجزم..... الخ. قد عرفت فى بيان قوله– أى السعد– فى المعانى المحتملة المشكوكة ما يدل على أن المراد بالجزم معناه الحقيقى وأن لا واسطة بين محل (إن) و(إذا) كما هو الظاهر. فمـــا قالـــه السيد السند من أن المراد بالجزم الرجحان الشامل للظن وأنه واسطة[٣] بين موقع (إن وإذا) فلابد له من شاهد من كلام القوم. وأما قوله: ولذلك كان المظنون موقـــع (إذا) إنما ينم إذا ثبت استعماله فى المظنون على الحقيقة دون التأويل. ودونه خرط القتاد"[٤]

خامساً: إن طبيعة الدلالة على المعنى بإذا تختلف عنها فى (إن) ذلك لأن (إن) تدل على الحث على فعل الشرط لاستحقاق الجزاء، وإنما يحث على ما يحتمـــل عـــدم الوقوع، والذى يدخل فيه المظنون، أما (إذا) فتفيد أن الجزاء التزم فى زمن الشرط ولا معنى لالتزام الشئ فى زمن لا يعلم تحقق الشرط فيه. وإلا لا يكون التزاماً[٥]

ولعل– بما سبق– يتضح أن الأصل فى استعمال (إذا) أن تكون مع المجزوم بـــه ولا يعدل عن هذا إلا لغرض ونكتة.

---

(١) ينظر شروح التلخيص ٦٠/٢ وما بعدها

(٢) تنظر حاشية السيد على المطول ١٦٣، ١٦٤

(٣) قال الشربينى: "وأنه واسطة أى وأن الحال والشأن واسطة الخ وتلك الواسطة هى نادر الوقوع. وليس مرجع الضمير هو الرجحان كما هو ظاهر "فيض المفتاح ٥٤/٣.

(٤) حاشية عبد الحكيم على المطول = فيض الفتاح ٥٤/٣، والقتاد: شجر صلب له شوك كالإبر وخرط الشجر يخرطه انتزع منه الورق اجتذابا. قاموس ٣٧٠/٢

(٥) ينظر البرهان للزركشى ٢٠١/٤، ٢٠٢

وتأسيساً على هذا الأصل بنى العلماء من أصوليين وفقهاء أحكامهم المستنبطة من الآيات القرآنية المشتملة على أساليب الشرط.

فالأصوليون قالوا: إن المشروط بـــ (إن) إذا كان عدما لم يقع الجزاء فى الحال مثل: إن لم أطلقك فأنت طالق، أما اذا كان (بإذا) فإنه يقع فى الحال مثل: إذا لم أطلقت فأنت طالق. فإنها تطلق فى الحال. لمعنى الجزم المستلزم لكون الجزاء ملتزم التحقق مـــع وجود الشرط المحقق(١). وقد فهموا ذلك بناء على كون الأصل فى (إذا) فى وضعها لغة أن تكون مع الشرط المجزوم به المحقق الوقوع.

ومن الاستدلال على المعنى عن طريق هذا الأصل ما نلاحظه فى الآيات الآتية:

١. قال تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَـضْتُم مِّـنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّـن قَبْلِـهِ لَمِنَ الضَّآلِّينَ﴾ (البقرة : ١٩٨)

فقد استدل العلماء بهذه الآية على وجوب الوقوف بعرفة. وكان اســتدلالهم على ذلك من طريقين:

أولهما: أن وجوب الذكر عند المشعر الحرام توقف على الإفاضة وما لا يـتم الواجب إلا به فهو واجب.

ثانيهما: أن ذكر الإفاضة فى سياق الشرط بإذا الدالة على القطع- فيه دلالة على وجوب الوقوف(٢)

٢. قال تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيِهَا وَيُهْلِكَ الْحَـرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ﴾ (البقرة : ٢٠٤،٢٠٥) فقد ذهب بعض المفسرين إلى أن التولى مقصود به الولاية وتولى شئون الناس(٣)

وقد رجح الإمام الرازى المعنى المشهور وهو التولى والانصراف معللاً ذلك بأنه "أقرب إلى نظم الآية، لأن المقصود بيان نفاقه. وهو أنه عند الحضور يقــول الكـلام الحسن ويظهر المحبة وعند الغيبة يسعى فى إيقاع الفتنة والفساد"(٤)

---

(١) ينظر البرهان للزركشى ٤/٢٠١، ٢٠٢

(٢) ينظر تفسير البيضاوى وحاشية الشهاب ٢/١٩١ وما بعدها

(٣) ينظر البحر المحيط ٢/١١٥

(٤) تفسير الرازى ٢/٢٨٠

وعندى أن وجه القرب إلى النظم راجع لكون (إذا) لما يتيقن، والتولى بمعنى الولاية لا يكون متيقناً ولا حتى راجحاً لجميع الناس. فلو كان المقصود بالتولى الولاية لكانت الأداة المناسبة (إن) دون (إذا)

وهذا ضرب من الاستشهاد بخصائص الألفاظ على المعنى المراد: فيظهر المعنى من الألفاظ والتراكيب بما تحمل من خصوصيات.

وعلى هذا النمط يجرى الاستشهاد على المعنى فى الآية الآتية:

٣. قال تعالى: ﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللّهِ أَوْفُواْ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الأنعام: ١٥٢)

والقول هنا فى قوله (وإذا قلتم...) هل يراد به قول معين؟ قال الرازى: "قال القاضى: وليس الأمر كذلك بل يدخل فيه كل ما يتصل بالقول"[١] لكنه لم يفصح عن كيفية الوصول إلى هذا المعنى ، وقال أبو حيان: "وتخصيصه بالحكم أو بالأمر أو بالشهادة أقوال لا دليل عليها على التخصيص"[٢]

وعندى أن خير التفسير أن يفسر القرآن بالقرآن وخصائص أسلوبه. والأولى أن يستشهد على عمومية القول وعدم تخصيصه بقول معين- بطريق المجئ بأداة الشرط (إذا). ذلك لأن خصوصية القول والقصد إلى نوع معين منه تقتضى الإتيان بـــ (إن) دون (إذا) لأن المناسب للنوع (إن) والمناسب للجنس (إذا) والله أعلم.

٤. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُواْ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (النحل : ١٠١)

وقد استدلوا بهذه الآية الكريمة على وقوع النسخ فى القرآن، سواء كان نسخ القرآن للقرآن أو نسخ القرآن للشرائع السابقة[٣].

ووضوح الاستدلال يعتمد على مجئ (إذا) المفيدة للتيقن والوقوع بخلاف (إن) التى تفيد الشك وبيان إمكان النسخ لا وقوعه. ولذلك كانت دلالة هذه الآية على الوقوع ودلالة قوله تعالى: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (البقرة : ١٠٦) على الإمكان[٤]

---

(١) تفسير الرازى ١٧١/٤

(٢) البحر المحيط ٢٥٣/٤

(٣) ينظر تفسير الرازى ٣٥٣/٥

(٤) بقية أدوات الشرط مثل (إن) فى عدم الجزم. ينظر البنانى = تقرير الإنبابى ٣٥٥/٢

مرجع الجزم بالشرط (اعتقاد المتكلم)

يرجع الجزم بوقوع الشرط الذى هو مناط الإتيان بـ (إذا) معه إلى اعتقاد المتكلم وليس بالنظر إلى اعتقاد المخاطب.

وقد أشار السكاكى بالمثال إلى كون الجزم بالشرط وعدمه بالنظر إلى المتكلم فقد قال عند حديثه عن (إن): "والأصل فيها الخلو عن الجزم بوقوع الشرط. كما يقول القائل: إن تكرمنى أكرمك. وهو لا يعلم أتكرمه أم لا؟ .... ثم قال عن (إذا) والأصل فيها القطع بوقوع الشرط كما إذا قلت: إذا طلعت الشمس فإنى أفعل كذا[1]"

وقد صرح السعد بذلك فى المطول على التلخيص قائلاً: "أصل إن عدم الجزم بوقوع الشرط" فى اعتقاد المتكلم، فلا تقع فى كلام الله تعالى إلّا على طريق الحكاية أو على ضرب من التأويل. و "أصل إذا الجزم" بوقوعه فى اعتقاده"[2]

وإذا كان الجزم يرجع إلى اعتقاد المتكلم عند المجئ بإذا، فإن ذلك يستلزم معرفة أمرين:

الأول: وجه صحة التعليق على الشرط المجزوم به، لكون التعليق يفيد معنى الاحتمال والتوقع الذى ينافى الجزم.

الآخر: معرفة مصدر الدلالة على كون الشرط مجزوماً به عند المتكلم لكى يتهيأ التمييز بين (إذا) عند استعمالها فى موضعها الأصلى وبينها عند استعمالها فى غير موضعها بمجيئنها مع عدم الجزم. وفيما يلى بيان هذين الأمرين:

وجه التعليق على المجزوم به:

قد يظن أن فيه منافاة بين جزم المتكلم بالشرط وإتيانه به على سبيل التعليق الذى يفيد كونه على خطر الوجود فى الاستقبال فيحتمل كونه سيقع أو لا. لكن إدراك الفرق بين الشرط مع (إذا) وبينه مع (إن) يكشف أن الشرط مع (إذا) لا يكون مفاد التعليق معها هو احتمال الوقوع وعدمه. وكان القصد أساساً فى جملة الشرط إفادة معنى الترتب بينهما. لا إفادة كون الجزاء متوقفاً على الشرط- إن وجد وجد معه وإن لم يوجد لم يوجد كما هو شأن الشرط بـ (إن). ولا يبقى للاحتمال مع (إذا) صلة إلا بوقت الشرط لا بوقوع الشرط نفسه.

---

(١) مفتاح العلوم ١٢٩، ١٣٠

(٢) المطول ١٥٤

وقد أشار الإنبابي إلى ذلك دافعاً هذه المنافاة قائلاً: "الجزم بالوقوع بحسب الاعتقاد، والتعليق بحسب نفس الأمر، وحينئذ لا منافاة بين الجزم بالوقوع وفرضه فى المستقبل من حيث إنه يستدعى القول على وجه الاحتمال. ولذلك لا يكذب بانتفاء القيد والمقيد"(١).

لكن لا يسلم له كون الفرض المجزوم به يستدعى الاحتمال الذى يفيده فرض غير المجزوم به. لأن الجزم بالشرط يقتضى انتفاء هذا الاحتمال عند فرضه. ويكون معنى الفرض مع المجزوم به هو ترتب وقوع الجزاء عند وقوع الشرط المجزوم به. وإنما الذى يعتد به فرقاً بينهما فيما ذكره– كون الجزم نظراً لاعتقاد المتكلم والتعليق بحسب الوجود خارجاً. لكنه وجود مجزوم به لا على سبيل الاحتمال الناشئ من فرض غير المجزوم به.

مصدر الدلالة على الجزم بالشرط:

إذا كان الأصل فى (إذا) مجيئها مع الشرط المجزوم به فإنه يتعن معرفة مصدر هذا الجزم ودليله فى أساليب القرآن الكريم. ولا يقال: إن مجرد مجئ الشرط بإذا عن الله تعالى كاف فى الدلالة على كونه مجزوماً به. لأنا نقول: إن أساليب القرآن نزلت بلغة البشر فهى تراعى أحوالهم وعقولهم، فيراعى فى أساليب الشرط ما هم عليه، وكأنها صادرة على لسانهم، وذلك فيما يحكيه الله تعالى. وما يخبرهم به. من أجل هذا لزم البحث عن دليل كون الشرط مجزوماً به، لأن هذا سيفيد فى أمرين:

أولهما: الوصول إلى معرفة نوع منها يكون الإخبار فيها بأمور غيبية لا مجال للشك فيها فيكون الشرط مجزوماً به بهذا الاعتبار بقرائن أحوال المخاطبين المؤمنين بالقرآن الكريم.

ثانيهما: أن معرفة ما يدل على كون الشرط مجزوماً به يساعد على التمييز بين أساليب الشرط التى جاءت فيها (إذا) على الأصل فى استعمالها وبين الأساليب التى جاءت فيها (إذا) على خلاف الأصل، أى مع غير المجزوم به، لإدارك النكتة والغرض من مجيئها فى هذه الأساليب.

وقد تتبعت شواهد الشرط بـ (إذا) فى القرآن الكريم فوجدت أن ما كان الشرط فيها مجزوماً به على ثلاثة أضرب: ضرب يكون مصدر الجزم بالشرط كونه

---

(١) تقرير الإنبابى ٣٥٦/٢

إخباراً من الله تعالى عن أمور غيبية لا يملك المخاطبون بها إلا التصديق والجزم بوقوعها. ولأن مجئ (إذا) معها من أدلة هذا الجزم أيضا. وضرب يكون الشرط فيه من العادات والأحوال التى لا تتخلف فى حياة الناس فيكون مجزوماً به بحكم هذا الوقوع المعلوم لهم. وضرب ثالث يدل فيه المقام والسياق على كون الشرط مجزوماً به لا تردد فيه. لكن هل يتعين المجئ بـ (إذا) عندما يتحقق الجزم بوقوع الشرط فى كل مثال من هذه الأضرب الثلاثة مطلقاً؟ أم أن ثمة معياراً لاعتبار المجزوم به موضعاً لـ (إذا).

الواقع أن فيه معياراً لاعتبار المجزوم به موضعاً لـ (إذا) لذا يتعين البحث عن هذا المعيار قبل استعراض الأضرب الثلاثة للمجزوم به".

معيار اعتبار الجزم موضعاً "لإذا"

ذكرت فى الفصل السابق عند الحديث عن الأصل فى استعمال (إن) من مواضع استعمالها الشرط النادر الوقوع. وبينت ثمة أن النادر نوعان: ما يكون غير مقطوع به بأن يكون راجح العدم على الوجود، وما يكون محقق الوقوع لكنه قليل. فاستحق بسبب هذه القلة أن يكون موضعاً لـ (إن) دون (إذا) على سبيل الأصالة، أو لسعة فى الاستعمال.

والذى يفيده كلام البلاغيين أن الشرط لا يكون موضعاً لـ (إذا) إلا إذا تحقق فيه شرطان هما معيار اعتبار الجزم موضعاً لإذا. الأول: القطع بالوقوع، الثانى: كثرة الوقوع.

ومستند إفادة هذين الأمرين نصوص ثلاثة للزمخشرى والسكاكى والخطيب رحمهم الله تعالى- وعليها بنى البلاغيون بعدهم الكلام فى هذه المسألة.

النص الأول "للزمخشرى":

عند تفسيره قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَـذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللّهُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف : ١٣١)

يقول الزمخشرى: "فإن قلت: كيف قيل: (فإذا جاءهم الحسنة) بـ (إذا) وتعريف الحسنة، (وإن تصبهم سيئة) بـ (إن) وتنكير السيئة؟ قلت: لأن جنس الحسنة وقوعه كالواجب لكثرته واتساعه، وأما السيئة فلا تقع إلا فى الندرة، ولا يقع إلا شئ منها. ومنه قول بعضهم: قد عددت أيام البلاء فهل عددت أيام الرخاء؟"[1]

---

(١) الكشاف ١٠٦/٢

ومفاد كلامه ثلاثة أمور:

الأول: أن السيئة مقطوع بوقوعها مثل الحسنة ولكن استعملت معها (إن) دون (إذا).

الثاني: أن مجئ (إن) مع السيئة المقطوع بها لأنها لا يكثر وقوعها كثرة وقوع الحسنة. ولذلك فأيام الرخاء كثيرة وساعاته مديدة لا يستطيع المرء عدها "وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّـهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ" (إبراهيم: ٣٤)

الثالث: أن المناسب للكثرة والاتساع التعريف الدال على الجنس لإفادة هذا الاتساع. والمناسب للقلة والندرة التنكير.

النص الثاني: "للسكاكى:

فى معرض حديثه عن الأصل فى استعمال (إذا) يقول السكاكى: "قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَـذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللّهُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف : ١٣١)" بلفظ (إذا) فى جانب الحسنة حيث أريدت الحسنة المطلقة لا نوع منها، كما فى قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللّهِ فَمَا لِهَـؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً﴾ (النساء : ٧٨) وفى قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ الله لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ (النساء : ٧٣) لكون حصول الحسنة المطلقة مقطوعاً به كثرة وقوع واتساعاً، ولذلك عرفت ذهاباً إلى كونها معهودة، مع تنكير السيئة، إذ لا تقع إلا فى الندرة بالنسبة للحسنة المطلقة، ولا يقع إلا شئ منها. ولذلك قيل: قد عددت أيام البلاء فهل عددت أيام الرخاء"[1] وهذا النص لا يكاد يختلف عن نص الزمخشرى. فهو يفيد ما يأتى:

أولاً: إنه عند إرادة الجنس يؤتى بإذا. لأن وقوع الجنس متحقق فى ضمن أى فرد من أفراده المنتشرة والمتسعة اتساعاً يوفى بهذا التحقق وهو معنى الإطلاق الذى أشار إليه بقوله: أريدت الحسنة المطلقة أى غير المقيدة بنوع. أما إن أريد النوع فإنه يتعين أن تكون أداة الشرط (إن) لمناسبة تحقق القلة فى الوقوع مع النوع.

---

(١) مفتاح العلوم ١٣٠

ثانياً: إن ظاهر كلام السكاكى يفيد أن الاعتبار ليس للتحقق فقط وإنما للكثرة أيضاً المصاحبة لهذا التحقق. وهذه الكثرة لا تتحقق إلا عند إرادة الجنس- لا عند إرادة النوع. ذلك لأنه لما قال: (أريدت الحسنة المطلقة لا نوع منها) فهم منه أنه يقصد النوع مطلقاً. سواء كان نوعاً ما أو نوعاً معيناً. والفرق بين إرادة نوع ما وبين إرادة نوع معين فى التحقق والوقوع أن إرادة نوع ما يفيد التحقق "لأن القطع بحصول الجنس يفيد القطع بحصول نوع ما أو فرد ما ضرورة أنه لا يحصل إلا فى ضمنه"[1] أما إرادة نوع معين لا تفيد التحقق والوقوع، فقد يقع نوع آخر غيره ولا يقع المعين المقصود.

والفرق بين إرادة نوع ما وبين إرادة الجنس فى كثرة الوقوع لا فى القطع بالوقوع. وذلك لأن إرادة نوع ما يفيد الجزم بالوقوع من حيث كون إرادة الجنس- كما بين- تصدق بإرادة نوع ما فيحصل تحققه بتحقق الجنس، لكن تحققه لا تصاحبه الكثرة التى تصاحب إرادة الجنس، وذلك لأن "وقوع الجنس وتحققه فى ضمن كل نوع على سبيل الشمول والإحاطة. ووقوع نوع ما فى ضمن نوع واحد على سبيل البدل. لأن معنى نوع ما نوع معين فى الواقع مجهول عند السامع"[2] ووقوع النوع سواء كان نوعاً معيناً أو نوعاً ما أقل من وقوع الجنس، فالذى يناسب الجنس الأداة (إذا) والمناسب للنوع الأداة (إن).

ثالثاً: إن الجنسين المتقابلين المتحقق وقوعهما- كالحسنة والسيئة مثلاً- إذا كثر أحدهما عن الآخر واتسع فى الوقوع ناسب ذلك أن يؤتى بـ (إذا) مع الأكثر وقوعاً وبـ (إن) مع الأقل وقوعاً مراعاة لهذه الندرة باعتبار نسبتها إلى الأكثر وقوعاً. واقتضت أيضاً هذه المناسبة تعريف ما يؤتى معه بـ (إذا) لإفادة معنى الإطلاق المفيد للكثرة، وتنكير ما يؤتى معه بـ (إن) لأن التنكير- كما قالوا- يؤذن بمعنى التقليل المناسب فى الجملة لمعنى عدم الجزم[3].

النص الثالث: للخطيب:

قال الخطيب: "قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللّهُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف : ١٣١) أتى فى جانب الحسنة بلفظ (إذا) لأن المراد بالحسنة

(١) المطول ١٥٥

(٢) حاشية عبد الحكيم = فيض الفتاح ٥٥/٣

(٣) ينظر مواهب الفتاح = شروح ٤٢/٢

الحسنة المطلقة التى حصولها مقطوع به. ولذلك عرفت تعريف الجنس. وجوز السكاكى أن يكون تعريفها للعهد، وقال: هذا أقضى لحق البلاغة. وفيه نظر. وأتى فى جانب السيئة بلفظ (إن) لأن السيئة نادرة بالنسبة إلى الحسنة المطلقة ولذلك نكرت"[١].

وكلا الخطيب لا يختلف عن كلا السكاكى فيا أفاده، اللهم إلا فى اعتراضه على تجويز السكاكى كون اللام للعهد. وقد وجه السعد النظر الذى ذكره الخطيب بأن العهد الذى ذكره السكاكى لا يصح، لعدم سبق ذكر الحسنة لا تحقيقاً ولا تقديراً، ولا يسلم ذلك. لأن المراد الحسنة المطلقة المقطوع بها كثرة واتساعاً.

ثم قال: "ويمكن الجواب بأن معنى كونها معهودة أنها عبارة عن حصة معينة من الحسنة وهى الخصب والرخاء، ومعنى كونها مطلقة أن المراد بها مطلق الخصب والرخاء من غير تعيين بعض"[٢] أو أريد بها عهدية الجنس فى الذهن فى ضمن فرد ما دون القصد إلى فرد معين فى الخارج"[٣] وقد وجه البهاء السبكى النظر وأجاب عليه بقوله: "ووجه النظر أنه قرر أن الحسنة مطلقة فكيف يجعلها للعهد وهو ينافى الإطلاق؟ وحمل كلامه على أنه يريد بالمعهود النعمة المطلقة الموجودة فى ضمن الجزئيات فتكون مطلقة وغير مطلقة باعتبارين"[٤] أى إنها باعتبار مطلق وجودها يلحظ فيها هذا المعنى وهو الإطلاق، وباعتبار وجودها فى أفراد المشاهدة الموجودة أمامهم تكون معهودة. ويؤول هذا إلى ما ذكره السعد.

رأى للسبكى:

يذهب السبكى إلى أن مجئ (إذا) و (إن) فى النصوص السابقة يرجع إلى مادة الحسنة المناسبة لها (إذا) ومادة السيئة المناسب لها (إن) دون نظر إلى تعريف أو تنكير. قال: "ذكر– أى الخطيب– قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَـٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف : ١٣١) أتى فى الحسنة بـ (إذا) لأن وقوع مطلق الحسنة مجزوم به. لأن الحسنة أعنى نعم الله تعالى المحبوبة للعباد غالبة على السيئة أعنى ما يسوء

(١) الإيضاح ٥٣

(٢) المطول ١٥٦

(٣) ينظر مواهب الفتاح = شروح ٤١/٢

(٤) عروس الأفراح = شروح ٤٣/٢

الإنسان وأتى فى السيئة بـ (إن) لندروها. هكذا ينبغي أن يقرر، وأما المصنف فإنه قال: "أتى فى جانب الحسنة بإذا لأن المراد الحسنة المطلقة التى حصولها مقطوع به أو كالمقطوع به[1]. ولذلك عرفت تعريف الجنس. وفى جانب السيئة بلفظ (إن) لأن السيئة نادرة بالنسبة إلى الحسنة المطلقة ولذلك نكرت. قلت: قد يقال إن الإطلاق موجود فى الحسنة المعرفة تعريف الجنس وفى السيئة النكرة إلا أن يقال الألف واللام الجنسية تصرف إلى الحقيقة فيكون مطلقاً بخلاف (سيئة) المنكر قد يكون نكرة فى المعنى بأن يكون تنكيره للوحدة. والذى يظهر أن ما ذكره المصنف من الحكمة فى استعمال (إن وإذا) فى موضعهما واضح من غير اعتبار تعريف ولا تنكير.

ثم يقول بعد ذلك مستشهداً على صحة رأية: وجعل المصنف من ذلك ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ (الروم : ٣٦) قلت: وهو يشهد لما قلناه من أن الإتيان بـ (إذا) و(إن) لمادتى الحسنة والسيئة لا لتعريف ولا لتنكير. وإلا ورد عليه ما ذكره بهذه الآية الكريمة. فيحتاج إلى تكلف الجواب بأنه إنما نكر رعاية للفظ الإذاقة المشعر بالقلة[2]. على أنه يذكر بعض الآيات التى ذكرها الخطيب وفيها مجئ إذا مع الطرفين كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ (الروم : ٣٣) دون أن يفسر هذا المجئ ويوفق بينه وبين مدعاه.

مناقشة هذه الآراء:

لعله يمكن القول بأن الآراء السابقة من خلال تطبيقها على الآيات القرآنية لا تفى بالضوابط التى تمثل معياراً دقيقاً تقوم على أساسه الدلالة على الجزم بالشرط إنشاء وتعبيراً، والاستدلال عليه وصفاً وتذوقاً. ذلك لأن الدلالة أو الاستدلال على تحقق الوقوع بإرادة الجنس عن طريق التعريف والمجئ بـ (إذا). وعلى عدم تحقق الوقوع والندرة بإرادة النوع عن طريق التنكير والمجئ بـ (إن) لا يطرد فى جميع الشواهد والأمثلة. لذا فهو لا يسلم مقياساً شاملاً يقوم عليه بناء الأساليب وتفسيرها. ودليل ذلك ما يأتى:

---

(١) لم يذكر الخطيب عبارة: أو كالمقطوع به لا فى التلخيص، ولا فى الإيضاح فهى من عند البهاء السبكى. وقد وقع من الدسوقى أيضاً مثل هذا عندما ذكر حديث الخطيب عن دخول (إذا) على المجزوم به وينظر البحث ص ٢٧٦ وحاشية الدسوقى ٣٩/٢

(٢) عروس الأفراح (شروح) ٤٠/٢ وما بعدها

أولاً: إن دلالة التنكير على عدم القطع بالوقوع لا تتحقق إلا إذا كان المراد بالمنكر نوعاً معيناً مخصوصاً. لأن إرادة نوع ما تفيد القطع بالوقوع من حيث كون إرادة الجنس تصدق بإرادة نوع ما من الأنواع. ذلك "أن عدم التكثر وعدم القطع بالحصول إنما هو فى نوع معين، أو فى فرد معين، وأما فى نوع من الأنواع وفرد من الأفراد كما يدل عليه التنكير فلا. لأن القطع بحصول الجنس يوجب القطع بحصول نوع ما أو فرد ما ضرورة أنه لا يحصل إلا فى ضمنه. فالفرق بين نحو (إذا جاءتهم الحسنة) ونحو (وإن تصبهم سيئة) غير واضح اللهم إلا أن يقصد به نوع مخصوص"[1]. على أن المتبادر من ظاهر التنكير هو مطلق النوعية لا نوع معين مخصوص[2]. وهو ما يتناسب مع اعتبار القطع. وعلى هذا لا يكون التنكير صريحاً فى الدلالة على عدم الجزم بوقوع الشرط المقتضى للمجئ بـ (إن) دون (إذا) كما ذكروا ذلك فى آرائهم. ولو حمل على غير المتبادر وهو إرادة نوع مخصوص لاحتاج القصد إليه إلى ما يرجحه من أدلة وقرائن. وعندئذ تكون الدلالة على عدم القطع ليست راجعة إلى التنكير وحده، ولكن لأدلة أخرى خلاف التنكير.

ثانياً: إنه على فرض عدم التبادر المذكور، ومجئ التنكير لإفادة عدم القطع فإنه يلحظ أن (إذا) كما استعلت مع المعرف المفيد للجنس والتحقق كما فى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَـذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللّهُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف : ١٣١) استعملت أيضاً مع المنكر المفيد للنوع أى لنوع معين على حسب هذا الفرض- كما فى قوله تعالى: "وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ" (الروم : ٣٦) فلو كان ثمة خصوصية لاستعمال (إذا) مع ما يراد به الجنس لجاءت (إن) فى الآية الثانية دون (إذا).

وبهذين الدليلين يبطل- أولاً- اختصاص التنكير بعدم القطع المستلزم مجئ (إن)- وثانياً- اختصاص (إذا) بالمعرف المفيد للجنس الدال على الكثرة دون المنكر المفيد للنوع والدال على القلة.

---

(١) المطول ١٥٥

(٢) تنظر حاشية السيد على المطول ١٥٥

ثالثاً: إن التعريف المفيد للإطلاق المناسب للقطع بوقوع الشرط لم يقتصر على ما يكثر وقوع جنسه بالنسبة لغيره، وإنما جاء أيضاً مع ما يقل وقوعه أيضا بالنسبة لهذا الكثير. فقد جاء مع الحسنة فى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَـذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللّهُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف : ١٣١) وجاء مع السيئة وما هو من قبيلها كالشر والضر وغير ذلك. مثل قوله تعالى: "وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاء عَرِيضٍ" (فصلت : ٥١)

رابعاً: وأبعد مما تقدم فى الحجة أن (إذا) جاءت مع الكثير المنكر والقليل المنكر أيضاً، كما فى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ (الروم : ٣٣) وبهذه الأدلة يندفع الأمران اللذان أفادهما كلام العلماء السابق من مجئ (إذا) مع المعرف المراد به الجنس و(إن) مع المنكر المفيد للنوع ، وكون (إذا) تكون مع ما يكثر و (إن) مع ما يقل على الإطلاق. ويبقى احتياج المسألة إلى ضوابط أخرى تعتبر أساساً يقوم عليه تحديد موضع (إذا) وموضع (إن) فى مثل هذه الأساليب لكون هذا التحديد ليس مرتبطاً بالتعريف والتنكير فقط أو بالكثرة والقلة فقط، وليس بهما معاً، دون اعتبار لما يفرضه المقام والسياق. وهذا ما سأتناوله- إن شاء الله- فيما يلى. على أنى سأجعل مجال دراسة هذه المسألة الآيات المشتملة على الحسنة وما هو من قبيلها، والسيئة وما هو من بابها.

المعيار فى نظرنا:

الاستشهاد بآيات الحسنة والسيئة:

أشرت سلفاً إلى أنى سأجعل المجال لإبراز هذا المعيار الآيات التى جاء فيها فعل الشرط متعلقاً بالحسنة والسيئة وما هو من قبيلهما، كالخير والفضل وكذلك الشر والضر وما إلى ذلك.

علة هذا الاختيار:

ويرجع السبب فى ذلك إلى أمرين:

الأول: كون الحسنة والسيئة من الأمور التى تقع فى حياة الناس جميعاً أفراداً وجماعات. ووقوعهما محقق لا شك فيه. ومن ثم يخلص البحث والنظر للكشف فى السر فى اعتبار هذا التحقق والإتيان بـــ (إذا) فى بعض الآيات. وعدم الاعتداد بهذا التحقق والمجئ بـــ (إن) فى آيات أخرى.

الآخر: كثرة ورودهما فى الآيات القرآنية بأسلوب الشرط وتنوع الأداة معهما. مما يهيئ للباحث الدراسة والمقارنة لعدد كاف من الشواهد للوصول إلى نتائج يمكن الجزم بها وتقعيدها للتطبيق عليها.

أهمية المقام والسياق:

وتتبع هذه الشواهد على تنوع الأداة فيها يكشف عن أهمية المقام والسياق فى اعتبار تحقق الشرط والمجئ معه بـ (إذا) أو عدم اعتباره والمجئ معه بأداة الشرط (إن) ذلك أن إغفال المقام والسياق يعد أمراً معيباً. إذ لا يمكن دون مراعاتهما الوصول إلى أسرار تراكيب الشرط فى القرآن الكريم. وللعلماء رحمهم الله مسلك طيب فى مراعاة ذلك، والتنبيه على أهميتهما معاً. فقد كان الزمخشرى على ذُكْر للمقام عندما أفاد كون وقوع الحسنة كالواجب، وأن السيئة الحال فيها والشأن أن لا تقع إلا قليلاً. وذلك عند تفسيره قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَـٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف : ١٣١). قال: "فإن قلتَ: كيفَ قيل: (فإذا جاءتهم الحسنة) بإذا وتعريف الحسنة (وإن تصبهم سيئة) بإن وتنكير السيئة؟ قلت: لأن جنس الحسنة وقوعه كالواجب لكثرته واتساعه وأما السيئة فلا تقع إلا فى الندرة ولا يقع إلا شئ منها"[١]

وبينما يقول الزمخشرى ذلك يشير ابن المنيّر إلى أهمية السياق عند إدراك السر فيما جاء على خلاف ذلك قائلاً: "وقد ورد ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَـٰذِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللّهِ فَمَا لِهَـٰؤُلاَءِ الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً﴾ (النساء : ٧٨) لم يراع فرق ما بينهما. ولعل بين سياق الآيتين اختلافاً أوجب فى كل واحدة منهما ما ذكر فيه"[٢]

واضح إذا أن للمقام والسياق أهمية عند الرغبة لإدراك السر فى مجئ (إذا) ومجئ (إن) فى الآيات المختلفة.

أثر المقام والسياق فى اعتبار الجزم:

الذى وضح مما قرره العلماء أن وقوع الحسنة والسيئة وما هو من قبيلهما أمر ثابت لا شك فيه. لكنهم جعلوا مدار التفرقة فى استعمال الأداة مع الحسنة والسيئة كثرة الوقوع. والحقيقة التى أقررها أن ذلك لا يكون بمعزل عن المقام والسياق،

---

(١) الكشاف ١٠٦/٢

(٢) الإنصاف على الكشاف لابن المنير ١٠٦/٢

ويتجلى ذلك واضحاً من خلال النظر إلى شواهد هذا الضرب من أساليب الشرط. ذلك لأنه وإن كان الأصل المجئ (بإذا) مع الحسنة إلا أن مما يتبع هذا الأصل أن يكون المقام غير مستدع لمجئ (إن) معها دون (إذا) وذلك عندما لا ينظر إلى تحقق الشرط، ويكون المقصود إفادة ما يترتب على شرطين متقابلين. وهما وقوع الحسنة ووقوع السيئة. والآيات التى جاءت على هذا النحو ما يأتى:

١. قال تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (آل عمران : ١٢٠)

فالقصد– والله أعلم– من ذكر الشرطين بيان ما يترتب عليهما دون نظر إلى تحقق الوقوع أو عدمه، وإن كان الشرطان مما يقع فى حياة الناس، وكذلك الشرط الثانى (إن تصبروا) كما لا ينظر إلى كون المس أكثر وقوعاً من الإصابة. لأن اختلاف الفعلين مع السيئة والحسنة. ليس– والله أعلم– للإشارة إلى التحقق أو عدمه. وإنما جئ بهما لغرض آخر. أشار إليه ابن المنير قائلاً: "يمكن أن يقال: المس أقل تمكناً من الإصابة وكأنه أقل درجاتها. فكأن الكلام– والله أعلم– إن تصبكم الحسنة أدنى إصابة تسؤهم ويحسدوكم عليها، وإن تمكنت الإصابة منكم وانتهى الأمر فيها إلى الحد الذى يرثى الشامت عنده منها فهم لا يرثون لكم، ولا ينفكون عن حسدهم ولا فى هذه الحالة، بل يفرحون ويسرون. والله أعلم"[(١)]

٢. قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللّهِ فَمَا لِهَـؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً﴾ (النساء : ٧٨)

فإصابة الحسنة وإن كان محققاً لجميع الناس إلا إنه لم يراع هذا التحقق لكون المقام مراعى فيه بيان ما يترتب على الحالتين. والله اعلم.

٣. قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدُيرٌ﴾ (الأنعام : ١٧)

قال الرازى: إنه تعالى قدم ذكر إمساس الضر على ذكر إمساس الخير، وذلك تنبيه على أن جميع المضار لابد وأن يحصل عقيبها الخير والسلامة"[(٢)]

---

(١) الإنصاف ٤٥٩/١

(٢) تفسير الرازى ١٨/٤

وهذا عندى ليس بشئ، لأن مقتضاه أن يؤتى بـ (إذا) فى الآية دون (إن). لكنه وإن كان يسلم له ذلك لكنه ليس مقصوداً ، وأفضل منه ما قاله أبو حيان: "ومناسبة تقديم مس الضر على مس الخير ظاهرة، لاتصال بما قبله، وهو الترهيب الدال عليه قل إنى أخاف... وما قبله"[1] فالشرطان قصد بهما بيان ما يترتب عليهما دون نظر إلى تحقق الوقوع.

٤ . قال تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴾ (التوبة : ٥٠)

هذه الآية تشهد أن القصد إلى بيان ما يترتب على الشرط بصرف النظر عن كونه محققاً أو غير محقق، وذلك لأن المقام لهذه الآية يدل على عدم الجزم بتحقق الشرطين، لأن مقام الآية فى بيان ما ينتظر فى الغزو من الظفر والغنيمة، أو المصيبة والهزيمة[2] وفى هذه الآية ما يبطل ما ذهب إليه الرازى فى الآية السابقة.

٥ . قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصَيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (يونس : ١٠٧)

فقد جاء الشرطان– والله أعلم– مع (إن) مع تحقق وقوعهما لأن المقام لبيان ما يترتب عليهما.

وقد أطال المفسرون فى بيان علة الإتيان بالمس مع الضر وبالإرادة مع الخير بكلام لا طائل من ورائه. فقد حمل الزمخشرى ذلك على الإيجاز بذكر المس فى أحدهما والإرادة فى الآخر ليدل بما ذكر على ما ترك[3] أو بأن الخير مراد بالذات أما الضر فلدواع خارجية[4] وللرازى تخليط فى هذه المسألة[5] كما أطال أبو حيان بذكر كلام من سبقوه[6]

والرأى عندى– والله أعلم بمراده– أن الإتيان بالمس مع كشف الضر وبالإرادة مع رد الخير مراعاة لزمن كل منهما. لأن زمن الكشف لا يبدأ إلا بعد المس. أما منع

---

(١) البحر المحيط ٨٨/٤

(٢) ينظر البحر المحيط ٥١/٥ وتفسير أبي السعود ١٤٢/٥

(٣) ينظر الكشاف ٢٥٦/٢

(٤) ينظر تفسير أبي السعود ٣٨٤/٥

(٥) ينظر تفسير الرازى ٣٣/٥

(٦) ينظر البحر المحيط ١٩٦/٥

الخير ورده فيبدأ زمنه الذى يمكن وقوعه فيه عند الإرادة. لذا لا يتأتى أن يقال فى غير القرآن الكريم: وإن يردك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فلا راد لفضله. لأن رد الشئ يكون عند بدء الوقوع لا بعده، والله أعلم.

٦. قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاء بَعْدَ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ (هود: ٩، ١٠)

فالقصد بيان حالتين وما يترتب عليهما، والله أعلم

٧. قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (الحج: ١١)

فالقصد بيان حالتين، كما أن سياق الكلام يساعد على ذلك، لأن قوله تعالى على حرف يشير إلى أن ثمة حالتين تحتملان الوقوع. والله أعلم.

٨. قال تعالى: ﴿لَا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاء الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ (فصلت : ٤٩، ٥٠)

فالشرطان رتب عليهما جزاؤهما، وقد ساعد المقام على إرادة هذا وفهمه منه، والله أعلم بمراده.

وقد تبين من الآيات السابقة كون القصد إفادة ما يترتب على الشرطين المتقابلين عند ذكرهما فى سياق واحد. وإذا كان الأصل فى مجئ السيئة أن يكون بـ (إن) نظرا لقلتها وندرتها فى الوجود بالنسبة للحسنة إلا أن هذا التأصل مرتبط أيضاً بالمقام والسياق. لأنه إن وجد ما يدل على تحقق الوقوع فإن الموضع يكون لأداة الشرط (إذا) دون (إن).

ويتضح أثر المقام فى جعل الموضع لـ (إذا) فيما يأتى:

١. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوساً﴾ (الإسراء : ٨٣)

فمقام الإعراض يستوجب الشر والعقاب له وسياق الآية أيضا يساعد على ذلك ، من مجئ ضمير العظمة (نا) فى أنعمنا ومجئ لفظ المس المشعر بمساس شئ قليل ، وهذا ممكن الوقوع بل محقق أيضاً.

٢. قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاء عَرِيضٍ﴾ (فصلت : ٥١)

فلما كان وقوع الإنعام معلوماً وكان منه النأى والإعراض استوجبت حاله العقاب والإذلال. قال السكاكى: "قوله: وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاء عَرِيضٍ بعد قوله: وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ أى أعرض عن شكر الله، وذهب بنفسه وتكبر وتعظم، فالذى تقتضيه البلاغة أن يكون الضمير فى (مسه) للمعرض المتكبر ويكون لفظ (إذا) للتنبيه على أن مثله يحق أن يكون ابتلاؤه بالشر مقطوعاً به"(١)

ومن دلالة السياق على اعتبار الجزم بوقوع السيئة أن يكون الفعل معها لفظ (مس) الذى يدل على أقل الإصابة، فإنه عندئذ يكون محقق الوقوع مع كثرته، ولذلك تأتى معه (إذا) ولا تأتى معه (إن) إلا فى الأمثلة التى ذكرت لبيان ما يترتب على حالتين متقابلتين.

٣. وقول الله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ * ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ (النحل : ٥٣، ٥٤)

ويدل على الجزم فى الشرطين المذكورين المقام والسياق، ذلك لأن المقام لبيان إفراد الله بالعبودية والقصد إليه فى السراء والضراء. وأن هذا ما ينبغى أن يكون من الإنسان على جميع أحواله. التى تجدد بالنفع تارة وبالضر تارة أخرى.

وسياق الآية يدل على هذا الجزم من المجئ بلفظ (المس) المشعر بالوقوع وكثرته فى حياة الناس، ولكلمة (ثم) فى الكلام قيمة فى هذا المعنى إذ إن نعم الله وجزاءه تتعاور الإنسان وتتناوبه ، فكثيراً ما يكون ظهور النعمة وجلاء الإحساس بها عندما يصيب المرء الضر ثم يلجأ إلى الله فيكشف له هذا الضر فيشعر بنعمة الله تعالى شعوراً جلياً واضحاً. قال أبو السعود: "وفى ذكر المساس المنبئ عن أدنى إصابة وإيراده بالجملة الفعلية المعربة عن الحدوث مع (ثم) الدالة على وقوعه بعد برهة من الدهر، وتحلية الضر بلام الجنس لمساس أدنى ما ينطبق عليه اسم الجنس، مع إيراد النعمة بالجملة الاسمية الدالة على الدوام، والتعبير عن ملابستها للمخاطبين بباء المصاحبة، وإيراد (ما)

---

(١) مفتاح العلوم ١٣١

المنبئة عن العموم مالا يخفى من الجزالة والفخامة. ولعل إيراد (إذا) دون (إن) للتوسل به إلى تحقق وقوع الجواب"[1]. وإن كان مسلك أبي السعود قد يفهم أن (إذا) قد جاءت محل (إن) لغرض إفادة تحقق الجزاء لكن هذا لا يمتنع عند كون (إذا) هنا على أصلها أيضاً. هذا ومما هو واضح من المقام والسياق أن الموضع هنا موضع تحقق الشرط وكثرة وقوعه ، وهو مس الضر وكشفه وما يترتب على المحقق محقق.

٤. قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ (الروم : ٣٣)

فالشرطان فى الآية الكريمة جاءا مع (إذا) لتيقن وقوعهما ويساعد السياق على هذا فى الشرط الأول، ذلك لأن مساس الضر يقع كثيراً فى حياة الناس لتحققه بأدنى إصابة، وكذلك المفعول به وهو لفظ (الناس) فإرادة الجنس يساعد على تحقق الشرط وكثرته بالنسبة لأفراده، لأن مساس الضر للجنس يتحقق بوقوعه لفرد من أفراده فضلاً عن إصابته لكثيرين. وقد دل السياق أيضاً على تحقق الشرط الثانى فقوله: (دعوا ربهم منيبين إليه) يشعر بتحقق إذاقتهم الرحمة لأنهم دعوا، وكان دعاؤهم لربهم الذى هو المتفضل عليهم بجميع النعم، وقد كان مع هذا الدعاء إنابة ورجوع إليه. قال الرازى: "والمتخلص من أنواع الضر خلق كثير بل جميع الناس يكونون قد وقعوا فى ضر ما وتخلصوا منه"[2]

ونظيرها الآيتان:

٥. قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَاداً لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ (الزمر : ٨)

ودلالة المقام والسياق على تحقق الشرطين فى الآية نظير الدلالة فى الآية السابقة.

٦. وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر : ٤٩)

فالذى اقتضى مجئ (إذا) فى الآيتين– والله أعلم– أن الآيات فى معرض بيان حال المعاندين الكافرين الذين اقتضت أحوالهم أن يمسهم الضر وأن يترل بهم العذاب، والسياق بما يدل على الدعاء والتضرع استدعى الإجابة لهم بمقتضى الرحمة والإكرام

---

(١) تفسير أبي السعود ٣٣٩/٦

(٢) تفسير الرازى ٥٢٧/٦

الإلهى فقوله تعالى (دعا ربه) فى الآية الأولى وقوله (دعانا) إشعار بأهم سيجابون بما تدل عليه الربوبية فى الآية الأولى وبما تقتضيه العضمة فى الآية الثانية.

٧. قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (يونس : ١٢)

فسياق الآية يدل علي الجزم، إذ سبقت الآية بآية تتحدث عن استعجال الناس الشر، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (يونس : ١١) فأشارت هذه الآية بـ (إذا) إلى أن وقوعه محقق لهم فلا ينبغي لهم أن يستعجلوه.

٨. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوراً﴾ (الإسراء : ٦٧)

الشرط وهو (مسكم الضر فى البحر) أمر محقق ويقع كثيراً وساعد على ذلك كونه فى البحر. وقد قالوا إن الضر فى البحر هو خوف الغرق وهو لا يسلم منه راكب[١].

٩. قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً ﴾ (المعارج :١٩، ٢٠، ٢١)

فالشرطان فى الآية (مسه الشر) و (مسه الخير) محققا الوقوع كثيراً ، ويساعد السياق على ذلك، لأن الهلع كما فسره القرآن بالشرطين بعده- المنع عند الخير والجزع عند الشر ، والإخبار من الله بوصف الهلع والإخبار عنهم به دليل على تحققه ووقوعه، فناسبه أن يأتى الشرط المفيد هذا الوقوع (بإذا) والله أعلم.

طريقة فى مجئ آيات الحسنة والسيئة:

وقد لاحظت فى أمثلة الشرط المتعلق بالحسنة والسيئة ما يأتى:

أولاً: إن فعل الإصابة سواء تعلق بالحسنة أو السيئة يأتى فى الأكثر مع (إن) ولم أجده مع (إذا) إلا فى آية مع الحسنة وآية مع السيئة. وكان هذا المجئ بعد دلالة السياق دلالة قوية على تحقق الإصابة. ولعل السر فى ذلك- والله أعلم- أنه لما كانت الإصابة أمكن من المس استدعى مجيئها مع (إذا) قوة دلالة السياق على الوقوع ليشير إلى ثباته ثبات العادة الدائمة والمتكررة ليناسب معنى الكثرة المراعى فى اعتبار الجزم موقعاً لـ (إذا).

---

(١) ينظر الكشاف ٤٥٧/٢، وتفسير الرازى ٤١٨/٥ والبحر المحيط ٦٠/٦

فمثال مجيئ (إذا) مع فعل الإصابة المتعلق بالحسنة قول الله تعالى: ﴿ اللَّـهُ الَّـذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاء كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَـرَى الْـوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (الروم : ٤٨)

فقد دل السياق دلالة واضحة على تحقق الشرط (أصاب) لأن إرسال الريـاح بشارة بالخير، وإثارة الرياح للسحاب اطمئنان لهذه البشارة، وجعله كسفاً وطبقـات يخرج منها الودق. كل ذلك هو محض اليقين فى نزول الماء المقارن له إصابة عباده به، وقد زاد هذا التأكيد والتحقق قوله تعالى: "(من عباده) فهو محقق لا شك فيه لبعض عباده.

ومثال مجيئها مع فعل الإصابة المتعلق بالسيئة قول الله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّـذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّـا إِلَيْهِ رَاجِعونَ ﴾ (البقرة: ١٥٥، ١٥٦)

فالشرط وهو (أصابتهم مصيبة) محقق وقد دل السياق على ذلك دلالة واضحة، فقد أخبر الله تعالى بابتلائهم بالمصائب ثم قدم لهم البشرى على الصبر وليس ثمة صـبر إلا على مصيبة وقعت أو ستقع، فهذه حالهم الدائمة. والله أعلم.

ثانياً: كما لاحظت أن فعل الإذاقة لم يأت إلا مع الرحمة ولما كانت إذاقة الرحمة لعباده أمراً محققاً ثابتاً ويكثر وقوعه بل كل ما يتعلق بالحياة فضل من الله ورحمـة كانـت الأداة المستعملة معها (إذا) دون (إن) ولم تأت (إن) مع فعل الإذاقة إلا فى شاهد واحـد ذكرته فى أمثلة النوع الذى يأتى منه بـ (إن) عند القصد لبيان ما يترتب على شرطين من جزاء دون نظر إلى معنى الجزم أو عدمه.

وهذا الشاهد هو قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّـهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاء بَعْدَ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ (هود: ٩، ١٠) كما يلحظ أيضاً الإشارة إلى نوعية الحسنة والرحمـة المذاقـة، ووقوع النوع يكون أقل من وقوع الجنس لذا كان المناسب للشرط فى الآيتين الأداة (إن) للاعتبارين: القصد إلى بيان ما يترتب على الشرطين دون نظر إلى الجزم، وكذلك النظـر إلى نوعية الرحمة والنعمة المدلول عليها بلفظ الإذاقة فى الآيتين والله أعلم.

خلاصة:

ويمكن تلخيص ما سبق فيما يأتى:

١. إن المجيئ بـ (إذا) عندما يكون الشرط محقق الوقوع ومع التحقق الكثرة كآيات الحسنة والرحمة وما هو من هذا القبيل.

٢. إن ثبوت التحقق والكثرة ليس ملزماً للمجئ بـ (إذا) لأنه قد يقتضى المقام المجئ بـ (إن) دون (إذا) مع الحسنة لكون الغرض بيان ما يترتب على شرطين وحالين مختلفين دون نظر إلى الجزم والكثرة. كما بينته بالأمثلة.

٣. إن الشأن فيما يقل وقوعه أن تكون الأداة معه (إن) كما فى أفعال الشرط المتعلقة بالسيئة وما هو من قبيلها. فإن وقوعها محقق لكنه قليل. لذا اختصت بـ (إن) دون (إذا).

٤. إنه قد يتعين المجئ مع قليل الوقوع بـ (إذا) وذلك عندما توجد من القرائن الدالة على وقوع الشرط من المقام السابق فيصير لأجل ذلك موضعاً لـ (إذا) دون (إن).

٥. إن ثمة أفعالاً لها خصوصية بنوع ما يتعلق به. وذلك كفعل الإذاقة فإنه لم يأت إلا مع الرحمة والحسنة. ثم كان مجيئه مع (إذا) ولم يأت مع (إن) إلا فى موضع واحد كان القصد فيه بيان ما يترتب على حالتين مختلفتين.

٦. إن فعل الإصابة لم يأت إلا مع (إن) غالباً وأتى قليلاً مع (إذا) وذلك بمعونة السياق. ولعل ذلك لكون الإصابة تشعر بمعنى التمكن أكثر من المس فكانت مظنة الوقوع لا محققة الوقوع، بخلاف المس الذى جاء مع (إذا) كثيراً.

وثمرة ما سبق أن الاعتبار فى اصطفاء الأداة لا يتوقف على كون الشرط مجزوماً به كثير الوقوع فقط، وإنما لابد من مراعاة المقام ودلالات السياق. ويدخل فى إطار السياق ما يلاحظ من خصوصية الفعل فى الدلالة والاستعمال، وكذلك ما يشير إليه الفاعل أو المفعول من الوقوع جزماً أو ظناً، وكذلك ما يصاحب الشرط من قيود فى جملته أو فى الكلام السابق أو اللاحق له. هذا والله أعلم بمراده.

أضرب المجزوم به و(أساس التنوع إليها):

ربما يقال: إن مجئ (إذا) مع الشرط فى أساليب القرآن الكريم يكون كافياً للدلالة على أن الشرط مجزوم به، فلا يسع السامع إلا التصديق بوقوعه. لكونه من جهة الله تعالى من ناحية، ولكون طبيعة الأداة (إذا) أن تكون مع المجزوم به من الشارط من ناحية أخرى. لكن لما كانت أساليب الشرط فى القرآن الكريم ينظر إليها لكونها واقعة من البشر وجاءت فيه على سبيل الحكاية، أو أنه ينظر إليها وكأنها جارية على لسان البشر لكونها بلغتهم- لما كان كذلك فإنه قد يكون الشرط مع (إذا) مجزوماً به، أو غير مجزوم به وإنما جاء معه (إذا) لنكتة. ومن يتتبع شواهد الشرط المجزوم به فى القرآن الكريم يلحظ أنه

يتنوع إلى أضرب ثلاثة، وهذا التنوع يقوم على أساس اختلاف مدلول الشرط. ذلك لأنه قد يستمد دلالته على الجزم من جهة كون الشرط إخباراً من الله تعالى بأمر غيبي لا يسع السامع إلا التصديق به، ويكون الإتيان معه بـ (إذا) لإفادة الجزم والتصديق. وقد يستمد دلالته على الجزم من جهة كون الشرط من العادات التى تقع فى حياة الناس ولا يرفضها عقل. وضرب ثالث يكون الشرط محتمل الوقوع وعدمه. لكنه يستمد دلالته على الجزم من قرائن المقام والسياق. وفيما يلي عرض لهذه الأضرب وشواهدها فى القرآن الكريم.

الضرب الأول:

وهو ما كان فيه الشرط مجزوماً به، ويستمد الجزم به من جهة كونه إخباراً بأمور غيبية ستقع. فيناسبها المجئ بالحرف (إذا) وشواهد هذا الضرب تتنوع إلى ما يأتى:

النوع الأول:

وهو ما كان الشرط فيه فعل المشيئة والقضاء على عمومه دون تعلق بفعل معين لإفادة أن حال الشئ عند الأمر بوجوده هو الوجود. وأن الأشياء الموجودة منها وما سيوجد يكون وجودها حال إرادتها. وإبراؤها مترتب وملازم لإرادتها[1].

ولا شك أن إبراء الله الأشياء وتقديره لها محقق ثابت، ولا يشك فيه مؤمن. وشواهد هذا النوع ستة شروط فى ست آيات هى ما يأتى:

١. قال تعالى: ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ (البقرة : ١١٧)

ومن معانى القضاء الإتقان والإحكام، قال أبو حيان: "قال المهدوى: وإذا قضى أمراً أى أتقنه وأحكمه وفرغ منه"[2] وهذا المعنى لا يتعارض مع استقبالية الشرط. لمآله إلى معنى الاستقبال بدلالة (إذا) على ذلك. أو أن معناه مضى وقدر فى الأزل. وقال أبو حيان: "يتجه فى هذه الآية المعنيان فعلى مذهب أهل السنة قدر فى الأزل وأمضى فيه، وعلى مذهب المعتزلة أمضى عند الخلق والإيجاد"[3] وارتباط الإرادة بالمستقبل من حيث بروز المراد وظهوره.

---

(١) ينظر تفسير الطبرى ٥٠٨/١ وما بعدها

(٢) البحر المحيط ٣٦٤/١

(٣) المرجع السابق الموضع نفسه

٢. قال تعالى: ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ (آل عمران : ٤٧)

وهي كالآية السابقة في فعل الشرط (قضى)

٣. قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ (النحل: ٤٠)

قال أبو حيان: "أوضح أنه تعالى متى تعلقت إرادته بوجود شئ أوجده"[١]

٤. قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ (مريم : ٣٥)

قال أبو السعود: "شأنه تعالى إذا قضى أمراً من الأمور أن يعلق به إرادته فيكون حينئذ بلا تأخير"[٢]

٥. قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (يس : ٨٢)

٦. قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (غافر : ٦٨) فالشرط مجزوم به.

النوع الثاني:

وهو شروط يقصد بها الإعلام بوقوعها في مستقبل الحياة الدنيا. وشواهده ستة شروط في ست آيات. وشواهد هذا النوع قد يكون الشرط فيها لإنشاء التعليق والإخبار بأن الشرط متوقع الوقوع، وأن الجزاء مترتب عليه. وقد يكون المجئ بجلمة الشرط على سبيل حكاية الإخبار بها في الزمن الماضي. وقد انفرد بالشاهد على إنشاء التعليق وتوقع وقوعه في المستقبل سورة النصر.

١. قال تعالى: ﴿ إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾ (النصر: ١ : ٣)

ووجه الانفراد كون الشواهد في الأنواع الأخرى لوقوع مدلول الشرط يوم القيامة، وأما عن الضرب الثاني فلأن الشرط فيه يكون من العادات التي تقع في حياة الناس أو توجد قرائن على الجزم به، أما في الشرط (إذا جاء نصر الله والفتح) فالجزم يرجع إلى الشارط جل وعلا. قال الزمخشري: "-إذا" منصوب بسبح، وهو لما يستقبل. والإعلام بذلك قبل كونه من أعلام النبوة"[٣]

(١) البحر المحيط ٥/ ٤٩١

(٢) تفسير أبي السعود ٥٧٧/٦

(٣) الكشاف ٢٩٣/٤

وشواهد هذا النوع مما جاء منه على سبيل الحكاية ما يأتي:

٢. قال تعالى: ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً * فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً ﴾ (الإسراء: ٤،٥)

٣. قال تعالى: ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيراً ﴾ (الإسراء : ٧)

ففعل الشرط فى الآيات (جاء) يحكى الله تعالى إخباره به بنى إسرائيل فى التوراة وهو مجزوم به وقد وقع فعلاً.

٤. قال تعالى: ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ * فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (المؤمنون: ٢٧، ٢٨)

فالشرط (جاء أمرنا) فى الآية الأولى والشرط (استويت) فى الآية الثانية مجزوم بهما. وقد جاءا على سبيل حكاية الإخبار بهما نوحاً عليه السلام وزمنهما مستقبل بالنسبة للإخبار بهما لا بالنسبة لزمن الحكاية، فالمراعى فى الاستقبال حال المحكى لا الحكاية.

٥. قال تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ (ص: ٧٢)

فقد جاء الشرط (سويته) حكاية للتعليق السابق.

النوع الثالث:

شروط يخبر بها الله تعالى عن الساعة علاماتها ومجيئها وعن البعث والحشر. وهذه الشروط مجزوم بها لأنها أمور غيبية أخبر الله بها. ولا يسع المؤمن إلا التصديق بها.

وشواهد هذا النوع سبعة وثلاثون شرطاً فى سبع وثلاثين آية.

١. قال تعالى: ﴿ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُواْ الأَرْضَ فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً ﴾ (الإسراء : ١٠٤)

٢. قال تعالى: ﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاء وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاء وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً ﴾(الكهف : ٩٨)

فالشرط (جاء وعد ربى) مجزوم به، سواء كان المراد- والله أعلم- خروج يأجوج ومأجوج علامة ليوم القيامة، أو يوم القيامة نفسه.

٣. قال تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءلُونَ ﴾ (المؤمنون: ١٠١)

٤. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ (النمل : ٨٢)

٥. قال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاء وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ (الروم : ٢٥)

٦. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاء أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (غافر : ٧٨)

٧. قال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴾ (الشورى : ٢٩)

فعل الشرط (يشاء) مجزوم به باعتبار متعلقة وهو الحشر يوم القيامة. وليست الآية من شواهد النوع الأول لأن متعلق المشيئة معلوم وليست على عمومها. والمراد– والله أعلم– بالمشيئة تعلقها بالموجود عند إيجاده لا المشيئة الأزلية القديمة.

٨. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاء وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ (الأحقاف : ٦)

٩. قال تعالى: ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ * إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجّاً ﴾ (الواقعة: ١، ٢، ٣، ٤)

١٠. قال تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ * وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ (الحاقة: ١٣، ١٤، ١٥)

١١. قال تعالى: ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاء لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (نوح : ٤)

١٢. قال تعالى: ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ * فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ (المدثر:٨،٩)

١٣. قال تعالى: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً ﴾ (الإنسان : ٢٨) أى وإذا شئنا بعثناهم يوم القيامة وبدلناهم فأعدناهم خلقاً جديداً"(١)

١٤. قال تعالى: ﴿ فَإِذَا جَاءتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى * يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَى * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى * فَأَمَّا مَن طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾

---

(١) تفسير ابن كثير ٨، ٩

(النازعات: ٣٤: ٣٩) قال الزمخشرى: "فأما جواب إذا، أى فإذا جاءت الطامة فإن الأمر كذلك"[١]

١٥. قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاء أَنشَرَهُ ﴾ (عبس: ٢١، ٢٢)

١٦. قال تعالى: ﴿ فَإِذَا جَاءتِ الصَّاخَّةُ * يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴾ (عبس: ٣٣، ٣٤) قال أبو حيان: "وجواب (إذا) محذوف، تقديره: اشتغل كل إنسان بنفسه"[٢].

١٧. قال تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ * وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ * وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ * وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ * وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ * وَإِذَا السَّمَاء كُشِطَتْ * وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ * وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ (التكوير: ١: ١٤)

١٨. قال تعالى: ﴿ إِذَا السَّمَاء انفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ * وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ (الإنفطار: ١: ٥)

١٩. قال تعالى: ﴿ إِذَا السَّمَاء انشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ (الانشقاق: ١: ٥)

قال الزمخشرى: "حذف جواب (إذا) ليذهب المقدر كل مذهب، أو اكتفاء بما علم فى مثلها فى سورتى التكوير والانفطار. وقيل: جوابها ما دل عليه (فملاقيه) أى إذا السماء انشقت لاقى الإنسان كدحه"[٣]

٢٠. قال تعالى: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴾ (الزلزلة: ١: ٥)

قال الزمخشرى: "فإن قلت: (إذا) و (يومئذ) ما ناصبهما؟ قلت: (يومئذ) بدل من (إذا) وناصبهما (تحدث) ويجوز أن ينتصب (إذا) بمضمر و (يومئذ) بـ (تحدث)....[٤] فعلى الرأى الأول والجواب فى الآيات (تحدث) وعلى الثانى مقدر يدل عليه (تحدث) المذكورة. والله أعلم.

---

(١) الكشاف ٢١٥/٤

(٢) البحر المحيط ٤٢٩/٨

(٣) الكشاف ٢٣٤/٤

(٤) الكشاف ٢٧٦/٤

النوع الرابع:

وهذا النوع شروط يخبر الله تعالى فيها عن أمور تقع يوم القيامة. وشواهده سبعة شروط فى سبع آيات:

١. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (الأعراف : ٤٧)

فالشرط (صرفت أبصارهم...) إخبار بوقوع نظر المؤمنين على الكافرين يوم القيامة وما يترتب عليه من دعائهم ربهم بأن لا يجعلهم مع الظالمين. والشرط مجزوم الوقوع لذا جاء معه (إذا).

٢. قال تعالى: ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ آلآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ (يونس : ٥١)

فالشرط (وقع) أى العذاب محقق الوقوع، لأن عذاب الكافرين يوم القيامة أمر ثابت محقق ويرجح كون المراد به عذاب يوم القيامة الآية بعدها (ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (يونس : ٥٢) ولما كان وقوع العذاب محقق الوقوع جاءت معه (ما) مناسبة لهذا التحقق. قال أبو السعود: وجئ بـ (إذا) مؤكداً بـ (ما) ترشيحاً لمعنى الوقوع، وزيادة للتجهيل وأنهم لم يؤمنوا إلا بعد أن لم ينفعهم الإيمان ألبتّة"[١] والله أعلم.

٣. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ الْعَذَابَ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ * وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَاءهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَـؤُلاء شُرَكَآؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوْ مِن دُونِكَ فَألْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (النحل:٨٥، ٨٦)

فالشرطان: (رأى الذين ظلموا العذاب) فى الآية الأولى و(رأى الذين أشركوا شركاءهم) فى الآية الثانية- محققان. وهما من الأمور التى تحصل يوم القيامة.

٤. قال تعالى: ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً * وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً ﴾ (الفرقان:١٢، ١٣)

فالشرطان فى الآيتين: (رأتهم من مكان بعيد "و" ألقوا منها مكاناً ضيقاً "من أحوال يوم القيامة والآخرة. وهما مجزوم بوقوعهما.

٥. قال تعالى: ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ ﴾ (المُلك : ٦،٧)

فالشرط (ألقوا فيها) من مشاهد يوم القيامة وهو مجزوم به لكونه إخبار العليم الخبير. لذا كان الحرف معه (إذا) الدال على الجزم والله أعلم.

---

(١) تفسير أبي السعود ٣٢٤/٥

الضرب الثانى:

وهو ما يكون الشرط فيه دالاً علي أحوال وعادات معهودة الوقوع فى حياة الناس فيكون بحكم المشاهد المعهود مجزوماً به، ويلاحظ فى شواهد هذا الضرب أنها تتنوع ثلاثة أنواع:

نوع يكون القصد فيه إلى الشرط من حيث اتصاله وارتباطه بجميع الناس دون تخصيصه فى سياق الكلام ببعض دون بعض.

ونوع يتصل بالناس جميعاً لكن سياق الكلام يدل على ارتباط الشرط ببعض الناس وطائفة منهم معينة.

ونوع ثالث: يكون الشرط فيه مرتبطاً بطائفة من الناس دون غيرهم لكونه أمراً أو عادة تخصهم.

وفيما يلى تتبع لشواهد هذه الأنواع الثلاثة:

النوع الأول:

وهو ما يكون الشرط متصلا بجميع الناس وليس خاصاً ببعضهم، وشواهد هذا النوع منها ما يتعلق بإصابة الحسنة والسيئة وما هو من قبيلهما، ومنها ما يتصل بمجئ الموت، ومنها ما يتعلق بنزول الآيات ومجئ الرسل، ومنها ما يدل على أحوال عامة مختلفة.

وشواهد هذا النوع خمسون شرطاً فى ثلاثة وأربعين آية.

فمن أمثلة ما يتعلق بإصابة الحسنة والسيئة ما يأتى[1]:

١. قال تعالى: ﴿ فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَـذِه وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللّهُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف : ١٣١)

قال أبو حيان: وأتى بالشرط بـ (إذا) فى مجئ الحسنة وهى لما تيقن وجوده لأن إحسان الله هو المعهود الواسع العام لخلقه بحيث إن إحسانه لخلقه عام حتى فى حال الابتلاء...."[2]

٢. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (يونس: ١٢)

---

(١) عقدت فى هذا الفصل مبحثاً عن المعيار لاعتبار الجزم موضعاً لـ (إذا) وقام الاستشهاد فيه على آيات الحسنة والسيئة وفيه غنية عن إعادة الحديث مع الآيات التى سنذكرها هنا. تنظر ص ٢٨٨ .

(٢) البحر المحيط ٤/٣٧٠

٣. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللّهُ أَسْرَعُ مَكْراً إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾ (يونس: ٢١)

٤. قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ * ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ (النحل:٥٣، ٥٤)

٥. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوراً ﴾ (الإسراء : ٦٧)

٦. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوساً ﴾ (الإسراء : ٨٣)

الشرط الثاني يؤكد الجزم به السياق من ذكر الأغراض وسيأتي موضع دلالة السياق على الجزم.

٧. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ (الروم : ٣٣)

٨. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ (الروم : ٣٦)

٩. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَاداً لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾ (الزمر : ٨)

١٠. قال تعالى: ﴿ فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الزمر : ٤٩)

١١. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاء عَرِيضٍ ﴾ (فصلت : ٥١)

١٢. قال تعالى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ ﴾ (الشورى : ٤٨)

الشاهد فى قوله تعالى: (وإنا إذا أذقنا الإنسان...)

ومن أمثلة ما يتعلق بحديث الموت والأجل الآيات الآتية:

١٣. قال تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (الأعراف : ٣٤)

فالشرط وهو (جاء أجلهم) مقطوع به ويتصل بالناس جميعاً ولا يخص جماعة دون أخرى. ويساعد السياق أيضاً على الجزم بقوله تعالى: "ولكل أمة أجل".

١٤. قال تعالى: ﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (يونس : ٤٩)

١٥. قال تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (النحل: ٦١)

١٦. قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً ﴾ (الإسراء: ٤٩)

١٧. قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً ﴾ (الإسراء : ٩٨)

١٨. قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً ﴾ (مريم:٦٦)

١٩. قال تعالى: ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴾ (المؤمنون : ٣٥)

٢٠. قال تعالى: ﴿ قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ (المؤمنون: ٨٢)

٢١. قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاء رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴾ (السجدة : ١٠)

٢٢. قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (سبأ : ٧) قال أبو حيان: "وإذا جوابها محذوف تقديره تبعثون، وحذف لدلالة ما بعده عليه"(١)

٢٣. قال تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً ﴾ (فاطر : ٤٥)

٢٤. قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ (الصافات: ١٥، ١٦)

٢٥. قال تعالى: ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ (الصافات : ٥٣)

٢٦. قال تعالى: ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ (ق : ٣)

٢٧. قال تعالى: ﴿ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ (الواقعة : ٤٧)

---

(١) البحر المحيط ٢٥٩/٧

٢٨. قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴾ (الواقعة : ٨٣)

قال الطبرى: "وجواب قوله: (فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ) وجواب قوله (فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ) جواب واحد وهو قوله: ترجعونها"[١]

٢٩. قال تعالى: ﴿ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً * قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ (النازعات: ١١، ١٢) وشواهد ما يتعلق بنزول الآيات ومجئ الرسل ما يأتى:

٣٠. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَجَاهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُوْلُواْ الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ﴾ (التوبة : ٨٦)

٣١. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ (التوبة : ١٢٤)

٣٢. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُواْ صَرَفَ اللّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُون﴾ (التوبة: ١٢٧)

٣٣. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُواْ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ (النحل : ١٠١)

٣٤. قال تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاء رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ (يونس : ٤٧)

هذا فضلاً عن مساعدة السياق على الجزم بالإخبار بأن لكل أمة رسولاً، وهذا دليل لمجيئه.

وشواهد الأحوال العامة المختلفة خلاف ما ذكر ما يأتى:

٣٥. قال تعالى: ﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة:٥) لا شك فى تقضي الأيام ومرور الأزمنة.

٣٦. قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (الأنفال : ٢)

٣٧. قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (الحج : ٣٥)

٣٨. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (الزمر : ٤٥)

---

(١) تفسير الطبرى ٢١١/٢٧

فإن قيل: إن الآية الكريمة هنا قد ذكرت حالتين متقابلتين: وهما ذكر الله وحده، وذكر الذين من دونه، واستعملت معهما (إذا) وبهذا يبطل ما قلته من أن (إن) تستعمل فى الشك عند ذكر حالتين متقابلتين يكون وجود الحالتين فيه على البدل بحيث لا توجدان معاً، كما تدل على ذلك الشواهد فى موضعها. أما هنا فإن الحالتين موجودتان معاً، ولا يقتضى وجود إحداهما عدم وجود الأخرى. لأن للتوحيد فريقه وللشرك فريقه، فهما موجدان على سبيل الجزم واليقين. ويدل على ذلك أيضاً سياق الآيات فقد تحدثت الآيات قبلها عن المهتدى والضال وأن جزاء كل واحد منهما على نفسه. كما تحدثت عن الذين يتخذون من دون الله شفعاء بقوله تعالى: " أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاء قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلَا يَعْقِلُونَ (الزمر : ٤٣) وبينت اختصاص الله عندما يسمعون من يذكر الله، من اشمئزازهم ونفورهم وأنهم عندما يسمعون ذكر شركاء الله يستبشرون ويفرحون، ولذلك عندما اختلف مقام الخطاب فى الآية الآتية. لكونه خطاباً يصور ما يوجه إلى الكافرين بعد اعترافهم بذنوبهم جاء الشرط الثانى وهو مجزوم به بـ (إن) إظهاراً للمجزوم فى صورة المشكوك فيه، وأنه لظهور الخطأ فى وقوعه من أهل الشرك والعناد، وظهور باطلهم كأنه مشكوك فيه. لأن ما كان يوجد فى حياتهم من الأسباب والآيات البينات جدير بأن يقلعه، وذلك فى الآية الآتية.

٣٩. قال تعالى:﴿ ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴾ (غافر : ١٢)

فالشرط (دعى الله وحده) مجزوم به، وكذلك الشرط (يشرك به) لكن الشرط الثانى نزل منزلة المشكوك فيه للنكتة السابقة.

٤٠. قال تعالى:﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (النمل : ٣٤)

فدخول الملوك القرى والمدائن من عاداتهم.

٤١. قال تعالى:﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ (العنكبوت : ٦٥)

٤٢. قال تعالى:﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ (لقمان : ٣٢)

٤٣. قال تعالى:﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (فصلت : ٣٩)

فنزول المياه من الأحوال المعهودة المجزوم بها بحكم الرحمة الإلهية، والله أعلم.

النوع الثاني:

وهو شروط تتصل بأحوال الناس وعاداتهم، لكن ينظر إليها في سياق الكلام من حيث ارتباطها بمن تعلق بهم الكلام، وسيق من أجلهم، وذلك لخصوصية الجزاء المترتب على الشرط بهم. وشواهد هذا النوع إما أن ترتبط بفريق الإيمان والطاعة أو ترتبط بفريق الكفر والمعصية. وهي في مجموعها ستة وسبعون شاهداً في خمس وسبعين آية هي ما يأتي:

١. قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّـا إِلَيْهِ رَاجِعونَ ﴾ (البقرة : ١٥٥، ١٥٦)

فالشرط وهو إصابة الضر ووقوع المصيبة مما لا يختص به واحد دون آخر. ولكن تعلق الحديث بنوع من الناس يصبرون عند نزولها وهم المؤمنون.

٢. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (البقرة : ١٨٦)

فالشرط (سألك عبادى) أمر ثابت محقق، لأنه في فطرة الناس جميعاً فهم يبحثون دائماً عن خالق هذا الكون العجيب، اهتدوا أو لم يهتدوا. والقصد هنا توجه السؤال إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال الرازى: "واعلم أن قوله: وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ يدل على أنهم سألوا النبى صلى الله عليه وسلم عن الله تعالى"[1] لكنه لم يبين طريقة الدلالة على وقوع السؤال ولعله استفاد ذلك من مجئ (إذا)

والحق أن دلالة (إذا) على الوقوع وإفادتها الجزم- لا يكون إلا بالنسبة إلى المستقبل نظراً لمعنى التعليق بالشرط. ولا يمكن استفادة ذلك عن طريق دلالة التركيب، وإنما يستفاد ذلك بقرائن أخرى كمعرفة أسباب نزول الآية. والله أعلم.

٣. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النَّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لَّتَعْتَدُواْ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلاَ تَتَّخِذُوَاْ آيَاتِ اللّهِ هُزُواً وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة : ٢٣١)

٤. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْاْ بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة : ٢٣٢)

---

(١) تفسير الرازى ١٩٠/٢

فالشرط فى الآيتين وهو طلاق النساء مجزوم به لأنه أمر عام يتعلق بالناس وجنس النساء لكن المقام خصص الحديث بطلاق المسلمين. والشرط (إذا تراضوا) له موضع آخر. ومن قبيل الآيتين أيضاً.

٥. قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً ﴾ (الطلاق: ١)

٦. قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً فَإن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ من رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاء أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاء إِذَا مَا دُعُواْ وَلاَ تَسْأَمُوْاْ أَن تَكْتُبُوْهُ صَغِيراً أَو كَبِيراً إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللّهِ وَأَقْومُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُواْ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوْاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلاَ يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ٢٨٢)

المداينة أمر عام يرتبط بالناس جميعاً، ولكن القصد بيان حكم مداينة المسلمين وما يكون عليه حالها عندهم.

٧. قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ (النساء: ٥٨)

فالشرط (حكمتم) مجزوم به، لأنه شرعة الناس جميعاً. ومن شئون حياهم لكن قصد به هنا حكم أمة معينة وهى أمة الإيمان. وقد يظن أن (إذا) هنا مستعملة فى غير المجزوم به لأن الحكم لا يتعلق بجميع المؤمنين، وإنما بالحكام فقط. وهذا مردود بأمرين:

الأول: أن وجود الإمام ومن يختارهم معه للقيام بالحكم يأتى عن طريق الأمة واختيارها، ، وإقرارها لمن يختارهم، على أساس مبادئها النابعة من دينها. فمآل الحكم فى الحقيقة راجع إليها وصادر من جهتها.

الثانى: أن الحكم بمعناه العام متحقق وموجود فى حياة الناس جميعاً. حسب موقع كل إنسان، رئيساً كان، أو قائداً، أو مديراً، أو زوجاً، أو أباً، أو رفيقاً...

وبهذين الأمرين يتأكد معنى الجزم بوقوع الشرط وكون (إذا) فى موضعها. والله أعلم.

٨. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا حُيِّيْتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً ﴾ (النساء : ٨٦)

فالشرط وهو (حييتم) أمر يرتبط بحياة الناس جميعاً لكن الغرض هنا تعلق بتحية المؤمنين.

٩. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوّاً مُّبِيناً﴾ (النساء : ١٠١)

فالشرط وهو الضرب فى الأرض مجزوم به ويقع فى حياة الناس جميعاً، لكن تعلق الحديث بأسفار المسلمين وما يتعلق بها.

١٠. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَاءكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الأنعام : ٥٤)

فالشرط وهو المجئ إلى الرسول صلى الله عليه وسلم مجزوم به وقد قصد هنا مجئ فريق الإيمان.

١١. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنعام : ٦٨)

قال أبو حيان: "وما أحسن مجئ الشرط الأول بـ (إذا) التى هى للمحقق، لأن كونهم يخوضون فى الآيات محقق، ومجئ الشرط الثانى بـ (إن) لأن (إن) لغير المحقق"[(١)]

١٢. قال تعالى: ﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُواْ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الأنعام : ١٥٢)

١٣. قال تعالى: " إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ (الأعراف : ٢٠١)

١٤. قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (الأنفال : ٢)

---

(١) البحر المحيط ١٥٣/٤

الشاهد الشرط الثانى (وإذا تليت عليهم آياته) أما الأول فقد ذكر فيما هو من الأحوال المتصلة بجميع الناس. ولا يقصد تخصيصه بطائفة معينة. ويتجلى الفرق بين الشرطين من خلال إدراك المعنى الذي هو مدحهم بأنهم تجل قلوبهم عندما يذكر الله فى جميع أحوالهم، وإذا تليت عليهم الآيات فى مجالس تعلمهم من الرسول أو من علمائهم زادت هذه التلاوة إيمانهم ثباتاً ورسوخا. والله أعلم.

١٥. قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (الأنفال : ٢٤)

١٦. قال تعالى: ﴿ قُلْ آمِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً ﴾ (الإسراء : ١٠٧)

١٧. قال تعالى: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَن خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً ﴾ (مريم : ٥٨)

١٨. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (النور:٥٩)

١٩. قال تعالى: ﴿ ... فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾ (النور: ٦١)

الشرط (دخلتم) مجزوم به، سواء أريد البيوت المذكورة أول الآية أو أريد مطلق البيوت، لأن المرء لا يخلوا حاله من ذلك.

٢٠. قال تعالى: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً ﴾ (الفرقان : ٦٣)

٢١. قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً ﴾ (الفرقان : ٦٧)

٢٢. قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً ﴾ (الفرقان: ٧٢)

٢٣. قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً (الفرقان : ٧٣)

يلحظ أن الشروط فى الآيات يمكن وقوعها من غير عباد الرحمن، لكن المراعى عند المجيء بها تعلقها بعباد الرحمن ليرتب عليها الأجزية المذكورة.

٢٤. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ (الشعراء : ٨٠)

الشرط (مرضت) مجزوم به ويرتبط بالناس جميعاً لكن روعى فيه مقام الآية ما تعلق به وهو إبراهيم عليه السلام. ولا يقال: إن الجزاء هنا ليس له خصوصية ارتباط بمن تعلق به الشرط وهو إبراهيم عليه السلام. وكما هو مقتضى شواهد هذا النوع والذى سبق القول به. لأنا نقول: إن الجزاء هنا له خصوصية بمن تعلق به الشرط من حيث كونه سيق سوق البرهان على وحدانية الله تعالى. وتفرده بالأفعال دون غيره من الآلهة التى عبدها قوم إبراهيم، وليس القصد مجرد الإخبار بشفاء الله له أو إطعامه. يشهد بذلك ما تحكيه الآيات من كلام إبراهيم واحتجاجه على قومه. قال تعالى: " قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (الشعراء:٧٥، ٨٢)

واضح إذا أن دلالة الجزاء على إيمان إبراهيم عليه السلام، والمرتب على الشرط له خصوصية تعلق بالشرط المذكور وهو مرض إبراهيم عليه السلام. والله أعلم.

٢٥. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾ (القصص: ٥٣)

٢٦. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ (القصص : ٥٥)

٢٧. قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ (الشورى : ٣٧)

٢٨. قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ (الشورى : ٣٩)

٢٩. قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (المجادلة : ٩)

٣٠. قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (المجادلة : ١١)

الشاهد فى الشرطين (إذا قيل لكم تفسحوا) و (إذا قيل انشزوا....)

أما شواهد الشرط الذى يتعلق بالكافرين والمنافقين فهى ما يأتى[١]:

(١) سأتوقف مع الشرط الذى يخفى فيه الغرض

٣١. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ (البقرة : ١٤)

الشاهد فى الشرط الأول (وإذا لقوا....) لأن الشرط الثانى من النوع الثالث.

٣٢. قال تعالى: ﴿ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاء لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة : ٢٠)

أى كلما أصاب المنافقين من عز الإسلام أطمأنوا إليه، وإذا أصابهم نكبة قاموا ليرجعوا إلى الكفر"[١]

٣٣. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إِلَىَ بَعْضٍ قَالُواْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة : ٧٦)

الشاهد الشرط الأول (وإذا لقوا الذين آمنوا)

٣٤. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (البقرة : ٩١)

٣٥. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾ (البقرة : ١٧٠)

٣٦. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيِهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ ﴾ (البقرة : ٢٠٥)

٣٧. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (البقرة : ٢٠٦)

الشاهد الشرطان: (وإذا تولى..) – (وإذا قيل له اتق الله....)

٣٨. قال تعالى: ﴿ هَاأَنتُمْ أُوْلاء تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (آل عمران : ١١٩) الشاهد فى الشرط الأول.

٣٩. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً﴾ (النساء : ٦١)

---

(١) ينظر تفسير ابن كثير ٥٦/١

٤٠. قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً ﴾ (النساء: ٨١)

٤١. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ (النساء : ٨٣)

٤٢. قال تعالى: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً ﴾ (النساء : ١٤٠)

قال الزمخشري: "كان أحبار اليهود بالمدينة يفعلون نحو فعل المشركين فنهوا أن يقعدوا معهم كما نهوا عن مجالسة المشركين بمكة، وكان الذين يقاعدون الخائضين فى القرآن من الأحبار هم المنافقون فقيل لهم: إنكم إذا مثل الأحبار فى الكفر"[1]

٤٣. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآؤُوكُمْ قَالُوَاْ آمَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ﴾ (المائدة : ٦١)

٤٤. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ ﴾ (المائدة : ١٠٤)

٤٥. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَاءتْهُمْ آيَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللّهِ اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ اللّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ﴾ (الأنعام : ١٢٤)

٤٦. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ (الأعراف : ٢٨)

٤٧. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاء لَقُلْنَا مِثْلَ هَـذَا إِنْ هَـذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأوَّلِينَ ﴾ (الأنفال : ٣١)

٤٨. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَـذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (يونس:١٥)

٤٩. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً ﴾ (مريم : ٧٣)

---

(١) الكشاف ٥٧٢/١

٥٠. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ (الأنبياء : ٣٦)

٥١. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (الحج : ٧٢)

٥٢. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ (النور : ٤٨)

٥٣. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً ﴾ (الفرقان : ٤١)

٥٤. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً ﴾ (الفرقان : ٦٠)

٥٥. قال تعالى: ﴿ وإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ (الشعراء : ١٣٠)

٥٦. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (لقمان : ٧)

٥٧. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ (لقمان : ٢١)

٥٨. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (سبأ : ٤٣)

٥٩. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (يس: ٤٧)

٦٠. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (يس : ٤٥)

٦١. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴾ (الصافات : ١٣)

٦٢. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾ (الصافات : ١٤)

٦٣. قال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (الصافات: ٣٥)

٦٤. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (الجاثية : ٢٥)

٦٥. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (الأحقاف : ٧)

٦٦. قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاؤُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (المجادلة : ٨)

٦٧. قال تعالى: ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ (المنافقون : ١)

٦٨. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ (المنافقون : ٤)

٦٩. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ (المنافقون : ٥)

٧٠. قال تعالى: ﴿ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (القلم : ١٥)

٧١. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴾ (المرسلات : ٤٨)

٧٢-٧٣-٧٤. قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُواْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُواْ فَكِهِينَ* وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴾ (المطففين: ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١، ٣٢)

ثلاثة شروط: (مروا... انقلبوا... رأوهم) في ثلاث آيات.

٧٥. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴾ (الانشقاق : ٢١)

النوع الثالث:

وهو شروط مجزوم بها لكنها خاصة بمن تعلق بهم الحديث:

وشواهد هذا النوع ثلاثة وعشرون شرطاً في ثلاث وعشرين آية:

١. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ (البقرة: ١١)

فالشرط (قيل لهم...) مجزوم به. وهذا القول لا يتوجه إلا من المؤمنين بحكم إيمانهم وأمرهم بالمعروف. ولا يأمرون به إلا المفسدين المنافقين وأشياعهم. كما تدل الآية بعدها (ألا إنهم هم المفسدون) فخطاهم بهذا لعلوق الإفساد بهم.

٢. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُواْ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاء أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاء وَلَـكِن لاَّ يَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة : ١٣)

الأمر بالإيمان الخالص الذى لا يشوبه شائبة مثل إيمان المؤمنين الخلص لا يكون إلا لهؤلاء المنافقين الذين يظنون تميزهم عن أتباع الرسول عليه الصلاة والسلام.

٣. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ (البقرة : ١٤)

الشرط الثانى (وإذا خلوا إلى شياطينهم) هو الشاهد ، لأن الخلو إلى الشياطين هو صفتهم وديدهم، ولأهم شياطينهم وخاصتهم الدالون لهم على الشر والمتكالبون معهم على الباطل. ونظيرها الآيتان الآتيتان:

٤. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إِلَىَ بَعْضٍ قَالُواْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة : ٧٦)

والشاهد فى الشرط الثانى (وإذا خلا بعضهم إلى بعض...)

٥. قال تعالى: ﴿ هَاأَنتُمْ أُوْلاء تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (آل عمران : ١١٩)

(إذا خلوا .....) أي إلى أنفسهم متكالبين عليكم حاقدين.

٦. قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُواْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾ (النساء : ٩٤)

فالشرط (ضربتم فى سبيل الله) صفة خاصة بالمؤمنين لأن ضرب غيرهم فى سبيل الشيطان.

٧. قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ وَإِن كُنتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مَّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (المائدة : ٦)

٨. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ﴾ (المائدة : ٥٨)

٩. قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُواْ لَوْلاَ اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يِوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَـذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأعراف : ٢٠٣)

ويلاحظ وجه خصوصية الشرط (لم تأهم بآية....) بالرسول صلى الله عليه وسلم لأنها آية طلبت منه باعتباره رسولاً يدعوهم إلى الإيمان. فهي آية مقترحة. فانتفاء المجئ بها متعلق به عليه الصلاة والسلام ومجزوم به. كما للسياق دلالته على الجزم أيضاً.

١٠. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (الأعراف: ٢٠٤)

١١. قال تعالى: ﴿" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ﴾ (الأنفال : ١٥)

١٢. قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ ﴾ (الأنفال : ٤٥)

أي فئة كافرة ، وهو أمر مجزوم به ، ومن حالات المؤمنين الدائمة.

١٣. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ (النحل: ٢٤)

فالشرط (وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم) مجزوم به . قال الزمخشري :"وهو كلام بعضهم لبعض أو قول المسلمين لهم .

وقيل: هو قول المقتسمين الذين اقتسموا مداخل مكة ينفرون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سألهم وفود الحجاج عما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا أحاديث الأولين وأباطيلهم"[1] على أنى لا أرى أن يكون المراد بالسائلين المسلمين، لأنه لا يساعده السياق لقوله تعالى فى الآية التالية (لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ (النحل : ٢٥)

١٤. قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ (النحل : ٩٨)

١٥. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً ﴾ (الإسراء : ٤٥)

١٦. قال تعالى: ﴿" وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْاْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً ﴾ (الإسراء : ٤٦)

والشرطان (إذا قرأت القرآن) و (إذا ذكرت ربك فى القرآن وحده) من خصوصيات الرسول صلى الله عليه وسلم. وهو من الخطاب المراد به العموم، فالقراءة وتوحيد الله بالذكر خاصة بالمؤمن.

---

(١) الكشاف ٤٠٦/٢، وينظر تفسير الرازى ٣٠٣/٥ والبحر المحيط ٤٨٤/٥، وتفسير أبي السعود ٣١٨/٦

١٧. قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (الحج : ٥٢)

فالتمني بأن يهدى الله أمته، أو القراءة لهم مجزوم به وهو من خصائص المرسلين.

قال أبو حيان: "لما ذكر الله تعالى أنه يدافع عن الذين آمنوا.... ذكر له تعالى مسلاة ثانية باعتبار من مضى من الرسل والأنبياء، وهو أنهم كانوا حريصين على إيمان قومهم متمنين لذلك مثابرين عليه، وأنه ما منهم أحد إلا وكان الشيطان يراغمه بتزيين الكفر لقومه وبث ذلك إليهم وإلقائه في نفوسهم. كما أنه صلى الله عليه وسلم كان من أحرص الناس على هدى قومه، وكان فيهم شياطين كالنضر بن الحرث يلقون لقومه وللوافدين عليه شبها يثبطون بها عن الإسلام"[١]

١٨. قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (النور : ٥١)

الشرط (دعوا إلى الله ورسوله) خاص بالمؤمنين لأنه لا يدعى إلى حكم الله إلا المؤمنون، أما الكافرون فإن طلبوا ذلك حكم بينهم ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآؤُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُم أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (المائدة : ٤٢) فقد علق الحكم بينهم على مجيئهم. والله أعلم.

١٩. قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(النور : ٦٢)

فالشرط وهو كينونة المؤمنين مع الرسول على أمر جامع من صفاقم ومجزوم به.

٢٠. قال تعالى: ﴿ فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾(محمد: ٤)

فالشرط (لقيتم) أى فى الحرب مجزوم به، وهو من أحوال المؤمنين الدائمة إلى أن تقوم الساعة.

---

(١) البحر المحيط ٣٨٢/٦

٢١. قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (المجادلة : ١٢)

فالشرط وهو مناجاة المؤمنين النبى عليه الصلاة والسلام مجزوم به، وهو من خصوصياقم.

٢٢. قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الجمعة:٩، ١٠)

فالشرطان (نودى للصلاة) و (قضيت الصلاة) مجزوم بهما وهو من خصوصيات المؤمنين وأحوالهم.

٢٣. قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ (التوبة : ٣٨)

فالشرط (إذا قيل لكم....) مجزوم به وقد جرى أبو حيان على اعتبار الفعل بمعنى المستقبل قال: "وهو ماضٍ بمعنى المضارع"[1] فتكون (إذا) عندئذ شرطية، ومعلوم أن دعوة المؤمنين إلى الجهاد مجزوم بها ودائمة إلى يوم القيامة.

* الضرب الثالث:

وهو شروط يجزم بوقوعها وتستمد الدلالة على الجزم بوقوعها من المقام أو السياق. وشواهد هذا الضرب واحد وثلاثون شرطا فى سبع وعشرين آية هي ما يأتي:

١. قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّين﴾ (البقرة : ١٩٨)

فالشرط (أفضتم من عرفات) محقق ومجزوم به يدل عليه سياق الآيات لحديثها عن أداء فريضة الحج من أول قوله تعالى: "وأتموا الحج والعمرة لله" (البقرة: ١٩٦) وبيان ما على المحرم بهما من أعمال وأركان، وفى هذا الجو والسياق تكون الإفاضة مجزوما بها.

---

(١) البحر المحيط ٤١/٥

٢. قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (النساء : ٢٥)

فالشرط في الآية (أحصن) محقق الوقوع ومجزوم به بدلالة السياق، لأن الآية تحدثت عن نكاح الأمة المؤمنة عند عدم طول الحرة، وحديث الآية عن هذا النكاح وبيان ما يجب أن يتبع فيه .. ودلالة الحال على كون المتزوج لا يستطيع مهر الحرة مع حاجته إلى الزواج. كل هذه قرائن دالة على تحقق إحصانهم بالزواج منهن بعد توافر كل هذه الأسباب المذكورة لوقوعه.

٣. قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (النساء : ١٤٢)

الشرط فى الآية وهو قيامهم إلى الصلاة مجزوم به، لأن شأن المنافق الحرص على ظاهره ليخفى باطنه (الخرب) وساعد السياق أيضا على ذلك باشتماله على الفعل (يخادعون) قبل الشرط ، ثم مجيء الفعل (يراءون) بعده، والخداع والمراءاة لا يتمان إلا بالحرص على الصلاة ظاهرا. ولا يتعارض ذلك مع الإخبار عنهم بقلة الذكر، لأنهم يصلون ولا يذكرون الله بلسانهم في الصلاة وخارجها إلا قليلا. أو ذكر غير خالص[1]

ولاعتبار تيقن قيامهم إلى الصلاة والجزم به بدلالة المقام والسياق أرجح أحد المعنيين اللذين ذكرهما المفسرون لقوله تعالى: "ولاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً" (النساء: ١٤٢) وهما أن المراد بالذكر الصلاة أو المراد به التسبيح والتهليل[2]. أرجح أن يكون

([1]) قال ابن عباد فى شرحه ديوان الحكم لابن عطاء: "قال أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضى الله عنه: كونوا لقبول العمل أشد اهتماما منكم بالعمل، فإنه لا يقل عمل مع التقوى وكيف يقل عمل يتقبل- وقد وصف الله تعالى ذكر المؤمنين بالكثرة لما تضمنه من وجود الإخلاص وعدم رياء الناس. فقيل فى قوله تعالى: "يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً " (الأحزاب ٤١) قيل: يعنى خالصا فسمى الخالص كثيراً. وهو ما أخلصت فيه النية لوجه الله العظيم.ووصف ذكر المنافقين بالقلة لما اشتمل عليه من عدم الإخلاص، ووجود رياء الناس فقال تعالى: ((يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا)) (النساء ١٤٢) يعنى غير خالص "شرح ديوان الحكم ١/٣٩ ، ٤٠

([2]) ينظر الكشاف ١/٥٧٤

المعنى للذكر القليل التسبيح والتهليل والتحميد لأن السياق يفيد حرصهم على الخداع والمراءاة. كما أنه لو كان المقصود به الصلاة لكان المناسب لقيامهم إلى الصلاة الإتيان بـ (إن) لكونها تأتي مع المجزوم به القليل كما اتضح ذلك عند الحديث عن النادر قليل الوقوع.

وقد ذكر البيضاوي المعنيين فقال: ((إنه قد يراد به التسبيح والتهليل، وقد يراد به الصلاة ثم قال الشهاب: "وأخر كونه بمعنى الصلاة إشارة إلى أن الأول أولى والزمخشرى عكس لأن الكلام كان فى الصلاة"[1] ولكنه لم يذكر وجه الأولوية. ولا أحسب الوجه فى ذلك بعيدا عما ذكرته. والله أعلم .

٤. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلآئِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَاناً وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُواْ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (المائدة : ٢)

الشرط وهو (حللتم) مجزوم بوقوعه، لأن بقاء الإحرام ودوامه مستحيل إذ لابد من الدخول فى وقت الحل. والإشارة إلى الإحرام جاءت عن طريق ذكر الشهر الحرام فغرض الآية بيان أحكام الصيد فى الإحرام والحل.

٥. قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام : ١٠٩)

الشرط (جاءت) مجزوم به يدل على ذلك الحال والسياق فى الآية. ذلك لأن المقام مقام إظهار عنادهم وأنهم لا يؤمنون حتى مع نزول الآيات التي يطلبونها، ولا يثبت عنادهم إلا بنزول الآية فعلا وعدم إيمانهم بها. وسياق الآية يدل على ذلك، لأن الاستفهام هنا إنكاري، أي إنكم لا تدرون ما سبق علمي به من أنهم لا يؤمنون، وهذا يدل على أن نزولها محقق مجزوم به. والله أعلم.

٦. قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْموْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الأعراف: ٥٧)

([1]) حاشية الشهاب على البيضاوي ١٩١/٣

الشرط وهو حمل الرياح سحابا مجزوم به بدلالة المقام والسياق؛ لكون الآية في مقام تعداد النعم التي يتفضل الله بها على عباده، ويساعد السياق على ذلك فقد جاء قبل ذلك قوله تعالى: وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً وقوله: إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ. ثم ما في هذه الآية من جعل هذه الرياح للبشرى بين يدي فضله ورحمته، كل هذه مرشحات ومقويات للتيقن من كون هذه الرياح ستحمل الخير وأسبابه لإحياء موات البلاد والعباد. والله أعلم.

٧. قال تعالى: "﴿وإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُواْ لَوْلاَ اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يِوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَـذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف : ٢٠٣)

فالشرط وهو عدم إتيان الرسول صلى الله عليه وسلم بآية كما يخترعون ويطلبون مجزوم به. لأن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يأتي بشيء من عند نفسه وليس له أن يطلب آية بعينها ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهَوَى ﴾(النجم : ٣) ومقام عنتهم وضلالهم يدل على عدم إجابتهم. قال أبو حيان "كانوا يطلبون آيات معينة على سبيل التعنت، كقلب الصفا ذهبا، وإحياء الموتى، وتفجير الأنهار، وكم جاءهم من آية فكذبوها واقترحوا غيرها "[١]

كما أن الآية سبقت بقوله تعالى: "﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٩) وهذا الإعراض يشمل عدم إجابتهم بما يطلبون. والله أعلم.

٨. قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاء رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ (يونس: ٤٧)

مجيء الرسول مجزوم به، ويدل السياق على ذلك ، فقول الله تعالى (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ) من أدلة الجزم بمجيء الرسول. هذا فضلا عن كون هذا من الأحوال المعروفة التي تقع في حياة الناس. فدليل الجزم بالشرط كونه من الأحوال المعهودة ومساعدة السياق أيضا.

٩. قال تعالى : ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (الحج: ٣٦)

فالشرط وهو (وجبت) مجزوم به ، يدل على ذلك أن الآية في معرض الحديث عن شعائر الله تعالى في الحج، ومنها الهدى وما يتقرب لله به من ذكر الله عليها. فالذبح

---

(١) البحر المحيط ٤٥١/٤

المشار إليه بكل هذا يستلزم وجوها وسقوطها على الأرض. والذي هو معنى الشرط والله أعلم.

١٠. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (النور: ٣٩)

فالشرط وهو مجيء الظمآن إلى السراب أمر محقق بدلالة حاله، لأن شأن الظمآن طلب الماء والبحث عنه في كل مكان، هو مظنة وجوده فيه، وحسبانه ماء حافز كاف لأن يذهب إليه ولا يتوانى عنه.

١١. قال تعالى: ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ (النور: ٤٠)

الشرط وهو (أخرج يده) محقق الوقوع في هذا الجو الطامس المرعب لكي يتحسس الإنسان ما حوله. فهو يستعين بيده ليخرج من هذه الحيرة لأنها من حواسه المهمة في هذا المضطرب الشديد.

١٢. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (النور : ٦٢)

الشرط الثاني في الآية (استأذنوك لبعض شأنهم) مجزوم به وذلك لما يدل عليه السياق من ذكر حال من يستأذنه، ووصفه بأنه يؤمن بالله والرسول، ووجود قوم صفتهم هذه من الاستئذان وما يترتب عليه دليل على تحقق هذا الاستئذان ووقوعه، لأن الوصف بالشيء لا يكون إلا بوجود الفعل الدال على الاتصاف به. والله أعلم

١٣. قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (القصص : ٧)

الشرط وهو (خفت عليه) مجزوم به بدلالة الحال والمقام. ذلك لأن الحديث عن أم موسى، وجو الرعب الذي كانت تعيش فيه. لتذبيح فرعون أولاد بني إسرائيل .... وكذلك السياق ودلالته على عتو فرعون وفساده (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص: ٤)

كل ما فى ذلك من علامات يدل على الجزم بوقوع الشرط وهو خوف أم موسى عليه السلام من أن يصيبه أذى.

١٤. قال تعالى: ﴿ومِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا باللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاء نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ (العنكبوت: ١٠)

فالشرط (أوذي فى الله) مجزوم به بدلالة الحال والسياق ؛ لأن المقام عند دعوى الإيمان مقام اختبار وتمحيص قال الله تعالى ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ (آل عمران : ١٤٢) والسياق أبرز دعواه الإيمان. فمقتضاه- أيضا- الاختبار والتمحيص. والله أعلم

١٥. قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاء كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (الروم : ٤٨)

الشرط (أصاب به من يشاء من عباده) محقق ومجزوم به بدلالة الحال والسياق، لأن حال الرياح حاملة سحابا كثيفا يخرج منه الماء تستلزم بالضرورة إصابته الأرض ونشر الخير على من يريد الله لهم ذلك. ولو قيل فى غير القرآن الكريم:- فإن أصاب به- لكان كلاما غثا مرذولا.لأن الشك فى سقوط الماء بعد خروجه من السحاب المطبق لا يتصور. والله أعلم.

١٦. قال تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاء الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً﴾ (الأحزاب: ١٩)

ففي الآية شرطان: (جاء الخوف) و(ذهب الخوف) وهما مجزوم بهما، ذلك لأن سياق الآيات التى جاءت معها الآية عن القتال وما يكون من جبن المنافقين عنه ، واستئذان رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومحاولتهم الفرار خوفا من القتل. ولا يتوهم أن هذا من ذكر حالتين على التردد المناسب له (إن) لأن القصد إفادة مجيء الخوف عند القتال ثم ذهاب هذا الخوف بعد انتهائه، والله أعلم.

١٧. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيما"﴾ (الأحزاب : ٥٣)

فى هذه الآية الكريمة ثلاثة شروط يدل المقام والسياق على تحققها: الشرط الأول (إذا دعيتم فادخلوا) وهو مجزوم به لأن المقام لبيان حكم الدخول. وهو لا يكون إلا بالدعاء وساعد السياق على كونه يقع بدلالة إلا أن يؤذن لكم. فعلق الدخول على الإذن فدل ذلك على أن فيه إذنا سيحصل، ويؤكد ذلك الاستدراك بـ (لكن) أي إن فيه إذنا ما يتعين لكم الإجابة عند حصوله. وقد أشار الرازي إلى ذلك قائلا: "قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا ..﴾ فيه لطيفة، وهى أن فى العادة إذا قيل لمن كان يعتاد دخول دار من غير إذن: لا تدخلها إلا بإذن يتأذى وينقطع بحيث لا يدخلها أصلا ولا بالدعاء. فقال: لا تفعلوا مثل ما يفعله المستنكفون بل كونوا طائعين سامعين إذا قيل لكم لا تدخلوا وإذا قيل لكم ادخلوا فادخلوا"[١] ويتضح من ذلك أن فيه إذناً سيكون. فلا بد من الإجابة له.

الثاني قوله تعالى: (فإذا طعمتم فانتشروا) ولا يخفى أن الدعوة للطعام تستلزم الطعام عندها، ولا يليق بمقام النبوة أن يقال فى غير القرآن فإن طعمتم، لأن الشك فى طعامهم شك فى سخائه وكرمه عليه الصلاة والسلام. وكيف يتصور ذلك بعد أن يدعوهم لطعامه !!

الثالث (وإذا سألتموهن متاعا) فالشرط مجزوم به بدلالة هذا المقام فإنه يستدعى ما تستدعيه الضيافة ومقام خدمة المصطفى صلى الله عليه وسلم.

١٨. قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ* فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ* وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ* أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ* فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاء صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ* وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ* وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ (الصافات من ١٧٣: ١٧٩)

فالشرط وهو (نزل بساحتهم) مجزوم به يدل على ذلك ما يحيط به فى سياقه من توعدهم نتيجة انصرافهم وإمهالهم إلى حين أن يأتيهم هذا العذاب واستعجالهم له، كل هذه شواهد وأدلة على أنه مجزوم بوقوعه. والله اعلم.

---

(١) تفسير الرازى ٥٨٨/٦

١٩. قال تعالى: ﴿فَإذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَاب حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ (محمد: ٤)

ففي الآية شرطان يدل المقام والسياق على الجزم بوقوعهما. ذلك لأن السورة بدأت بالحديث عن فريق الكفر وضلاله وصده عن سبيل الله، وفريق الإيمان بالله الداعي إليه، هذا الاختلاف في الغاية والمسلك يستلزم الصراع والقتال ولقاء المؤمنين الكافرين لقتالهم وضرب رقابهم، وهذا الضرب يستلزم الجزم بالشرط الثاني وهو (أثخنتموهم) لأنه يتحقق عند تحقق ضرب الرقاب، فالسياق للآيات يدل على أن هذين الشرطين يتحققان خارجا.والله أعلم.

٢٠. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ﴾ (الممتحنة : ١٠)

فالشرط (جاءكم المؤمنات) مجزوم به، لأن المتتبع لسياق الآيات من أول السورة إلى آخرها يجد فيها خطايا للمؤمنين بما يجب أن يكونوا عليه عند صلتهم بأعدائهم في الدين، وتشير الآيات إلى الجو الذي يملأ حياة المسلمين من تهيؤ لقتال أعدائهم الذين يودون أن يبسطوا إليهم أيدهم وألسنتهم بالسوء، وينهاهم الله عن مودة الذين قاتلوهم في الدين، ثم في هذا الجو من العداوة لابد وأن يفر المسلمون بدينهم ومنهم المؤمنات اللاتي بقى أزواجهن على الكفر.

ومثلها في جو آيات السورة نفسها.

٢١. قال تعالى: ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الممتحنة: ١٢)

٢٢. ٢٣. قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً* إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً* وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً* إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴾ (المعارج :١٩ إلى ٢٢)

فالشرط وهو مساس الشر ومساس الخير مجزوم به، ويساعد على ذلك السياق، فقد صرحت الآية الأولى بهلع الإنسان، وهذا لا يكون إلا عند مساس الشر ومساس الخير، لأن الهلع كما وضح معناه في الآيات هو سرعة الجزع عند الشر

وسرعة المنع عند الخير[1] ويساعد على ذلك أيضا أن المس لجنس الإنسان وليس لفرد معين بدلالة الاستثناء منه بقوله تعالى: (إلا المصلين) ومساس الشر والخير للإنسان لا ينكره أحد. والله أعلم.

٢٤. قال تعالى:﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ* فَإِذَا قرأناه فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ (القيامة:١٧، ١٨)

فالشرط (قرأناه) مجزوم به بعد إخباره بأن على الله أن يقرئه إياه على لسان الملك. فالسياق دال على ذلك. ولا يتأتى أن يقال في غير القرآن: إن قرأناه، بعد الإخبار والتأكيد بوقوع ذلك- في الآية قبلها.

٢٥. ٢٦. قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ*الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ* وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ (المطففين:١، ٢، ٣)

فالشرطان في الآية الكريمة (اكتالوا) و(كالوهم) مجزوم بهما بدلالة السياق، لسبق وصفهم بالتطفيف، وحقيقته توجد مع الكيل والوزن. قال أبو السعود: "الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون) الخ صفة كاشفة للمطففين شارحة لكيفية تطفيفهم الذي استحقوا به الذم والدعاء بالويل "[2] فاكتيالهم مع الوفاء وكيلهم مع البخس موجود لأنه حقيقة التطفيف.

٢٧. قال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ (الشرح: ٧)

فقد سبقت الآية بالحديث عن رفع الذكر ووضع الوزر وأن مع عسر العبادة يسرا، أي أنك إذا انتهيت من عبادة وضعت عنك وزرك ورفعت لك ذكرك، فابدأ في غيرها ولا تتوان ولا تتكاسل[3]. صلى الله عليه وسلم.

- **تغليب لفظ الماضي مع (إذا):**

لما كان الأصل في استعمال (إذا) أن يكون مع الشرط المجزوم به جاء فعل الشرط معها في الغالب بلفظ الماضي أو يكون مضارعا منفيا بلم[4] ويكون بالنظر إلى المعنى على الاستقبال، ذلك " لأنه أنسب بما هي له من التحقق"[5] لأن الفعل عندما يكون بلفظ يشعر بوقوع الشرط تتحقق المناسبة بين عبارة المتكلم وبين اعتقاده تحقق الوقوع.

---

(1) ينظر الكشاف ١٥٨/٤

(2) تفسير أبي السعود ٤٠٥/٨

(3) ينظر الكشاف ٢٦٧/٤ وتفسير ٤٣١/٨ والبحر المحيط ٤٨٨/٨

(4) ينظر البناني- تقرير الإنبابي ٣٥٧/٣

(5) حاشية الأمير على مغني اللبيب ٨٤/١

١. وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (النحل: ٦١)

فقد جاء الشرط وهو (جاء أجلهم) بلفظ الماضي، ومعلوم أنه استقبالي المعنى بحكم كونه شرطا، ولأنه لم يقع أيضا بعد.

٢. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأى الَّذِينَ ظَلَمُواْ الْعَذَابَ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ (النحل: ٨٥)

فالشرط وهو رؤية الظالمين العذاب مستقبل الوقوع، وقد جاء بلفظ الماضي إشعارا بهذا التحقق.

٣. وقوله تعالى: ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاء وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاء وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً﴾ (الكهف: ٩٨)

فمجيء الوعد لم يحصل بعد وإنما أتى ذو القرنين بالشرط فى كلامه بلفظ الماضي إفادة إلى أنه محقق الوقوع.

٤. قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ * فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ (المدّثر :٨، ٩)

فالشرط وهو النفح فى الصور أمر محقق فناسبة الإتيان بفعل الشرط بلفظ الماضي.

وهكذا الشأن فى كل ما يكون محقق الوقوع أن يؤتى بلفظه ماضيا مناسبة لهذا التحقق حتى فى غير أساليب الشرط. مثل قوله تعالى: "أَتَى أَمْرُ اللّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ" (النحل: ١)

فلما كان مجيء يوم القيامة مستقبلا محقق الوقوع ناسب هذا التحقق أن يؤتى بفعل الشرط ماضيا.

- **استقبال الشرط وما يفاد من معان أخرى:**

ومما هو ثابت وينبغي ألا يُغْفَل عنه أن الشرط مدلوله استقبالي. حتى وإن جاء بلفظ الماضي. لأن ماضويته فى اللفظ مراعاة لكونه مع (إذا) مجزوما به ومحقق الوقوع.

وإن كان ثمة دلالة على وقوع معنى الشرط فى الماضي في بعض الآيات القرآنية التى جاء فيها فعل الشرط بلفظ الماضي فإن هذه الدلالة لا تكون عن طريق الإتيان بلفظ الماضي. وإنما تكون هذه الدلالة فى مثل هذه الآيات على الوقوع فى الماضي من طريق قرائن أخرى مثل سبب نزول الآية. وإدراك هذا أمر مهم للفصل بين دلالة

الشرط على استقبال الوقوع وكون هذا المعنى المفاد بالشرط دل على وقوعه فى الخارج شواهد أخرى. لأنها لن تكون باعتباره شرطا. لأن كون الشرط على خطر الوقوع يتنافى مع كونه وقع فعلا. ولذلك لا أوافق الرازي رحمه الله عند تفسير قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (البقرة: ١٨٦) وقوله: "واعلم أن قوله: ﴿وإذا سألك عبادي عنى فإني قريب﴾ يدل على أنهم سألوا النبي عليه السلام عن الله تعالى"[١] ذلك لأن الشرط لا يدل على وقوع مدلوله فى الماضي، ودلالة المناسبة التى من أجلها نزلت الآية شيء بعيد عن دلالة الكلام عليه كما هو مدعاة. لأن استفادة هذا من أدلة أخرى غير دلالة أسلوب الشرط. وإذا ثبت تمحض دلالة الشرط على الوقوع مستقبلا، وافتراق هذه الدلالة عن أى دلالة تفهم من طريق أخر- فانه يلاحظ أن أساليب الشرط لها أحوال ثلاثة: لأنه قد تتمحض دلالتها على الوقوع مستقبلا دون وجود ما يدل على أنها قد وقعت، وقد يكون مدلولها قد وقع بدلالة الحال كما أنه سيقع بدلالة كونه شرطا، أو أن يكون مدلول الشرط قد وقع فعلا ولا ينتظر وقوعه مستقبلا. وبناء على ذلك جاء قولهم بدلالة (إذا) على الاستمرار فى الحالة الثانية ومجيئها بمعنى (إذ) فى الحالة الثالثة.

وفيما يلي إيضاح كلام العلماء في هاتين الدلالتين.

• **دلالة(إذا) على الاستمرار**:-

إذا كان يتعين فى الشرط الدلالة على الوقوع فى المستقبل بمقتضى التعليق فإنه يلاحظ مجيء بعض الشواهد الدالة على أن مدلول الشرط قد وقع فعلا. من ذلك قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (البقرة: ١١)

فإن مضمون الشرط قد حصل فعلا بأن نهوا عن الفساد. وأجابوا بدعواهم الإصلاح. لكن هل يتخلف الشرط عن دلالة الاستقبال؟ الواقع أن الشرط مستمر الدلالة على معنى الاستقبال بحكم وضعه لغة من ناحية ولأن مضمونه لا يختص بمن كانوا موجودين من المنافقين وقت النزول وإن نزلت فيهم - من ناحية أخرى. لأن خصوص السبب لا ينافى عموم النظم كما يقول الأصوليون. وقد جاء فى كلام المفسرين ما يفيد اعتبار دلالة الشرط. وكذلك جاء ما يفيد اعتبار دلالته ودلالة سبب النزول.

---

(١) تفسير الرازى٢/١٩٠

قال الطبري عند تفسير الآية السابقة: روى عن سلمان الفارسي أنه قال: ما جاء هؤلاء بعد، الذين قيل لهم لا تفسدوا. وقد اختار الطبري كونها نزلت فى المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن كان معنيا بها كل من كان بمثل صفتهم من المنافقين بعدهم إلى يوم القيامة.[1] وهذا الاختيار هو مفاد دلالة (إذا) على الاستمرار.

وممن قالوا بذلك الرضي في شرح الكافية. قال: "وقد تكون (إذا) مع جملتها لاستمرار الزمان كما في قوله تعالى:﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ﴾ (البقرة: ١١) ﴿وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ (البقرة: ١٤)..."[2]

وعند تفسيره قول الله تعالى:﴿ وإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا﴾ (البقرة: ١٧٠) يقول أبو حيان: "والمراد بقوله وإذا التكرار"[3] كما يقول أيضا عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَجَاهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُوْلُواْ الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ﴾ (التوبة: ٨٦) يقول: "وهذه الآية وإن تقدم أنهم كانوا استأذنوا الرسول. وليست هنا (إذا) تفيد التعليق فقط بل أنجز معها معنى التكرار سواء كان ذلك فيها بحكم الوضع أو أنه بحكم غالب الاستعمال لا الوضع"[4]

وممن ذكروا دلالتها على الاستمرار الزركشى، قال: "وتستعمل أيضا- إذا- للاستمرار كقوله: ﴿وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا"(البقرة: ١٤) وقوله (لاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي الأَرْضِ﴾ (آل عمران : ١٥٦) فهذا فيما مضى. لكن دخلت (إذا) لتدل على أن هذا شأنهم أبدا، ومستمر فيما سيأتي"[5] فقوله: دخلت إذا لتدل ... يفيد أن معنى الاستمرار مفاد (إذا) وأنه- كما ذهب من قالوا بذلك- يرى أن هذه الدلالة أي على الاستمرار منشؤها (إذا) دون فصل بين دلالة المناسبة وقرائن الحال على وقوع المعنى الذي هو مدلول فعل الشرط وبين دلالة الشرط على وقوع معنى الفعل فى الزمن المستقبل بحكم كونه شرطا. وأن استفادة معنى

---

(١) ينظر تفسير الطبرى ١/١٢٥

(٢) شرح كافية ابن الحاجب ٢/ ١٠٦

(٣) البحر المحيط ١ / ٣٨٠

(٤) السابق الموضع نفسه

(٥) البرهان للزركشى ٤/١٩٤

الاستمرار لا تحصل عن طريق الشرط وحده ولا عن دلالة المناسبة وحدها. وإنما هي ناشئة من اجتماع طريقي المعنيين معا. ولا تخلص الدلالة على الاستمرار للأداة (إذا) خلافا لما ذكره بعض العلماء. فالصحيح أن استفادة معنى الاستمرار وتكرار وقوع الشرط لا يكون بأداة الشرط (إذا) وإنما يكون باجتماع دلالة القرائن الخارجية على كون الشرط قد وقع مع دلالة أسلوب الشرط على الوقوع مستقبلا. فالبدلالتين معا يستفاد معنى الاستمرار.[1]

وأمثلة هذا النوع فى القرآن الكريم كثيرة فمنها قوله تعالى يخبر عن حال الذين يدعون الإيمان زعما باطلا منهم: ﴿وإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً ﴾ (النساء: ٦١)

فنداء هؤلاء الزاعمين الإيمان إلى حكم الله وحكم الرسول متجدد مستمر لا ينقطع. فقد وقع ثم هو يستمر مع استمرارهم على العناد والصلف، واستمراء باطلهم واتباع أهواءهم.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلا"﴾ (النساء: ١٤٢) فهم قاموا إلى الصلاة فعلا وهم على حالهم من الكسل والفتور، ولذا نزلت الآية فيهم، ثم أفاد الشرط أنهم عندما يقومون بعد ذلك سيكونون على حالتهم التى اعتادوها. فأفاد الشرط مع ما أفاده المقام من وقوع ذلك منهم - استمرار قيامهم متكاسلين، وهو مظهر من مظاهر نفاقهم[2]

● **القول بمجيء (إذا) بمعنى (إذ):**

لحظ بعض العلماء فى بعض شواهد الشرط بـ (إذا) أن مدلول الشرط قد وقع وانتهى وليس على خطر الوقوع مرة أخرى، لخصوصية معناه بالمناسبة التى جاء فيها ومقامه الذى حصل فيه. وأفادوا تبعاً لهذا أن أداة الشرط (إذا) تكون بمعنى (إذ)

([1]) وينظر تفسير الآلوسى ١٧٥/١

([2]) ينظر فى معنى الاستمرار الآيات من السور الآتية: البقرة ١٣، ٧٦، ٩١، ٢٠٥- ٢٠٦، آل عمران ١١٩، المائدة ٥٨—٦١- ٨٣- ١٠٤، الأنعام ١٢٤ الأعراف ٢٨، ١٣١، ٢٠٣، الأنفال ٢، ٣١ التوبة ١٢٤، ١٢٧، يونس ١٢، ٢١ النحل ١٠١،٢٤، الإسراء ٤٥، ٤٦، ٨٣، الأنبياء ٣٦، الحج ٣٥، النور ٤٨، الفرقان ٤١، ٦٠، ٦٣، ٦٧، ٧٢، ٧٣، القصص ٥٣، ٥٥، الروم ٣٣، ٣٦ لقمان ٧، ٢١، يس ٤٥، ٤٧، الصافات ١٣، ١٤، الزمر ٤٥، ٤٩، الشورى ٣٩، المجادلة ٨، المنافقون ١، ٤، ٥، المرسلات ٤٨

المختصة بالوقوع فى الزمن الماضى. وقد صرح الرضى بذلك قائلا :"قد تكون (إذا) للماضى (كإذ) كما فى قوله تعالى ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ (الكهف: ٩٣) و﴿حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ (الكهف: ٩٦) و﴿حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً﴾ (الكهف : ٩٦) كما أن (إذْ) تكون للمستقبل كـ (إذا) كما فى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ﴾ (الأحقاف: ١١). "[١]

فلما كان مدلول الشروط المذكورة: من البلوغ بين السدين، والمساواة بين الصدفين، وجعل القطر نارا– قد وقع فى الماضى وانتهى ولا ينتظر وقوعه مرة أخرى حملهم على اعتبار (إذا) المفيدة للاستقبال بمعنى (إذْ) المفيدة للمضى.

ومن الآيات التى جاءت على هذا أيضا قول الله تعالى ﴿وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ (التوبة: ٩٢) فإن الآية قد نزلت بعد مجىء الصحابة الفقراء رضى الله عنهم يسألونه التجهيز للقتال.

وقوله تعالى: "﴿وإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (الجمعة: ١١) فقد نزلت الآية فى جماعة أخبروا بقدوم قافلة التجارة والرسول عليه الصلاة والسلام يخطب فيهم فهبوا لمقابلتها[٢] أي أن مدلول الشرط فى الآيتين ماض قد وقع فعلا.

ويتضح من التأمل فى هذه الآيات أن توجيه الإتيان بـ (إذا) فيها بأحد رأيين:

الأول: أن تكون (إذا) بمعنى (إذ) لكون مدلول الكلام ماضيا أى أن مدلول فعل الشرط قد وقع. ولا مانع من هذا الاعتبار. بل يعتبر مجىء القرآن الكريم بـ (إذا) فى مثل ذلك دليلا قويا لمن يذهب إلى اعتبار (إذا) بمعنى (إذ) لأن تقرير القواعد العربية ببيت من الشعر أمر ثابت ومعترف به عند أهل العربية. فيكون مجيء القرآن بطريقة من طرق الاستعمال أقوى الأدلة على عربيتها وثباتها فى اللغة[٣]

الثانى: أن يكون القصد إلى حكاية الحال عند وقوع الشرط ثم مجىء ما يترتب عليه أى الجزاء– مستقبلا بالنسبة إلى الشرط فتكون (إذا) مستعملة فى موضعها.

---

(١) شرح الكافية ٢ / ١٠٦

(٢) ينظر أسباب النزول للسيوطى ١٦٩

(٣) ينظر تفسير الرازى ٧٦/٣

والحكاية وإن أفادت تحقق مضمون الشرط حال وقوع الفعل فلا تفيد معـنى الاستقبال، إلا أنه يراعى تحقق الجزاء باعتباره استقباليا بـالنظر إلى الـشرط، لكونـه مترتبا عليه ، فيعتبرمضمون الجملة استقباليا بهذا الاعتبار وتكون إذا فى موضعها[1] .

وعندى أن هذا الاعتبار هو الأولى بهذه الآيات. ذلك لأن الوقوف بالمعنى عند المناسبة التى جاءت فيها الآية تضييق لدائرته دون سبب مانع مـن عمومـه. ويكـون القصد فى هذه الآيات الإخبار بأنه كلما وقع هذا الشرط وقع الجزاء المترتب عليـه ، وأن هذا الشرط مستمر الوقوع لإمكانه. وبهذا لا يتعين أن يكون الاستمرار مرتبطـا بمن جاءت فيهم الآية، بل يكون القصد إلى وقوع هذا الشرط وكثرته على اخـتلاف الظروف والأحوال. وتكون هذه الآيات نظيرة الآيات التى يفاد بها معنى الاستمرار.

وقد ذكر أبو حيان ما يفيد الاعتبارين فى مثل هذه الآيات عند تفسيره قول الله تعالى: ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِـي الأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ اللّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِـي قُلُوبِهِمْ وَاللّهُ يُحْيِـي وَيُمِيتُ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (آل عمـران : ١٥٦) قـال: "وإذا ظرف لما يستقبل، وقالوا ماض فلا يمكن أن يعمل فيه. فمنهم من جـرده عـن الاستقبال وجعله لمطلق الوقت بمعنى حين فأعمل فيه (قال). وقال ابن عطية: دخلـت (إذا) وهى حرف استقبال من حيث الذين اسم فيه إبهام يعم من قال فى الماضى ومـن يقول فى المستقبل ومن حيث هذه النازلة تتصور فى مستقبل الزمان .. "[2] .

فاعتبار (إذا) بمعنى (إذا) بمعنى (إذ) ممكن واعتبارها على أصلها أيضا باق على الصحة، وهو فى نظرى أولى، لأنه لا داعى للوقوف بالآية عند مناسبتها مادام يـصح وقوع الشرط ويمكن تجدده.

([1]) تنظر حاشية الأمير على مغنى اللبيب ١/ ٨٧.

([2]) البحر المحيط ٣ / ٩٢.

●مجيء (إذا) بعد حتى:

كثيرا ما تأتى (إذا) فى القرآن الكريم بعد (حتى) فتكون (إذا) وما بعدها غاية لما قبل (حتى) ومحط الاهتمام بدراسة هذا الموضع هو تبين أمرين:

الأول: تبين ملامح الاستقبال فى الشرط بعد (حتى)

الآخر: معرفة ما إذا كان الشرط بعدها مجزوما به أولا، وسر ذلك.

الأمر الأول (زمن وقوع الشرط):

وقد تتبعت الآيات التى جاء فيها (إذا) بعد حتى فوجدت أنها تتنوع إلى نوعين بالنسبة لزمن وقوع الشرط.

النوع الأول:

ويكون الشرط فيه قد وقع فعلا، ويكون مجيء الشرط فيه على الحكاية لما مضى ويصح فى أمثلة هذا النوع اعتبار (إذا) بمعنى (إذ)

وشواهد هذا النوع خمسة عشر شرطا فى خمس عشرة آية هى ما يأتي:

١. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٥٢)

وكلام الزمخشرى عند تفسيره الآية يشير إلى صحة اعتبار (إذا) ظرفية محضة، أو اعتبارها شرطية حذف جوابها. قال: "فإن قلت: أين متعلق حتى إذا؟ قلت: محذوف، تقديره حتى إذا فشلتم منعكم نصره. ويجوز أن يكون المعنى صدقكم الله وعده إلى وقت فشلكم"[1] فقد أشار بأول كلامه إلى أنها شرطية مقدر جوابها، وبقوله: إلى وقت فشلكم- إلى كونها ظرفية مجردة من الشرط. وإن بدا ميله إلى الأول أى اعتبارها شرطية وتكون (حتى) فى الآية ابتدائية بدأت بعدها جملة، وعلى الثانى جارة ل (إذا).

وقد ذكر الشهاب- أيضا- الاحتمالين[2] وزاد أبو حيان احتمال كونها بمعنى (إذ)[3]

([1]) الكشاف ٤٧١/١

([2]) تنظر حاشية الشهاب ٧١/٣

([3]) ينظر البحر المحيط ٧٩/٣

٢. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ (الأنعام: ٤٤)

٣. قال تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ * وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (التوبة: ١١٧، ١١٨)

٤. قال تعالى: ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (يونس: ٩٠)

٥. قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ (هود: ٤٠)

٦. قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ" (يوسف: ١١٠)

٧. قال تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا....﴾ (الكهف: ٧١)

٨. قال تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَاماً فَقَتَلَهُ....﴾ (الكهف: ٧٤)

٩. قال تعالى: "فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا... ﴾ (الكهف: ٧٧)

١٠. قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ (الكهف: ٨٦)

١١. قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ ....﴾ (الكهف: ٩٠)

١٢. قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ (الكهف: ٩٣)

١٣. قال تعالى: ﴿قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً.......﴾ (الكهف: ٩٦)

١٤. قال تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ .... ﴾ (النمل: ١٨)

١٥. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ (غافر: ٣٤)

النوع الثاني:

وهو ما كان الشرط فيه على خطر الوقوع. لأن زمنه لم يأت بعد، وقد تتبعت الآيات التى جاء فيها الشرط من هذا القبيل. فوجدت شواهده أربعة وعشرين شاهدا فى أربع وعشرين آية، وتتنوع حسب طبيعة الدلالة على الجزم فيها.

الأمر الأخر. وهو معرفة ما إذا كان الشرط مجزوما به أولا. وتتبع شواهد الشرط بإذا بعد حتى يكشف أنه مجزوم به.

أما النوع الأول من الشواهد فهو جدير بذلك لكون مدلول الشرط قد وقع فعلا

وأما النوع الثانى وهو ما كان مدلوله استقباليا فهو مجزوم به أيضا وتدخل شواهده فى أضرب المجزوم به حسب طبيعة ما يدل على الجزم به.

وسأذكر الشواهد الأربع والعشربن كل شاهد منها مع ما هو من قبيله مع بيان الضرب الذى يكون منه.

فمثال ما يدخل فى الضرب الأول من المجزوم به لكونه إخبارا بأمور غيبية ما يأتى:

١. قال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ﴾ (الأنعام: ٣١)

٢. قال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدّاً حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضْعَفُ جُندا"﴾ (مريم: ٧٥)

٣. قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ (الأنبياء: ٩٦)

٤. قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاؤُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (النمل: ٨٤)

٥. قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ (الزخرف: ٣٨)

٦. قال تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُواْ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّن الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هَـؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـكِن لاَّ تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ٣٨)

٧. قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ (المؤمنون: ٦٤)

٨. قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ (المؤمنون: ٧٧)

٩. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (النور: ٣٩)

١٠. قال تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (سبأ: ٢٣)

١١. قال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (الزمر: ٧١)

١٢. قال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ (الزمر: ٧٣)

١٣. قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (فصلت: ٢٠)

١٤. قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً﴾ (الجن: ٢٤)

١٥. قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حَتَّىَ إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ﴾ (الأنعام: ٦١)

١٦. قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُوْلَـئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُواْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ﴾ (الأعراف: ٣٧)

١٧. قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ (المؤمنون: ٩٩)

١٨. قال تعالى: ﴿وَابْتَلُواْ الْيَتَامَى حَتَّىَ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَن يَكْبَرُواْ وَمَن كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ..... ﴾ (النساء: ٦)

١٩. قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّى إِذَا جَآؤُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ (الأنعام: ٢٥)

٢٠. قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأحقاف: ١٥)

٢١. قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً﴾ (محمد: ١٦)

٢٢. قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْموْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الأعراف: ٥٧)

٢٣. قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنِّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (يونس: ٢٢)

٢٤. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (يونس: ٢٤)

المبحث الثاني: مخالفة الأصل في استعمال (إذا):

في المبحث السابق تبين أن الأصل في استعمال (إذا) أن تكون مع الشرط المجزوم به، وتبع هذا الأصل كون الشرط معها بلفظ الماضي مواءمة بين الجزم وبين لفظ الفعل بمجيئه على صورة الماضي لكونه أكثر ملائمة من المضارع للجزم.

وفي هذا المبحث تبيان أغراض مخالفة هذا الأصل بمجيء (إذا) مع غير المجزوم به، ومجيء لفظ المضارع معها. وسأبدأ ببيان مجيء لفظ المضارع معها لكون الشرط في شواهده التي جاءت في القرآن الكريم محققا ومجزوماً به. فله صلة بمسائل المبحث السابق في كون الشرط مجزوما به، واتصال بمجيء (إذا) مع غير المجزوم به – وهو ما سيأتي بعد – إن شاء الله – في كونه مخالفا لما هو الغالب أي مجيء الشرط بلفظ الماضي.

- نكتة مجيء المضارع مع (إذا)

عندما غلب البلاغيون مجيء الماضي مع (إذا) نظروا إلى كون الأصل في استعمالها أن يكون مع المجزوم به[1] لكن قد تعرض نكتة أخرى تدفع إلى العدول عن هذا الغالب من مجيء فعل الشرط بصيغة الماضي فيؤتى به بصورة المضارع قصدا إلى تجدد الشرط، وإفادة أنه عادة متجددة وذلك تبعا لما يقتضيه المقام.

وقد تتبعت الآيات القرآنية التي جاء فيها الشرط بأداة الشرط (إذا) فلاحظت أن فعل الشرط قد جاء معها مضارعا في اثنتي عشرة آية وكان في جميعها فعلا للتلاوة، ولم أجد فعل التلاوة مع (إذا) بلفظ الماضي إلا في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (الأنفال : ٢) ولعل السر في ذلك – والله أعلم – لتناسب ماضوية التلاوة مع ماضوية الذكر في الشرط السابق في أول الآية. إشعاراً بتحقق الذكر والتلاوة معا، وأنهما أمران واقعان ثابتان في حياة هؤلاء المؤمنين، فيثبت بمقتضى ترتب الجزاء على الشرط إثبات وجلهم لذكر الله وزيادة إيمانهم. والله أعلم

والآيات التي جاء فيها فعل التلاوة بلفظ المضارع ما يأتي:

١. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاء لَقُلْنَا مِثْلَ هَـذَا إِنْ هَـذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأوَّلِينَ ﴾ (الأنفال : ٣١)

---

[1] ينظر شروح التلخيص ٢/٤٠

٢. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَـذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (يونس : ١٥)
٣. قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً ﴾ (مريم : ٧٣)
٤. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (لقمان : ٧)
٥. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (سبأ : ٤٣)
٦. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (الجاثية : ٢٥)
٧. قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (الأحقاف : ٧)
٨. قال تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (القلم : ١٥)
٩. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾ (القصص : ٥٣)
١٠. قال تعالى:﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَن خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً﴾ (مريم : ٥٨)
١١. قال تعالى: ﴿قُلْ آمِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً﴾ (الإسراء : ١٠٧)
١٢. قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (الحج : ٧٢)

وبالتأمل فى الآيات يبدو ما يأتي من الخصائص والأغراض:

أولا: إن الظاهر من مجيء الشرط مضارعا في الآيات هو إفادة معنى التجدد والوقوع الذي هو مفاد المضارع، وجميع الآيات تتحدث عن التلاوة على الكافرين والمعاندين ماعدا الآيات: التاسعة والعاشرة والحادية عشرة.

ثانيا: إنه عندما قصد- والله أعلم- إلى تحقق الجزاء وأن وجـوده في حكـم المحقق المفروغ منه جيء به بلفظ الماضى في الآيات ماعدا الآية الحادية عشرة والثانيـة عشرة. وعندما قصد معنى التجدد مناسبة للغـرض أتـى بـه مـضارعا فى الآيـتين المذكورتين.

وهذا الفرق يتضح جيدا بملاحظة الآيتين العاشرة والحادية عـشرة فقـول الله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَن خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً﴾ (مريم : ٥٨) يبدو- والله أعلم- أن المناسب للغرض هو الإشعار بتحقق الوقوع وأنه مـن شـأنهم الثابـت فى حياتهم، فناسبه المجيء بالجزاء بلفظ الماضى. لكون السجود فى حياة الأنبياء- وهم من تتحدث عنهم الآية- حاصل وثابت. وعندما كان الغرض الإشعار بتجدد هذا الشرط وكذلك الجزاء جيء بهما مضارعين كما فى قوله تعالى: ﴿ إِذَا يُتْلَى عَلَـيْهِمْ يَخِـرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً﴾ (الإسراء : ١٠٧)

وذلك يناسب ما يتجلى لأهل العلم من آيات على عظمة الله عند التلاوة التي تتجدد عليهم فيسارعون إلى السجود إعظاما لما وجدوه موافقا لعلـومهم وعقـولهم. فالمضارع أشد إيفاء بتصوير هذه الحركة الناشئة عن التلاوة بمـا فيهـا مـن صـورة خرورهم ساجدين لله عندما يسمعون القرآن. ونظير ذلك فى الجزاء قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (المائدة : ٨٣)

ويتضح ذلك- أيضا- فى قوله تعالى: "وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ". ففعل الجزاء (تعرف) أفهم بصيغته أن هذا المنكر يعـرف منهم أشد معرفة وظهورا عند تلاوة الآيات. وكأن إنكارهم يزداد بشاعة وتعنتا عندما تتلى عليهم الآيات وكأنه يبده الناظر لأول مرة لغرابة وجوههم الكالحة التي أنكرت. ثم تزداد إنكارا وتجهما عندما تنزل الآيات.

وقول أبي السعود عند تفسيره قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَـاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَـذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ (يونس : ١٥)

قوله: "وصيغة المضارع للدلالة على تجدد جوابهم الآتي حسب تجدد التلاوة"[١] ليس بشيء. ذلك لأن مضارعيه الشرط تفيد تجدده لا تجدد الجزاء، لأن ما يستفاد من جملة الشرط هو حصول الجزاء عند حصول الشرط، على أن المجيء بـالجزاء ماضـيا

---

(١) تفسير أبي السعود ٥ / ٢٦٥

يشعر بثبات حالهم من العناد مع تجدد التلاوة عليهم. لكن عند إرادة إبـراز الـصورة متجددة ومتكررة الحصول فهذا أمر يرتبط بمضارعيه نفس الجزاء دون الشرط. يؤيـد ذلك استفادة تجدد الجزاء لكونه مضارعا مع أن الشرط ماض فى قوله تعـالى: ﴿ وإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ (المائـدة : ٨٣) وقولـه تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَآؤُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِـينَ﴾ (الأنعام : ٢٥)

فقد جاء الجزاء فى الآية الأولى (ترى) مضارعا لمعنى التجدد مع كون الـشرط (سمعوا) ماضيا. وكذلك جاء الشرط فى الآية الثانية ماضيا وهو (جاءوك) وجاء جزاؤه مضارعا لإفادة التجدد وهو (يقول) استحضارا لصورة قولهم، وأنه مـستمر يتجـدد وقوعه، وأنه بحيث كلما انتهت منهم مقالة نشأت فيهم مقالة أخرى. والله أعلم .

مجيء (إذا) مع غير المجزوم به :

بعد أن ذكر البلاغيون أن الأصل فى استعمال (إن) أن يكون مع غير المجـزوم به ذكروا الأغراض التى تخرج لأجلها (إن) عن هذا الأصل فى الاستعمال[1] لكنـهم بعد أن أصلوا لـ (إذا) استعمالها فى المجزوم به، لم يأتوا بالأغراض التى تخرج لهـا (إذا) عن هذا الأصل باستعمالها فى غير المجزوم به.

وقد أشار ابن يعقوب إلى ذلك وعلله قائلا: كان ينبغى للمصنف (الخطيـب) حيث ذكر أن (إن) قد تخرج عن أصلها أن يذكر أن (إذا) كذلك، كما أشعر به قوله: وأصل (إذا) الجزم بوقوع الشرط. فيقول- مثلا- " وقـد تـستعمل (إذا) فى مقـام الشك، للإشعار بأن الشك فى ذلك المقام مما لا ينبغي لعدم مناسبته. كقولك لمن قـال: لا أدرى هل يتفضل الأمير بهذا النوال أم لا؟ إذا تفضل عليك كيف يكون شـكرك؟ إشعارا بأن الأمير لكرمه لا ينبغى الشك فى تفضله ونحو ذلك. ولعله لم يذكره لقلتـه بالنسبة لخروج (إن) عن أصله فأنظره"[2]

والنظر فى مواضع استعمال (إذا) فى المشكوك فيه مهم، لما فيه من استيفاء مـا تركه البلاغيون بتجلية النكت التي جيء به من أجلها فى هذه المواضع. على أن هـذا المسلك يدق على الباحث نظرا لأن الفاصل الذى يميز بين اليقين والشك فى شـواهد (إذا) يحتاج إلى الدقة فى إدراكه والوصول إليه. وهو يحوج إلى تحوط وحـذر شـديد

---

(1) ينظر شروح التلخيص ٤٣/٢ وما بعدها

(2) مواهب الفتاح = شروح ٥٠/٢

خاصة مع القرآن الكريم، وذلك للوقوف عند تأويل الآيات وفهمها فهمـــا يناسـب جلاله والأغراض التي من أجلها سيق الكلام.

وقد أشار الزركشي إلى دقة المسلك في ذلك قائلا: "وأما(إذا) فظـاهر كـلام النحاة يشعر بأنها لا تدخل إلا علي المتيقن وما في معناه. نحـو إذا طلعـت الـشمس فأتني... وأما قوله تعالى: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً﴾ (الإنسان : ٢٨) فقد أشكل دخولها على غير الواقع" ثم أجاب عن هذا الإشكال بأحد احتمـالين: إلا أن تعليلـه الاحتمال الثاني لا يسلم له.

قال: "وأجيب بأن التبديل محتمل وجهين:

أحدهما: إعادتهم في الآخرة لأنهم أنكروا البعث.

والثاني: إهلاكهم في الدنيا وتبديل أمثالهم، فيكون كقوله: ﴿إِن يَشَأْ يُـذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ (النساء : ١٣٣) فإن كان هذا في الدنيا، وجب أن يجعـل هذا بمعنى (إن) الشرطية. لأن هذا شيء لم يكن. فهي مكان (إن) لأن الشرط يمكن أن يكون وألا يكون. الا ترى إلى ظهورها في قوله تعالى: ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّـاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ (النساء : ١٣٣) و﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ (سبأ : ٩) إنما جاز لإذا أن تقع موقع (إن) لما بينهما من التداخل والتشابه"[١] فإنه إن صـح الاحتمـالان المذكوران إلا أنه لا يسلم له كون مجيء (إذا) موضع (إن) للتشابه والتداخل. لأن هذا يذهب بخصوصية كل حرف منهما في الاستعمال، وهو الأمر الذى اتفق عليه. وإن كا يقصد التداخل باستعمال أحدهما مكان الآخر. فإن هذا لا يغني عن إظهار النكتـة في ذلك. فضلا عن عدم صراحة هذا القصد.

وقد سبق كل من الزمخشري والرازي بذكر طريق اسـتعمال (إذا) في الآيـة الكريمة. فالزمخشري يرى أن (إذا) في الآية مستعملة موضع (إن) يقـول: "وحقـه أن يجيء بإن لا بإذا كقوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ﴾ (محمد : ٣٨) و﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ﴾ (النساء : ١٣٣)

فالزمخشري يرى التبديل في الدنيا وقد جيء به على سبيل الفرض والتقـدير. أما الرازي فيرى أنه متيقن الوقوع في الدنيا ولا يرضى بما قاله الزمخـشري فيقـول: "واعلم أن هذا الكلام- أي كلام الزمخشري- كأنه طعن في لفظ القرآن وهو ضعيف لأن كل واحد من (إن) و (إذا) حرف الشرط إلا أن حرف (إن) لا يـستعمل فيمـا

(١) البرهان للزركشي ٤/٢٠٠- ٢٠١

كان معلوم الوقوع. تقول: آتيك إذا طلعت الشمس. فها هنا لما كان الله تعالى عالما بأنه سيجيء وقت يبدل الله فيه أولئك الكفرة بأمثالهم في الخلقة وأضدادهم في الطاعة لا جرم حسن استعمال حرف (إذا)."[1] لكن قوله (أحسن) قد يفهم عدم وجوب (إذا) هنا مع أنه يتعين حسب ما ذهب إليه.

وقد استدل أبو السعود استدلالا جيدا على المعنى عن طريق استعمال الأداة (إذا) وبين أن هذا التبديل سيقع وأنه محقق. قال: "..." وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ" (الإنسان : ٢٨) بعد إهلاكهم تبديلا بديعا لا ريب فيه. هو البعث. كما ينبئ عنه كلمة (إذا) أو بدلنا غيرهم ممن يطيع كقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ﴾ (التوبة : ٣٩) وإذا للدلالة على تحقق القدرة وقوة الداعية"[2] فهو يرى أن الشرط وهي مشيئة التبديل محقق الوقوع سواء كان التبديل في الآخرة أو في الدنيا. والله أعلم بمراده.

وضح إذا أهمية البحث عن مواطن استعمال (إذا) في غير المحقق والنكتة فيه، مع الاحتياط حسب الجهد والطاقة في تعيين الغرض عندما تخرج (إذا) عن موضع استعمالها.

وبتتبع شواهد (إذا) في القرآن وجدها تستعمل في المشكوك فيه الذي هو موضع (إن) للأغراض الآتية:

أغراض مجيء (إذا) مع غير المجزوم به:

- **الغرض الأول**: تنزيل الغالب منزلة المحقق لكثرة الأسباب والدواعي لتحقق الشرط ووقوعه، وإنما لم يكن على سبيل القطع، لوجود ما يمكن أن يعارض تحققه وإن كان أقل من أسباب التحقق. وشواهده سبعة شروط في سبع آيات هي ما يأتي:

١. قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران : ١٥٩)

فالعزم وهو القطع والإيجاب-كما تفيده كتب اللغة. كما يقال عزمات الله[3]- غير محقق الوقوع لخصوص أمر ما كالحرب مثلا كما هو مقام الآية، لكن وجود الأسباب والدواعي لوجود هذا العزم من المشورة فيها وجمع المسلمين حوله عليه

([1]) تفسير الرازي ٢٨٧/٨

([2]) تفسير أبي السعود ٣٢٤/٨

([3]) تنظر حاشية الشهاب ٧٦/٣

الصلاة والسلام– كل ذلك يساعد على تحقق البت فى الأمور، وجىء بـــ (إذا) هنـــا موضع (إن) لهذا المعنى. والله أعلم.

٢. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَـــدَيْتُمْ إِلَى اللّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة : ١٠٥)

فالشرط وهو (اهتديتم) غالب الوقوع لكثرة أسباب الهداية والرشاد. ويصح اعتبار (إذا) هنا ظرفية مجردة عن الشرط.

٣. قال تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِنَّ اللّـــهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ (الرعد : ١١)

فقد توافرت الأسباب والدواعى لتحقق نزول العذاب بهم لأنهم غـــيروا مـــا بأنفسهم من الطاعة إلى المعصية.

٤. قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾ (الإسراء : ١٦)

فقد تهيأت الأسباب الداعية لإهلاكهم من فسقهم وانحـــرافهم بعـــد أمـــرهم بالإيمان والطاعة على لسان الرسول المرسل إليهم فاستحقوا معالجتهم بالعـــذاب دون إمهالهم.

٥. قال تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُـــسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ* وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً اتَّخَذَهَا هُزُواً أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (الجاثية : ٧، ٨ ، ٩)

فالشرط فى الآية وهو (علم) تتهيأ له الأسباب لتحققه لأن السماع للآيـــات والمحقق وقوعه يهيىء للمستمع أسباب العلم بما يسمع. لكن الناس مختلفون، فمنهم من يعلم ومنهم من لا يعلم. والشيء الذى يعلم: آية فيها معنى من المعانى كما كان مـــن أبى جهل عندما سمع قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ* طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴾ (الـــدخان : ٤٣ ، ٤٤) إذ دعا بتمر وزبد فقال: تزقموا من هذا. ما يعدكم محمد إلا شهدا[1] أو علـــم بمعنى حفظ شيئا من القرآن[2] والسماع من أقوى أسباب الحفظ. والله أعلم.

([1]) ينظر تفسير الطبرى ١٤٢/٢٥

([2]) ينظر تفسير ابن كثير ٤/ ١٤٩

٦– ٧ قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ﴾ (محمد : ٢٠) *طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ ﴾ (محمد : ٢١)

فالشرطان فى الآيتين– والله أعلم بمراده–فى موضع الراجح الوقوع لأن الأول (نزلت) متمنى من المؤمنين ومرغوب فيه فأسباب ذلك مهيأة كما أن أسباب العزم على القتال كثيرة أيضا فالشرط الثانى (عزم) يغلب تحققه نظرا لما كان يحيط بالمسلمين من أسبابه.والله أعلم.

- **الغرض الثاني:** تنزيل الغالب منزلة المحقق لكون الشرط من الأحوال الغالبة فيكون بذلك قريبا من المجزوم به فينزل منزلته ويؤتى بإذا معه.

وشواهده ستة شروط فى ست آيات هى ما يأتى:

١. قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُواْ اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ﴾(البقرة : ٢٠٠)

فالشرط هنا وهو (قضيتم مناسككم) من الأحوال الغالبة التحقق، ولا يمنع منها مانع إلا فى القليل.

٢. قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُواْ الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً﴾ (النساء : ٨)

فالشرط وهو حضور الأقارب واليتامى والمساكين وقت قسمة تركة الميت من الأمور التى تقع فى غالب الأحوال، فنزل الغالب منزلة المحقق وجيء معه بـ (إذا) التى هى للمحقق.

٣. قال تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ﴾ (النساء : ١٠٢)

فإن الشرط وهو كون الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم هو غالب أحوال المسلمين فى حروبهم وكانت السرايا أقل من الغزوات التى شهدها الرسول عليه أفضل الصلاة وأتم السلام. أما الشرط الثانى (سجدوا) فهو محقق، واستعملت معه (إذا) على الأصل.

٤. قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (النحل : ٥٨)

٥. قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (الزخرف : ١٧)

فالشرط وهو التبشير بولادة الأنثى كثير غالب فى حياة الناس ويقل أن لا يبشر أحدهم بالأنثى. (ويهب لمن يشاء الذكور) فتزل الغالب منزلة المجزوم به والله أعلم

٦. ومثله أيضا قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ (الطلاق : ٢)

فإن بلوغ أجل العدة أى مقاربة انتهائها غالب حالات الطلاق. ثم رتب الجزاء على وجود الشرط، والإمساك بالمعروف لا يتوقف على بلوغ الأجل ومقاربته، بل يمكن الإمساك قبل انتهاء العدة ومراجعتها فى أولها. لكن مقاربة العدة غالب الأحوال. والله أعلم.

- **الغرض الثالث: الحث والترغيب على وقوع الشرط.**

ويتحقق ذلك عندما يكون الشرط مرغوبا فيه مع كونه محتمل الوجود وعدمه، فيؤتى معه (بإذا) إشعارا بأهميته، وأنه ينبغى أن يوجد كما توجد الأمور المجزوم بها.

وشواهده ثلاثة عشر شرطا فى ثلاث عشرة آية هى ما يأتى:

١. قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (البقرة : ١٨٦) فالشرط الثانى وهو قوله تعالى: "دعان" جىء به مع (إذا) حثا لأن يكون الدعاء لله والتوجه إليه فلا يشرك معه أحد غيره.

٢. قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة : ٢٢٢)

جاء (إذا) مع الشرط (تطهرين) إظهارا له فى صورة المجزوم به. والذى لا يقع الجزاء إلا به حثا على ذلك وترغيبا فى مراعاة ما شرعه الله لعباده. وقد وعدهم بحبه فى قوله تعالى (إن الله يحب التوابين) أي عما فعلوا من الإتيان فى المحيض (ويحب المتطهرين) الذين يأتون فى طهر. والله أعلم

٣. قال تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْاْ بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ (البقرة : ٢٣٢)

فالشرط الثانى وهو تراضى الزوج والزوجة على النكاح مرة أخرى هو الشاهد. وهذا الشرط غير محقق الوقوع ولكن جيء به مع (إذا) حثا لهم على أن يكون هذا التراضى واقعا، وأن يثبت ثبوت الأمور الواضحة التى لا يشك فيها. والله أعلم.

٤ . قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُواْ أَوْلاَدَكُمْ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (البقرة : ٢٣٣)

فالشرط وهو تسليم ما آتوه بالمعروف ليس محقق الوقوع لكن أبرز مع (إذا) فى صورة المجزوم به حثا على فعله ، وتنبيها إلى أنه ينبغى أن يكون. قال البيضاوى: "وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله. وليس اشتراط التسليم لجواز الاسترضاع بل لسلوك ما هو الأولى والأصلح للطفل"[١] ثم قال الشهاب مبينا وجه قول البيضاو . بأنه الأولى والأكثر صوابا: "ووجهه أنه شبه ما هو من شرائط الأولوية بما هو من شرائط الصحة للاعتناء به. فاستعير له عبارته"[٢]

أى أنه جاء به بأسلوب الشرط الذى يتوقف فيه وقوع الجزاء على وقوع الشرط وذلك لبيان أهميته. ولا شك أن من تمام التنبيه على أهمية التسليم إظهاره فى صورة الأمر المحقق المتيقن وقوعه بمجيئه مع (إذا) المفيدة لذلك. فيتم الترغيب فى ذلك والحث على وقوع الشرط، والله أعلم.

٥ . قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (البقرة : ٢٣٤)

فالشرط وهو (بلغن أجلهن) جاء مع (إذا) إشعارا بأن هذا هو الفرض الواجب، فلا يحل لإحداهن الزواج قبل العدة. وأنهن لو فعلن ما هو منكر كان على الأئمة وأولياء أمورهن أن يكفوهن وإن فرطوا كان عليهم الجناح[٣]

٦ . قال تعالى: ﴿ وَابْتَلُواْ الْيَتَامَى حَتَّىَ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَن يَكْبَرُواْ وَمَن كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللّهِ حَسِيباً﴾ (النساء : ٦)

---

(١) تفسير البيضاوى ٣٢٠/٢

(٢) حاشية الشهاب ٣٢٠/٢

(٣) ينظر تفسير الرازى ٣٩٩/٢

فالشرط (دفعتم إليهم أموالهم) جيء به مع (إذا) إشارة وتنبيها إلى أن ذلك أمر مطلوب ينبغي الحرص عليه. وأنه لا يصح أن يتردد فيه أحد أو يشك فيه. والله أعلم.

٧. قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُواْ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً﴾ (النساء : ١٠٣)

فالشرط (قضيتم الصلاة) مجزوم به محقق فى حياة المسلم. والشرط (اطمأننتم) جيء به مع (إذا) حثا على أن تكون الصلاة فى حالة الاطمئنان وسكون النفس والجوارح لتأخذ حقها. وهو عنصر مهم فى إقامة الصلاة."قال أبو حنيفة رضى الله عنه لا يصلى المحارب حتى يطمئن"[١]

٨. قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (المائدة : ٥)

فالشرط وهو إيتاء الأجور غير محقق لأنه قد يعطى من يرغب الزواج منهن الأجر فتحل له وقد لا يعطى فلا تحل له. والمجيء بإذا للحث على وقوع الشرط والتأكيد عليه وأنه ينبغي أن يكون. فتأكيد وجوب الشرط لصحة الزواج مستفاد من مجيء (إذا) أما مجرد التقييد بإيتاء الأجور بصرف النظر عن نوع الأداة فهو لوجوب إيتاء المهر لصحة الزواج.

وقد ذهب الرازى إلى أن التقييد بالشرط أفاد تأكد الوجوب وأظنه قد غفل عن أن التأكيد الذى لا حظه فى الآية مستفاد من كون الأداة (إذا) لا من مجرد التقييد وعبارته:"وتقييد التحليل بإيتاء الأجور يدل على تأكد وجوبها وأن من تزوج امرأة وعزم على أن لايعطيها صداقها كان فى صورة الزانى"[٢] ومن قبيله أيضا ما جاء فى تفسير البيضاوى قال:"وتقييد الحل بإيتائها لتأكيد وجوبها والحث على ما هو الأولى"[٣] وقد ذكر أبو السعود ذلك أيضا بل نقل عبارة البيضاوى قائلا: "إذا آتيتموهن أجورهن أى مهورهن. وتقييد الحل بإيتائها لتأكيد وجوبها والحث على الأولى"[٤]

([١]) تفسير البيضاوى ١٧٤/٣

([٢]) تفسير الرازى ٣٦٣/٣

([٣]) تفسير البيضاوى ٢١٩/٣

([٤]) تفسير أبي السعود ٣٦١/٣

ولاشك أن العبارة: (والحث على الأولى) قد تفهم عدم توقف الجزاء على الشرط بأن يكون الزواج دون المهر خلاف الأولى. وفرق بين الوجوب الذى يثبت بوجود الشرط أى تعليق صحة الزواج على المهر توجب المهر. وهو يثبت سواء كانت الأداة (إذا) أو (إن)- وبين تأكد الوجوب الذى لا يستفاد إلا بأداة الشرط (إذا) يدل على ذلك أنه لو قيل فى غير القرآن الكريم إن آتيتموهن أجورهن لثبت وجوب إيتاء المهور كما يثبت مع (إذا) لكن المجىء (بإذا) وإظهاره فى صورة المتيقن الثابت يؤكد هذا الوجوب ويظهر الرغبة فيه. والله أعلم.

٩. قال تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُواْ عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾ (المائدة : ٢٣)

فالشرط وهو دخول قوم موسى على العمالقة لم يكن متيقنا فى نظر الرجلين لما كان من قوم موسى من التردد وعدم الإقدام. وقد جاءا مع الشرط بـ (إذا) حثا لقوم موسى، وأن ذلك مما ينبغى أن يكون منهم ثقة فى نصر الله ووعد الرسول.

قال الرازى: " إنما جزم هذان الرجلان فى قولهما: فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ، لأنهما كانا جازمين بنبوة موسى عليه السلام، فلما أخبرهم موسى عليه السلام بأن الله قال ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم جزم قطعا بأن النصرة لهم والغلبة حاصلة فى حياتهم"(١)

وقد جزم الرجلان بتحقق النصر ولذلك كان منهم التأكيد لهم باسمية الجملة و(إن). لكن لم يكونا جازمين بدخولهم. ولذلك جاءا بأداة الشرط (إذا) حثا على الدخول وإظهارا للرغبة فيه. والله أعلم.

١٠. قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ إِذَا مَا اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (المائدة : ٩٣)

فالشرط وهو اتقاء المؤمن ما حرمه الله مع هذا الإيمان والعمل الصالح جىء معه بـ (إذا)- والله أعلم بمراده- حثا للمؤمنين على التقوى، وكأن هذا الشىء المرغوب واقع ضرورة الإيمان ، لكن قد يوجد الإيمان وتقع المعاصى- ورفع الجناح عند التقوى يتحقق مع كون الشرط بـ (إن). ونكتة المجىء بـ (إذا) هو- كما ذكرت- الحث على التقوى وأن الشأن فيهم ماداموا مؤمنين أن يتقوا أكل المحرمات وشربها.

---

(١) تفسير الرازى ٣٨٩/٣

وكلام أبي السعود عند تفسير الآية يفهم أن (إذا) مستعملة في المجزوم به. قال: "إن مساق النظم الكريم بطريق العبارة وإن كان لبيان حال المتصفين بما ذكر من النعوت فيما سيأتي بقضية كلمة (إذا ما) لكنه قد أخرج مخرج الجواب عن حال الماضين لإثبات الحكم في حقهم...."[1] على أن المحقق الاتصاف به بدلالة المقام والسياق هو صفة الإيمان وعمل الصالح. ثم علق رفع الجناح على التقوى بأن تضم إلى ما اتصفوا به من الإيمان وعمل الصالحات كما أشار إليه أول الآية من وصفهم بذلك. فالآية علقت رفع الجناح عن المؤمنين على تقواهم فيما يطعمون. وجاءت بـ (إذا) حضا لهم وحثا على كمال إيمانهم وتقواهم. والله أعلم.

١١. قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاء وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة : ٩١)

فالشرط في الآية (نصحوا لله ورسوله) محتمل الوقوع وإنما جيء به مع (إذا) على سبيل الحث والتهييج وأنه ينبغي أن يكون منهم النصح بحيث لا يصير فيه شك، وذلك بمقتضى الإيمان بالله والرسول.

١٢. قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً﴾ (الأحزاب : ٤٩)

فالشرط وهو (نكحتم المؤمنات) ليس مجزوما به لصحة نكاح الكتابية، والحكم المرتب عليه ليس خاصا بنكاح المؤمنات وإنما جرى على الغالب. وإنما جاءت (إذا) المفيدة للجزم بوقوعه للحث لهم أن يكون زواجهم من المؤمنات دون غيرهن. قال الزمخشري: "فإن قلت: لم خص المؤمنات والحكم الذي نطقت به الآية تستوي فيه المؤمنات والكتابيات؟ قلت: في اختصاصهن تنبيه على أن أصل أمر المؤمن والأولى به أن يتخير لنطفته وأن لا ينكح إلا مؤمنة عفيفة. ويتنزه عن مزاوجة الفواسق فما بال الكوافر...."[2] فمن أدلة كون (إذا) هنا في غير موضعها كون هذا الحكم ليس خاصا بزواج المؤمنات وإنما ينطبق أيضا على الكتابيات. والله أعلم

([1]) تفسير أبي السعود ٤/٤٤

([2]) الكشاف ٣/٢٦٧

١٣. قال تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (الممتحنة : ١٠)

فالشرط فى الآية (إذا آتيتموهن أجورهن) جيء معه بـ (إذا) حثا على إعطاء المهور للنساء. وترغيبا لأن يكون حالهم وشأنهم هو إيتاء المهور دون مجاوزة الحد وظلم النساء. والآية نظير الآية الخامسة من سورة المائدة والتى مرت وفيها ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ (المائدة : ٥)

أى أن الشأن يجب أن يكون من الحرص والمحافظة على إيتاء الأجور والله أعلم.

• **الغرض الرابع: التفاؤل:**

وقد يؤتى بـ (إذا) فى موضع ما يحتمل الوقوع رجاء وتفاؤلا بوقوعه لكونه مرغوبا.

وشواهده أربعة شروط فى أربع آيات هى ما يأتى:

١. قال تعالى: ﴿......فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (البقرة : ١٩٦)

فالشرط هنا وهو (أمنتم) جيء به مع (إذا) مع أنه مما يحتمل الوقوع تفاؤلا بأن يتحقق لهم الأمن بعد الإحصار. وهذا إذا كان الخطاب للمحصرين، أما إن كان لهم ولغيرهم فيكون من تغليب الآمنين على المحصرين والاحتمالان أشار إليهما العلماء.

قال أبو حيان: " الخطاب ظاهره أنه عام فى المحصر وغيره ، أى فإذا كنتم فى حال أمن وسعة. وهو قول ابن عباس. وقال عبد الله بن الزبير وعلقمة وإبراهيم: الآية فى المحصرين دون المخلى سبيلهم"[1] ويراعى فى النكتة الاعتباران المذكوران.

٢. قال تعالى: ﴿فَإنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُواْ اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة : ٢٣٩)

---

(١) البحر المحيط ٧٧/٢

فالشرط الثانى وهو (أمنتم) جيء به مع (إذا) مع أن مقابله وهو الخوف جيء معه بـ (إن) وكلاهما حالة محتمل وقوعها. وذلك تفاؤلا بأن يتحقق أمنهم بعد الخوف جيء معه بـ (إن) وكلاهما حالة محتمل وقوعها. وأن هذا كالموثوق به الذى لا يشك فيه. والله أعلم.

٣-٤ قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ *طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ (محمد ٢٠ : ٢١)

ففى الآيتين السابقتين شرطان: (أنزلت سورة) و (عزم الأمر) وقد جاء معهما حرف الشرط (إذا) والنكتة فى ذلك التفاؤل وطرح السرور فى نفوس المؤمنين الذين ينتظرون نزول السورة. وأن يتجه القصد والنية إلى حرب الكافرين الذين طالما آذوهم وجاوزوا الحد فى منع المسلمين عن دينهم وإخراجهم من ديارهم. ولا يتعارض هذا الغرض مع صحة اعتبار النكتة فى ذلك تهيؤ الأسباب والدواعى مما يجعله فى حكم المجزوم به.

- **الغرض الخامس : التغليب:**

وذلك بأن يغلب المجزوم وقوع الشرط منه على المشكوك فيه، فيبرز الشرط فى صورة المحقق الواقع . وأمثلة ذلك الشرطان فى الآيتين الآتيتين:

١- قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (آل عمران : ١٣٥)

فقد جاءت الآية الكريمة بـ (إذا) مع الشرط (فعلوا فاحشة) تغليبا لمن يجزم بوقوعها منهم على من لا يجزم بوقوعها منهم ومن لا تقع منه ألبتة. لأن الشأن الغالب فى المؤمن عدم فعل الفاحشة ، والناس فى ذلك مختلفون. قال الزمخشرى : " وفى هذه الآيات بيان قاطع أن الذين آمنوا على ثلاث طبقات: متقون وتائبون ومصرون"[1]. فقد غلب جانب من يتوب على جانب من لم يصنع الفاحشة ولا يكون من أهلها -جعلنا الله من المهديين-.

---

(1) الكشاف ١/ ٤٦٥.

٢- قال تعالى : ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (المائدة: ٨٣)

فقد غلبت الآية الكريمة جانب القسيسين الذين يقع منهم سماع القرآن على الذين لا يسمعونه. فهو إخبار عنهم بما جرى من بعضهم وذلك كما حصل من النجاشي عندما تلي عليه سيدنا جعفر بن أبي طالب سورة مريم إلى قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ (مريم : ٣٤)، وسورة طه إلى قوله تعالى : ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ (طه:٩)، فبكى وبكى معه قومه لما سمعوا من الذكر الحكيم.[١] وصلى الله على جميع أنبيائه ورسله.

---

(١) ينظر البحر المحيط ٤/ ٥.

الفصل الرابع
أسرار تقييد المسند بـ (لـو)
فى القرآن الكريم

المبحث الأول: (تحديد دلالة "لو")

عبارات النحاة فى (لو) الامتناعية:

ما يعنى به البحث من كلام النحويين:

تتناول العبارات التى ذكرها النحويون ف (لو) أمرين:

الأول: ما يستفاد من معنى عند التقييد بها، والذى هو محل اهتمام البلاغيين، لكونهم يهتمون بدلالة التراكيب فى الكلام.

الثانى: بيان ما يتعلق بالحكم الإعرابي للجملة شرطاً وجزاء، وما يتصل بذلك من مسائل تدخل فى إطار دراسة الجانب الشكلى للجملة. وكذلك تنويع وجوه استعمالها: شرطية امتناعية، أو شرطية فى المستقبل، أو مصدرية أو للتمنى، أو للعرض، إلى غير ذلك مما هو مبسوط فى كتب النحو(١).

ويلحظ في العبارات التي ذكرها النحويون في (لو) مسلك المزج بين التناول الشكلي للتراكيب الذي هو سمة غالبة في المباحث النحوية ، وبين ما يطلبه علم المعاني من تناول مضمون التراكيب ودلالاتها.

وهذا المسلك يُجدّ فى سبيل الأخذ به فى دراسة النحو كثيرون. لكى لا تكون الدراسة النحوية دراسة شكلية خالية من الإدراك للمعنى، والتناول للمضمون، ويرون أنه ينبغى أن يكون لها اهتمامها بالعبارة لفظاً ومعنى، كما كان من دراسة النظم عند عبد القاهر(٢) .

والجانب الذى يهتم به هذا البحث هو ما ذكره النحويون والبلاغيون عن (لو) الامتناعية. أما حديثهم عن أنواعها الأخرى فلن تتعرض له هذه الدراسة إلا بإشارات خفيفة عندما يقتضى الأمر ذلك. ذلك لأن (لو) فى هذه الأحوال هى – فى حقيقتها – مستعملة محل حرف آخر يعد أصلاً فى الاستعمال للدلالة على المعنى المفاد بـ (لو) المستعملة محله وذلك كـ (لو) الشرطية المستعملة مكان (إن) و (لو) التى للتمنى المستعملة محل (ليت) وهلم جرا.

---

(١) ينظر معنى اللبيب ٢٠٥/١ وما بعدها والصبان على الأشمونى ١٤/٤.

(٢) ينظر اللغة العربية معناها ومبناها ٣٣٦.

عبارة المعربين: يجرى المعربون عند إعرابهم الجملة المشتملة على (لو) الامتناعية الدالة على الشرط فى الماضى على قولهم: بأن لو "حرف امتناع لامتناع"[1] أى أنها تدل فى قول القائل: لو زرتنى لأكرمتك على امتناع الجزاء وهو الإكرام لامتناع الشرط، وهو الزيارة. ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَـكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ (الأعراف : ١٧٦) فقد امتنع الجزاء وهو الرفع لامتناع الشرط وهو المشيئة الإلهية لوقوعه.

الاعتراض على العبارة:

والواقع أن الأمثلة لا يطرد فيها الامتناع للامتناع ، ذلك لأنه يتخلف فى موضعين:

الأول: أن لا يكون الشرط هو السبب الوحيد لوقوع الجزاء بأن يكون ثمة أسباب أخرى لتحققه. فلا يتوقف وجوده على وجود الشرط المذكور. وعلى هذا يكون امتناع الشرط المذكور بحكم دلالة (لو) غير مقتض لامتناع الجزاء. وذلك كما لو قيل: لو فقد الماء هلك الناس. فإن للهلاك أسباباً متعددة. وفقد الماء واحد منها. لذا فامتناع الشرط وهو فقد الماء، بأن يكون الماء موجوداً، غير مقتض لامتناع الجزاء وهو هلاك الناس. بأن لا يهلك الناس عند وجود الماء. لكون الهلاك لا يتوقف على فقد الماء. لجواز حصوله بسبب آخر.

وقد يكون الجزاء لازماً للشرط، فلا يتعين لانتفاء الشرط وهو الملزوم انتفاء الجزاء وهو اللازم. لجواز أن يكون لهذا اللازم – أى الجزاء – ملزومات أخرى غير الشرط.

وذلك فى مثل: لو كان هذا إنساناً لكان حيواناً. فإن الحيوانية لا تتوقف على الإنسانية لجواز وجود الحيوانية مع الفرسية أو الحمارية مثلاً. فامتناع الشرط وهو الإنسانية وانتفاؤه لا يستلزم انتفاء الحيوانية الذى هو الجزاء.

الثانى: أن يكون الجزاء متعين الوجود دائماً، وجد الشرط أو امتنع وذلك لفقدان علاقة السببية واللزومية بين الشرط والجزاء. اللهم إلا مناسبة مجرد الاقتران خارجاً بين الشرط والجزاء. فلا يقتضى امتناع الشرط امتناع الجزاء بل يوجد مع كونه ممتنعاً. وقد استشهد ابن هشام بعدة شواهد من القرآن الكريم من هذا القبيل لإبطال كون الجزاء يمتنع لامتناع الشرط قائلاً: "وهو– أى امتناع الجزاء لامتناع الشرط –

---

(١) ينظر مغنى اللبيب ٢٠٧/١، وشرح المفصل ١٥٦/٨، وشرح الأشمونى للألفية وحاشية الصبان عليه ٢٩/٤.

باطل بمواضع كثيرة منها. قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ﴾ (الأنعام : ١١١) ، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ (لقمان : ٢٧) وقول عمر رضى الله عنه[١]: "نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه"[٢]

وذلك لأن امتناع الشرط فيها – وهو نزول الملائكة فى الآية الأولى، وكون ما فى الأرض من شجرة أقلاماً فى الآية الثانية – وعدم الخوف فى الأثر – لا يستلزم امتناع جواب كل منها. وإلا لكان الإيمان فى الآية الأولى ثابتاً وواقعاً وكذلك نفاد الكلمات ووقوع المعصية مع الخوف. وهو باطل. ثم يقول ابن هشام: "وقد اتضح أن أفسد تفسير لـ (لو) قول من قال: حرف امتناع لامتناع. وأن العبارة الجيدة قول سيبويه رحمه الله: حرف لما كان سيقع لوقوع غيره"[٣] وكلامه واضح فى أن فيه فرقاً بين العبارتين مع دقة عبارة سيبويه. على أن هذا يحوج إلى النظر فى عبارة سيبويه لتبين مدى الاتفاق أو الاختلاف بينهما.

عبارة سيبويه: قال سيبويه: "..... وأما (لو) فلما كان سيقع لوقوع غيره"[٤]. قال السبكى: "وتحرير معناها الذى يتبدر إلى الذهن، أن معنى كلامه أن لو تدل بالمطابقة على أن وقوع الثانى كان يحصل على تقدير وقوع الأول وتدل بالالتزام على امتناع وقوع الثانى لامتناع وقوع الأول. لأنه إذا كان وقوع الثانى لازماً لوقوع الأول فعدم اللازم يدل على عدم الملزوم"[٥]

---

(١) قال البهاء السبكى: "قد نسب الخطيبى هذا الكلام إلى النبى صلى الله عليه وسلم ولم أر هذا الكلام فى شئ من كتب الحديث لا مرفوعاً ولا موقوفاً. لا عن النبى صلى الله عليه وسلم ولا عن عمر مع شدة الفحص عنه" عروس الأفراح = شروح ٢/٧٩ .

وقال السيوطى بعد أن ذكر كلام البهاء السبكى السابق وكلام المحلى فى شرح جمع الجوامع: "ما زال فى نفسى منه حتى رأيته فسررت به سروراً لم يعدله شيء لكنه فى سالم لا فى صهيب. فأخرجه أبو نعيم فى الحلية عن محمد بن على بن حبيش ... وأخرجه الديلمى فى مسند الفردوس من طريق الحافظ بن بكر بن مردويه ..."شرح عقود الجمان ٣٥.

(٢) مغنى اللبيب ٥٠٦/١

(٣) مغنى اللبيب ٢٠٧/١.

(٤) الكتاب ٢٢٤/٤.

(٥) عروس الأفراح = شروح ٧٠/٢.

وبإمعان النظر في كلام السبكي يتبين أنه لا فرق بينها وبين عبارة المعربين فى الدلالة، لأنها تنحل إليها وتساويها فى المعنى. لأنها تفيد أن (لو) تدل على امتناع فعل كان سيقع لوقوع غيره. فهو لم يقع فعلاً. بدلالة قوله (سيقع) فتحقق امتناع الجزاء الذى وقوعه يكون بوقوع الشرط. ولما انتفى الجزاء انتفى الشرط أيضاً. لأن انتفاء الجزاء لا يجامع وجود الشرط، وإلا لزم وجود الملزوم وهو الشرط دون اللازم وهو الجزاء، فإنه يتعين من وجود الملزوم وجود اللازم ، لكنه منتف فينتفى الجزاء.

وعلى هذا تكون عبارة سيبويه مساوية لعبارة المعربين وتساويها فى الدلالة على الامتناع بالنسبة للشرط والجزاء[1]. وإذا كان واضحاً مما سبق التساوى بين مدلولى العبارتين واتفاقهما على أن الجزاء امتنع لامتناع الشرط، سواء كانت هذه الدلالة بمنطوق العبارة أو بمفهومها. فإنه يرد – أيضاً – على عبارة سيبويه الأمران السابقان الواردان على عبارة المعربين.

أما الأول: فلأنه لا يتعين انفراد سببية الشرط فى الجزاء لجواز وجود سبب آخر.

وأما الثاني: فلأن الجزاء مع (لو) لا يتعين أن يكون منتفياً دائماً فقد يكون فى بعض الصور واقعاً مع امتناع وقوع الشرط.

عبارة ابن مالك: قال ابن مالك فى تسهيله: "لو حرف شرط يقتضى امتناع ما يليه، واستلزامه لتاليه، واستعمالها فى المضى غالباً"[2] وقد استجادها ابن هشام مع عبارة سيبويه قائلاً: "العبارة الجيدة قول سيبويه رحمه الله: حرف لما كان سيقع لوقوع غيره، وقول ابن مالك: حرف يدل على انتفاء تال ويلزم لثبوته ثبوت تاليه"[3] وظاهر كلام ابن هشام تساوى عبارة سيبويه وعبارة ابن مالك، لكن التدقيق يكشف عن اختلافهما. ذلك لأن عبارة ابن مالك لا يرد عليها ما يكون فيه الشرط أخص من الجزاء وأقل أفراداً منه. كما فى المثال: لو كان هذا إنساناً لكان حيواناً. ذلك لأن الشرط مع (لو) يستلزم تاليه، ثم هو لا يتعين من امتناعه بحكم (لو) أن يمتنع تاليه، وهو الجزاء. لأنه لا يتعين امتناع الجزاء لامتناع الشرط بحكم كونه لازماً له، أو مسبباً عنه،

---

(١) ينظر البنانى على جمع الجوامع ٢٧٢/١.

(٢) تسهيل الفوائد ٢٤٠

(٣) مغنى اللبيب ٢٠٧/١، وقد نسب ابن السبكى هذا التعريف لوالده، إلا أن ابن مالك أسبق تاريخاً منه. ينظر جمع الجوامع ٢٧٣/١

إلا إذا كان الجزاء مساوياً للشرط فى اللزوم، أو تتعين سببية الشرط فى الجـزاء دون غيره.

فإن كان الشرط أخص من الجزاء كما فى المثال المذكور فإن انتفاءه لا يستلزم انتفاء الجزاء، لصحة تحققه مع ملزوم آخر، أو مع سبب غير الشرط المذكور.

فالذى يفهم من قول ابن مالك: (حرف يدل على امتناع تـال) أن امتنـاع الشرط مدلول (لو) لكن امتناع الجزاء ليس مدلولاً لها. وإنما يكون امتناعه عن طريـق لزوم امتناعه لامتناع شرطه المساوى. بأن لا يكون للجزاء ملزومـات أخـرى غـير الشرط المذكور.

والتساوى بين الشرط والجزاء فى اللزوم قد يكون من جهة العقل، أو الشرع أو العادة، أو الاعتقاد. فمثاله من جهة العقل قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء : ٢٢) ومثاله من جهة الشرع قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِـم﴾ (المائـدة : ٦٦) ومثاله من جهة العادة قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُواْ الْخُرُوجَ لأَعَدُّواْ لَهُ عُدَّةً وَلَـكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُواْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ (التوبة : ٤٦) ومثاله من جهـة الاعتقاد. قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاء لَقُلْنَا مِثْلَ هَـذَا إِنْ هَـذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأوَّلِينَ﴾ (الأنفال : ٣١)

وإن لم يساو الشرط الجزاء بأن كان يخلفه غيره أفادت (لو) امتنـاع الـشرط دون الجزاء. وذلك مثل: لو فقد الماء لهلك الناس. ولو كان هذا إنساناً لكان حيوانـاً. ولو نام لانتقض وضوءه. ولو كانت الشمس طالعة لكان الضوء موجوداً. فإن هـذه الأمثلة لا يلزم من امتناع الشرط فيها امتناع الجزاء لعدم انحصار السببية فى الـشرط المذكور. لوجود أسباب أخرى غيرها. ومن هذا يتبين أن صحة تعريف ابن مالـك لا تتخلف بالإيراد الأول الذى ورد على عبارة سيبويه وعبارة المعربين، لأن عبارة ابـن مالك لم تفد كون الشرط ممتنعاً ومستلزماً امتناعه امتناع الجزاء. وذلك كما هو مفـاد العبارتين المذكورتين. لكن يعرض لها الإيراد الثانى من كون الجزاء قد يتعين وجوده فى بعض الأمثلة امتنع الشرط أو وجد. وذلك كما فى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْـأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيـزٌ حَكِيمٌ﴾ (لقمان : ٢٧) فإن الشرط فى الآية وهو كون ما فى الأرض من شجرة أقلامـاً لكتابة آيات الله وحصرها – منتف ، لكن لا تقتضى (لو) امتناع الجزاء وهـو عـدم

النفاد لكلمات الله. بمعنى أنها تنفد لو كتبت بهذه الأقلام وإنما الجزاء موجود وجد الشرط أو امتنع.

وخلاصة ذلك أنه لا يسلم لابن مالك كون تالى (لو) وهو الشرط يستلزم تاليه وهو الجزاء دائماً. وأن عبارته ليست جامعة لكل أمثلة الشرط بـ (لو)، وإن كانت أحسن من عبارة سيبويه وعبارة المعربين.

رأى الشلوبين: ربما كان نتيجة لتعدد العبارات واختلافها فى مفاد (لو) وكونها تفيد امتناع الشرط والجزاء، أو امتناع الشرط دون الجزاء إلى غير ذلك- اتجاه بعض العلماء رغبة منهم فى معنى لا يُختلف عليه- إلى القول بأن (لو) لا تفيد الامتناع بوجهٍ- شرطاً أو جزاء، وإنما تفيد مجرد التعليق والربط فى الزمن الماضى. كما تدل (إن) على التعليق فى المستقبل. فهى لا يستفاد منها امتناع أو ثبوت، وإنما يكون ذلك بقرائن خارجية، بعيداً عن مدلول (لو). وذهب إلى هذا الشلوبين وتبعه ابن هشام الخضراوى- كما نقل ذلك- أيضاً- عن ابن عصفور فى بعض أمثلتها. واختاره أيضاً الخسرو شاهى من الأصوليين.(١)

تعليل هذا الرأى:

والذى يبدو أن هذا المسلك يستند على ما يأتى:

أولاً: إن القول بأن (لو) تفيد الامتناع للامتناع يؤدى إلى التناقض فى بعض الأمثلة. وهذا كاف فى بطلان اطراد كونها مفيدة الامتناع للامتناع. وقد صور ابن الحاجب هذا الدليل قائلاً: "قال النحويون: كلمة (لو) وضعت للدلالة على انتفاء الشيء لأجل انتفاء غيره. وإذا قلت: لو جئتنى لأكرمتك. أفاد أنه ما حصل المجيء، وما حصل الإكرام، ومن الفقهاء من قال: إنه لا يفيد إلا الاستلزام، فأما الانتفاء لأجل انتفاء الغير فلا يفيده هذا اللفظ. والدليل عليه الآية والخبر. أما الآية فهى هذه الآية وتقديره: أن كلمة (لو) لو أفادت ما ذكروه لكان قوله: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَّأسْمَعَهُمْ﴾ (الأنفال : ٢٣) تفيد أن الله تعالى ما علم فيهم خيراً وما أسمعهم. ثم قال: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ (الأنفال : ٢٣) فيكون معناه: أنه ما أسمعهم وأنهم ما تولوا، لكن عدم التولى خير من الخيرات. فأول الكلام فيه يقتضى نفى الخير وآخره يقتضى حصول الخير. وذلك متناقض. فثبت أن القول بأن الكلمة (لو) تقتضى انتفاء الشيء لانتفاء غيره. يوجب هذا التناقض فوجب أن لا يصار إليه. وأما الخبر

(١) ينظر مغنى اللبيب وحاشية الأمير ١/٢٠٥

فقوله عليه الصلاة والسلام: نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه. فلو كان لفظه يفيد ما ذكروه، لصار المعنى، أنه خاف الله وعصاه. وذلك تناقض فثبت أن كلمة (لو) لا تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره. وإنما تفيد مجرد الاستلزام. واعلم أن هذا الدليل حسن إلا أنه على خلاف قول الجمهور من الأدباء"[1]

وقد استحسن الإمام الرازى هذا الكلام عند تفسيره الآية المذكورة، ولكن لم يأخذ به على إطلاقه كما ادعى الزركشي. قال: "وقد سلب الإمام فخر الدين الدلالة على الامتناع مطلقاً وجعلها لمجرد الربط. واحتج بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾(الأنفال: ٢٣)..."[2] على أن كلام الرازى فى مواضع أخرى صريح فى اعتبارها مفيدة امتناع الجزاء لامتناع الشرط.[3]

رد هذا الدليل:

والمعتمد فى ذلك كون دعوى التناقض مدفوعة بصحة الحمل على المعانى المختلفة التى تؤدى (بلو) خاصة فى الجزاء. وأن ذلك مرتبط بكون الجزاء مساوياً للشرط فى اللزوم أو غير مساو له. أو كون نقيض الشرط أولى بالجزاء أولاً.

ومن قبيل ذلك الآية: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ (الأنفال : ٢٣) فـ (لو) فى الجملتين تفيد امتناع الشرط، لكن الجزاء فى الجملة الأولى ممتنع وفى الجملة الثانية موجود، لأن توليهم مع عدم الإسماع أولى من توليهم مع الإسماع. فقد جاء الشرطان على طريقتين من طرق (لو). قال السعد: "الحق أن قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ وارد على قاعدة اللغة. يعنى أن سبب عدم الإسماع هو عدم العلم بالخير فيهم. ثم ابتدأ قوله ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ﴾ كلاماً آخر على طريقة: (لو لم يخف الله لم يعصه) يعنى أن التولى لازم على تقدير الإسماع فكيف على تقدير عدم الإسماع فهو دائم الوجود كذا ذكروا"[4] فهذه الاعتبارات المختلفة دليل واضح على استعمال (لو) فى المعانى التى ذكروها مع بقاء معنى الامتناع فى الشرط.

---

(١) الأمالى النحوية ١٥٨/٤

(٢) البرهان ٣٦٦/٤

(٣) ينظر تفسير الرازى ٣٠١/١، ٣٣٧/٢، ٣١٧/٤

(٤) المطول ١٧٠

ثانياً: إنه لو قيل بالحمل على المعانى المختلفة لعدم اطراد الامتناع للامتناع فإنه يلزم عليه القول بالاشتراك، أو الحقيقة والمجاز، وهو خلاف الأصل من غير ضرورة[1]. ويكون الأولى اعتبارها لمجرد الربط، نظراً لاطراده وعدم اطراد الامتناع فيها.

رد هذا الدليل: وهذا الدليل مدفوع لأنه لا تسلم دعوى عدم الاطراد؛ لأن امتناع الشرط مطرد بحكم دلالة (لو) وضعا. ويدل على ذلك عدم تخلف معنى الامتناع، وفهم أهل اللغة له عند مجيء الشرط مع (لو).

قال صاحب مغنى اللبيب دافعاً ما قاله الشلوبين وابن هشام الخضراوى "وهذا الذى قالاه كإنكار الضروريات. إذ فهم الامتناع منها. كالبدهى. فإن كل من سمع: لو فعلَ ... فَهم عدم وقوع الفعل من غير تردد"[2] أى أن الأصل فيها الدلالة على امتناع الشرط. لكن انتفاء الجزاء راجع إلى مسألة اللزوم بينهما وكونه راجعاً إلى العقل أو الشرع أو العرف. وعلى ذلك تبطل دعوى عدم الاطراد، والقول بالاشتراك، أو كون استعمالها فى بعض المواضع على سبيل الحقيقة وفى بعضها الآخر على سبيل المجاز. كما أن القول بأنها لمجرد الربط دون دلالة على الامتناع اقتصار منهم على المعنى العام المشترك بين أدوات الشرط، وتضييع للخصوصية التى يتميز بها كل حرف عن الآخر. فجميع الأدوات تفيد هذا المعنى ثم خصصت كل أداة بمعنى يميزها عن غيرها من الأدوات. وهذا المعنى الزائد على مطلق الربط قد يكون ترتب الوجود على الوجود فى المستقبل تيقناً مع (إذا) واحتمالاً مع (إن) أو ترتب الوجود على الوجود فى الماضى مع تحققه مع (لما) أو امتناعه مع (لو) للامتناع، أو امتناعه مع (لولا) للوجود. فجعل (لو) لمجرد الربط تضييع للخصوصية التى تميزت بها عن أخواتها التى تشترك معها فى معنى الربط بين الشرط والجزاء دون مقتض.

قال ابن قيم الجوزية عند ذكره بعض الأجوبة لتفسير عدم الامتناع للجزاء لامتناع الشرط فى الأثر: لو لم يخف الله لم يعصه: "وقد اختلفت أجوبة الناس فى ذلك، فقالِ أبو الحسن بنِ عصفور: (لو) فى الحديث بمعنى (إن) لمطلق الربط، فلا يكون نفيها إثباتاً، ولا إثباتها نفياً. فاندفع الإشكال. وفى هذا الجواب ضعف بين. فإنه لم يقصد فى الحديث مطلق الربط كما قال، وإنما قصد ارتباط متضمن لنفى (الجزاء)[3] ولا سيق

(١) تنظر حاشية عبد الحكيم على المطول (فيض الفتاح) ٨٤/٣ وروح المعانى ١٧٧/١

(٢) مغنى اللبيب لابن هشام ٢٠٥/١

(٣) غاب عن الشيخ أن الجزاء فى الحديث ثابت غير ممتنع مع امتناع الشرط. وهذا الثبوت مع الانتفاء للشرط هو موضوع المناقشة والأجوبة التى ذكرها الشيخ. ويبدو أنه يقصد مجئ فعل الجزاء منفياً. ولو كانت عبارته: وإنما قصد ارتباط متضمن لنفى العصيان لكان كلاماً صحيحا. وإن كان لن يجديه شيئاً فى الرد على ابن عصفور.

الكلام إلا لهذا. ففى الجواب إبطال خاصية (لو) التى فارقت بها سائر أدوات الشرط. وقال غيره: (لو) فى اللغة لمطلق الربط. وإنما اشتهرت فى العرف فى انقلاب ثبوتها نفياً وبالعكس. والحديث إنما ورد بمعنى اللفظ فى اللغة. حكى هذا الجواب القرافى والخسروشاهى. وهذا أفسد من الذى قبله بكثير. فإن اقتضاء (لو) لنفى الثابت بعدها وإثبات المنفى متلقى من أصل وضعها، لا من العرف الحادث كما أن معانى سائر الحروف من نفى، أو تأكيد، أو تخصيص، أو بيان، أو ابتداء، أو انتهاء. إنما هو متلقى من الوضع لا من العرف فما قاله ظاهر البطلان"[1]

وهذا واضح فى كونه يذهب إلى أن دلالة (لو) وضعا للامتناع. وهو ما عبر عنه بقوله: نفي الثابت وإثبات المنفى. وإن كان بعد قليل يرجع عنه عند ذكره حقيقة هذا الحرف وبيان سره قائلاً: "ليس فى طبيعة (لو) ولا وضعها ما يؤذن بنفى واحد من الجزئين ولا إثباته. وإنما طبيعتها وحقيقتها الدلالة على التلازم. لكن إنما يؤتى بها للتلازم المتضمن نفى اللازم أو الملزوم أو تحققهما"[2]

وهذا باطل من وجهين:

الأول: ما قرره وذكره أول كلامه من دلالة (لو) على امتناع الشرط وضعاً. وكما قال به العلماء.

الثانى: أنه لم يبين طريق تضمن هذا التلازم الانتفاء. والانتفاء للشرط لا يستفاد إلا عن طريق (لو) ثم إن قوله: نفى اللازم أو الملزوم يفيد دوران هذا الانتفاء بين الشرط الذى هو ملزوم وبين الجزاء الذى هو لازم مع أن الملزوم منتف دائماً مع (لو) وهو الشرط لكن اللازم قد ينتفي وقد لا ينتفي. وقوله: أو تحققهما ظاهر البطلان لأنه لم يثبت تحقق وقوع الشرط والجزاء مع (لو).

مسلك المنطقيين: يسلك أهل المنطق بـ (لو) مسلكاً مخالفاً لمسلك أهل اللغة فى استعمالها ودلالتها، فهم يرون أنها تستعمل للربط بين الشرط والجزاء، لإفادة معنى التلازم بينهما من غير دلالة على ثبوت أو انتفاء. وإنما يرجع ذلك إلى أمر خارج، بعيد عن مدلول الأداة.

قال السعد: "وأما أرباب المعقول فقد جعلوا (لو وإن) ونحوهما أداة للتلازم، دالة على لزوم الجزاء للشرط من غير قصد إلى القطع بانتفائهما. ولهذا صح عندهم

---

(١) بدائع الفوائد ٥٣/١

(٢) المرجع السابق ٥٦/١

استثناء عين المقدم نحو: لو كانت الشمس طالعة فالنهار موجود لكن الشمس طالعة فهم يستعملوها للدلالة على أن العلم بانتفاء الثانى علة للعلم بانتفاء الأول. ضرورة انتفاء الملزوم بانتفاء اللازم من غير التفات إلى أن علة انتفاء الجزاء فى الخارج ما هى، لأنهم إنما يستعملونها فى القياسات لاكتساب العلوم والتصديقات، ولا شك أن العلم بانتفاء الملزوم لا يوجب العلم بانتفاء اللازم. بل الأمر بالعكس. وإذا تصفحنا وجدنا استعمالها على قاعدة اللغة أكثر، لكن قد تستعمل على قاعدتهم كما فى قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء : ٢٢) لظهور أن الغرض منه التصديق بانتفاء تعدد الآلهة لا بيان سبب انتفاء الفساد"(١)

صلته بكلام أهل اللغة: تتفق عبارات أهل اللغة وأهل المنطق على أن أدوات الشرط تقوم بالربط بين الشرط والجزاء. وتفيد التلازم بينهما. لكن محل الخلاف بين أهل اللغة وبين أهل المنطق فى كون مدلول (لو) يدخل فيه الدلالة على الانتفاء أو لا؟ والذى ظهر من كلام أهل اللغة أن (لو) تفيد امتناع الشرط دائماً. فهو داخل فى مدلولها. لأن تعلق الاشتراط بالزمن الماضي يقتضي انتفاء الشرط لكون التعليق من شأنه لما يكون على خطر الوقوع. ولم يعارض أحد فى فهم معنى الامتناع للشرط عند سماع جملة الشرط بـ (لو). أما الجزاء فإنه يتعين امتناعه بحكم امتناع شرطه، وبمقتضى هذا التعليق الذى يفيد وجود الجزاء عند وجود الشرط وامتناعه عند امتناع الشرط. ولا يخالف امتناع الجزاء إلا إذا كان ثمة قرينة دالة على ثبوت الجزاء مع عدم الشرط. وذلك عندما يكون نقيض الشرط أولى بالجزاء المذكور. وهذا وحده دليل على الثبوت وعدم الامتناع. أما أهل المنطق فإنهم اكتفوا بمجرد دلالة (لو) على اللزوم والارتباط بينهما دون قصد إلى ثبوت أحدهما أو انتفائه. فهذا أمر يرجع فيه إلى قرائن خارجة عن مدلول اللفظ. وفى مجال بحثهم واستدلالاتهم لإدراك العلوم والتصديقات كان هذا التلازم– وهو أمر عقلي– أساساً يقوم عليه استدلالهم على الثبوت بالثبوت الذى هو محقق بقرائن خارجية. أو الاستدلال بالانتفاء الذى هو محقق بقرائن خارجية على الانتفاء.

فهم يستدلون بانتفاء اللازم على انتفاء الملزوم. وبثبوت الملزوم على ثبوت اللازم لأن القاعدة عندهم أن وضع المقدم ينتج وضع التالى ورفع التالى ينتج رفع المقدم دون العكس.(٢)

---

(١) المطول ١٦٨.

(٢) ينظر شرح الخبيصى للتهذيب ٢٤٧ وكذلك حاشية العطار عليه.

وبهذا يتبين أن استعمال (لو) فى المعنى المراد عند المناطقة وهو التلازم بين الشرط والجزاء لا غير- هو استعمال حقيقي عندهم حسب اصطلاحهم. لكنه استعمال مجازى عند أهل اللغة لكونه استعمالاً فى جزء ما وضع له عندهم[1].

لأن كون (لو) عندهم لمجرد التلازم يعتبر "جزء المعنى الموضوع له عند اللغويين. أعنى تعليق حصول الجزاء على الحصول المفروض للشرط، المقارن للعلم بانتفائه، اللازم منه انتفاء الجزاء. فإن تعليقه عليه جعله لازماً له. وأما الاستدلال بانتفاء اللازم على انتفاء الملزوم فهو ناشئ من ذلك اللزوم"[2]

وبهذا يتضح القول بأن الآية الكريمة ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ قد جاءت على قاعدتهم. أى أن العلم بانتفاء الجزاء (وهو الفساد) خارجاً، استدل به عن طريق قاعدة اللزوم على انتفاء ملزومه الذى هو الشرط وهو تعدد الآلهة. وإن كان هذا الاستدلال لا يلغى كون علة عدم الفساد خارجاً هو امتناع الشرط وهو تعدد الآلهة فلما امتنع التعدد امتنع الفساد. وإن كان المقام عين طريق الاستدلال الذى ذهب إليه المنطقيون. فليس ثمة تعارض بينهما. إذ هما طريقتان فى الاستعمال اللغوى.

وإلى هنا يتفق أهل المنطق والشلوبين ومن معه فى كون (لو) لمجرد الربط. لكن المنطقيين لم يقولوا بأنها لمجرد الربط فى الزمن الماضى كما قال الشلوبين وإنما استعملوها أيضاً فى الحال والاستقبال. فيقولون: لو كانت الشمس طالعة فالنهار موجود، لكن النهار غير موجود، فتكون الشمس غير طالعة. ويقولون -أيضاً- لكن الشمس طالعة فيكون النهار موجوداً. فهم يقولون بأنها لمجرد الربط فى الماضى وفى الحال والاستقبال أيضاً. وكما يستدلون بها على انتفاء الشرط لانتفاء الجزاء يستدلون بها أيضاً على ثبوت الجزاء لثبوت الشرط.

كلمة البلاغيين فى (لو):

عبارة السكاكى: قال السكاكى عند حديثه عن (لو): "وأما كلمة (لو) فحين كانت لتعليق ما امتنع بامتناع غيره على سبيل القطع كما تقول: لو جئتنى لأكرمتك، معلقاً لامتناع إكرامك بما امتنع من مجئ مخاطبك- امتنعت جملتاها عن الثبوت..."[3].

---

(١) تنظر حاشية عبد الحكيم على المطول = فيض الفتاح ٨٨/٣

(٢) فيض الفتح = تقرير الشربيقى ٨٩/٣

(٣) مفتاح العلوم ١٣٣

والذى تفيده عبارته أن (لو) تدل على تعليق الامتناع بالامتناع، أى امتناع الثانى وهو الجزاء لامتناع الأول وهو الشرط[1]. فمعنى لو جئتنى لأكرمتك، أن سبب امتناع الإكرام امتناع المجئ، إذ ليست (لو) لتعليق الامتناع بالامتناع. لكى لا يلزم عدم القطع بوقوعه، مع أنه مقطوع به. لذا لا يكون المعنى إن حصل الامتناع للمجئ حصل امتناع الإكرام كما هو معنى التعليق بـ (إن) الذى هو الربط على خطر الوقوع. لأن الامتناع فيهما مقطوع به من حيث دلالة لو[2] فمدلولها تعليق حصول الجزاء بحصول الشرط مع الانتفاءين للشرط والجزاء. لكن لما كان "التعليق بالحصول الفرضى ليس مقصوداً لذاته، إذ لا فائدة فيه لعلم المخاطب بالانتفاءين[3]– وإنما المقصود الدلالة على أن انتفاء الثانى لانتفاء الأول، فلذا اقتصر عليه السكاكى. وكان هو مآل القول بأنها لتعليق الثبوت بالثبوت مع القطع بالانتفاء....[4]

عبارة الخطيب: قال الخطيب: " (لو) للشرط فى الماضى مع القطع بانتفاء الشرط فيلزم انتفاء الجزاء ، كانتفاء الإكرام فى قولك: لو جئتنى لأكرمتك"[5] والذى تدل عليه عبارة الخطيب أن انتفاء الشرط يدخل فى صريح معناها. ويكون انتفاء الجزاء لازماً لها. قال العصام: "أشار المصنف بذلك الكلام إلى أنه ليس صريح لو امتناع الجزاء لامتناع الشرط بل هو المآل، وصريحه تعليق حصول مضمون الجزاء بحصول مضمون الشرط مع القطع بانتفاء الشرط ويلزم منه انتفاء الجزاء"[6]. وبهذا يظهر أن عبارة الخطيب مساوية فى المعنى والدلالة عبارة ابن مالك من كون (لو) تدل على انتفاء تاليها وهو الشرط واستلزام هذا التالى لتاليه الذى هو الجزاء.

صريح (لو) ومآله (مناقشة كلام السيد والعصام):

وقع النزاع بين العصام والعلامة السيد فى تحديد صريح (لو) ومآله. هل هو كما أشار إليه قول الخطيب من دخول القطع بانتفاء الشرط فى صريح معناها. أو أن انتفاء الشرط يعد لازماً لها وليس داخلاً فى صريح معناها؟

---

(١) ينظر المطول ١٦٦

(٢) تنظر حاشية عبد الحكيم وتقرير الشربينى = فيض الفتاح ٨٤/٣، ٨٥

(٣) سيأتى ذكر بعض الشواهد يكون فيها المخاطب غير عالم بالانتفاءين.

(٤) ينظر فيض الفتاح ٨٥/٣

(٥) الإيضاح ٥٧

(٦) الأطول ١٨٥/١

وعبارة السيد فى شرح المفتاح "ومحصل ما ذكره – أى السكاكى– أنها تدل على معنى قولنا: لما انتفى الأول انتفى الثانى وهذا لازم معناها. فإنها موضوعة لتعليق حصول أمر فى المضى بحصول أمر آخر مقدر فيه. وما كان حصوله مقدراً فى الماضى بحصول آمر آخر مقدر فيه. كان منتفياً فيه. فيلزم من انتفائه انتفاء ما علق به أيضاً"[١] و(حاصل) هذا الكلام أن (لو) موضوعة لتعليق حصول أمر فى الماضى بحصول أمر آخر مقدر فيه. وما كان حصوله مقدراً فى الماضى يكون منتفياً فيه قطعا. فيلزم بناء على انتفائه انتفاء ما علق عليه. ويكون انتفاء الشرط لازماً لصريح معناها. وليس داخلاً فى مدلولها[٢].

لكن العصام لم يرتض عدم اعتبار انتفاء الشرط من مدلول (لو) الوضعى الذى هو مسلك السيد. قال: "وفيما ذكره السيد نظر إذ معنى أداة الشرط التقدير الشامل للمحقق والمقدر كما صرح به فى بعض تصانيفه فلا يفيد انتفاء المقدر"[٣]

وحاصل النظر أن التقدير والفرض يشمل المحقق الثابت فى الواقع كما يشمل غير المحقق أى المنفى فى الواقع. فلا يلزم من كونها دالة على الفرض والتقدير أن يكون الشرط منتفياً، فلو لم يكن انتفاء الشرط من مدلولها الوضعى لما استفيد منه بطريق اللزوم كما هو كلام السيد[٤] وقد عارض – أيضاً– عبد الحكيم قول السيد: "إن مفهوم (لو) هو التعليق بين جملتيها من حيث التحقق والوجود فرضاً وتقديراً وإن هذا المفهوم يلزمه القطع بامتناع الجزاء لامتناع الشرط"[٥] ودفعه قائلاً: "لا يخفى أن كلا المعنيين مفهوم من (لو) وكون الأول مفهوماً مطابقياً والثانى لازمياً مما لم يثبت. بل المتبادر كان المقصود أن امتناع الثانى لامتناع الأول يدلان على أن مفهومها مجموع الأمرين. فكل منهما داخل فيه"[٦]

وخلاصة ما قالاه أن صريح (لو) هو التعليق فى الماضى، والانتفاء لازم له عند السيد ، وعند العصام التعليق والانتفاء هما مدلول (لو).

---

(١) عن تقرير الشربينى = فيض الفتاح ٣/٨٥ وينظر الأطول ١/١٨٦

(٢) ينظر تقرير الإنبابى ٢/٣٩٤

(٣) الأطول ١/١٨٥

(٤) ينظر تقرير الإنبابى ٢/٣٩٤

(٥) حاشية السيد على المطول ١٦٦

(٦) حاشية عبد الحكيم على المطول = فيض الفتاح = ٣/٨٥، ٨٦

والذى ارتضيه هو ما ذهب إليه العلامة السيد. ذلك لأن التعليق بمعناه الحقيقى هو ارتباط أمر بأمر آخر على خطر الوقوع فى المستقبل. لأن معنى كونه على خطر الوقوع انتفاء القطع بالوقوع أو الانتفاء. وبقاء هذا الاحتمال بين المتكلم والمخاطب. ولا يضر عندئذ وجود مضمون الشرط خارجاً، نظراً لعدم الاعتداد به لكونه غير معلوم، ومن هذا الاعتبار صح وقوعه شرطاً. بأن يجعل سبباً جعلياً يلزم من وجوده الوجود ومن عدمه العدم. ويكون معنى وجوده ظهوره والعلم به، لأنه المعتبر فى التعليق عندئذ. قال السعد: "إن الشرط التعليقى قد يكون متقدماً، وإنما المتأخر ظهوره والعلم به كما فى تعليق عتق العبد بكون قيده عشرة أرطال"[1] أى أن تحقق الشرط ووجوده خارجاً لا يمنع من صحة التعليق عند القصد إلى ظهوره خارجاً وهذا الظهور والعلم به استقبالى الوقوع ولو كان مضمونه محققاً خارجاً. وبناء على ذلك يمكن القول بأن الشرط فى الماضى يحتمل- أيضا - التحقق والوقوع خارجاً كما يحتمل الانتفاء مثل الشرط مع (إن) فى المستقبل وهو ما ذهب إليه العصام.

لكن لما كان المعتبر هو جعل الشرط سبباً جعلياً ليعلق المتكلم وقوع الجزاء عليه اقتضى هذا التعليق أن يكون هذا التحقق للجزاء استقبالياً، وهذا يتنافى مع الاشتراط فى الزمن الماضى فيتعين عندئذ كون الشرط غير محقق الوقوع ومنتفياً. لأن كون الشرط على خطر الوقوع لا يكون إلا فى الزمن المستقبل، وما دام زمنه قد مضى فإن المجئ به يكون على معنى أنه لم يتحقق ولم يتحقق الجزاء أيضاً. كما أن التنظير بين مثالى (لو وإن) لبيان إمكان وقوع الشرط مع (لو) وإثبات كون الانتفاء مدلولاً تضمنياً لا يسلم. فلا يقال: "فمعنى قولنا: لو جئتنى لأكرمتك، إن ثبت المجئ ثبت الإكرام ولما انتفى الأول انتفى الثانى"[2] لأنا نقول: إن ثمة فرقاً واضحاً بين التعليق فى المثال الأول بـ (لو) وبين التعليق فى المثال الثانى بـ (إن) والذى أتى به لحل معنى التعليق بـ (لو). ذلك لأن ثبوت المجئ مع (إن) ووقوعه على خطر التحقق أما مع (لو) فهو محقق الانتفاء لعدم وجود التعليق الحقيقي بـ (لو). فالتناقض واضح بين المثال الذى فيه الاشتراط بـ (لو) وبين ما به بيان معناه وهو الشرط بـ (إن).

ويزيد ذلك وضوحاً للفرق بينهما كون العبارة تفيد أولاً احتمال الوقوع بقوله: إن ثبت المجئ ثبت الإكرام. وتفيد ثانيا نفى الوقوع بقوله: ولما انتفى الأول انتفى الثانى.

---

(١) التلويح ١٤٨/٢

(٢) حاشية عبد الحكيم على المطول = فيض الفتاح ٨٥/٣

فمن الواضح أنه لا يصح أن يكون حلاً للمعنى فى مثال (لو) وبيان المفاد بها فى المثال المذكور لكون ما به البيان متعارضاً فى نفسه فلا يصح به البيان. كما أن التحقيق يكشف- أيضاً- أن الشرط فى- إن ثبت المجئ ثبت الإكرام- استقبالى المعنى. أما فى المثال: لو جئتنى لأكرمتك، فالشرط هو وقوع المجئ فى الماضى، وليس ثبوت المجئ بمعنى ظهوره فى الاستقبال فافترقا.

ومما هو بعيد أيضاً- ما ذكره الإنبابى فى سياق حديثه عن عدم استلزام الفرض والتقدير الانتفاء قائلاً: "وتوضيح ذلك أنك تقول عند عدم العلم بمجئ زيد أو عدمه: على فرض مجئ زيد أمس يتحقق مجئ عمرو أيضاً. فتارة يكون كل منهما قد تحقق أمس وتارة لا، فالفرض لا يستلزم الانتفاء"[1]...... ووجه دفع ما قاله الإنبابى أن يقال إن الفرض فى الشرط معناه كون الشرط على خطر التحقق وقوعاً أو ظهوراً ليقع الجزاء، وهذا مع (لو) منتف لمضى زمن الشرط معها. على أن المثال الذى مثل به ليس تقديراً وفرضاً على سبيل الشرط ومن طريقه. وإنما هو مجرد ارتباط وليس ثمة إفادة لتوقف الوقوع على الوقوع الذى هو مدلول الشرط الاصطلاحى ومما يدل أيضاً على أن الامتناع لازم للتعليق فى الماضى. أن الشرط بـ (لو) لو توقف فيه الامتناع على العلم بالانتفاء لما تهيأ للمخاطب الذى لا يعلم امتناعه أن يعلم به وذلك عند قصد المتكلم إفادة المخاطب العلم بالامتناع وترتب امتناع الجزاء على امتناع الشرط. وذلك عندما يكون المخاطب طالباً- مثلاً- العلم بنجاح زيد أنجح أم لا؟ فيقول له المتكلم: لو ذاكر لنجح. فإن المخاطب يفهم منه أن زيداً لم يذاكر ولم ينجح. ولن يبقى عنده تردد بعد أن يسمع ذلك فى أنه لم يذاكر، ولولا أن فهم الامتناع حاصل من التعليق فى الماضى لبقى على تردده فى وقوع الشرط وكذلك وقوع الجزاء. وعليه تكون (لو) بمعنى (إن) ويصير المعنى إن ثبت أنه ذاكر يثبت أنه نجح. على أن المتبادر فى مثل هذا المثال كون الشرط ممتنعاً وكذلك الجزاء. لكون الامتناع يلزم التعليق فى الزمن الماضى.

---

(١) تقرير الإنبابى ٢/٣٩٤

المبحث الثاني: المعاني المفادة بـ (لو)

*** مرجع تنوعها إلى ثلاثة:**

علم مما سبق أن (لو) تدل على امتناع الشرط بحكم كون التعليق في الماضي مقتضياً امتناع وقوع الشرط. ثم تبع امتناع الشرط امتناع الجزاء بمقتضى الترتب الخارجي للجزاء على الشرط وسببية الشرط في الجزاء. هذا ما دلت عليه عبارات النحويين والبلاغيين، وعبروا عنه بأن (لو) تفيد الامتناع للامتناع. وهو (المعنى الأول) المفاد بـ (لو).

لكن قد لا يقصد طريق هذه الدلالة، أي دلالة امتناع الشرط بحكم شرطيته على امتناع الجزاء، وتقصد دلالة أخرى، وهي أن يستدل بامتناع الجزاء على امتناع الشرط، بحكم اللزوم بين الشرط والجزاء، وكون امتناع اللازم يدل على امتناع الملزوم. وهذا هو (المعنى الثاني) المفاد بـ (لو).

ثم إنه قد يكون الارتباط القائم بين الشرط والجزاء هو مجرد اقتران خارجي دون سببية أو لزوم بينهما. ويكون نقيض الشرط أولى بالجزاء منه. فيكون ذلك دليلاً على استمرار وجود الجزاء وعدم امتناعه امتنع الشرط أو وجد. وهذا هو (المعنى الثالث) المفاد بـ (لو).

وبهذا يتبين أن مرجع هذا التنوع أمران:

الأول: طبيعة الارتباط بين الشرط والجزاء. فإن كان لزومياً أفادت الجملة الامتناع للامتناع، وإن لم يكن أفادت وجود الجزاء، وجد الشرط أو امتنع، وهو المعنى الثالث.

الثاني: اختلاف القصد المعتمد على اللزوم بين الشرط والجزاء. فقد يقصد إفادة امتناع الجزاء لامتناع الشرط، نظراً إلى ترتب الجزاء على الشرط، وسببية الشرط فيه فيكون امتناع الشرط بحكم دلالة (لو) سبباً في امتناع الجزاء الذى هو مسبب عنه وهذا هو المعنى الأول. وقد يقصد الاستدلال بامتناع الجزاء المعلوم بأدلة خارجية- على امتناع الشرط لأن امتناع اللازم يدل على امتناع الملزوم. وهذا هو المعنى الثاني.

المعنى الأول: امتناع الجزاء لامتناع الشرط:

* أغراضه أربعة:

تتفق عبارتا السكاكي والخطيب في أن الشرط بـ (لو) يفيد امتناع الجزاء لامتناع الشرط. لكن بإمعان النظر في العبارتين يلحظ أن ثمة فارقاً دقيقاً بين العبارتين.

من حيث إن عبارة السكاكي تدل على أن امتناع الجزاء في الخارج علته امتناع الشرط. فهو لم يصرح أولاً بامتناع الشرط فى الماضى مرتباً عليه امتناع الجزاء. وإنما قال: بأنها تعليق ما امتنع بامتناع غيره. فأفاد بذلك أن علة امتناع الجزاء هو امتناع الشرط. لكن عبارة الخطيب أشارت أولاً إلى امتناع الشرط ثم ترتب على امتناعه امتناع الجزاء أى أنه حيث امتنع الشرط امتنع الجزاء. ولا يخفى شمول المعنى العام وهو الامتناع للامتناع لهذين الغرضين المشار إليهما بعبارتى السكاكى والخطيب وهما:

الأول: الدلالة على أن علة امتناع الجزاء هو امتناع الشرط. من حيث كون وجود هذا الشرط علة فى وجود الجزاء.

الثانى: الدلالة على انتفاء الشرط ثم بانتفائه ينتفى الجزاء.

وبجانب هذين الغرضين يوجد غرضان آخران، وهما:

الثالث: أن يكون القصد إلى معنى الارتباط بين الشرط والجزاء فى الخارج من حيث الوجود والعدم. وتكون إفادة الامتناع ليست مقصداً رئيساً فى المعنى. وإن استفيد بحكم (لو) وضعاً.

الرابع: القصد إلى إفادة كون امتناع الجزاء علة باعثة على امتناع الشرط، ليمتنع بامتناعه- بحكم كونه علة فاعلة- الجزاء.

والفيصل فى التمييز بين هذه المعانى والقصد إليها هو قرائن المقام والسياق. لأن جميع شواهد المعنى الأول تتصل مع بعضها من حيث كون الجزاء امتنع لامتناع الشرط، لكن لكل شاهد فى مقامه وسياقه ما يناسبه من غرض سيق لأجله الكلام.

وبهذه الأغراض الأربعة جاء القرآن الكريم. كما سيتضح فيما يأتى:

الغرض الأول:

وهو أن يقصد الدلالة على أن علة امتناع الجزاء امتناع الشرط. من جهة كون الشرط علة وسبباً فى وجود الجزاء: ويأتى هذا الغرض فى الأمثلة والشواهد التى يكون معلوماً فيها انتفاء الجزاء ويقصد بيان علة انتفائه. سواء كان الشرط الذى هو علة فيه معلوم الانتفاء أم لا؟

فالقائل: لو زرتنى لأكرمتك بين لمخاطبه علة امتناع الإكرام منه له. وهو امتناع الزيارة، وكلاهما معلوم الامتناع عند المخاطب. والقائل: لو زارنى على لأكرمته مخاطباً من يعلم عدم إكرام على، لكن لا يعلم السبب فى ذلك- يقصد بيان علة امتناع الإكرام التي هي امتناع الشرط الذى لا يعلم المخاطب امتناعه، فأمثلة هذا الغرض

ضربان: ضرب يكون المخاطب عالماً بانتفاء الشرط، وضرب آخر لا يعلم فيه المخاطب بانتفائه.

وقد جاءت آيات كثيرة فى القرآن الكريم لإفادة هذا الغرض بضربيه ومجموع شواهده بضربيه سبعة وخمسون شرطاً تفصيلها فيما يأتي:

الضرب الأول: وهو ما يكون المخاطب به عالماً بانتفاء الشرط وأنه علة انتفاء الجزاء من حيث كون الشرط علة فيه بحسب الاعتقاد أو العادة أو الشرع أو العقل.

وشواهده واحد وعشرون شرطاً فى الآيات الآتية:

١. ومن شواهد ما يكون فيه الشرط علة وجود الجزاء بحسب الاعتقاد قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاساً يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (آل عمران : ١٥٤)

فالشرطية التى يحكيها الله تعالى عن المنافقين وهى قولهم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ تفيد أن علة امتناع الجزاء الذى هو عدم قتلهم عدم وقوع الشرط وامتناعه الذى هو كون بعض الأمور من التدبير لشئون الحرب وتصريفها لهم. أى أنهم قتلوا لعدم امتلاكهم شيئاً مما يرغبون فيه. قال الطبرى: "يعنى بذلك أن هؤلاء المنافقين يقولون: لو كان الخروج إلى حرب من خرجنا لحربه من المشركين إلينا ما خرجنا إليهم، ولا قتل منا أحد فى الموضع الذى قتلوا فيه بأُحُد"[1] وهذا التعليل فى اعتقادهم. ولكونه فاسداً رد الله عليهم "بقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ أى أنه أمر راجع إلى الله لا إلى تدبيركم وفيه مبالغة فى رد مقالتهم الباطلة، حيث لم يقتصر على تحقيق نفس القتل كما فى قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ﴾ (النساء:٧٨) بل عين مكانه أيضا"[2] وعلى القول بأن المعنى لو كان الأمر لله والرسول والمسلمين لما غلبنا [3] يكون مفاد (لو) المعنى الثانى.

٢. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (آل عمران : ١٦٨)

---

(١) تفسير الطبرى ١٤٢/٤

(٢) تفسير أبى السعود ١٥٣/٣

(٣) ينظر البحر المحيط ٨٩/٣

فالله تعالى يحكى عن المنافقين مقالتهم بأن سبب قتل إخوانهم الذين ذهبوا للقتال مع الرسول صلى الله عليه وسلم أنهم لم يطيعوهم بذهابهم معه عليه الصلاة والسلام. أى أن علة امتناع الجزاء وهو (ما قتلوا) امتناع الشرط وهو (أطاعونا) لذا جاء تكذيب الله لهم بقوله: ﴿قُلْ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

٣. قال تعالى: "وَبَرَزُواْ لِلّهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللّهِ مِن شَيْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَانَا اللّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاء عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ (إبراهيم : ٢١)

فالآية تحكى ما سيقع من نقاش بين أئمة الكفر وأتباعهم فى نار جهنم، وأنهم يقولون لأتباعهم لو أرشدنا الله إلى الإيمان لأرشدناكم فنجونا ونجوتم. فعلة امتناع هداية الأتباع امتناع هداية الله لرؤسائهم. قال الزمخشرى: "فلو كنا من أهل اللطف فلطف بنا ربنا واهتدينا لهديناكم إلى الإيمان. وقيل: معناه. لو هدانا الله طريق النجاة من العذاب لهديناكم. أى لأغنينا عنكم وسلكنا بكم طريق النجاة، كما سلكنا بكم طريق الهلكة"[١] وواضح أن الشرط والجزاء معلوم انتفاؤهما عند المخاطب. وعلة انتفاء الجزاء انتفاء الشرط. وواضح أن التلازم– أيضاً– فى اعتقاد المتكلمين ، لأن المهتدى لا يملك الهداية لغيره.

وقد يسلك القرآن الكريم مسلك الفرض والتقدير لوقوع الجملة الشرطية فيأتى بها فى سياق الإخبار عن أمر يمنع أن يقع مدلول الشرط، ويقطع طريق الاحتجاج والتبرير بمضمون جملة الشرط. وذلك مثل:

٤. قول الله تعالى: ﴿وَهَـذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * أَن تَقُولُواْ إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ﴾ (الأنعام:١٥٥، ١٥٦، ١٥٧)

فقد أخبرت الآيات عن نزول القرآن للهداية والاتباع، وليقطع عليهم الطريق والتعلل بأنهم ما آمنوا إلا لكون الكتاب لم ينزل عليهم وإنما اختصت به أمم غيرهم. وأنه لو اختصهم الله به لكانوا أهدى من الأمم قبلهم. فقد امتنع الشرط وهو هدايتهم لامتناع نزول القرآن عليهم. لكن القرآن الكريم بنزوله إلى العرب وإلى الناس جميعاً فى عصر البعثة قطع عليهم هذا الاحتجاج ، والله أعلم.

---

(١) الكشاف ٣٧٣/٢

ومن أمثلة ما يكون امتناع الجزاء بسبب امتناع الشرط من جهة الارتباط بينهما فى العادة.

٥. قول الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران : ١٥٩)

فالشرط والجزاء فى الجملة ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ معلوم انتفاؤهما، وهما يرتبطان معاً بحكم العادة المشاهدة. وقد أفادت الآية أن علة امتناع الجزاء وهو الانفضاض امتناع الشرط وهو الفظاظة وغلظة القلب. فكان تجمعهم حوله للينه وحسن خلقه عليه الصلاة والسلام.

٦. قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لاَّتَّبَعُوكَ وَلَـكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (التوبة : ٤٢)

فالآية قد اشتملت على شرطين: الأول منهما: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لاَّتَّبَعُوكَ وَلَـكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾. وهو يفيد أن علة امتناع إتباع المنافقين للرسول عليه الصلاة والسلام فى القتال هو امتناع قرب السفر والمغنم السهل ؛ لأنهم تعودوا أن يكون قتالهم عند تحقق ذلك. والشرط والجزاء معلوم امتناعهما. أما الشرط الثانى (لو استطعنا...) فإن الجزاء معلوم امتناعه دون الشرط كما هو مدعاهم فهو من الضرب الثانى الذى سيذكر بعد هذا الضرب إن شاء الله تعالى.

ومن شواهد ما يكون امتناع الجزاء بسبب امتناع الشرط وتكون جهة الربط بينهما الشرع ما يأتي:

٧. قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (النساء : ٨٣)

فالآية فى معرض الحديث عن المفاسد التى تحصل نتيجة إذاعة أخبار الرسول دون فهم مغزاها. فعلمهم بحقائق الأمور انتفى لانتفاء إرجاع ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أولى الأمر منهم. والارتباط بين الشرط والجزاء من جهة الشرع.

٨. قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاء مَا يَعْمَلُونَ﴾ (المائدة : ٦٦)

فالآية الكريمة تبين لليهود أن علة ما حصل لهم من قلة الغلال ونزول الشدة والقحط بهم وبلوغهم إلى حيث قالوا يد الله مغلولة (غلت أيديهم) بأنه وقع لما كان منهم من العصيان والانحراف عن شرع الله الذى أنزل إليهم فى كتبه: التوراة والإنجيل والقرآن. وإدراك هذه الصلة بين الشرط والجزاء من جهة الشرع.

ومن شواهد ما يكون القصد بيان علة امتناع الجزاء وهى امتناع الشرط ويكون الارتباط بينهما من جهة العقل ما يأتي:

٩. قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (النحل : ٦١)

فقد امتنع الجزاء وهو (ما ترك عليها من دابة) بسبب امتناع الشرط وهو مؤاخذة الله الناس بذنوبهم التى يرتكبونها. والمؤاخذة على جميع الذنوب تستلزم عقلاً الاستئصال لهم وعدم ترك أحد منهم، لأن البشر جميعاً مذنبون ظالمون إلا من رحم، وقد تستأصل الفتنة الجميع ولا تتخصص بالذين ظلموا دون غيرهم.

١٠. قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (يونس : ١١)

فالشرط وهو إرادة تعجيل الله الشر للناس كتعجيله لهم الخير ممتنع، وهو علة امتناع الجزاء وهو إنفاذ أجلهم وإهلاكهم. وجعل الشرط هنا الإرادة المستتبعة للقضاء نزولاً على حكم التغاير بين الشرط والجزاء، إذ ليس فى ترتب قضاء الأجل على تعجيل الشر لهم أي فائدة لا تفاقهما فى المعنى فلزم تقدير الإرادة[1]. ومعلوم أن الإرادة تستلزم الفعل عقلاً.

ومن شواهد هذا الضرب ما يأتي:

١١. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِـي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (آل عمران : ١٥٦)

١٢. قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ (الأعراف : ٩٦)

---

(١) تنظر ص ٣٧ وما بعدها .

١٣. قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاء مَلَكاً رَّسُولاً﴾ (الإسراء : ٩٥)

١٤. قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلاً﴾ (الكهف : ٥٨)

١٥. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ (سبأ : ١٤)

١٦. قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً﴾ (فاطر : ٤٥)

١٧. قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ * لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْراً مِّنْ الْأَوَّلِينَ * لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ (الصافات:١٦٧، ١٦٨، ١٦٩)

١٨. قال تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ * أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (الزمر : ٥٦،٥٧)

١٩. قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ (الحجرات : ٧)

٢٠. قال تعالى:﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (الملك:١٠) ، فامتنع الجواب لامتناع الشرط، فكانوا فى أصحاب السعير.

٢١. قال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقاً﴾ (الجن:١٦) أى امتنع نعمهم فى الآخرة لامتناع استقامتهم.

الضرب الثاني:

ما يكون القصد به بيان علة امتناع الجزاء التى هى امتناع الشرط. والمخاطب لا يعلم امتناع الشرط ويخفى عليه.... وقد يكون الشرط علة في الجزاء بحسب العقل أو الشرع أو العادة أو الاعتقاد. وشواهد هذا الضرب خمسة شروط هى ما يأتي:

فمثال ما يكون فيه الارتباط من جهة العقل ما يأتي:

١. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (الأنبياء:١٦، ١٧)

فالمعنى فى جملة الشرط (لو أردنا....) والله أعلم- على أن الجزاء وهو اتخاذ اللهو امتنع لامتناع الشرط وهو الإرادة. والوجه فى كون المراد بيان علة امتناع الجزاء أن الآية فى سياق الحديث عن تتريه الله تعالى عن اللعب واللهو. كما أن الآية الأولى ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ تنفى اللعب عنه جل وعلا فى خلقه العالم. وكذلك تدل الآية التى بعد آية الشرط- ﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ (الأنبياء : ١٨) على التهديد لهم والإنذار بالعذاب على ما يدعون. والوجه فى امتناع الشرط وهو إرادة اللهو باعتبار متعلق الإرادة لأن الإرادة المتعلقة بالمستحيل مستحيلة[١]

وللزمخشرى كلام يصح أوله لدلالته على كون الغرض من الشرطية بيان علة امتناع الجزاء، ولا يصح آخره وهو ما يدل على تعلق القدرة بالمستحيل. قال: "بين أن السبب فى ترك اتخاذ اللهو واللعب وانتفائه عن أفعالى، هو أن الحكمة صارفة عنه. وإلا فأنا قادرة على اتخاذه، إن كنت فاعلاً. لأنى على كل شئ قدير"[٢] وواضح من كلامه أن اتخاذ اللهو جائز فى حقه تعالى، لأن قدرته عليه تفيد معنى الجواز. وهذا من الزمخشرى عجيب!! فالمعتزلة – وهو من أعلامهم- ينفون خلق الله تعالى أفعال العباد القبيحة. فكيف يجوز فى حقه اتخاذ اللهو؟

وبعد أن يذكر أبو حيان كلام الزمخشرى يقول: "ولا يجئ هذا إلا على قول من قال: اللهو هو اللعب، أما من فسره بالولد والمرأة، فذلك مستحيل لا تتعلق به القدرة"[٣] ولا أعرف لم فرق بين اللهو واللعب وبين اتخاذ الولد والمرأة بكون الأول جائزاً والثانى مستحيلاً. مع أن كليهما مستحيل على الله تعالى. وواضح أن مجئ كلام بعض المفسرين كالزمخشرى وأبى حيان مجوزين فيه وقوع اللهو واللعب دليل واضح على كون الشرط غير معلوم الانتفاء عند البعض.

ومثال ما فيه الشرط علة فى الجزاء من جهة الشرع ما يأتى:

٢. قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَّأسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ (الأنفال : ٢٣)

فالشرطية الأولى (ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم) تدل على أن علة عدم إسماعهم هى عدم علم الخير فيهم. أما الشرطية الثانية (ولو أسمعهم لتولوا) فطريق

---

(١) ينظر شرح البيجورى على الجوهرة ٥٩، ٦٠

(٢) الكشاف ٢/٥٦٥

(٣) البحر المحيط ٦/٣٠٢

الدلالة فيها طريق المعنى الثانى المفاد بـ (لو) وهو الدلالة على تحقق الجزاء ووقوعه امتنع الشرط أم لا. وبهذا يندفع ما يتوهم من وقوع النتيجة الباطلة من اعتبار الآية الكريمة على صورة قياس اقترانى ينتج: لو علم الله فيهم خيراً لتولوا، وهو محال.[1] وللمفسرين كلام طويل فى دفع هذا التوهم.[2]

٣. قال تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاء مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ (الفتح : ٢٥)

فالشرطية (لو تزيلوا...) فيها بيان علة عدم تعذيب الكافرين بقتال المسلمين لهم. وهى عدم تَزَيّل بعضهم عن بعض، وانفصال المسلمين الذين لم يعلنوا إسلامهم بعد عن الكافرين. لأن تعذيب المسلمين للكافرين سيكون سبباً فى إيذاء المسلمين الذين يستعدون للهجرة واللحاق بإخوانهم المسلمين. والمخاطبون لا يعلمون بامتناع الشرط وهو تزيل المسلمين عن الكفار، ولذلك نبهوا له. وللسياق دلالته على ذلك فقوله تعالى: (لم تعلموهم) يدل على عدم علمهم بامتناع الشرط. والربط بين الشرط والجزاء كما هو واضح من جهة الشرع.

ومثال الارتباط بين الشرط والجزاء عادة ما يأتى:

٤. قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لاَّتَّبَعُوكَ وَلَـكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (التوبة : ٤٢)

ففى الآية الكريمة شرطان: (لو كان عرضاً قريباً وسفرٌ قاصدا...) وقد سبق بيان كونه من الضرب الأول السابق. والثانى (لو استطعنا لخرجنا معكم) فيه بيان علة عدم الجزاء وامتناعه– وهو خروجهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم– بأن علة ذلك امتناع الاستطاعة وانتفاؤها.

وامتناع الشرط غير معلوم للمخاطبين. لأن الحقيقة أنهم يستطيعون الخروج. لذا كذبهم الله فى إدعائهم ذلك. قال أبو السعود: "–والله يعلم أنهم لكاذبون– أى فى مضمون الشرطية. وفيما ادعوا ضمناً من انتفاء تحقق المقدم، حيث كانوا مستطيعين

---

(١) ينظر المطول ١٦٩

(٢) ينظر الكشاف والإنصاف عليه ١٥١/٢ وتفسير الرازى ٣٦١/٤ وما بعدها وتفسير أبى السعود ١٦/٥

للخروج ولم يخرجوا"[١] وقال القرطبي: "والله يعلم إنهم لكاذبون فى الاعتلال"[٢] أى تكذيب لهم فى ادعائهم عدم الاستطاعة. كما أنهم كاذبون فى ربط خروجهم بالاستطاعة، لأنهم لو استطاعوا ما خرجوا كما ادعوا.

ومثال الارتباط فى اعتقاد المتكلم ما يأتى:

٥. قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاء لَقُلْنَا مِثْلَ هَـذَا إِنْ هَـذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأوَّلِينَ﴾ (الأنفال : ٣١)

فقد جعل المعاندون علة عدم قولهم مثل القرآن عدم مشيئتهم. وهذا ليس حقاً. لأن السبب الحقيقى عدم استطاعتهم. لأنهم فعلاً شاءوا ذلك ورغبوا فيه. بل بذلوا فيه كل الحيل. والمؤمنون المخاطبون بكلام هؤلاء المعاندين. لا يعلمون امتناع المشيئة وانتفاءها بل يعلمون أنهم شاءوا ذلك فعلاً. لكنهم جعلوا عدم مشيئتهم علة فى عدم مجيئهم بمثله، وذلك (نفاجة منهم وصلف تحت الراعدة فإنهم لم يتوانوا فى مشيئتهم، لو ساعدهم الاستطاعة. وإلا فما منعهم إن كانوا مستطيعين أن يشاءوا غلبة من تحداهم، وقرعهم بالعجز، حتى يفوزوا بالقدح المعلى دونه. مع فرط أنفتهم واستنكافهم أن يغلبوا فى باب البيان خاصة، وأن يُماتِنَهُم واحد فيتعللون بامتناع المشيئة"[٣]

واضح أن الارتباط بين الشرط والجزاء فى اعتقاد المتكلم، والمخاطبون يعلمون وقوع الشرط لا امتناعه.

مجئ فعل المشيئة شرطاً مع (لو):

ويعتبر من قبيل الغرض الأول الذى هو الدلالة على أن علة امتناع الجزاء امتناع الشرط، ما كان فعل الشرط فيها فعل المشيئة والإرادة. لأنه يؤتى به لبيان أن علة امتناع الجزاء المرتب عليه هو امتناع مشيئة الله تعالى وإرادته. وينبغى أن يلحظ أن شواهد فعل المشيئة يمكن إدخالها فى أحد ضربى الغرض الأول تبعاً للاعتبار المراعى عند الخطاب بالشرط. والذى يدل عليه مقام الآيات وسياقها. فقد يكون المخاطب عالماً بأن الشرط وهو المشيئة علة فى الجزاء فتكون الشرطية من الضرب الأول. وقد يكون غير عالم به أو غافلا عنه فتكون الشرطية من الضرب الثانى.

---

(١) تفسير أبى السعود ١٣٢/٥

(٢) تفسير القرطبى ٢٩٩٣

(٣) الكشاف ١٥٥/٢

ما يصاحب الدلالة على الامتناع فيها من نكات:

وتتبع آيات القرآن الكريم التي وقع فيها فعل المشيئة شرطاً مع (لو) يكشف عن اشتراكها جميعاً في المعنى العام المشترك الذي هو مفاد الشرط بـ (لو). لكنه يكشف أيضاً عن اختلاف مقاماتها قد صحبه خصوصيات أخرى في المعنى المفاد بها، هي نكات وراء إفادة أن علة امتناع الجزاء امتناع الشرط.

وشواهد فعل المشيئة على اختلاف النكات واحد وثلاثون شرطاً هي فيما يأتي مع نكاتها المختلفة.

النكتة الأولى:

الإشارة إلى أن ثمة حكمة وراء امتناع الجزاء المترتب على امتناع المشيئة، يعلمها الله تعالى، ويدركها الخاصة بمزيد من النظر والاعتبار. وأكثر الشواهد الدالة على ذلك الآيات الدالة على امتناع أن يكون الناس جميعاً أمة واحدة لا اختلاف بينهم ولا تباين.

وشواهد هذه النكتة سبعة عشر شرطاً في الآيات الآتية:

١. قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَـكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (المائدة : ٤٨)

فالآية قد بينت أن علة امتناع كونهم أمة واحدة امتناع المشيئة الإلهية، ثم بينت الحكمة في ذلك وهو الابتلاء والاختبار فيما آتاهم من الكتب والشرائع التي جاء بها المرسلون عليهم الصلاة والسلام. فينبغي الامتثال والجد في الأمر[(١)].

٢. قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاء فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأنعام : ٣٥)

فقد بينت الآية أن علة عدم اجتماعهم على الهدى عدم مشيئة الله ذلك ونهى الرسول صلى الله عليه وسلم وكل من يصح له الخطاب عن أن يكون من الجاهلين- أي الذين لا يعلمون أن الأشياء في وجودها وعدمها ترجع إلى مشيئة الله تعالى. فعلة الخلق هي المشيئة. والله أعلم.

---

(١) ينظر تفسير البحر المحيط ٥٠٣/٣

٣. قال تعالى: ﴿قُلْ فَلِلّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الأنعام:١٤٩) فعلة امتناع الهداية للناس جميعاً امتناع المشيئة. وذلك لحكمة.

قال أبو السعود: "فلو شاء هدايتكم جميعاً لهداكم أجمعين. بالتوفيق لها والحمل عليها. ولكن لم يشأ هداية الكل، بل هداية البعض الصارفين هممهم إلى سلوك طريق الحق، وضلال آخرين صرفوا اختيارهم إلى خلاف ذلك، من غير صارف يلويهم ولا عاطف يثنيهم"[1]

٤. قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس : ٩٩)

٥. قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (هود : ١١٨)

٦. قال تعالى:﴿وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (النحل : ٩٣)

ومن الآيات التي يكون القصد فيها بيان كون علة امتناع الجزاء امتناع الشرط الذى هو فعل المشيئة، وليس الجزاء دالاً على كون الناس أمة واحدة– الآيات الآتية:

٧. قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ (الأنعام : ١١٢)

فقد بينت الآية أن علة امتناع الجزاء وهو عدم فعلهم ما فعلوه هو امتناع الشرط، وهو المشيئة. فالمعنى– والله أعلم بمراده– أنهم فعلوا ما فعلوا لأن الله لم يشأ لهم عدم فعله. وذلك لحكمة يعلمها الله تعالى. وبالتأمل وتتبع سياق الآيات يدرك جانب من الحكمة وراء ذلك، وهو الابتلاء والاختبار بطبيعة الاختلاف بين المخلوقات. يقول الطبرى: "يقول تعالى ذكره: ولو شئت يا محمد أن يؤمن الذين كانوا لأنبيائى أعداء من شياطين الإنس والجن، فلا ينالهم مكرهم ويأمنوا غوائلهم وأذاهم فعلت ذلك. ولكني لم أشأ لأبتلى بعضهم ببعض، فيستحق كل فريق منهم ما سبق له فى الكتاب السابق"[2] ويدل على ذلك الآية التى بعدها ﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ (الأنعام : ١١٣) فإصغاء من لا يؤمن بالآخرة إلى هؤلاء الشياطين من مظهر اختلاف الناس إلى وجهات شتى.

---

(١) تفسير أبي السعود: ٣١٦/٤

(٢) تفسير الطبرى ٦/٨

٨. قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلاَدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ (الأنعام : ١٣٧)

والآية نظير الآية السابقة تبين أن علة امتناع الجزاء امتناع الشرط.

قال أبو حيان: "وهذه الجملة- أى ولو شاء الله- رد على من زعم أنه يخلق أفعاله"[١]. ووجه الاستدلال والرد أنه لما انتفت مشيئة عدم فعلهم وثبتت مشيئة الفعل امتنع عدم فعلهم بثبوت فعلهم. فعلة امتناع الجزاء امتناع الشرط. والله أعلم.

٩. قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَـكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الأعراف : ١٧٥ ، ١٧٦)

فالجملة الشرطية (لو شئنا لرفعناه بها) تفيد أن علة عدم رفعه هو عدم مشيئة ذلك لما يستحقه من الطرد والإبعاد، لميله إلى الباطل وتركه الآيات وانسلاخه منها.

قال أبو حيان: "أى ولو أردنا أن نشرفه ونرفع قدره بما آتيناه من الآيات لفعلنا ولكنه أخلد إلى الأرض، أى ترامى إلى شهوات الدنيا ورغب فيها، واتبع ما هو ناشئ عن الهوى. وجاء الاستدراك هنا تنبيهاً على السبب الذى لأجله لم يرفع ولو يشرف كما فعل بغيره..."[٢] ووراء إدراك الحكمة فى امتناع الجزاء لامتناع الشرط بسط من النظر والتأمل للوصول إليه فى الآيات. ولكل مجتهد نصيب[٣].

مراعاة المقام والسياق للوصول إلى المعنى:

ومن الأمور الثوابت التى يجب أن لا يغفل عنها أن استخراج المعنى المقصود من أسلوب الشرط يعتمد على مراعاة المقام والسياق. لأن النظر إلى الأساليب بعيداً عن مقامها وسياقها يرى الناظر معانى لا تناسب المقام.

فالآية الآتية وهى:

١٠. قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكُواْ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ (الأنعام : ١٠٧) تفيد أن علة امتناع الجزاء وهو عدم شركهم امتناع مشيئة عدم شركهم. لكن كلام الرازى عند تفسيره لها يدل على أنه يسلك بمعنى الآية طريق المعنى الثانى لاستعمال (لو) وهو الاستدلال بامتناع الجزاء على امتناع الشرط.

---

(١) البحر المحيط ٤/٢٣٠

(٢) البحر المحيط ٤/٤٢٣

(٣) ينظر فى ذلك الرازى ٤/٣١٧، وتفسير ابن كثير ٢/٢٦٥ وما بعدها.

فعند بيانه المعنى يقول: "ولا يثقلن عليك كفرهم، فإني لو أردت إزالة الكفر عنهم لقدرت، ولكني تركتهم مع كفرهم، فلا ينبغي أن تشغل قلبك بكلماتهم. واعلم أن أصحابنا تمسكوا بقوله تعالى: "ولو شاء الله ما أشركوا" والمعنى: ولو شاء الله أن لا يشركوا ما أشركوا. وحيث لم يحصل الجزاء علمنا أنه لم يحصل الشرط. فعلمنا أن مشيئة الله تعالى بعدم إشراكهم غير حاصلة"[1] على أن المقام الذي هو مقام خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم ونهيه عن الغيظ لعدم طاعتهم ولعدم تركهم الشرك الذى ينغمسون فيه يدل على أن ما يفهم- والله أعلم بمراده- تنبيهه إلى الحقيقة التى يعرفها، وهو أن كل شئ بمشيئته تعالى، وهو إمام المؤمنين بأن كل شئ يرجع إلى الله. فلا يبرهن له بانتفاء الجزاء وهو عدم الشرك على انتفاء المشيئة لإيجاد الفعل أى مشيئة عدم الشرك. ويميل الرازى أيضاً إلى المعنى الثانى عند تفسير الآية الآتية:

١١. قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (النحل : ٩) فالآية تدل على أن علة امتناع اجتماعهم على الهداية امتناع مشيئة الله تعالى لهم ذلك. وقال الرازى: قوله: "ولو شاء لهداكم أجمعين" يدل على أنه تعالى ما شاء هداية الكفار، وما أراد منهم الإيمان. لأن كلمة (لو) تفيد انتفاء شئ لانتفاء شئ غيره. وقوله: ولو شاء لهداكم معناه لو شاء هدايتكم لهداكم. وذلك يفيد أنه تعالى ما شاء هدايتهم. فلا جرم ما هداهم. وذلك يدل على المقصود"[2]

وواضح أن المقصود من الآية الذى برهن عليه الرازى قد ضاع بين عبارته. فبينما عبارته فى أولها تشير إلى أن القصد بيان علة امتناع الجزاء وهو عدم الشرط وذلك بقوله: ولو شاء لهداكم أجمعين يدل على أنه تعالى ما شاء هداية الكفار وما أراد منهم الإيمان. بينما يفيد ذلك. يفيد قوله (ولو شاء لهداكم معناه لو شاء هدايتكم لهداكم وذلك يفيد أنه تعالى ما شاء هدايتهم) فقوله: يفيد أنه تعالى ما شاء هدايتهم هو طبيعة المعنى الثانى لـ (لو) وهو الاستدلال بامتناع الجزاء على امتناع الشرط. ثم قوله بعد ذلك مباشرة: ما شاء هدايتهم فلا جرم ما هداهم رجوع مرة أخرى إلى المعنى الأول لـ (لو) وهو امتناع الجزاء لامتناع الشرط. والذى هو غرض من أغراض هذا المعنى.

١٢. قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (السجدة : ١٣)

---

(١) تفسير الرازى ١٢٢/٤

(٢) تفسير الرازى ٢٩٣/٥

فالمقام لبيان علة امتناع الجزاء وهو امتناع الشرط أى امتنعت هداية الكافرين المعاندين الذين حشروا إلى النار يوم القيامة، لأن الله تعالى لم يشأ ذلك. وسياق الآية يدل على ذلك، فالآية قبلها تحدثت عن المجرمين وهم ناكسو رءوسهم عند ربهم وطلبهم الرجوع مرة أخرى لعمل الصالح فى الدنيا. وتأتى الآية بعدها أيضاً تأمرهم بأن يذوقوا النار لتكذيبهم بلقاء الله. فالمقام وسياق الآيات يدل على أن الغرض من الشرط (ولو شئنا لآتينا..) يقصد به بيان سبب ما هم فيه من الشقاء والهوان، وهو عدم مشيئة الله تعالى لهم النجاة والرحمة بالهداية والإسلام.

قال الرازى: قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾. جواباً عن قولهم: ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا. وبيانه: هو أنه تعالى قال: إنى لو أرجعتكم إلى الإيمان هديتكم فى الدنيا. ولما لم أهدكم تبين أنى ما أردت، وما شئت إيمانكم فلا أردكم"[1] فقوله: لما لم أهدكم تبين أنى ما أردت وما شئت إيمانكم هو طريق المعنى الثانى (للو). ولو قال بأن المعنى إنى لم آتكم الهداية لأنى لم أشأ ذلك فلا تنتظروا الرجوع لعدم المشيئة. لكان أولى.

١٣. قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَـكِنِ اخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلَـكِنَّ اللّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (البقرة : ٢٥٣)

جملتا الشرط فى الآية الكريمة تفيد أن المعنى امتناع الجزاء لامتناع الشرط. والمعنى أن الاقتتال والخلاف بينهم بسبب عدم مشيئة الله تعالى عدم اختلافهم واقتتالهم.

وكثيراً ما يخلط الرازى بين المعانى المفادة بـ (لو) عند تفسير الآيات فقد وقع له ذلك. أيضاً عند تفسيره هذه الآية. قال: والمعنى أن عدم الاقتتال لازم لمشيئة عدم الاقتتال وعدم اللازم يدل على عدم الملزوم فحيث وجد الاقتتال علمنا أن مشيئة عدم الاقتتال مفقودة"[2] وكلامه هذا هو مفاد (لو) عند إرادة المعنى الثانى بها. أى الاستدلال بانتفاء الجزاء على انتفاء الشرط. وهو على ما يبدو يلزم نفسه بالطريقة المستعملة عند أهل المنطق، لكنها وإن كان معتداً بها فى الاستعمال اللغوى لأداة

---

(١) تفسير الرازى ٥٦٠/٦

(٢) تفسير الرازى ٣٠٤/٢

الشرط (لو) إلا أن ذلك يرتبط بالمقام. ومقام الآية على أن المقصود بيان علة امتناع الجزاء وهو امتناع الشرط وهو مشيئة الله تعالى. كما يساعد السياق على ذلك من وجود الاستدراك فى الآية، فهو يفيد استثناء نقيض المقدم، فيدل على أن انتفاء المقدم باعتباره شرطاً يستلزم انتفاء المشروط وهو التالى.

قال أبو السعود: "ولكن اختلفوا "استدراك من الشرطية أشير به إلى قياس استثنائى مؤلف من وضع نقيض مقدمها ينتج نقيض تاليها، إلا أنه قد وضع فيه الاختلاف موضع نقيض المقدم المترتب عليه للإيذان بأن الاقتتال ناشئ من قبلهم لا من جهته تعالى ابتداء. كأنه قيل: ولكنه لم يشأ عدم اقتتالهم لأنهم اختلفوا اختلافاً فاحشاً"(١).

وكلام أبي السعود واضح فى كون المراد الدلالة على انتفاء التالى لانتفاء المقدم المدلول عليه باستثناء نقيضه. فالمعنى المراد بـ (لو) فى الآية هو المعنى الأول لا المعنى الثانى كما زعم الرازى.

١٤. قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (يس : ٤٧)

فقد جاء الكافرون المعاندون بالشرطية (لو يشاءُ الله أطعمه) لإفادة أن علة امتناع إطعام الفقراء هو عدم مشيئة الله إطعامهم، وهذا الامتناع لحكمة. فاستدلوا بذلك على صحة مسلكهم من عدم إطعامهم الفقراء. ناسين أو متناسين أن الحكمة فى وجود الفقراء الابتلاء والاختبار فيما آتى الله الأغنياء. وليس لهم أن يدعوا التنظير.

١٥. قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (الشورى : ٨)

فعلة امتناع كون الناس أمة واحدةً امتناع المشيئة وذلك لحكمة الابتلاء والاختبار ودخول الجنة والنار.

١٦. قال تعالى: ﴿فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ (محمد : ٤)

فالشرطية (ولو يشاء الله لانتصر منهم) تبين أن عدم الانتصار منهم لامتناع مشيئة الله تعالى ذلك لحكمة الابتلاء والاختبار بالجهاد فى سبيل الله.

---

(١) تفسير ابى السعود ٨٧/٢

النكتة الثانية:

الدلالة بامتناع الجزاء لامتناع المشيئة – على الرحمة بالعباد والتخفيف عنهم بامتناع الجزاء.

وشواهد هذه النكتة تسعة شروط فى الآيات الآتية:

١. قال تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاء مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاء وَتَهْدِي مَن تَشَاء أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ (الأعراف : ١٥٥)

فجملة الشرط (لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى) تفيد امتناع الجزاء لامتناع المشيئة. وفى ذلك إشارة إلى رحمة الله ولطفه. فقدم موسى عليه السلام بذلك لرجائه فى الله أن يعفو عنه وعنهم. وقد حمل بعض المفسرين (لو) هنا على معنى التمنى. قال الزمخشرى: "وهذا تمن منه للإهلاك قبل أن يرى من تبعة طلب الرؤية. كما يقول النادم على الأمر إذا رأى سوء المغبة لو شاء الله لأهلكنى قبل هذا"[١] ومثل هذا عند الرازى وغيره ممن ذكرهم أبو حيان"[٢] على أن السياق لا يناسبه الحمل على التمنى، وذلك لأن موسى عليه السلام أبدى خوفه من الإهلاك بفعلهم فقال (أهلكنا بما فعل السفهاء منا) فكيف يتناسب مع تمنيه إهلاكهم قبل ذلك. والمعنى المناسب هو أنه عليه السلام ذكر لله فضله عليهم قبل ذلك عند معاصيهم ، واستجلب بذلك أن يبعده الله عن الهلاك بظلم الظالمين. وفى هذا المعنى يقول أبو السعود: "أراد به عليه السلام تذكير العفو السابق لاستجلاب العفو اللاحق. فإن الاعتراف بالذنب والشكر على النعمة مما يربط العتيد ويستجلب المزيد. يعنى إنا كنا مستحقين للإهلاك ولم يكن من موانعه إلا عدم مشيئتك إياه فحيث لطفت بنا، وعفوت عنا تلك الجرائم، فلا غرو أن تعفو عنا هذه الجريمة أيضاً. وحمل الكلام على التمنى يأباه قوله تعالى: (أهلكنا بما فعل السفهاء منا) أى الذين لا يعلمون تفاصيل شئونك ولا يتثبتون فى المداحض"[٣]. وبهذا تتضح النكتة فى امتناع الجزاء لامتناع الشرط وهو فعل المشيئة.

---

(١) الكشاف ١٢١/٢

(٢) ينظر تفسير الرازي ٢٩٨/٤ ، والبحر المحيط ٤٠٠/٤

(٣) تفسير أبي السعود ٤٨٨/٤

٢. قال تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَآؤُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُواْ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً﴾ (النساء: ٩٠)

فبعد أن أخبرت الآية التى قبل هذه عن موقف المؤمنين تجاه المنافقين وأمرهم بأن يقتلوهم إن لم يهاجروا فى سبيل الله، بينت لهم هذه الآية أن عليهم أن يراعوا العهود والمواثيق وأن يتركوا من جاءوا إليهم راغبين عن القتال.

ثم تبين الآية فضل الله عليهم ورحمته بهم بأن صرف قلوب هؤلاء عن حرب المؤمنين ولم يسلطهم عليهم. وذلك بدلالة أسلوب الشرط على امتناع الجزاء وهو التسلط، وكون علة ذلك امتناع مشيئة الله ذلك رحمة بهم. والله أعلم بمراده.

٣. ٤. قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاء الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَاء جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ (الواقعة:٦٣: ٧٠)

ففى هذه الآيات تعديد للنعم التى من الله بها على عباده. ومن هذه النعم ما يرزقه إياهم من زرع، ومن أجل النعم عليهم أن يبقى لهم الزروع إلى أن تؤتى ثمارها، فلا تكون حطاماً بفضل من الله ورحمة. وكذلك تكرم عليهم بالمياه التى تقوم عليها الحياة. ولولا فضل الله ورحمته ما أنزله بل ما أبقاه صالحاً للشرب. ففى الآيات بيان لتفضل الله تعالى على عباده بإبقاء نعمة لهم. فامتناع فساد الزرع والماء وحرمانهم منها لامتناع مشيئة الله ذلك فضلاً منه ورحمة. فالشرطان (لو نشاء لجعلناه حطاماً) و (لو نشاء جعلناه أجاجاً) يفيدان أن علة امتناع الجزاء امتناع المشيئة تفضلاً من الله جل وعلا.

٥- قال تعالى: ﴿ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاء اللّهُ لأعْنَتَكُمْ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة : ٢٢٠)

أى امتنع عنتكم لامتناع مشيئة الله ذلك رحمة بكم.

٦- قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاء أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ﴾ (الأعراف : ١٠٠)

فقد امتنع وقوع الإصابة بالذنوب والطبع على القلوب لامتناع مشيئة ذلك رحمة من الله بعباده الذين يرجى فيهم الخير. والله أعلم.

٧- قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاء لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ (يس : ٦٦)

فقد امتنع الجزاء وهو الطمس على أعينهم لامتناع المشيئة رحمة بالعباد.

٨- قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاء لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيّاً وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ (يس : ٦٧)

امتنع الجزاء لامتناع الشرط رأفة ورحمة.

٩- وقال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاء لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ (محمد : ٣٠)

فقد امتنع الجزاء وهو معرفة هؤلاء بسيماهم لامتناع المشيئة. قال ابن كثير: "يقول عز وجل ولو نشاء يا محمد لأريناك أشخاصهم فعرفتهم عيانا، ولكن لم يفعل الله تعالى ذلك فى جميع المنافقين ستراً منه على خلقه، وحملاً للأمور على ظاهر السلامة، ورداً للسرائر إلى عالمها"[١].

النكتة الثالثة:

الدلالة على قدرة الله تعالى على الإيجاد والإعدام بربط الأفعال بمشيئته تعالى. وشواهد ذلك أربعة شروط.

١. قال تعالى: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاء لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة : ٢٠)

فالله سبحانه وتعالى يبين أن امتناع إذهاب أسماعهم وأبصارهم لأنه لم يشأ ذلك، ولو شاء ما منعه مانع، ولا حال دونه عارض. وأكد ذلك بقوله جل ثناؤه: ﴿إن الله على كل شئ قدير﴾.

٢. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاء لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً﴾ (الفرقان : ٤٥)

فقد بين الله تعالى أن علة امتناع الجزاء وهو جعله الظل ساكناً هو امتناع مشيئته ذلك. وهذا الشرط فى بيان القدرة وسياق إظهار توقف كل شئ على المشيئة.

٣. قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً﴾ (الفرقان : ٥١).

---

(١) تفسير ابن كثير ١٨١/٤

فقد بينت الآية أن علة امتناع بعث رسول فى كل قرية هو امتناع المشيئة. وتشير الآية بذلك إلى قدرة الله تعالى. وأنه لا يعجزه شئ.

قال الرازى: "الآية تقتضى مزج اللطف بالعنف، لأنها تدل على القدرة على أن يبعث فى كل قرية نذيراً مثل محمد. وأنه لا حاجة بالحضرة الإلهية إلى محمد ألبته وقوله: (ولو) يدل على أنه سبحانه لا يفعل ذلك. فبالنظر إلى الأول يحصل التأديب وبالنظر إلى الثانى يحصل الإعزاز"(١).

على أنه ينبغى أن يلحظ أن دلالة التعليق على المشيئة على القدرة لله تعالى ليس خاصاً بهذه الآيات وما هو من قبيلها. إذ التعليق عليها يفيد ذلك. لكن لبعض الآيات أحوال ومناسبات خاصة بها يصير القصد إلى بيان القدرة هو المقصد الأول من التعليق على المشيئة.

٤ . قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ (الزخرف: ٦٠)

فقد جاء الشرط هنا لإفادة أن الله قادر على تحقيق الجزاء من وجود ملائكة تخلف بنى الإنسان.

قال الزمخشرى: "ولو نشاء – لقدرتنا على عجائب الأمور وبدائع الفطر– لجعلنا منكم– لولدنا منكم يا رجال ملائكة يخلفونكم فى الأرض كما يخلفكم أولادكم كما ولدنا عيسى من أنثى من غير فحل لتعرفوا تميزنا بالقدرة الباهرة..."(٢)

ومما ينبغى التنبه له أن جميع شواهد المشيئة تدل على القدرة وإنما تخصصت هذه الشواهد بهذه النكتة، لأنها المقصد الرئيسى فى الآيات المذكورة، أما الشواهد المذكورة فى النكات الأخرى فالغرض الأساسى فيها هو نكاتها التى جاءت لها. والله أعلم.

النكتة الرابعة:

الاعتذار عن عدم وقوع الجزاء والتعلل بربطه بالمشيئة ويكون ذلك من الكافرين عند جدالهم، مغالطة منهم فى الاحتجاج. وشواهد ذلك ثلاثة شروط هى ما يأتى:

١ . قول الله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ﴾ (الأنعام : ١٤٨)

---

(١) تفسير الرازى ٦/٣٥٠

(٢) الكشاف ٣/٤٩٤

الحق أن علة امتناع عدم الشرك هو امتناع مشيئة الله ذلك. كما هو عقيدة أهل السنة فى إسناد الأفعال كلها إلى الله تعالى. لكن للعبد فيها كسب ينال به الثواب والعقاب. والآية بصدد ذكر احتجاج المشركين بأن كل شئ بمشيئة الله مغمضين عيونهم عن الكسب وأن لهم اختيارا عند وقوع الفعل. وقد ذكر ابن المنير- وجه الرد عليهم بقوله: "إنما كان لاعتقادهم أنهم مسلوبون اختيارهم وقدرتهم. وأن إشراكهم إنما صدر منهم على وجه الاضطرار وزعموا أنهم يقيمون الحجة على الله ورسله بذلك، فرد الله قولهم وكذبهم فى دعواهم عدم الاختيار لأنفسهم، وشبههم بمن اغتر قبلهم بهذا الخيال، فكذب الرسل وأشرك بالله، واعتمد على أنه إنما يفعل ذلك كله بمشيئة الله، ورام إفحام الرسل بهذه الشبهة"[1] فأسلوب الشرط- وإن أفاد ارتباط الشرط وهو المشيئة بالجزاء، إلا أن الغرض تكذيبهم فى التعلل بذلك متغافلين عما أودعه الله فيهم من الاختيار الذى على أساسه يحاسبون. والله أعلم.

٢. قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ (النحل : ٣٥)

فالقصد فى الآية- والله أعلم بمراده- بيان أن علة امتناع الجزاء امتناع الشرط، أى امتنع انتفاء العبادة من دون الله لامتناع مشيئة ذلك. فهم عبدوا غيره لأن الله شاء ذلك.

وعقيدة أهل السنة أن كل شئ يقع بمشيئة الله تعالى. وقد استعمل الكفرة ذلك فى احتجاجهم على بطلان رسالة الرسل. لأن الهداية ما دامت مرتبطة بالمشيئة فليس ثمة داع لإرسال الرسل.

قال الإمام الرازي: "وتقريرها- أى حجتهم- أنهم تمسكوا بصحة القول بالجبر على الطعن فى النبوة. فقالوا: لو شاء الله الإيمان لحصل الإيمان. سواء جئت أم لم تجئ. ولو شاء الله الكفر فإنه يحصل الكفر. سواء جئت أم لم تجئ. وإذا كان الأمر كذلك فالكل من الله تعالى. ولا فائدة فى مجيئك وإرسالك. فكان القول بالنبوة باطلاً"[2]. أى أن المغالطة فى استدلالهم واضحة لكونهم بنوا على ما هو مسلم به، من كون الأشياء عدماً ووجوداً خاضعة لمشيئته تعالى- بنوا عليه استدلالهم على استحقاقهم النجاة من الحساب والعقاب. متناسين أنهم يستحقون ذلك بما أودع الله فيهم من العقل الذى يمكنهم من الاختيار المناسب لهم والكسب الذى عليه يحاسبون. والله أعلم.

---

(١) الإنصاف لابن المنير ٥٩/٢

(٢) تفسير الرازى ٣٠٧/٥

٣. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاء الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ (الزخرف : ٢٠)

فقد امتنع الجزاء لامتناع الشرط، وقد جاء الكافرون بهذه الشرطية ليعللوا كفرهم وضلالهم مغالطة منهم، والكلام فيها كآية الأنعام السابقة.

الغرض الثانى:

ومن أغراض الامتناع الدلالة بامتناع الشرط على امتناع الجزاء، وذلك عن طريق دلالة (لو) على امتناع الشرط، فيدل امتناع الشرط على امتناع الجزاء ويكون هذا الغرض عند عدم العلم بامتناع الجزاء. أو مظنة عدم العلم به. مع العلم بامتناع الشرط. وشواهد هذا الغرض ثلاثة وثلاثون شرطاً بما فيها الشروط التى حذف جوابها.

١. قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُواْ واتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّه خَيْرٌ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة : ١٠٣)

أى لو آمن من علم من نفسه المخالفة والكفر لأثيب من الله مثوبة خيراً مما هو عليه. فهم لا يعلمون الثواب من الله وخيره لهم. لذا اختاروا الكفر على الإيمان فالشرطية (ولو أنهم آمنوا....) أفادت امتناع الشرط ليدل على امتناع الجزاء. والله أعلم.

٢. قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (آل عمران : ١١٠)

فقد دلت الشرطية على ترتب امتناع الجزاء على امتناع الشرط، أى لما امتنع إيمانهم امتنع الخير لهم.

٣. قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ* وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُواْ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُواْ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ (آل عمران: ١٦٦، ١٦٧)

فقد نفوا علمهم بالقتال أى وجود وجه له ومبرر يحملهم عليه بطريق (لو) ثم ترتب على ذلك امتناع اتباعهم للمؤمنين. قال أبو حيان بعد أن جوز اعتبار (لو) هنا بمعنى (إن) "وعلمهم للقتال منتف فانتفى الاتباع"[١]

---

(١) البحر المحيط ١٠٩/٣

ويؤكد هذا المعنى مجيئهم بفعل الشرط (نعلم) مضارعاً لإفادة استمرار انتفاء علمهم ليرتبوا عليه عدم اتباعهم فيكون أكثر ثباتاً ووضوحاً للمؤمنين فلا ينتظرون منهم استجابة. والله أعلم.

٤. قال تعالى: ﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (النساء : ٤٦)

فقد دلت الشرطية على امتناع سماعهم وطاعتهم فامتنع الجزاء وهو حصول الخير لهم. والاستثناء بلكن يساعد على إفادة ذلك أى ترتب الجزاء على الشرط.

٥. قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً﴾ (النساء : ٦٤)

فقد دلت الشرطية على امتناع مجيئهم للرسول تائبين مستغفرين فامتنعت توبة الله عليهم.

٦. قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُواْ مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً﴾ (النساء : ٦٦)

فجملة الشرط الثانية تفيد امتناع الشرط ليمتنع الجزاء، أى الدلالة بامتناع الشرط على امتناعه.

أما الشرطية الأولى (ولو أنا كتبنا عليهم...) فلها موضع آخر وهو إفادة مجرد الربط.

٧. قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ (المائدة : ٦٥)

فقد جاء الشرط بـ (لو) للدلالة بامتناع إيمان أهل الكتاب- والذى هو معلوم- والتوسل بهذا الامتناع إلى امتناع الجزاء، وهو تكفير سيئاتهم وإدخالهم الجنة.

ويلحظ الفرق واضحاً بين الشرط فى هذا الآية والشرط فى الآية التى بعدها وهو قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاء مَا يَعْمَلُونَ﴾ (المائدة : ٦٦)

لأنه لما كان الجزاء هنا معلوم الانتفاء- فهم لا يأكلون كما يرغبون- كان الغرض من الشرط بيان علة امتناع الجزاء، وهى امتناع الشرط. أما آية الشاهد هنا فإن الجزاء غير معلوم الانتفاء، أو مظنون عدم العلم به. لكونهم يعتقدون أنهم من أهل الجنة، وأنهم جديرون بها. فجئ بـ (لو) للدلالة على ترتيب امتناع الجزاء على امتناع الشرط.

٨. قال تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لَّاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (الزمر : ٤) فامتناع إرادة اتخاذ الولد يترتب عليه امتناع الاتخاذ.

٩. قال تعالى: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ﴾ (محمد : ٢١) فقد ترتب على امتناع صدقهم امتناع الخير لهم وانتفاؤه.

١٠. قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الحجرات : ٥)

فقد دلت (لو) على امتناع صبرهم ثم ترتب امتناع الخير- الذى كان ينتظرهم- عليه.

الشرط محذوف الجواب:

ويعد من قبيل الغرض الثانى المفاد به امتناع الشرط ثم ترتب امتناع الجزاء عليه- الشواهد التى يكون فيها جواب الشرط مجزوماً. وإنما كانت تبعاً لهذا الغرض لأن الشأن فى الغرض الأول الذى يقصد به بيان علة امتناع الجزاء أن يكون الجزاء مذكوراً، لأن القصد فيه بيان علة امتناعه. ولا يتصور أن تبين علة امتناعه وهو محذوف. لأنه يكون عند بيان علته محط اهتمام. ومظهر هذا الاهتمام ذكره. ولذا فالشواهد التى حذف منها الجواب تكون من الغرض الثانى لا من الغرض الأول. وكذلك ما يكون القصد منه إفادة الارتباط بين الشرط والجزاء لا يكون الجزاء فيه محذوفاً.

وكذلك لا تدخل فى شواهد ما يكون القصد منه إفادة كون الجزاء علة باعثة على امتناع الشرط ليمتنع الجزاء. أى أن شواهد ما حذف منه الجواب تخلص للغرض الثانى الذى يقصد منه بيان امتناع الشرط ثم امتناع ما يترتب عليه وهو الجزاء.

ومما يدل على تأصل القصد إلى امتناع الشرط أولاً- ما نلاحظه من صحة الاكتفاء بالشرط المذكور دون نظر إلى الجواب ألبته. فعند تفسير قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ (الواقعة : ٧٦) يقول الرازى: "يحتمل وجهين: أحدهما: أن يقال: الجواب محذوف بالكلية. لم يقصد بذلك جواب. وإنما يراد نفى ما دخلت عليه

(لو) وكأنه قال: وإنه لقسم لو تعلمون. وتحقيقه: أن (لو) تذكر لامتناع الشئ لامتناع غيره. فلابد من انتفاء الأول. فإدخال (لو) على تعلمون. أفادنا أن علمهم منتف، سواء علمنا الجواب أو لم نعلم. وهو كقولهم فى الفعل المتعدى: فلان يعطى ويمنع، حيث لا يقصد به مفعول. وإنما يراد إثبات القدرة... وثانيهما: أن يكون له جواب تقديره لو تعلمون لعظمتموه"[1]

ففي هذا دلالة على أن نفي الشرط مقصود بذاته ثم يترتب عليه امتناع الجزاء وتكون أمثلة محذوف الجواب داخلة فى الغرض الثانى.

فعل الشرط الذى حذف جوابه:

وقد لاحظت أمثلة ما حذف جوابه فوجدت أن فعل الشرط فيها إما أن يكون فعلاً للعلم والمعرفة، وإما أن يكون فعل الرؤية، وإما أن يكون فعلاً آخر غير هذين وهو قليل، وفيما يلى بيان للمعنى فى هذه الأنواع الثلاثة:

أولاً: فعل العلم وما هو من قبيله.

وشواهده اثنا عشر شرطاً. وتناول كلام العلماء عن هذه الأفعال النقاط الثلاث الآتية:

١. رأى بعضهم صحة الحمل على معنى التمنى.
٢. وجه الحسن فى حذف الجواب.
٣. تعدد تقدير الجواب.

وحديثهم عنها فيما يلى:

"معنى التمنى":

١. قال تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللّهِ وَكَرِهُواْ أَن يُجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ (التوبة : ٨١)

ففي الآية جملة الشرط (لو كانوا يفقهون) حذف جوابها والشرط بحكم (لو) ممتنع ويمتنع تبعاً له جوابه. والجواب محذوف تقديره- والله أعلم- (لاتقوا نار جهنم). وقد ذكروا صحة الحمل على التمنى. قال أبو السعود: "وجواب (لو) إما مقدر... وإما غير منو على أن (لو) لمجرد التمنى"[2]. ولعل ما هم فيه من الخسران بنفاقهم هى التى هيئ لحمل الجملة على معنى التمنى.

---

(١) تفسير الرازى ٦٩/٨

(٢) تفسير أبي السعود ١٧٧/٥

٢. قال تعالى: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ (القصص : ٦٤)

وهذه الآية يصح فيها- كالآية السابقة- اعتبار (لو) للتمني.

قال الزمخشري: "لو أنهم كانوا مهتدين مؤمنين لما رأوه. أو تمنوا لو كانوا مهتدين. أو تحيروا عند رؤيته وسدروا فلا يهتدون طريقاً"[١]

وجه حذف الجواب وحسنه:

وقد عللوا حذف الجواب في هذه الأمثلة، بأنه لكي تذهب النفس في تقديره كل مذهب. مناسبة لما يقتضيه المقام من التهويل لشأنه.

٣. ذكر الرازي وجهاً لحذف الجواب في قوله جل وعلا: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ (التكاثر:٥، ٦) قال: "إنه حذف الجواب ليذهب الوهم كل مذهب، فيكون التهويل أعظم وكأنه قال: لو علمتم علم اليقين لفعلتم ما لا يوصف ولا يكتنه. ولكنكم ضلال وجهلة"[٢]

أما وجه الحسن في الحذف فلكون المقام يدل عليه ويساعد على تقديره على جهات مختلفة من التأويل، مناسبة للمقام والسياق.

٤. وعند تفسير قول الله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (الأنبياء : ٣٩)

يقول الرازي: "وإنما حسن حذف الجواب لأن ما تقدم يدل عليه، وهذا أبلغ"[٣] أي أكثر مبالغة في تهويل شأن الجواب بإذهاب النفس فيه مذاهب شتى. كما يناسب البلاغة من جهة كونه مناسباً لما يقتضيه المقام والسياق من تهويل الأمر للكافرين وتشديد التخويف لهم. وقد تحدثت الآيات قبل هذه الآية عن استهزائهم برسول الله صلى الله عليه وسلم وتكذيبهم للآيات واستعجالهم يوم القيامة. ولو كشف عنهم هذا الغباء، وهذه الضلالة، وتبينوا ما يصيبهم يوم القيامة لكان حالهم غير ذلك.

تعدد التقدير للجواب:

وكان من ثمرة ذهاب الذهن في الجواب مذاهب متعددة أن اختلفت التقديرات تبعاً لاختلاف الأذهان في تصورها. على أنه ينبغي إدراك أن هذا الاختلاف لكونه يسترشد بالمقام والسياق لا يتعارض. لأن جميع ما يقدر يصلح بمفرده أو بمعية غيره أن

---

(١) الكشاف ١٨٨/٣

(٢) تفسير الرازي ٤٧٢/٨

(٣) تفسير الرازي ١٠٥/٦

يتحقق ويقارن الشرط. يدل على ذلك مسلك العلماء فى تقديرهم الجواب. حيث لا تتعارض معانى الأجوبة المقدرة مع بعضها.

فعند تفسير قول الله تعالى: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ (القصص : ٦٤) يقول أبو حيان فى تقدير الجواب: "قيل: التقدير لو كانوا مهتدين لوجه من وجوه الحيل لدفعوا به العذاب. وقيل: لعلموا أن العذاب حق وقيل: لتحيروا عند رؤيته من فظاعته وإن لم يعذبوا به. وقيل: ما كانوا فى الدين عابدين الأصنام"[١] فأى وجه من وجوه التقدير هذه مناسب للشرط ولازم من لوازمه. لأن من يهديه الله يتبصر فيدرك معنى من هذه المعانى، أو يدركها جميعاً. وهذا على حسب ما يهيئه الله لعبده. ولا يتعين دائماً صحة التقديرات المختلفة أو احتمال وجودها لأن فيه من الشواهد ما يكون للمقام والسياق أثره فى تعيين جواب مناسب.

٥. فقول الله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤١)

تقدير الجواب فيه "لو كانوا يعلمون أن هذا مثلهم، وأن أمر دينهم بالغ هذه الغاية من الوهن فقد تبين أن دينهم أوهن الأديان لو كانوا يعلمون"[٢]

٦. وقوله تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت: ٦٤)

جواب (لو) يدل على ما سبق "أى لو كانوا يعلمون لم يؤثروا دار الفناء عليها"[٣] وعند تفسير قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ (التكاثر: ٥، ٦) قال الزمخشري فى تقدير الجواب: "(لو تعلمون) محذوف الجواب يعنى لو تعلمون ما بين أيديكم على الأمر اليقين أى كعلمكم ما تستيقنونه من الأمور التى وكلتم بعلمها همكم لفعلتم ما لا يوصف ولا يكتنه، ولكنكم ضلال جهلة"[٤] أى قد يكون تعيين جواب هو الأنسب بالمقام فى بعض الأمثلة.

---

(١) البحر المحيط ١٢٨/٧

(٢) الكشاف ٢٠٦/٣

(٣) البحر المحيط ١٢٨/٧

(٤) الكشاف ٢٨١/٤

ومن شواهد ذلك- أيضاً- الآيات الآتية:

٧. قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَـكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة : ١٠٢)

٨. وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي اللّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ (النحل : ٤١)

٩. وقال تعالى: ﴿فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر : ٢٦)

١٠. وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ (الواقعة: ٧٦)

١١. وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (القلم: ٣٣)

١٢. وقال تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاء لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (نوح : ٤)

ثانياً: فعل الشرط فعل الرؤية:

وشواهده ثمانية شروط وهو صنف آخر يكون فعل الشرط فعل (رأى) وهو على صلة بالأفعال السابقة من حيث كون الرؤية وسيلة من وسائل الإدراك والعلم. بل إنه صح اعتبار (رأى) علمية فى بعض الشواهد، فقد ذكر أبو حيان عند تفسير الآية الآتية ما يفيد ذلك.

١. قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىَ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأنعام: ٢٧) قال: "والظاهر أن الرؤية هنا بصرية. وجوزوا أن تكون من رؤية القلب. والمعنى: ولو صرفت فكرك الصحيح إلى تدبر حالهم لازددت يقيناً أنهم يكونون يوم القيامة على أسوأ حال. فيجتمع للمخاطب فى هذه الحالة الخبر الصدق الصريح والنظر الصحيح. وهما مدركان من مدارك العلم اليقين"[1] وهذا واضح فيما قلناه.

---

(١) البحر المحيط ١٠١/٤

٢. ومثلها قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنَزلَ اللّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ (الأنعام : ٩٣)

فإنه يصح فى الفعل (ترى) الواقع شرطاً اعتباره علمياً كالآية السابقة، والرؤية وسيلة من وسائل العلم.

ويصح فى أمثلة هذا النوع اعتبار معنى التمنى كأمثلة النوع الذى سبقه كما ذكر الزمخشرى عند تفسير الآية الآتية:

٣. قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ (السجدة : ١٢)

قال الزمخشرى: "يجوز أن يكون خطاباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم وفيه وجهان: أن يراد به التمنى كأنه قال: وليتك ترى... وأن يكون لو الامتناعية قد حذف جوابها. وهو لرأيت أمراً عظيماً. أو لرأيت أسوأ حال ترى"[(١)] ولا يخفى اتصال معنى التمنى بمعنى امتناع الشرط إذ التمنى يكون للشئ البعيد، والشأن فى أمثلة هذا النوع أن يأتى محذوف الجواب فى شواهد القرآن الكريم، وتكون النكتة فى ذلك التفخيم والتهويل. ويقدر له جواب مناسب للمقام والسياق.

٤. قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُواْ بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ العَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (الأنعام: ٣٠)

و (لو) هنا يمكن اعتبارها امتناعية واعتبارها للتمنى كالآية السابقة.

٥. قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُواْ الْمَلآئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (الأنفال : ٥٠)

أى لو رأيتهم لرأيت أمراً عجيباً.

٦. قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ (البقرة : ١٦٥)

يقول الزمخشرى: "أى ولو يعلم هؤلاء الذين ارتكبوا الظلم العظيم بشركهم أن القدرة كلها لله على كل شئ من العقاب والثواب دون أندادهم، ويعلمون شدة

---

(١) الكشاف ٢٤٢/٣

عقابه للظالمين إذا عاينوا العذاب يوم القيامة لكان منهم ما لا يدخل تحت الوصف من الندم والحسرة ووقوع العلم بظلمهم وضلالهم"(١)

ويقول النيسابورى عند تفسيرها: "وحذف جواب (لو) دليل على فخامة شأن المحذوف، ليذهب الوهم كل مذهب، ويقدر من الفظاعة ما لا يكتنه كنهه. كقولهم: لو رأيت فلاناً والسياط تأخذه، بخلاف ما وقع التعبير عنه بلفظ معين"(٢)

٧. قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ (سبأ: ٣١)

يقول الزمخشري: "ولو ترى فى الآخرة موقفهم وهم يتجاذبون أطراف المحادثة ويتراجعونها لرأيت العجيب، فحذف الجواب"(٣) ويقول أبو حيان "وجواب (لو) محذوف أى لرأيت لهم حالاً منكرة من ذلك وتخاذلهم وتحاورهم حيث لا ينفعهم شيء من ذلك"(٤)

٨. قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ (سبأ: ٥١)

يقدر الزمخشرى الجواب المحذوف قائلاً: "ولو ترى جوابه محذوف، يعنى لرأيت أمراً عظيماً وحالاً هائلة"(٥)

وهكذا الشأن فى مجئ الآيات دون جواب وموقف العلماء فى تقديره بما يناسب المقام.

ثالثاً: أن يكون فعل الشرط غير فعل العلم والرؤية. ولم يأت ذلك إلا فى آيات ثلاث. وقد جاءت الجملة بعد (لو) جملة اسمية، ويكون الشرط فعلاً تقديره لو ثبت- مثلاً- وهذه الآيات هى:

١. قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوْاْ مَا آتَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ سَيُؤْتِينَا اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللّهِ رَاغِبُونَ﴾ (التوبة : ٥٩)

---

(١) الكشاف ٣٢٦/١

(٢) غرائب القرآن ٦١/٢

(٣) الكشاف ٢٩٠/٣

(٤) البحر المحيط ٢٨٢/٧

(٥) الكشاف ٢٩٦/٣

ويقدر الجواب– والله أعلم بمراده– لو حصل منهم أنهم رضوا لكان خيراً لهم.

٢. قال تعالى: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ (هود: ٨٠)

والتقدير– والله أعلم– لو كان لى ذلك لفعلت ما أستطيع به دفعكم ومنعكم. قال الزمخشرى: وجواب (لو) محذوف كقوله تعالى: ﴿ولو أن قرآنا سيرت به الجبال...﴾[1]

٣. قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَل لِّلّهِ الأَمْرُ جَمِيعاً أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَن لَّوْ يَشَاءُ اللّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (الرعد: ٣١)

فالشرط الأول (لو أن قرآنا.... "حذف منه الجواب ويقدر الجواب أى. ولو أن قرآناً سيرت به الجبال... لكان هذا القرآن.

والذى يبدو– والله أعلم– أنه لا تقدر تقديرات مختلفة. ويتحدد التقدير المذكور بدلالة المقام والغرض من الآية.

- **الغرض الثالث:**

وهو أن يكون القصد مجرد الدلالة على معنى الارتباط بين الشرط والجزاء فى الخارج وجودا وعدما. وتكون دلالة الشرط على الامتناع ليس القصد الرئيس من الكلام وإن استفيد بحكم دلالة (لو) وضعا.

وشواهده واحد وعشرون شرطا هى ما يأتي:

١–قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (الأنعام:٧)

فالقصد – والله اعلم بمراده – إفادة ارتباط الشرط بالجزاء وأن الجزاء يقع عند وقوع الشرط، فلما امتنع الشرط امتنع الجزاء.

٢–قال تعالى : ﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (الأنعام:٢٨)

فالمعنى أنهم لشدة الموقف وما يعاينونه من هول وعذاب انتبهوا إلى الحقيقة التى كثيرا ما أخفوها، وأدركوا يقينا عظمة الله وقدرته. ثم ربطت الآية بين أمرين قد يظن

---

(١) الكشاف ٢/٢٨٣

أو يدعى أنهما لا يلتقيان وهما عودهم مرة أخرى إلى الدنيا وارتدادهم عن الإيمان بعد ردهم إليها، فالآية أفادت الربط بينهما مع دلالة (لو) على امتناعها.

٣- قال تعالى: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام:٨٨)

فالآية فى سياق الحديث عن الأنبياء المذكورين فى قوله تعالى (وتلك حجتنا..) ومعلوم امتناع الشرط والجزاء وهما الشرك وإحباط الأعمال. وقد جيء بالشرط إفادة للارتباط بين الشرط والجزاء. دفعا لما قد يتوهم من أن اجتباءهم يعطيهم تميزاً عن غيرهم عندما تبدر منهم بادرة شرك. فقطعت الآية ذلك وربطت إحباط العمل بالشرك مع العلم بانتفائهما. وفي الآية تعريض بمن يشركون بالله وأنهم سيكونون مجازين بذلك. والله أعلم.

٤- قال تعالى: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنفال: ٤٢)

فالشرط فى الآية الكريمة (ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد) يفهم منه معنى الربط بين الشرط والجزاء، وهو المدرك الرئيس فى المعنى، ليدفع به توهم أنهم لو تواعدوا لصدقوا فى الميعاد، فأفاد الربط مع امتناع الطرفين أيضاً.

٥- قال تعالى : ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (الأنفال:٤٣)

فالجزاء فى أسلوب الشرط وهو الفشل والتنازع امتنع لامتناع الشرط، ويبرز معنى الربط بين الشرط والجزاء دلالة، فيدفع التوهم أن نقيض الجزاء أولى بالشرط بأن يتوهم أن رؤية الكثرة يترتب عليها التماسك والنصر.

٦- قال تعالى : (لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً وَلَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ) (التوبة:٤٧)

فالشرطية فى الآية الكريمة ﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا﴾ يبرز فيها معنى الربط بين الشرط والجزاء. أكثر من إفادة الامتناع للامتناع.

٧- قال تعالى : ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ (التوبة:٥٧)

فالمدرك المهم إبراز الارتباط بين الشرط والجزاء مع إفادة امتناعهما. قال أبو حيان:

"لو أمكنهم الهروب منهم لهربوا ولكن صحبتهم لهم صحبة اضطرار لا اختيار"(١) أى لا يفارق هروهم فرصة تسنح لهم.

٨- قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ (يونس: ٥٤)

وهذه الآية قوية الدلالة على إفادة معنى الربط بين الشرط وهو امتلاك ما فى الأرض جميعا وبين الجزاء وهو افتداء النفس من عذاب يوم القيامة مع انتفاء الشرط والجزاء ويتأبى أن يكون الغرض الرئيس من جملة الشرط إفادة أن علة امتناع الجزاء امتناع الشرط، لأنه ليس مقصود الآية. وإلا لكان المعنى أنه ما منعهم من الفداء والنجاة من النار إلا أنهم لا يملكون الفداء وهو ما فى الأرض جميعاً، ولو ملكوا لافتدوا وقبل منهم الفداء. واليقين الثابت أنهم لا يقبل منهم الفداء حتى وإن ملكوا ما فى الأرض جميعا وقد أشار إلى ذلك قوله جل وعلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (المائدة: ٣٦) فقد دلت الآية أن العذاب ملازم لهم افتدوا بما فى الأرض أم لم يفتدوا. ودلت (لو) على امتناع الشرط وامتناع الجزاء معه. لكن امتناع الجزاء هنا دائم مستمر، لأن طريق الدلالة فى الآية المعنى الثالث المفاد بـ (لو) والآيتان الكريمتان بهذه الدلالة تضمان وتبرزان معنى متكاملاً جامعا. فالآية الأولى: تدل على أنهم لو ملكوا الفداء لافتدوا وعرضوه. والآية الثانية تدل على أنهم لو ملكوا ما فى الأرض جميعا ما تقبل منهم. وهذه الآية تفيد الامتناع فى جميع الأحوال والله أعلم.

• مناقشة الرازى :

وهذا البيان الذى ذكرته لا يتفق مع كلام الرازى فى هذا الموضع فهو يقول: "قوله: ولو أن لكل نفس ظلمت ما فى الأرض لافتدت به. إلا أن ذلك متعذر لأنه في محفل القيامة لا يملك شيئا كما قال الله تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً﴾ (مريم: ٩٥) وبتقدير أن يملك خزائن الأرض إلا أنه لا ينفعه الفداء. لقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ (البقرة: ٤٨) وقال فى صفة هذا اليوم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (البقرة: ٢٥٤)"(٢)

---

(١) البحر المحيط ٥٤/٥

(٢) تفسير الرازى ٢/٥

فأول كلامه يفيد أن علة عدم الفداء للخروج من النار هو عدم امتلاك ما في الأرض أو أي شيء كان، بحيث لو امتلك لجاز أن يفتدى. وهذا ما سبق أن نفيته عن مراد الآية. كما أن قوله: وبتقدير أن يملك خزائن الأرض.. بعيد كل البعد عن مقصد الآية لأن الغرض بيان حالهم من التطلع إلى الفداء، لما يلاقون من الهول والعذاب المحيط، ومواقف القضاء عادة تتطلع فيها نفوس الظالمين إلى الافتداء. فقول الرازى: وبتقدير أن يملك .. يناسب آية المائدة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (المائدة:٣٦) ولا يناسب آية يونس التى هو بصدد تفسيرها. والله أعلم.

٩-قال تعالى : ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (الرعد:١٨)

وهذه الآية نظير الآية السابقة فى إفادة معنى الارتباط بين الشرط والجزاء، أى أنهم لو ملكوا لافتدوا.

١٠- قال تعالى : ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ (الحجر: ١٤ ، ١٥)

فالقصد فى الآية – والله أعلم بمراده – إفادة الارتباط بين الشرط وهو رؤيتهم الآيات فى السماء وبين إنكارهم وكذبهم بإدعاء أنهم مسحورون وهو الجزاء.

وكلام الإمام الرازى – رحمه الله – عند تفسير الآية يشير إلى معنى الارتباط بين الشرط والجزاء، مع تنظيره بين هذه الآية وآية الأنعام يقول: "واعلم أن هذا الكلام هو المذكور فى سورة الأنعام فى قوله: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (الأنعام:٧) والحاصل أن القوم لما طلبوا نزول الملائكة يصرحون بتصديق الرسول عليه السلام فى كونه رسولا من عند الله تعالى. بين الله تعالى فى هذه الآية أنه بتقدير أن يحصل هذا المعنى لقال الذين كفروا هذا من باب السحر. وهؤلاء الذين يظن أنا نراهم فنحن فى الحقيقة لا نراهم. والحاصل: أنه لما علم الله تعالى أنه لا فائدة فى نزول الملائكة، فلهذا السبب ما أنزلهم" [(١)] على أنه وإن صح له حاصله الأول إلا أن الحاصل الثاني لا يصح لأنه لا يلتئم مع ما يدرك من الآية، وهو إفادة الارتباط بين الشرط والجزاء الذي هو من شواهده، إذ أن كلامه فيه

---

(١) تفسير الرازى ٥/٣٦٠

هو غرض آخر، وهو أن يكون الامتناع لإفادة كون الجزاء علة باعثة لامتناع الشرط ليحصل امتناعه وهو الغرض الرابع الذي سيأتي بعد ذلك إن شاء الله تعالى.

١١- قال تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً﴾ (الكهف:١٨)

فالشرطية فى الآية (لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا) مراد منها إفادة معنى الارتباط والتلازم بين الشرط والجزاء دون قصد إلى بيان علة امتناع الجزاء أو إفادة انتفاء الشرط ليرتب عليه انتفاء الجزاء. ويؤكد وضوح هذا الغرض أن المتحدث عنهم لم يكونوا فى زمن المصطفى عليه الصلاة والسلام وعصر نزول القرآن. بحيث يكون القصد إلى المعنيين والغرضين السابقين، ومادام الأمر كذلك كان القصد إنه لو فرض أنك رأيتهم كان منك الرعب والفرار، لكنه لم يرهم لبعد زمنيهما. والله أعلم.

١٢- قال تعالى : ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً﴾ (الكهف:٧٧)

فالجملة الشرطية المحكية عن موسى عليه السلام (لو شئت لاتخذت عليه أجرا) تفيد معنى الارتباط والتلازم بين الشرط وهو مشيئة الأخذ وبين الجزاء وهو الأخذ، وذلك لاستحقاقه له. ولا يقصد موسى عليه السلام أنه يبين للخضر أن علة عدم الأخذ هو عدم المشيئة لعلمه بذلك، ولا لأن يرتب هذا على ذاك فيفيد امتناع الجزاء لامتناع الشرط أى إخباره بترتب امتناع الجزاء عن امتناع مشيئته التي هى شرط. وإنما يقصد الارتباط فقط ثم يستلزم هذا القصد معنى آخر كالتعجب من حال الخضر، والتحسر على ترك الأجر وهما فى أشد الحاجة إليه.

١٣- قال تعالى: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيراً﴾ (الأحزاب:١٤)

فالمعنى المفاد بالشرط – والله أعلم بمراده – هو الارتباط بين الشرط وهو سؤالهم الفتنة بعد دخول المدينة وبين الجزاء، وهو مسارعة المنافقين لإعطائها وعدم التردد فيها. فالآية تكذب المنافقين فى اعتذارهم وتعللهم بأن بيوتهم عورة، وأنهم ما تخلفوا إلا للدفاع عنها.

١٤- قال تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلاً﴾ (الأحزاب: ٢٠)

فالشرطية فى الآية (ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا) تفيد الارتباط بين الشرط وهو وجود المنافقين فى صفوف المؤمنين وبين الجزاء وهو عدم قتالهم إلا قليلا، نفاقاً وتزويرا. مع دلالة (لو) على امتناعهما.

١٥- قال تعالى: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً﴾ (الفتح: ٢٢)

فالآية تفيد الارتباط بين الشرط والجزاء، وأنه على فرض وقوع الشرط يقع الجزاء، لكنهما لم يقعا.

١٦- قال تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الحشر: ٢١)

وفى هذه الآية دلالة واضحة على مسلك هذا الغرض وهو المجيء بالشرط والجزاء لمعنى الربط بينهما في الوجود، وخاصة إذا كان على سبيل الفرض والتقدير . إذ الفرض والتقدير قرينة على قصد إقامة الارتباط بينهما مع دلالة (لو) على الامتناع. قال الزمخشرى : "هذا تمثيل وتخييل كما مر فى قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ (الأحزاب: ٧٢) وقد دل عليه قوله: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الحشر: ٢١) والغرض توبيخ الإنسان على قسوة قلبه ، وقلة تخشعه عند تلاوة القرآن، وتدبر قوارعه وزواجره" [١] ومن شواهد ذلك أيضا الآيات الآتية:

١٧- قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً﴾ (النساء: ٦٦)

١٨- قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ (التوبة: ٤٦)

---

(١) الكشاف ٤/٨٧

١٩- قال تعالى : ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ (فاطر:١٤)

ويؤيد معنى مجرد الارتباط مجيء الشرط (لو سمعوا..) على سبيل الفرض والتقدير لأنه مستحيل.

٢٠- قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ (الزمر:٤٧)

٢١- قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ (فصلت:٤٤)

فالشأن فى جميع الآيات إدراك الارتباط بين الشرط والجزاء.

- **الغرض الرابع:**

وهو إفادة كون امتناع الجزاء علة باعثة لامتناع الشرط ليتحقق بامتناع الشرط باعتبار سببيته امتناع الجزاء. أى أن امتناع الجزاء علة غائية لامتناع الشرط، وامتناع الشرط علة فاعلة لامتناع الجزاء. وشواهده ستة شروط هى ما يأتى:

١- قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ﴾ (الأنعام:٨)

فمقام الآية يدل على أن ما ندركه من الجملة الشرطية، بيان أن علة امتناع الشرط فى الخارج هو إرادة امتناع الجزاء. أى أن امتناع قضاء الأمر وإهلاكهم علة باعثة لامتناع إنزال الملك. لأنه لو أنزل ولم يؤمنوا به عوقبوا وأهلكوا. وبهذا يتضح أنه لم يقصد بيان أن الثانى امتنع بسبب امتناع الأول كما هو الغرض الأول ولا قصد الاستدلال بامتناع الأول على امتناع الثانى وترتبه عليه للعلم بانتفائهما وذلك كما هو الغرض الثانى، ولا مجرد الارتباط بين إنزال الملك وقضاء الأمر فيهم. كما هو الغرض الثالث. بل أريد أن الشرط امتنع لكى يمتنع الجزاء لكون الشرط سببا فى وجود الجزاء، والجزاء غير مطلوب الوقوع كما هو مقتضى الحكمة الإلهية بتأجيلهم إلى أجل معلوم.

٢- قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ (الأنعام:٩)

وهذه الآية الكريمة على طريقة الآية السابقة تفيد الشرطية فيها أن امتناع

الجزاء عله غائية لامتناع الشرط، فالقصد بيان علة عدم جعل الرسول ملكا، وهو مضمون الشرط وذلك لكى لا يختلط الأمر ويلتبس عليهم فلا يعرفون الرسول، لأن طبيعة الملك تخالف طبيعة البشر فلما صار بشرا آل الأمر إلى اللبس مرة أخرى. فهي "امتناعية أريد بها بيان انتفاء الجعل الأول لاستلزامه المحذور الذى هو الجعل الثاني" (١) ويتفق هذا الغرض مع الغرض الثالث فى افادة الارتباط لكنه يختلف عنه فى القصد إلى امتناع الأول ليمتنع الثانى.

٣- قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾ (طه: ١٣٤)

بالنظر إلى الشرطية (ولو أنا أهلكناهم..) يتبين أن الغرض بيان علة عدم وقوع الإهلاك. إذ لم يهلكهم الله لكى لا يقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا ... فالجزاء علة باعثة على امتناع الشرط ليمتنع الجزاء، والله أعلم بمراده.

٤- قال تعالى: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ (المؤمنون: ٧١)

فالشرطية تفيد بدلالة المقام أن الله تعالى لا يترك دينه يتبع هواهم لحصول الفساد بذلك، وحصول الفساد علة باعثة لكى لا يوجد الشرط ليمتنع الفساد. قال الزمخشري: "دل بهذا على عظم شأن الحق، وأن السموات والأرض ما قامت ولا من فيهن إلا به، فلو اتبع أهواءهم لانقلب باطلا ولذهب ما يقوم به العالم فلا يبقى له قوام..." (٢) فعدم حصول الفساد علة باعثة لامتناع اتباع الحق أهواءهم وذلك ليمتنع الفساد. والله أعلم.

٥- قال تعالى: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (المؤمنون: ٧٥)

فالمعنى - والله أعلم بمراده - أنه بامتناع الرحمة وكشف الضر عنهم تمتنع لجاجتهم وطغيانهم. وامتناع الجزاء باعث لامتناع الشرط. ليمتنع الجزاء. الذى هو اللجاجة والظلم. والاعتداء، وهذا مقتضى الحكمة من الله تعالى.

٦- قال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ (الشورى: ٢٧)

---

(١) تفسير أبي السعود ١٢٧/٤

(٢) الكشاف ٣٧/٣

فالآية تشير إلى أن علة عدم البسط هو منعهم من البغى، لكون ذلك أى البسط مدعاة للإثم والاعتداء.

• المعنى الثانى : امتناع الشرط لامتناع الجزاء:

اعتراض ابن الحاجب على المعنى الأول:

يمثل كلام ابن الحاجب فى (لو) مفاد هذا المعنى الثانى. فقد ارتضى القول بأن (لو) تفيد امتناع الأول لامتناع الثانى، دون العكس، الذى ذهب إليه أهل اللغة. ويدل كلامه على أن معتمده فى ذلك ما يأتى:

أولاً: إن الأصل فى الاستدلال أن يكون بانتفاء الثانى وهو الجزاء على انتفاء الأول وهو الشرط. لكون الأول سببا والثانى مسببا، وانتفاء المسبب يدل على انتفاء السبب دون العكس، لجواز أن يكون للمسبب الذى هو الجزاء أسباب أخرى خلاف الشرط المذكور. قال فى أماليه: "سألنى بعض أهل العلم عن قول النحويين: إن (لو) يدل على امتناع الشيء لامتناع غيره. أى يمتنع الثانى لامتناع الأول. فقال: كيف يستقيم ذلك من تفسيرهم، ونحن قاطعون بأن الأول يمتنع لامتناع الثانى من حيث المعقول؟

وبيانه: أنك إذا قلت: لو كان هذا إنسانا لكان حيوانا وصدق وجب أن يكون نفى الحيوانية مستلزما لنفى الإنسانية، لا العكس الذى صار إليه النحويون، فإنه على نقيض المعقول. وإنه ليلزم أن يكون كل حيوان إنسانا، وهو فاسد"[1] فابن الحاجب ينظر إلى الطرفين من حيث الربط وما يفرضه التلازم من وجهة أهل المنطق.

ثانياً: إنه إذا صح لأهل اللغة أن الثانى ينتفى لانتفاء الأول، فإن ذلك لا يكون إلا فى صورة واحدة. وهى ما إذا انفرد الشرط بالسببية فى الجزاء، بأن لا توجد معه أسباب أخرى. ثم هو مع ذلك لا يسلم لأهل اللغة أن يكون امتناع الثانى (الجزاء) لامتناع الأول (الشرط) عن طريق الوضع. وإنما هو وليد اللزوم بين الشرط والجزاء. بدليل عدم تحققه إلا فى هذه الصورة. فهو غير مطرد. قال : "فإن قيل: أليس يستقيم أن يقال فى نحو. لو أسلمت دخلت الجنة: أن الثانى امتنع لامتناع الأول، فليحمل قول النحويين عليه؟ قلت: إنما ثبت ذلك من جهة اتحاد السبب لا من جهة ما يقتضيه (لو)

---

(١) الأمالى النحوية ٤/١٥٥

من السببية مطلقا. فكان ذلك لخصوص المادة. أو لما يقتضيه مجرد الاستلزام. ثم لو صح ذلك فى بعضها لم يصح على التعميم". [1]

ثالثاً: ومما قوى استدلاله على صحة ما ذهب إليه مجيء القرآن بذلك، فقد استشهد بقول الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الأنبياء:٢٢) لأن الآية لم تسق للدلالة على امتناع الجزاء لامتناع الشرط، وإنما للدلالة على امتناع الشرط وهو تعدد الآلهة لامتناع الجزاء وهو الفساد.

قال : "بعد أن تحقق أن وضع (لو) على النفى لا يقتضى أن نفى الأول لا يستلزم نفى الثانى، فى مثل: لو كان إنسانا كان حيوانا. وذلك يوجب أن الحيوانية تستلزم الإنسانية، فيكون كل حيوان إنسانا. وذلك باطل ومعلوم النقيض فيهما. فإن استثناء نقيض صورة الثانى فى (لو) إذا صدق يوجب نقيض المقدم قطعاً. وكذلك القول فى مثل: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (الأنبياء:٢٢)............" [2] فقد استدل بانتفاء التالى وهو الفساد على انتفاء المقدم وهو تعدد الآلهة الذى هو المعنى الثانى.

مناقشة ابن الحاجب :

وبالتأمل يتبين أن ما ذهب إليه ابن الحاجب لا يسلم له مطلقاً، لعدم اطراده من ناحية، ومن ناحية أخرى كون أسلوب الشرط يفيد الدلالة على امتناع الجزاء لامتناع الشرط باعتبار كونه شرطا له. كما يوجد أيضا اختلاف بين ما يقصده أهل اللغة بالامتناع للامتناع وبين ما يقصده أهل المنطق به، ويتضح ذلك بما يأتى:

أولا: إن رفض ابن الحاجب كون (لو) لامتناع الثانى لامتناع الأول، لكون الأول سببا والثانى مسببا، ونفى السبب لا يستلزم نفى المسبب لجواز أن تكون فيه أسباب أخرى – لا يسلم له على إطلاقه لأنه تعليل غير كلى ولا يطرد. ذلك لأن الشرط النحوى ليس بالضرورة أن يكون سببا لأنه كما قال السعد: "أعم من أن يكون سببا نحو : لو كانت الشمس طالعة فالعالم مضيء، أو شرطا نحو: لو كان لى مال لحججت، أو غيرهما نحو: لو كان النهار موجودا كانت الشمس طالعة" [3] كما أنه لا يجديه العدول عن التعبير بالسبب والمسبب إلى اللازم والملزوم بأن يقال يستدل بانتفاء

---

(١) الأمالى النحوية ١٥٦/٤

(٢) الأمالى النحوية ١٥٧/٤

(٣) المطول ١٦٧

اللازم على انتفاء الملزوم دون العكس، لأنه لا يسلم اطراده أيضاً. لكونه لا يتم فى نحو: لو كان الماء حارا لكانت النار موجودة فإن الحرارة ليست ملزومة للنار دون غيرها. فقد توجد بالشمس، وكذلك لو أضاءت الدار فالشمس طالعة. فنفى الثاني فى هذه الأمثلة لا يدل على نفى الأول. وهذا نظير احتجاجه على أهل اللغة بعدم اطراد أمثلتهم.(١)

ثانياً: إن استدلال ابن الحاجب بأن الشرط ملزوم والجزاء لازم، وانتفاء اللازم يوجب انتفاء الملزوم، من غير عكس، يكون عندما يراد بالتعليق مجرد اللزوم، أى مطلق لزوم الثانى للأول. لكن التعليق الشرطى يراد به أن الجزاء متعلق بالشرط منوط به بحيث يتوقف عليه بخصوصه، ولا ينظر إلى غيره. لأن ما سواه يصير فى حكم غير الموجود. لأن حصول المشروط دون الشرط يدل على أن الشرط المذكور غير متوقف عليه المشروط. وهذا خلاف ما يقصد بالتعليق. وقد أشار ابن الحاجب إلى هذا المعنى عند محاولته التوفيق بين ما ذهب إليه أهل المنطق، وما ذهب إليه اللغويون.

قال: "فإن قلت: كيف الطريق إلى الجمع بين استقامة ما ذكرتموه من المنقول والمعقول؟ قلت: ما اقتضاه المعقول مقطوع به من جهة العقل، وما قاله النحويون من جهة الوضع يجب تأويله على وجه قريب. وذلك أنهم قصدوا أن (لو) تدل على امتناع الثاني مسببا للأول (لا) الامتناع مطلقا، لما يؤدى إلى الفساد المقطوع به عقلا. (لذا) قال بعض العلماء: قتل الردة مغاير لقتل القصاص. فإذا انتفت الردة انتفى القتل المنسوب إليها. وكذلك القول فى قتل القصاص. وإذا صح أن يقال: انتفى القتل لانتفاء الردة بالمعنى المذكور فما نحن فيه أجدر لما فيه من الحامل على ذلك. والذى حملهم على ذلك أنه لا يستقيم أن يقال فى (لو) إن وضعها على أن الأول يمتنع لامتناع الثانى. لأن ذلك إنما يوجد لاستدلال عقلى دقيق" (٢)

والذي يتضح من هذا أن المقصود بانتفاء الجزاء لانتفاء الشرط هو أن المشروط له ولو تحققت له جميع الأسباب لوقوعه لكنه امتنع لعدم وقوع الشرط المذكور بخصوصه. كما لو قلت : لو زرتني لأكرمتك. فإن الإكرام امتنع لامتناع شرطه ، وهو الزيارة. حتى وإن صح وجود أسباب أخرى للإكرام(٣).

(١) تنظر حاشية الدسوقى على المختصر = شروح ٢/٧٠ وتقرير الإنبابى ٢/٣٩٦.

(٢) الأمالى النحوية ٤/١٥٦

(٣) تنظر حاشية عبدالحكيم = فيض الفتاح ٣/٨٧

ثالثاً: إن المقصود بقولهم : إنها لامتناع الثانى لامتناع الأول أنها تفيد أن امتناع الثانى كان بسبب امتناع الأول، لا ان امتناع الأول دليل على امتناع الثانى.

قال السعد : "ليس معنى قولهم: (لو) لامتناع الثانى لامتناع الأول، أنه يستدل بامتناع الأول على امتناع الثانى. حتى يرد عليه أن انتفاء السبب أو الملـــزوم لا يـــدل على انتفاء المسبب أو اللازم. بل معناه أنها للدلالة على أن انتفاء الثانى فى الخارج إنمـــا هو بانتفاء الأول. فمعنى (لو شاء الله لهداكم)[١] أن انتفاء الهداية إنما هو بسبب انتفـــاء المشيئة. فهى عندهم تستعمل للدلالة على أن علة انتفاء مضمون الجزاء فى الخارج هى انتفاء مضمون الشرط، من غير التفات إلى أن علة العلم بانتفاء الجزاء ما هى؟ ألا يرى أن قولهم: (لولا) لامتناع الثانى لوجود الأول، نحو لولا علىٌّ لهلك عمـــر. معنـــاه أن وجود علىّ سبب لعدم هلاك عمر. لا أن وجوده دليل على أن عمر لم يهلك. ويـــدل على ما ذكرنا قطعا قول أبى العلاء المعرى:

وَلَوْ دَامَتِ الدُّولاَتُ كانوا كَغَيْرِهِم ... رَعَايا وَلَكِـــنْ مَـــا لَهُـــنَّ دَوَامُ [٢]

ألا يرى أن استثناء نقيض المقدم لا ينتج شيئا على ما تقرر فى المنطق.

وكذا قول الحماسي :

وَلَوْ طَارَ ذُو حَافِرٍ قَبْلَهَا ... لَطَارَتْ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَطِرْ [٣]

أى عدم طيران تلك الفرس بسبب أنه لم يطر ذو حافر قبلها" [٤]

---

(١) الآية في سورة الأنعام. ولفظها ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الأنعام :١٤٩) وفى سورة النحل ولفظها : ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (النحل:٩) .

(٢) البيت من قصيدة له فى سقط الزند بعنوان (الدهر دولة ثم صولة) قالها بمناسبة انهزام الروم وتساقط دولتهم.

وقبل هذا البيت:

وما الدهر إلا دولة ثم صولة ... وما العيش إلا صحة وسقام

زمان قَرَوْا بالمشرفى ضيوفَهم ... مآلك قوم والكمـــاة صيام

ثم البيت...... ص ١٠٨ ، ١٠٩

(٣) البيت من قصيدة لابى سلمى بن ربيعة الضبى يصف فيها فرسا له. أولها :

وخيل تلافيت ريعانها ... بعجلزةٍ جَمَزَى المدخر

شرح ديوان الحماسة للمرزوقى، القسم الثانى ص ٥٥٣ ، ٥٥٦، نشر أحمد أمين وعبد السلام هارون.

(٤) المطول ١٦٧

وهذا واضح الدلالة على أن المراد بكون (لو) لامتناع الثانى لامتناع الأول معناه كون امتناع الأول سببا فى امتناع الثانى، لا أن الأول يستدل بانتفائه على انتفاء الثانى.

ومما سبق يتضح أمران:

الأول: أن فيه فرقا بين كون (لو) مستعملة للدلالة على أن الثانى امتنع بسبب امتناع الأول. وبين كون امتناع الثانى دليلا على امتناع الأول، فهما طريقان مختلفان دلالة ومقاماً.

الثانى: أن كلا الاستعمالين جاء فى الأساليب العربية ، فهو داخل فيها وفى طريقتها. وإن كان الاستعمال الأول أكثر من الثانى ولا يتخصص الاستعمال الثانى باستعمال المناطقة إلا من حيث كونه قائما على الاستدلال العقلى الذى هو مستعمل عندهم فى إقامة البراهين. وقد جاء فى القرآن الكريم آيات على طريقة المعنى الثانى أعرضها بعون الله تعالى فيما يتأتى:

• مواقع المعنى الثانى:

وشواهد هذا المعنى اثنا عشر شرطا هى ما يأتى:

١- قال الله تعالى : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٢)

هذه الآية معتمد البلاغيين فى الاستشهاد على المعنى الثانى (بلو) حيث أن مقام الآية يدل على القصد إلى الاستدلال على وحدانية الله تعالى بانتفاء الفساد الذى هو لازم للتعدد. فلما انتفى اللازم وهو الفساد انتفى الملزوم الذى هو التعدد لاستحالة انتفاء اللازم دون الملزوم.

• استدلال ابن الحاجب بالآية:

والذى يفهم من كلام ابن الحاجب عند استدلاله بالآية الكريمة أنه قصد بيان مجيئها وفق طريقة الاستدلال عند المنطقيين. أى الاستدلال بنفى اللازم على نفى الملزوم دون العكس، لصحة وجود ملزومات أخرى للازم يمكن أن ينشأ عنها.

وينبغى أن يُتنبَه إلى أن ابن الحاجب لم يقصد أن للفساد ملزومات أخرى خلاف تعدد الآلهة. لأن كلامه على عمومه وليس خاصاً بالآية أى أنه يمكن يوجد للازم ما ملزومات أخرى، لا أن ذلك مطرد مع جميع اللوازم. فقاعدة المنطقيين فى الاستدلال بانتفاء الثانى.. دون الاستدلال بانتفاء الأول.. لإمكان التعدد فى

الملزومات.. وليس لحتمية تعدد الملزومات. وبهذا يتضح أن الاستشهاد بالآية الكريمة على حسب القاعدة، وأن مجيئها عليها. وليس لأن اللازم وهو الفساد له ملزومات أخرى خلاف التعدد.

وابن الحاجب عند استشهاده بها لم يصرح بأن اللازم له ملزومات أخرى. قال: "إن استثناء نقيض صورة الثانى فى (لو) إذا صدق يوجب نقيض صورة المقدم قطعا، وكذلك القول فى مثل : لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا..."[1] فالقول بأن الآية جاءت على وفق كلام المنطقيين أى فى الاستدلال فقط، لا أن الآية تعددت فيها الملزومات فامتنعت الدلالة بها على امتناع الثانى من حيث إن الأول ممتنع، لأن الآية يتساوى فيها اللازم والملزوم. إلا أن مقام الآية حدد طريق المعنى فى الآية وهو الاستدلال على انتفاء الأول بانتفاء الثاني.

• ما فهمه ابن هشام من كلام ابن الحاجب:

لعل ما سبق ذكره من كلام ابن الحاجب وما أبنته من معنى يستفاد منه يدل على أن ما نقله ابن هشام مخالف لكلام ابن الحاجب خاصة ما يرتبط بالتلازم بين تعدد الآلهة والفساد. وكونه يصح وقوعه من الإله الواحد. فقد قال ابن هشام: "أما ابن الحاجب فإنه قال فى أماليه: ظاهر كلامهم أن الجواب امتنع لامتناع الشرط. لأنهم يذكرونها مع (لولا) فيقولون : (لولا) حرف امتناع لوجود، والممتنع مع (لولا) هو الثانى قطعاً. فكذا يكون قولهم فى (لو) وغير هذا القول أولى. لأن انتفاء السبب لا يدل على انتفاء مسببه لجواز أن يكون ثم أسباب أخرى. ويدل على هذا (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) فإنها مسوقة لنفى التعدد فى الآلهة بامتناع الفساد لأن امتناع الفساد لامتناع الآلهة، لأنه خلاف المفهوم من سياق أمثال هذه الآية. ولأنه لا يلزم من انتفاء الآلهة انتفاء الفساد لجواز وقوع ذلك وإن لم يكن تعدد فى الآلهة. لأن المراد بالفساد فساد نظام العالم عن حالته. وذلك جائز أن يفعله الإله الواحد سبحانه."[2]

هذا ما نقله ابن هشام عن ابن الحاجب. والحق أن ابن الحاجب لم يقل – لا يلزم من انتفاء الآلهة انتفاء الفساد لجواز وقوع ذلك وإن لم يكن تعدد فى الآلهة... كما هو واضح من النص الذى ذكرته عنه سابقاً. هذا فضلا عما فيه من التناقض. إذ كيف

---

(١) الأمالى النحوية ١٥٧/٤.

(٢) مغنى اللبيب ٢٠٩/١

يستشهد أولا بنفى الفساد على نفى التعدد لسببية الأول (التعدد) ومسببية الثانى (الفساد) وحيث انتفى المسبب تنتفى جميع الأسباب. ثم يذهب لتعليل عدم لزوم انتفاء الفساد لانتفاء التعدد وصحة وقوع الفساد من الإله الواحد.

ويزيد هذا التناقض وضوحا أن وقوع الفساد إما أن يكون لازما للإله الواحد بمعنى إمكان وقوعه منه، وإما لازما للتعدد بمعنى الوقوع أيضا من الآلهة المتعددة. ولا يصح أن يخلف أحدهما الآخر بأن يكون كل منهما سببا للفساد، وإلا اجتمع النقيضان لسببيتهما لشيء واحد. واستلزم ذلك ارتفاع النقيضين عند امتناع لازمهما وهو الفساد وهذا باطل.

والحق أن الفساد يناسب التعدد ولا يناسب الوحدانية فلا يصح وقوعه من الإله الواحد. ويكون لازما له. قال السيوطى: "ينتفى التالى أيضا إن ناسب الأول بأن لزمه عقلا أو شرعا أو عادة. ولم يخلف المقدم غيره فى ترتب التالى عليه. كـ ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الأنبياء:٢٢) أى السماوات والأرض. ففسادهما أى خروجهما عن نظامهما المشاهد مناسب لتعدد الآلهة. للزومه على وفق العادة عند تعدد الحاكم من التمانع فى الشيء، وعدم الاتفاق عليه. ولم يخلف التعدد فى ترتب الفساد غيره. فينتفى الفساد بانتفاء التعدد المفاد بلو... ولا ينتفى التالى إن خلفه غيره، كقولك: لو كان إنسانا لكان حيوانا" [١]

ولو سلم لابن هشام ما ذكره ونسبه إلى ابن الحاجب من أنه لا يلزم انتفاء الآلهة انتفاء الفساد. فكيف يصح الاستدلال بانتفاء الفساد على انتفاء التعدد. مادام يصح وقوع الفساد من الإله الواحد؟

• رأى السعد فى المعنى المفاد بالآية:

وممن سلك مسلك ابن هشام السعد فعند حديثه عن الآية قال : "قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ إنما سيق ليستدل بامتناع الفساد على امتناع تعدد الآلهة دون العكس. إذ لا يلزم من انتفاء تعدد الآلهة انتفاء الفساد لجواز أن يفعله بسبب آخر" [٢] وهذا بناء منه على اعتبار الآية حجة إقناعية تفيد الظن لا اليقين وأن بين الأول والثانى تلازم فى العادة وليس عقليا. قال : "إن قول الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ حجة إقناعية والملازمة عادية، على ما هو اللائق

---

(١) همع الهوامع ٦٥/٢

(٢) المطول ١٦٧

بالخطابيات. فإن العادة جارية بوجود التمانع والتغالب عند تعدد الحاكم على ما أشير إليه بقوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (المؤمنون:٩١) وإلا فإن أريد به الفساد بالفعل، أى خروجهما عن هذا النظام المشاهد فمجرد التعدد لا يستلزمه. لجواز الاتفاق على هذا النظام المشاهد. وإن أريد إمكان الفساد فلا دليل على انتفائه، بل النصوص شاهدة بطى السموات ورفع هذا النظام فيكون ممكناً لا محالا"[١] على أنه عورض فيما ذهب إليه. وحقق كون الآية حجة قطعية تفيد اليقين.[٢]

والظاهر أن المراد بالفساد هو اضطراب الكون اضطرابا يتعارض مع بقائه وسيره على حسب السنن الكونية المشاهدة التى أرادها الله له فى الحياة الدنيا. ويساعد على هذه الدلالة مجيء (لو) الدالة على التعليق فى الزمن الماضى. أما خروجه عن هذا النظام بتغيير حالته وانتقاله من حالة الدنيا إلى حالة الآخرة والذى يعد فيصلا بين الحالتين. فهو فى حقيقته ليس إفسادا وإنما هو تغيير بمقتضى الحكمة وما يستلزمه إنفاذ الوعد السابق.

وقد تبع الدسوقى السعد فى نفى التلازم بين انتفاء التعدد وانتفاء الفساد قائلاً: "لا يلزم من انتفاء تعدد الآلهة انتفاء الفساد أى استحالته لصحة وقوعه بإرادة الواحد الأحد لحكمة"[٣] وانظر قوله: (لحكمة) وشتان بين وقوع الفساد وبين الحكمة إلا إن أراد تغيير نظام الكون فى الآخرة، وهذا كما قلت خلاف ظاهر الآية. والله أعلم.

٢-قال تعالى : ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً﴾ (النساء:٨٢)

هذه الآية الكريمة تحتمل المعنيين الأول والثانى إن نظر إليهما بعيدا عن سياقها، لكن صلتها بمقامها الذى جاءت فيه تفيد أن الأية جاءت على المعنى الثانى وهو الاستدلال بامتناع الجزاء على امتناع الشرط. وقد جاء فى تفسير الطبرى ما يتصل بالمعنيين. فيقول: "حدثنا بشر بن معاذ قال: حدثنا يزيد، قال: حدثنا سعيد عن قتادة: قوله: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً﴾ أى قول الله لا يختلف، وهو حق ليس فيه باطل، وإن قول الناس يختلف" [٤]

---

(١) شرح العقائد النسفية ٨٩/١

(٢) ينظر شرح البيجورى للجوهرة ٥٥

(٣) حاشية الدسوقى على المختصر = شروح ٧٠/٢

(٤) تفسير الطبرى ١٧٩/٥

فهذا مفاد المعنى الأول لكنه فى نفس الموضع يربط المعنى بالسياق قائلاً: "أفــلا يتدبر المبيتون غير الذى تقول لهم يا محمد كتاب الله، فيعلمــوا حجــة الله علــيهم فى طاعتك واتباع أمرك، وأن الذى أتيتهم به من التنزيل من عند ربهم لاتــساق معانيــه، وائتلاف أحكامه، وتأييد بعضه بعضا بالتصديق، وشهادة بعضه لبعض بالتحقيق، فــإن ذلك لو كان من عند غير الله لاختلفت أحكامه وتناقضت معانيه وأبان بعــضه علــى فساد بعض" [1] فقد أفاد بذلك أن الجزاء امتنع فكان ذلك دليلا على امتنــاع ســببه وهو الشرط.

ويقول الزمخشرى أيضا: "لوجدوا فيه اختلافا كثيرا لكان الكثير منــه مختلفــا متناقضا قد تفاوت نظمه وبلاغته ومعانيه، فكان بعضه بالغا حد الإعجاز وبعضه قاصراً عنه يمكن معارضته، وبعضه إخبارا بغيب قد وافق المخبر عنه، وبعضه إخبــارا مخالفــا للمخبر عنه، وبعضه دالا على معنى صحيح عند علماء المعانى، وبعضه دالا على معــنى فاسد غير ملتئم. فلما تجاوب كله بلاغة معجزة لقوى البلغاء وتناصــر صــحة معــان وصدق أخبار علم أنه ليس إلا من عند قادر على مالا يقدر عليه غيره، عالم بما لا يعلمه أحد سواه" [2]

ويقول ابن كثير: "أى لو كان مفتعلا مختلقا كما يقول من يقول مــن جهلــة المشركين والمنافقين فى بواطنهم لوجدوا فيه اختلافا أى اضطرابا وتــضادا كــثيرا. أى وهذا سالم من الاختلاف فهو من عند الله" [3] فهذا مسلك المعنى الثانى المفاد بـــ (لو). والله أعلم بمراده.

٣- قال تعالى : ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَــذُوهُمْ أَوْلِيَــاءَ وَلَكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (المائدة: ٨١)

ففى هذه الآية تكذيب لمنافقي أهل الكتاب الذين يتخذون الكافرين أولياء فى دعواهم الإيمان. إذ يدل على عدم صدقهم فى إيمانهم اتخاذهم الكافرين أوليــاء. فلمــا كان صدق الإيمان يستلزم عدم موالاتهم وقد انتفى اللازم ففيه دلالة على انتفاء الملزوم وهو صدق الإيمان.

---

(١) تفسير الطبرى ١٧٩/٥

(٢) الكشاف ٥٤٦/١

(٣) تفسير ابن كثير ٥٣٠/١

قال الزمخشرى: "موالاة المشركين كفى بها دليلا على نفاقهم وأن إيمانهم ليس بإيمان ، ولكن كثيرا منهم فاسقون متمردون فى كفرهم ونفاقهم" [(١)] والاستثناء هنا لنقيض التالى لأن فسقهم نقيض عدم الموالاة فقرر الاستثناء أى الاستدراك بلكن نفى التالى فانتفى المقدم. قال ابن كثير: "ولكن كثيرا منهم فاسقون أى خارجون عن طاعة الله ورسوله. مخالفون لآيات وحيه وتنزيله"[(٢)]

٤- قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ (الأنعام:٥٨)

والآية بعيدا عن مقامهما تحتمل المعنيين: الأول وهو إفادة امتناع الجزاء وهو قضاء الأمر بينه وبينهم لامتناع امتلاكه الأمر لإنفاذ ما يستعجلون. لكن سياق الآية يدل على أن المراد بها المعنى الثانى وهو الاستدلال على امتناع الشرط وهو امتلاك الرسول للأمر وذلك بامتناع لازمه وهو قضاء ما يرغبون فيه. والآية التى سبقتها فيها أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يخبرهم بأنه لا يملك هذا الأمر الذى يستعجلونه، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ (الأنعام:٥٧) ثم جاءت الآية المذكورة لتبرهن على أنه لا يملك من الأمر شيئا بدليل امتناع لازمه وهو إنفاذ ما يطلبون. والله أعلم.

٥- قال تعالى: ﴿قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (لأعراف:١٨٨)

وهذه الآية نظير الآية السابقة فى الدلالة على المراد منها بطريق المعنى الثانى ، فالآية فى مطلعها أعلمت الرسول عليه الصلاة والسلام أن يخبر عن نفسه بأنه لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ، ثم وجهته إلى إبراز دليل هذه الدعوى. بأنه لو كان يستكثر لنفسه الخير ويمنع السوء عن نفسه لكان دليلا على أنه يعلم الغيب، فلما انتفى الجزاء الذى هو لازم للشرط انتفى الشرط وهو الملزوم. أى علم الرسول صلى الله عليه وسلم الغيب كما يظنون. ثم ختمت الآية بأسلوب القصر الذى يحبسه على صفة التبشير والإنذار بحيث لا يتعدى ذلك إلى علم الغيب.

---

(١) الكشاف ٦٣٧/١

(٢) تفسير ابن كثير ٨٦/٢

قال الرازى: "والتقدير ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من تحصيل الخير ولاحترزت من الشر حتى صرت بحيث لا يمسنى السوء. ولما لم يكن الأمر كذلك ظهر أن علم الغيب غير حاصل عندى"[1] وهذا هو المعنى الثانى.

٦- قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ (يونس:١٦)

فالشرطية وإن أمكن فهم المعنى الأول منها أى امتناع الجزاء لامتناع الشرط إلا أن المقام هو الذى يوجه إلى كون المقصود منها المعنى الثانى أى الاستدلال بامتناع الجزاء على امتناع الشرط. ذلك لأن الآية السابقة تحدثت عن طلب الكافرين الإتيان بغير القرآن أو تبديله وتحريفه، فأخبرهم الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه لا يملك من الأمر شيئاً، وأنه يخاف معصية ربه بذلك وما يترتب عليها من العذاب المهين. وجاءت هذه الآية لتؤكد هذا المعنى من إرجاع الأمر كله لله. وأن قراءته وإعلامه له ناشىء عن مشيئة الله تعالى. قال أبو السعود: "التالى وهو عدم التلاوة والإدراء منتف فينتفى المقدم أعنى مشيئة عدم التلاوة... وفى إسناد عدم الإدراء إليه المنبىء عن استناد الإدراء إليه تعالى إيذان بأن لا دخل له عليه السلام فى ذلك حسبما يقتضيه المقام"[2]

بهذا يتضح القصد من الآية بدلالة المقام وهو الاستدلال بامتناع الجزاء على امتناع الشرط.

٧- قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً﴾ (الإسراء:٤٢)

ذكر المفسرون معنيين لقوله تعالى (لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا) فقالوا معناه ابتغاؤهم سبيلا إلى الله بالمغالبة والتملك. أو ابتغوا إليه التزلف والتقرب.

قال الزمخشرى "لطلبوا إلى من له الملك والربوبية سبيلا بالمغالبة كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض كقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الأنبياء:٢٢) وقيل لتقربوا إليه كقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً﴾ (الإسراء:٥٧) ..."[3] فعلى المعنى الأول تكون الآية مفادا بها نفى وجود آلهة مع الله تعالى بدليل انتفاء لازمه وهو عدم تسلطهم على الملك وهو المعنى

---

(١) تفسير الرازى ٣٣٢/٤

(٢) تفسير أبى السعود ٢٦٩/٥

(٣) الكشاف ٤٥١/٢ وينظر الطبرى ٩١/١٥ وابن كثير ٤٢/٣

الثاني لـــ (لو). وعلى المعنى الثاني أى التقرب والتزلف يكون استعمال (لو) فى الآيـــة لإفادة المعنى الأول وهو إفادة امتناع الجزاء لانتفاء الشرط. والله أعلم

٨- قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (الأنبياء:٩٩)

تبين الآية دليل عدم ألوهية ما يعبد من دون الله بعد أن أخبرهم الله تعالى — أى الكافرين — بأنهم وما يعبدون من دون الله حصب جهنم. فلما انتفى الجزاء وهو عدم دخولهم النار انتفى الشرط وهو كونهم آلهة من دون الله. فالمعنى أن دخول ما يعبد من دون الله النار دليل على أنهم ليسوا بآلهة، إذ لو كانوا آلهة لمنعوا أنفسهم ولَقَـــدروا ولم يُقدر عليهم. (١)

٩- قال تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِـثْلُكُمْ يُرِيـــدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً مَا سَـــمِعْنَا بِهَـــذَا فِـــي آبَائِنَـــا الْـــأَوَّلِينَ﴾ (المؤمنون:٢٤) .

تحكى هذه الآية ما يقوله الكفار عند إنكارهم رسالة الأنبياء، وما يدعونه مـــن الربط بين مشيئة الله وإرسال الرسل، وكون هذه المشيئة لا تكون إلا بإرسال ملائكـــة من عنده يبلغون رسالته ، وهو تلازم قائم فى اعتقاد الكافرين وليس من جهة العقـــل. فالآية تخبر عن قوم نوح استدلالهم على عدم رسالته بأن الله لم يرسل ملائكة ومـــادام لم يرسل ملائكة وهو لازم المشيئة للإرسال فقد انتفت مشيئة إرسال الرسل. وبذا يثبـــت عدم رسالة نوح عليه السلام فى نظرهم. ولكونهم لا يجدون مستندا من العقـــل علـــى ربط مشيئة الله تعالى إرسال الرسل بأن يكون المرسل ملكا أرجعوا هذا الحكم بالتلازم إلى العادة المتعارفة — كذبا منهم وبهتانا وتضليلا. فقالوا (ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين) منكرين ما يعلمون. والله أعلم.

١٠- قال تعالى: ﴿إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّـــا اللَّـــهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ (فصلت:١٤)

وهذه الآية كالآية السابقة فى كون القصد منها الاستدلال على انتفاء إرســـال الله الرسل بانتفاء إرسال الملائكة الذى هو لازم لمشيئة الله إرسالهم، بناء على الـــتلازم بينهما فى اعتقادهم. قال الزمخشرى: "لو شاء ربنا إرسال الرسل لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون، معناه: أنتم بشر ولستم ملائكة فإنا لا نؤمن بكم وبما جئتم بـــه"(٢)

---

(١) ينظر الطبرى ٩٥/١٧ والكشاف ٥٨٤/٢، وتفسير الرازى ١٣٦/٦.

(٢) الكشاف ٤٤٨/٣

وهذا هو المعنى الثانى لأداة الشرط (لو) وهو الاستدلال بامتناع الجزاء الذى هـو لازم على امتناع الشرط الذى هو ملزوم. وقد جعل أبو حيان التلازم بين مـشيئة إرسـال الملائكة والإرسال بالفعل وهو ليس بشيء. قال: "وتتبعت ما جاء فى القرآن الكـريم وكلام العرب من هذا التركيب فوجدته لا يكون محذوفا إلا من جنس الجواب. نحـو قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَـلا تَكُـونَنَّ مِـنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأنعام:٣٥) أى لو شاء جمعهم على الهدى لجمعهم عليه. وكذلك ﴿لَـوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ (الواقعة:٦٥) وأيضا ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجـاً فَلَوْلا تَشْكُرُونَ﴾ (الواقعة:٧٠) فعلى هذا الذى تقرر لا يكون تقدير المحذوف ما قالـه الزمخشرى. وإنما التقدير: لو شاء ربنا إنزال ملائكة الرسالة منه إلى الإنس لأنزل بهـا إليهم. وهذا أبلغ من الامتناع من إرسال البشر إذ علقوا ذلك بإرسال الملائكة وهو لم يشأ ذلك، فكيف يشاء ذلك فى البشر"[1].

والوجه فى بعد ما ذكره أبو حيان أن تعلق المشيئة بإرسال الملائكة يعـد أمـرا غريبا. لكون ذلك خلاف المعهود للبشر من جهة، ومن جهة أخرى أن المتكلمين بهـذا هم الكافرون عند جدالهم للرسل وإنكارهم عليهم الرسالة، فلو كان القصد إلى كون المفعول هو إرسال الملائكة لوجب ذكره. فقد قالوا: إن حذف مفعول المشيئة لنكتـة البيان بعد الإبهام لا يكون إلا إذا لم يكن تعلق فعل المشيئة بالمفعول غريبا. وإلا يـتعين ذكره لكى لا يوقع فى لبس [2] وذلك كما فى قول الشاعر:

ولو شئت أن أبكى دما لبكيته .. عليه ولكن ساحة الصبر أوسع[3]

وممن قال بمثل ما قاله أبو حيان البهاء السبكى، لكنه يحكى عـن والـده – فى الآية المذكورة – ما يفيد إطلاق مفعول المشيئة. قال:"وإذا حذفته– أى المفعول بـه– بعد (لو) فهو المذكور فى جوابها أبدا. كذا قالوه. وقد يرد عليهم قوله تعالى : ﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً﴾ فإن المعنى لو شاء ربنا إرسال الرسل لأنزل ملاِكته. لأن المعنى يعين ذلك . وبذلك فسره الوالد رضى الله عنه فى تفسيره"[4] .

---

(١) البحر المحيط ٤٩٠/٧

(٢) ينظر شروح التلخيص ١٣١/٢ وما بعدها.

(٣) البيت لأبى الهندام الخزاعى يرثى ابنه الهندام. حاشية الشيخ الدسوقى على المختصر ١٣٢/٢

(٤) عروس الأفراح= شروح ١٣٧/٢

وعلى ما ذهب اليه أبو حيان والسبكي يكون استعمال (لو) فى الآية لإفادة المعنى الأول وهو امتناع الجزاء لامتناع الشرط.

١١- قال تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ (الأحقاف:١١)

فالآية تتحدث عن الكافرين واستدلالهم على عدم خيرية الأديان ومجيء الإسلام لهم بالخير . وهو مدلول الشرط بسبق فقراء المؤمنين وضعفائهم إليه وهو الجواب وذلك عن طريق إقامتهم – فى زعمهم الباطل– التلازم بين الشرط وهو خيرية المدعو إليه وبين الجزاء وهو عدم سبق الفقراء إليه فلما إمتنع اللازم وهو الجزاء (ما سبقونا) امتنع الملزوم وهو الشرط (كان خيرا) أى ثبت بمسارعة الفقراء عدم صلاحية الدين لهم. فالمعنى المفاد بلو هو المعنى الثانى . والله أعلم بمراده.

١٢- قال تعالى : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ (الحاقة: ٤٤، ٤٥، ٤٦)

ففى هذه الآيات جيء بأداة الشرط (لو) للإستدلال على صدق الرسول عليه الصلاة والسلام فى تبليغه، وأنه لم يكذب على الله جل وعلا. لأن الشأن فيمن يكذب على الله أن يعاقب أشد العقوبة كما تقتضيه شريعة العظماء عند الافتراء عليهم. فلما امتنع الجزاء ولم يقع من الله تعالى عقابه له والأخذ على يديه وقتله . دل ذلك على امتناع سببه وهو التقول والتخرص على الله تعالى.

وهذا المعنى هو الذى يتمشى مع سياق الآيات ونظمها فى مقام إثبات صدق القرآن الكريم وأنه من عند الله، وليس بقول شاعر ولا كاهن. وإلا لأخذ بأقصى العقوبة وأقساها بتعجيل دون تأخير. وصلى الله وسلم على الصادق الأمين.

• المعنى الثالث :

وهو امتناع الشرط وانتفاؤه دون الجزاء . بأن يكون الجزاء . لازم الوجود فى جميع الأحوال . وجد الشرط أو عدم.

علة إفادة (لو) هذا المعنى :

ومفاد كلام العلماء لتعليلهم إفادة (لو) هذا المعنى يرجع إلى أمرين: الأول : فقدان المناسبة بين الشرط والجزاء . والتى من شأنها أن يعتمد عليها في ترتب الوجود على الوجود ، والامتناع على الامتناع . فيترتب على فقدانها أن يكون وجود الجزاء مع عدم الشرط أولى من وجوده مع وجوده.

الآخر : أن يكون الغرض من الكلام مستدعيا لثبوت الجزاء رافضا امتناعــه وجــد الشرط أو عدم . ومرجع استفادة هذين الأمرين النصان الآتيان:

النص الأول: قال السعد: " فإن قيل لا يصح ما ذكرتم من لزوم انتفاء الجزاء لانتفاء الشرط فى نحو قوله عليه الصلاة والسلام : نعْمَ العبد صهيب لو لم يخــف الله لم يعصه. وإلا يلزم ثبوت عصيانه ، لأن نفى النفى إثبات ، وهذا فاسد. لأن الغرض مدح صهيب بعدم العصيان . قلنا : قد يستعمل (إن ولو) للدلالة علــى أن الجــزاءَ لازم الوجود فى جميع الأزمنة فى قصد المتكلم ، وذلك إذا كان الشرط مما يستبعد اســتلزامه لذلك الجزاء ، ويكون نقيض ذلك الشرط أنسب وأليق باستلزام ذلك الجزاء ، فيلزم استمرار وجود الجزاء على تقدير وجود الشرط وعدمه . فيكون دائما ."[1]

وواضح من النص أهمية الأمرين السابقين عند دلالة (لو) على المعنى من هــذا الطريق .

النص الثانى : ذكر ابن هشام تعليلا لإفادة (لو) المعنى الثالث فى بعض الأمثلة دون إفادة الامتناع للامتناع ما يأتى :

قال: "وإنما لم تدل على انتفاء الجواب لأمرين: أحدهما : أن دلالتها على ذلك إنما هو من باب مفهوم المخالفة. وفى هذا الأثر دل مفهوم الموافقة على عدم المعـصية، لأنه إذا انتفت المعصية عند عدم الخوف فعند الخــوف أولى . وإذا تعــارض هــذان المفهومان قدم مفهوم الموافقة. الثانى : أنه لما فقدت المناسبة انتفت العلية، فلم يجعل عدم الخوف علة عدم المعصية. فعلمنا أن عدم المعصية معلل بأمر آخر، وهو الحياء والمهابــة والإجلال والإعظام، وذلك مستمر مع الخوف . فيكون عدم الخوف مستندا إلى ذلك السبب وحده ، وعند الخوف مستندا إليه فقط ، أو إليه وإلى الخوف معا[2] .

• مناقشة ابن هشام :

الأمر الأول الذي ذكره ابن هشام يحتاج إلى مناقشة. ذلــك لأن (لــو) إذا كانت تستعمل وضعا فى إمتناع الشرط وتدل على إمتناع الجزاء بمقتضى سببية الشرط فى الجزاء . فإنه على هذا الأساس يكون مفهوم الموافقة للأثر المذكور هــو (خــاف وعصى) بمقتضى امتناع الشرط الذى هو (لم يخف) وامتناع الجزاء الــذى هــو (لم يعص) ومفهوم المخالفه بمقتضى الامتناع للامتناع – أيضا– هو مــا يخــالف دلالــة

---

(١) المطول ١٦٨

(٢) مغنى اللبيب ٢٠٧/١

مفهوم الموافقة وهو أنه لم يخف ولم يعص . فكيف إذن يستقيم قوله: قدم مفهوم الموافقة على مفهوم المخالفة؟ فإن قيل: إن النظر إلى مفهوم الموافقة ومفهوم المخالفة باعتبار الارتباط بين الشرط والجزاء قبل وجود الأداة بأن يرتبط عدم المعصية بعدم الخوف، فيقدم الأول وهو مفهوم الموافقة على الثاني وهو مفهوم المخالفة– قلنا: إنه ليس فيه مناسبة بين الجزأين فيهما وهو نفس ما ذكره في الوجه الثاني ، فكيف يدعى الارتباط فضلا عن أن الشأن في اعتبار المفهومين أن يكون بعد مجيء الأداة ودخولها في التركيب الذي هو مبنى استفادة المفهومين المذكورين. وبهذا يتضح أن تعليله لا يسلم له إلا إذا حمل على أحد معنيين: الأول: أن تكون الأداة (لو) بمعنى (إن) فيكون مفهوم الموافقة بهذا الاعتبار أنه لم يخف ولم يعص، ومفهوم المخالفة خاف وعصى، فيلزم على ذلك تقديم مفهوم الموافقة على مفهوم المخالفة لما فيه من الفساد. لكن هذا خروج (بلو) إلى معنى (إن) فلا يفاد معنى الامتناع قطعا مع أن الواقع والغرض خلاف ذلك . لأنه في الحقيقة خاف. ولأن الغرض إثبات عدم المعصية مع عدم الخوف لإثباتها مع الخوف من باب أولى. الثاني: أن يكون ما ذكره مبنيا على أنه يقول بأن (لو) لا تدل على امتناع الجواب ، فمنطوقها استلزام الشرط له، ومفهومها انتفاؤه إذا انتفى[1] وهذا بالطبع خلاف ما قيل من أنها حرف امتناع لامتناع كما أنه يؤول إلى الرد الأول عليه.

• النكتة في مجيء الجزاء الثابت مع (لو) :

ويترتب على ما سبق السؤال عن نكته المجيء بالجزاء الثابت في جميع الأحوال مع (لو) وقد أرجع ابن الحاجب – رحمه الله – النكتة في ذلك إلى بيان لزوم الجزاء مع ما يتوهم نفيه عنه . قال :" قد ثبت حصول الاتفاق على أن (لو) إذا استثنى فيها نقيض الثاني استلزم نقيض المقدم بالطريق العقلي القطعي . فما وجه امتناع ذلك في مثل قوله تعالى : ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾ (النساء:٧٨) وقوله : ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (لقمان:٢٧) وهو كثير؟ وما الضابط لما لا يستقيم ذلك فيه ؟ قلت: امتنع ذلك من حيث كان مقصود الخبر أن الثاني حاصل على كل حال ، وجاء به على طريقة (لو) لغرض تقدير حصوله مطلقا ، لازما لما قد يتوهم منه الانتفاء لتحقيق حصوله على كل حال"[2] لأن حصوله مع ما ليس بينه وبينه مناسبة دليل على حصوله مع ما يناسبه من باب أولى فيبقى وجوده على جميع الأحوال.

---

(١) تنظر حاشية الأمير على مغني اللبيب ١/٢٠٧

(٢) الأمالي النحوية ٤/١٥٧

• مواقع المعنى الثالث فى القرآن الكريم :

وفيما يلى عرض للآيات التى جاء فيها الشرط بـــ (لو) لإفادة المعنى الثالـــث وشواهده تسعة شروط هى ما يأتى :

١- قال تعالى : ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (آل عمران: ١٥٤)

يخبر الله تعالى عما يدور فى نفوس المنافقين بعد قتالهم مع رسول الله صلى الله عله وسلم وقتل من قتل منهم، وحسرقم على ما كان ، وأهم لو تركوا الجهاد لما أصاهم القتل ولنجوا . فيخبرهم الله تعالى بأن من قدر له الموت والقتل لا ينجوا ولا يقيه بر ولا بحر فقوله تعالى : (لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم) إخبار بتحقيق قتلهم فى المكان المحدد لهم وإن كانوا متحصنين فى بيوقم . فالجزاء وهو بروزهم حاصل على جميع الأحوال حضروا القتال والحروب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أم لا . وإثباته مع كوهم فى بيوقم إثبات له بطريق الأولى مع قتالهم .

٢- قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (المائدة: ٣٦)

هذه الآية الكريمة بما فيها من أسلوب الشرط بـــ (لو) تمثل حال الكافرين وتصورها وهم لا يقبل منهم عدل ولا صرف ، ولا يمكن لهم فداء أنفسهم وفكاكها من العذاب. وأهم لو ملكوا ما في الأرض جميعاً وقدموه فداء لما قبل منهم ، فما بالهم وهم لا يملكون الفتيل ولا القطمير. قال الزمخشرى : "وهذا تمثيل للزوم العذاب لهم وأنه لا سبيل إلى النجاة منه بوجه"[(١)] وواضح أن طريق استفادة لزوم العذاب لهم جاء من كون وقوعه ارتبط بحال الفداء بما فى الأرض جميعا فيكون من باب أولى عند عدم الافتداء . وهذا مفاد المعنى الثالث للحرف (لو) .

٣- قال تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ (الأنعام: ١١١)

---

(١) الكشاف ٦١٠/١

هذه الآية الكريمة تدل على انتفاء إيمان الكافرين المعاندين – إلا من شاء الله – فى جميع الأحوال . لأن امتناع إيمانهم مع وجود هذه البراهين الواضحة والآيات البينة دليل على امتناعه مع عدم ما يطلبون . إذ هو من باب أولى .

قال أبو حيان : "هذه الآية مؤيسة من إيمان هؤلاء الذين اقترحوا الآيات ، إلا من شاء الله منهم ، ولذلك جاء قوله إلا أن يشاء الله وهو من ختم له بالسعادة فآمن منهم"[١] والمستثنون فى الآية سيؤمنون رأوا الآيات المقترحة أو لم يروها.

٤- قال تعالى : ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (الأنفال:٢٣)

فالشرطية (ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) تدل على أن توليهم دائم ومستمر لأنهم إذا كانوا يتولون عند الإسماع فمن باب أولى عند عدمه . أما الشرط الأول فقد مر فى الامتناع للامتناع .

٥- قال تعالى : ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُوراً﴾ (الإسراء:١٠٠)

فالآية تفيد ثبوت إمساك الإنسان ما فى يده خوف الفقر فى جميع أحواله . فهو أمر طبعى فى الناس دائما . ودلت الآية على ذلك بإثبات الإمساك مع الحالة التى من شأنها أن تكون داعية للإنفاق وعدم خوف الفقر ، وهي امتلاك خزائن الأرض ورحمة الله فيكون الإمساك عند عدم امتلاك ذلك من باب أولى . ولا يتأتى المعنى الأول المفاد (بلو) وهو الامتناع للامتناع ، بأن يكون المعنى أنه امتنع إمساكهم خشية الإنفاق لامتناع امتلاكهم خزائن رحمة الله لأنه يثبت عطاءهم وإنفاقهم . وهو ظاهر الفساد .

٦- قال تعالى : ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال:٦٣)

الآية تفيد الإخبار بانتفاء تأليف الرسول صلى الله عليه وسلم قلوب المؤمنين الذين معه – وأن ذلك راجع إليه تعالى– حتى ولو أنفق ما فى الأرض جميعا. ومن باب أولى ينتقى تأليفه لهم عند عدم الإنفاق أو إنفاق القليل . فهو راجع إلى الله العزيز الحكيم . قال الزمخشرى :" ولا يقدر على ذلك إلا من يملك القلوب فهو يقبلها كما يشاء ويصنع فيها ما أراده"[٢]. فالتلازم بين الهداية والتآلف وبين إرادة الله تعالى تلازم عقلى[٣].

---

(١) البحر المحيط٤/٢٠٦

(٢) الكشاف ٢/١٦٦

(٣) ينظر تفسير الرازى٤/٣٨٢

٧-قال تعالى :﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾(الكهف:١٠٩)

تدل الآية على سعة علم الله وإحاطته بجميع الأشياء بإفادتها عدم نفاد كلمات الله مع ما يتوهم أنها تنفد معه وهو كون البحار وأمثالها معها مدادا تمد الأقلام لكتابة الآيات وحصرها . فيدل ذلك من باب أولى على عدم نفادها فى عموم الأحوال . أى أن عدم نفادها أمر ثابت على الدوام .

٨-قال تعالى : ﴿ولَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ * فقرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء: ١٩٨، ١٩٩)

تخبر الآيات عن شدة تمسك الكافرين بكفرهم وأنهم لا ينتفعون بالآيات التى تتجلى بصدق الرسول عليه الصلاة والسلام فيما يبلغ عن ربه ، وتكذيبهم للقرآن مع فصاحته التى أعجزتهم . قال الزمخشرى : "لو نزلناه على بعض الأعاجم الذى لا يحسن العربية فضلا أن يقدر على نظم مثله ، فقرأه عليهم هكذا فصيحا معجما متحدى به لكفروا به كما كفروا ، ولتمحلوا لجحودهم عذرا ولسموه سحرا"[(١)]. وقد ذكر الطبرى وجوها فى المخبر عنه بالعجمة : منها أنه لو نزل على البهائم التى لا تنطق .. وعندى أنه ليس بشىء لأنه لا يناسب جلال القرآن ، بل لا يتصور عقلا ذلك لكن يتصور بالنسبة لمن لا يتكلم بالعربية .. وما استند إليه – أيضا – ليس بشىء[(٢)].

٩-قال تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (لقمان:٢٧)

المعنى – والله أعلم بمراده – أنه لو كانت أشجار الأرض كلها أقلاما تكتب بها كلمات الله الدالة على جلاله وعظمته وكمال صفاته . لتكسرت هذه الأقلام ونفدت هذه البحار التى تمدها بمدادها دون أن يحاط بكلمات الله . فالجزاء وهو عدم نفاد كلمات الله ثابت على جميع الأحوال . والله أعلم .

---

(١) الكشاف ١٢٩/٣

(٢) ينظر تفسير الطبري ١١٣/١٩

المبحث الثالث : ما يلزم جملتى (لو) وأغراض مخالفته:

• ما يلزم جملتى (لو) :

يذكر البلاغيون أن (لو) بحكم دلالتها على الشرط فى الماضى يتعين فى جملتيها أمران : انتفاء جملتيها ، وكون الفعل ماضيا . قال الخطيب : "وأما (لو) فهى للشرط فى الماضى ، مع القطع بانتفاء الشرط ، فيلزم انتفاء الجزاء " ويلزم كون جملتيها ، فعليتين ، وكون الفعل ماضيا"[١]

أولا: معنى الانتفاء .

• يقصد بالانتفاء أن لا يكون مدلولهما واقعا وحاصلا فى الخارج . أى لا تكون نسبة الشرط واقعة فى الزمن الماضى ، وكذلك الجزاء . ويرتبط الانتفاء بالزمن الماضى ، ولا يضر وقوع مضمونها حال الاشتراط ." إذ لا يمتنع أن تقول : لو قام زيد أمس لقام عمرو ، وإن كانا قائمين الآن " [٢] وعلى هذا يتعين أن تكون جملتا الشرط والجزاء فعليتين لأن مدلول الاسمية الثبوت . قال السبكى :" ومقصود المصنف بامتناع الثبوت أنه يمتنع أن تكون واحدة من جملتيها اسمية بل يجب أن تكون فعلية " [٣]

تعليل لزومه :

وإنما لزم كون الجملتين فعليتين لأن الحصول والوجود خارجا ينافى التعليق. الذى معناه كون الشيء يحصل على فرض وجود غيره . والجزاء مع (لو) كان بصدد الحصول عند حصول الشرط الذى لم يحصل . وهذا معنى قولهم: إن الحصول الفرضى ينافى الثبوت وإن القطع بالانتفاء لازم للحصول الفرضى[٤] . ويتعين أن يكون مجيء الجملة مع (لو) بصورة الاسمية لغرض ونكتة.

مجيء الاسمية فى الشرط والجزاء ونكتتة:

ذكر البلاغيون فى سياق حديثهم عن لزوم الانتفاء والماضوية فى جملتى الشرط والجزاء أنه لا يخالف إلا لنكتة . لكنهم لم يفصحوا عن النكتة فى مجيء الشرط أو الجزاء جملة اسمية، واكتفوا بذكر النكتة فى مجيئه بصورة المضارع فى بعض الشواهد [٥].

---

(١) الإيضاح ٥٧

(٢) عروس الأفراح = شروح٢ /٨٥

(٣) المرجع السابق الموضع نفسه .

(٤) ينظر المطول وحاشية السيد عليه ١٧٠

(٥) ينظر شروح التلخيص٢ /٧٥ وما بعدها

وقد وجدت للمفسرين كلاما حول مجيء الجملتين بصورة الاسمية ، وتعليلا لهذا المجيء فى الآيات الثلاث الآتية : —

١ . قال الله تعالى :﴿قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذا لأمسكتم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتورا﴾ (الإسراء : ١٠٠)

ففى الآية جاء الشرط بعد (لو) بصورة الاسمية وهو (أنتم تملكون ....) لكن لما كان يتعين كون الجملة فعلية لحظوا فعلا مقدرا هو مدخول (لو) وهو الشرط . قال الزمخشرى: "تقديره لو تملكون تملكون فأضمر تلك إضمارا على شريطة التفسير ، وأبدل من الضمير المتصل الذى هو الواو ضمير منفصل وهو أنتم لسقوط ما يتصل به من اللفظ . فأنتم فاعل الفعل المضمر، وتملكون تفسيره . وهذا هو الوجه الذى يقتضيه علم الإعراب ، فأما ما يقتضيه علم البيان فهو أن أنتم تملكون فيه دلالة على الاختصاص ، وأن الناس هم المختصون بالشح المتبالغ"[1] وهذا الكلام له دلالة على أمرين :—

الأول: أنه يتعين التقدير لفعل يلى أداة الشرط (لو) مراعاة للقاعدة ، وهى اختصاصها بالأفعال.

الآخر: أنه مع هذا التقدير واعتبار بقاء الجملة على فعليتها يتعين أن يكون وراء التصرف فيها بمجيئها على صورة الاسمية . نكته كما أوضح الزمخشرى ، حتى وإن بقى الإعراب على كونها فعلية.

والذى يفهم من كلام الزمخشرى أن النكتة فى الآية هى إفادة تخصيص الجزاء وهو الإمساك خشية الإنفاق بالمخاطبين دون غيرهم عند امتلاكهم خزائن الأرض . فكأن المعنى — والله أعلم بمراده — أن من يملك خزائن السموات والأرض لا يمسك بها خشية الإنفاق إلا إذا كان هذا الممسك أنتم دون غيركم . فهو لا يقع من غيركم وإنما أنتم المختصون بذلك . على أنى أرى فى هذه الآية ونظيرها من الآيات نكتة شبيهة بما ذكروه فى مضارعية الشرط مع (لو) بأنه قد يكون لإفادة استمرار الامتناع [2] وذلك بأن تكون النكتة إفادة تأكيد الامتناع فتكون اسمية الشرط مسلطة على ما تفيده (لو) من الامتناع . وذلك نظير قوله تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة:٨) فقد أفادت الآية نفى إيمانهم بأبلغ وجه. لأن " العدول

---

(١) الكشاف ٤٦٧/٢ ، ٤٦٨

(٢) ينظر المطول ١٧١

إلى الاسمية لسلوك طريق الكناية فى رد دعواهم الكاذبة . فـإن انخـراطهم فى سـلك المؤمنين وكونهم طائفة من طوائفهم من لوازم ثبوت الإيمان الحقيقى لهم ، وانتفاء اللازم أعدل شاهد على انتفاء ملزومه ، ففيه من التوكيد والمبالغة ما ليس فى نفـى الملـزوم ابتداء "[١] فقد أفاد عروض الاسمية على النفى تأكيد هذا النفى . وكـذلك يكـون الشأن فى الآية المذكورة (قل لو أنتم تملكون ...) ففيها تأكيد الامتناع . فإن قيل : إن جملة (وما هم بمؤمنين) اسمية صورة وإعرابا بخلاف جملة (لو أنتم تملكون) فإنهـا على تقدير الفعل بعد (لو) وما زالت باقية على فعليتها فى الإعراب ، قلنا : إن النكتـة التى ذكرها الزمخشرى – فيها مراعاة لصورة الجملة مع أنها فعلية . هذا فضلا عن عدم اتفاقهم فى مثل هذه الآية على اعتبار الجملة فعلية .

٢- فعند تفسير قول الله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُـدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (لقمان:٢٧)

يقول أبو حيان : "وأن بعد (لو) فى موضع رفع على الفاعلية أى لو وقـع أو ثبت على رأى المبرد ، أو فى موضع المبتدأ محذوف الخبر على رأى غيره "[٢] فقد قيـل بالرأيين وإن كان الأولى اعتبار فعليتها مناسبة للحرف (لو) على أن مخالفة المناسبة هذه هو صميم النكتة والغرض .وأيا ما كان فهو رأى يحتاج إلى قبول أهل الذوق له.

٣- قال الله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّـهِ خَيْـرٌ لَـوْ كَـانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:١٠٣)

وقد دار حديثهم حول اسمية الجزاء . ولم يتعرضوا للشرط من ناحية الاسميـة لأنه فى حقيقته فعل مقدر أى لو ثبت. قال الزجاج: "مثوبة فى موضع جواب (لو) لأنها تنبيء عن قولك : لأثيبوا . ومعنى الكلام أن ثواب الله خير لهم من كـسبهم بـالكفر والسحر"[٣] . لكنه لم يبين النكتة فى مجيء الجزاء جملة اسمية. ويبين الزمخشرى النكتـة فى اسمية الجواب قائلا : "فإن قلت : كيف أوثرت الجملة الاسميـة علـى الفعليـة فى جواب (لو)؟ قلت : لما فى ذلك من الدلالة على إثبات المثوبة واستقرارها ، كما عدل عن النصب إلى الرفع فى (سلام عليكم)[٤] لذلك "[٥]

---

(١) حاشية السيد على الكشف١ /١٦٩، وينتظر المطول ١٧١

(٢) البحر المحيط ٧ /١٩٠

(٣) معانى القرآن وإعرابه للزجاج١ /١٦٤

(٤) سورة الأنعام ٥٤

(٥) الكشاف١ /٣٠٢

على أنه قد يقال : إن إيثار الاسمية للدلالة على الثبوت يتنافى مع كون (لـو) للدلالة على امتناع الجواب . هذا من ناحية اللغة ، ومن ناحية المعنى فإن خيرية المثوبة لا تتوقف على إيمانهم[1].

وقد حكى أبو حيان قول الأخفش فى تقدير الجواب المحذوف ثم ذكر كـلام الزمخشرى السابق وعارضه قائلا : "ومختاره غير مختار ، لأنه لم يعهد فى لسان العـرب وقوع الجملة الابتدائية جوابا لـ (لو) . وإنما جاء هذا المختلف فى تخريجـه ولا تثبـت القواعد الكلية بالمحتمل . وليس مثل (سلام عليكم) لثبوت رفع (سلام عليكم) مـن لسان العرب . ووجه من أجاز ذلك قوله بأن مثوبة مصدر يقع للماضى والاسـتقبال فصلح لذلك من حيث وقوعه للمضى" [2]

وفى كلام الرازى خلط بين التقدير وعدمه . فهو يقـدر الجـواب ثم يقـول بالعدول إلى الاسمية. قال :" الجواب محذوف وتقديره : ولو أنهم آمنوا واتقوا لأثيبوا إلا أنه تركت الجملة الفعلية إلى هذه الاسمية لما فى الجملة الاسمية من الدلالة علـى ثبـات المثوبة واستقرارها "[3] فالتقدير يدل على الملاحظة والاعتبار ، والعدول عنـه معنـاه الترك وعدم النظر إليه . والآيات التى جاء فيها الشرط مع (لو) بصورة الاسمية أربـع وعشرون آية منها الآيتان الثلاث التى سبقت .[4]

* ثانيا : مُضى جملتى (لو) : إذا كانت (لو) الامتناعية للشرط فى الماضى ، فمعنى ذلك كون الشرط والجزاء مدلولهما ماضيا فى المعنى ، وفى اللفظ موافقة للمعـنى . لكن قد يخالف ذلك فى اللفظ : بأن يأتى الفعل بلفظ المضارع ، وذلـك لنكتـة وغرض . ولا تكون المخالفة فى المعنى ألبتة. قال البهاء الـسبكى: "لا خـلاف أن جملتى (لو) ماضيتان معنى ، ومن قال : إنه يجوز أن تكونا مستقبلتين معـنى فإنـه يجعلها بمعنى (إن) فليست امتناعية" [5] والجعل بمعنى (إن) يرجع إلى قصد المـتكلم أصالة وإلى السامع استدلالا بالقرائن على ما يقصده المتكلم .

---

(١) تنظر حاشية الشهاب على البيضاوى٢ /٢١٧

(٢) البحر المحيط ١/٢٣٥

(٣) تفسير الرازى١ /٤٣١

(٤) بقية الآيات فى السور الآتية :النساء ٤٦– ٦٤– ٦٦، المائـدة ٣٦– ٦٥– ٦٦، الأنعـام ٥٨– ١١١– ١٥٧، الأعراف ٩٦، التوبة ٥٩، يونس ٥٤، هود ٨، الرعـد ١٨– ٣١، طـه ١٣٤، القـصص ٦٤، الصافات ١٦٨ ، الزمر ٤٧– ٥٧ ، الحجرات ٥.

(٥) عروس الأفراح (شروح)٢ /٨٥

• أغراض مخالفة المضى فى اللفظ :

والذى يفيده كلام البلاغيين أن الأغراض التى يقصد إليها المتكلم بإتيانه بفعل الشرط مع (لو) بلفظ المضارع ترجع إلى ما يأتى :

١- الإشارة إلى استمرار الفعل فى الماضى لإفادة أحد معنيين :

الأول : امتناع استمرار الفعل .

الثانى : استمرار امتناع الفعل .

٢- تنزيل المضارع منزلة الماضى لكونه صادرا عمن لا خلاف فى أخباره .

٣- استحضار صورة الفعل بمجيئه على صورة المضارع [١] .

٤- الاحتراز عن التعبير عنه بلفظ الماضى لبشاعته ، ونفور النفس . وقد ذكر السعد ذلك [٢]

والقرآن الكريم قد جاء بهذه الأغراض . وفيما يلى شواهدها فى القرآن الكريم .

الغرض الأول :

وهو أن يقصد إفادة استمرار الفعل بحكم دلالة المضارع على الاستمرار ويفاد بذلك أحد معنيين:

المعنى الأول :

هو الدلالة على امتناع استمرار الفعل. وطريق هذه الدلالة كون (لو) تفيد امتناع مدخولها ونفيه، ولما كان مدخولها مفيدا الاستمرار بحكم مضارعيته فقد تسلط الامتناع على الاستمرار فيفيد بذلك المعنى المذكور وهو امتناع الاستمرار. وهذا المعنى هو الغالب فى مثل هذا الأسلوب بحكم تسلط النفى على القيد وهو الاستمرار. وهو يترجح بحكم كون استفادة المعانى من الألفاظ على وفق ترتيبها فى الذكر[٣] .

ومن شواهد ذلك ما يأتى :

١- قال الله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ (الحجرات : ٧)

---

(١) ينظر شروح التلخيص ٢/٨٣ وما بعدها وفيض الفتاح ٣ /٥٨ ومابعدها وتقرير الإنبابى٢ /١٠٤ وما بعدها.

(٢) ينظر المطول ١٧٣.

(٣) تنظر حاشية عبد الحكيم على المطول = فيض الفتاح ٣ /١٠٠ .

فالشرط فى الآية (لو يطيعكم ..) أفاد – والله أعلم بمراده – أنه قد امتنع عنتهم وتحملهم المشقة لامتناع استمرار طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام. وذلك بأن يطيعهم فى الأمور فى بعض الأحوال دون بعضها الآخر.

قال الزمخشرى : " فإن قلت : فلم قيل : يطيعكم دون أطاعكم؟ قلت للدلالة على أنه كان فى إرادتهم استمرار عمله على ما يستصوبونه، وأنه كلما عن لهم رأى فى أمر كان معمولا عليه. بدليل قوله : (فى كثير من الأمر) كقولك: فلان يقرى الضيف ويحمى الحريم. تريد أنه مما اعتاده ووجد منه مستمرا " [1].

واستشهاد الزمخشرى بالمثال فى إفادة المضارع معنى الاستمرار. وفى الآية استفيد امتناع الاستمرار ، فالاستمرار من الفعل المضارع والامتناع بأداة الشرط (لو).

قال السيد : " لأن عنتهم أى وقوعهم فى المشقة والهلاك إنما يلزم من استمراره عليه الصلاة والسلام على إطاعته فيما يستصوبون ، كأنه مستتبع فيما بينهم يستعملونه فيما يعن لهم، وفى ذلك من اختلال أمر الإيالة[2]. وانتكاس تدبير ما يتعلق بالرياسة ما لا يخفى على أحد . وأما موافقته إياهم فى بعض ما يرونه ففيها استجلاب قلوبهم واستمالتهم بلا معرة"[3].

وقد ذكر السعد فى الآية صحة إرادة المعنى الثانى. أى قصد استمرار امتناع الطاعة .وذلك بأن يكون الاستمرار مسلطا على الطاعة الممتنعة لوقوعها شرطا للو . وعلل ذلك قائلا : " لأنه كما أن المضارع المثبت يفيد استمرار الثبوت يجوز أن يفيد المنفى استمرار النفى، ويفيد الداخل عليه (لو) استمرار الامتناع بحسب الاستعمال، كما أن الجملة الاسمية تفيد الثبوت والدوام والتأكيد. وإذا أدخلت عليها حرف النفى تكون لتأكيد النفى وثباته ، لا لنفى التأكيد والثبوت. ولهذا قالوا إن قوله تعالى: "وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ "(البقرة : ٨) رد لقولهم : – إنا آمنا – على أبلغ وجه وآكده . وأن قولنا : ما زيدا ضربت ، وما بزيد مررت – لاختصاص النفى لا لنفى الاختصاص. مع أنه بدون حرف النفى يفيد الاختصاص. ولهذا نظائر فى كلامهم"[4].

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٦١.

(٢) الإيالة يقرأ بالموحدة وبالياء فعلى الأول معناه السياسة وعلى الثانى معناه الولاية فيض الفتاح ٣ / ١٠٠.

(٣) حاشية السيد على المطول ١٧١ ، ١٧٢.

(٤) المطول ١٧١.

ومما ينبغى أن يلحظ أن هذا الوجه الثانى الذى ذكره السعد فى الآية قد جاءت على طريقته أكثر الآيات القرآنية من هذا النوع كما سيتضح ذلك بعد إن شاء الله تعالى.

٢- قال تعالى:﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴾ (محمد : ٣٠)

فالشرط فى الآية (لو نشاء ..) يحتمل إرادة امتناع المشيئة واستمرار امتناعها. إلا أن مقام الآية وسياقها يدلان على إرادة امتناع الاستمرار.

فالآية جاءت فى مقام إظهار طوية المنافقين وما يقصدونه من إذاعة البلبلة فيهم وإلقاء الفتن بينهم . هذه الحال التى هم عليها تستدعى تهديدهم وتخويفهم. وتوجيه الإنذار الشديد إليهم ليرتدعوا عن غيهم وفسادهم. وقد تناسقت هذه الآية مع التى قبلها لإفادة هذا المعنى فالآية قبلها خوفتهم بان يخرج الله أضغانهم :﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴾ (محمد : ٢٩) وهذه الآية – أفادت بأن الله تعالى لن يمنع نبيه أن يعرف منهم علاماتهم وسِحَنَهم ليتقى منهم الشر والمكر.

قال الزمخشرى : " لأريناكهم ودللناك عليهم حتى تعرفهم بأعيانهم لا يخفون عليك "بسيماهم" بعلاماتهم، وهو أن يسمهم الله تعالى بعلامة يعلمون بها، وعن أنس رضى الله عنه: ما خفى على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية شئ من المنافقين، كان يعرفهم بسيماهم ، ولقد كنا فى بعض الغزوات وفيها تسعة من المنافقين يشكوهم الناس، فقاموا ذات ليلة وأصبحوا وعلى جبهة كل واحد منهم مكتوب هذا منافق"(١).

وما روى عن أنس رضى الله عنه يشير إلى كون (لو) هنا شرطية بمعنى (إن) أى إن نشأ أريناكهم . ثم تحقق وعد الله نبيه عليه السلام فأراهم إياهم. والله أعلم بمراده.

٣- قال تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ (الأعراف: ١٠٠)

وقد جاء فعل الشرط (يشاء ..) مضارعا – والله أعلم . لإفادة امتناع استمراره وكأن المعنى: منهم من شاء الله أخذه بذنبه ومنهم من لم تتحقق مشيئة الله أخذه والطبع عليه.

---

(١) الكشاف ٥٣٧/٣.

ويدل على قصد امتناع استمرار المشيئة مقام التهديد والإنذار، لأنه يكون بالأمر المحتمل المتوقع لا المجزوم به . وأن مشيئة إصابتهم ليست دائمة الامتناع. وبهذا تكون الإصابة ببعض ذنوبهم قد وقعت فعلا فى الزمن الماضى مما يكون تنبيها ودافعا لهم إلى أن يعودوا إلى الطاعة . أو أنها ستقع عليهم.

قال أبو حيان : " وجواب (لو) لم يقع بعد ، سواء كانت حرفا لما كان سيقع لوقوع غيره ، أم بمعنى (إن) الشرطية ، والإصابة لم تقع والطبع على القلوب واقع فلا يصح أن يعطف على الجواب"[1]. على أن مسألة العطف هذه وقع فيها نقاش بين الزمخشرى وابن المنير. فبينما يمنعه الزمخشرى للعلة التى ذكرها أبوحيان – يجوزه ابن المنير ويقسم على صحته قائلا: " بل يجوز – والله – عطفه عليه ، ولا يلزم أن يكون المخاطبون موصوفين به بالطبع، ولا يضرهم أن كانوا كفارا أو مقترفين للذنوب، فليس الطبع من لوازم اقتراف الذنب ولابد ، إذ الطبع هو التمادى على الكفر والإصرار والغلو فى التصميم حتى يكون الموصوف به مأيوسا من قبوله للحق، ولا يلزم أن يكون كل كافر بهذه المثابة ...."[2].

على أن اعتبار العطف يرجح اعتبارها بمعنى (إن) لكون الطبع لم يقع بهذا الاعتبار بعد ، فيكون المعنى استقباليا . والله أعلم.

المعنى الثانى :

وهو القصد إلى استمرار امتناع الشرط لا امتناع الاستمرار. ويتحقق ذلك بأن يعتبر الاستمرار مقدما على الامتناع[3]. أى أن يكون الأصل هو امتناع الفعل ثم يأتى الاستمرار مفيدا تقييد هذا الامتناع بالاستمرار.

قال السيد فى حواشى شرح المفتاح : " والسر فى ذلك أن يعتبر دخول حرف النفى فى الكلام أولا، ثم صيرورته على وجه مفيد للدوام ، فيكون الدوام داخلا فى النفى دون العكس. وكذا الحال فيما يفيد اختصاص النفى أو اختصاص الإنكار من نحو: ما زيدا ضربت وأزيدا ضربت. وقس على ذلك حرف الامتناع . فقولك : لو تحسن ! كان أصله لو أحسنت ثم عدلت به عن الماضى إلى المضارع"[4]. ويعتمد القصد

---

(١) البحر المحيط ٤/ ٣٥١.

(٢) الإنصاف = الكشاف ٢ /٩٩.

(٣) تنظر حاشية عبد الحكيم = فيض الفتاح ٣/ ١٠٠.

(٤) عن فيض الفتاح ٣/ ١٠٠.

إلى ذلك على القرائن لأن المعنيين : أعني استمرار الامتناع وامتناع الاستمرار تحتملهما هذه الأمثلة.

ومن شواهد هذا المعنى الآيات الآتية :

١- قال تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَقَى الجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ المُؤْمِنِينَ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾ (آل عمران: ١٦٦، ١٦٧)

فالشرط فى قوله تعالى حكاية لما يقوله المنافقون (لو نعلم قتالا لاتبعناكم) جاء بلفظ المضارع ، قصدا منهم إلى إفادة استمرار انتفاء علمهم بوجه للقتال ، وأنهم يجهلون دواعية ألبتة.

قال أبو حيان : " أنكروا علم ذلك رأسا لما كانوا عليه من النفاق والدغل والفرح بالاستيلاء على المؤمنين. وإما على سبيل التخطئة لهم فى ظنهم أن ذلك قتال فى سبيل الله ، وليس كذلك وإنما هو رمى النفوس فى التهلكة، إذ لا مقاومة لهم بحرب الكفار لكثرتهم وقلة المؤمنين"[١].

ولا يتلاءم المعنى الأول مع الغرض بأن يقصد أنهم ينفون استمرار علمهم بمعنى أنهم يعلمون بعضا ويجهلون بعضا. لأن المعنى الثانى وهو استمرار عدم علمهم أبلغ فى الذم لهم وقدحهم. بدعواهم أنهم لا يعلمون شيئا أبدا لقتال الرسول وغزواته عليه الصلاة والسلام.

٢- قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ (الأنفال: ٣١)

فالجملة الشرطية (لو نشاء لقلنا مثل هذا) جاء فيها الشرط بلفظ المضارع لإفادة استمرار امتناع المشيئة. وللمقام أهميته فى إدراك هذا المعنى، ذلك أن الآية تتحدث عما يقوله الكافرون من تبرير عدم المجئ بمثل القرآن . وأن ذلك راجع إلى أنهم رغبوا عن المجئ بمثله ، ولم يشاءوا ذلك. وهذا العناد يستدعيهم الادعاء بأنهم لم يشاءوا ذلك أبدا، لأنهم لو قصدوا أنهم لم يشاءوا ذلك فى بعض الأوقات وشاءوا فى بعضها الآخر لألزموا أنفسهم الحجة بعجزهم عن المعارضة عندما شاءوا ذلك.

---

(١) البحر المحيط ٣/ ١١٠.

قال الزمخشرى : " نفاجة منهم وصلف تحت الراعدة ، فإنهم لم يتوانوا فى مشيئتهم لو ساعدتهم الاستطاعة ، وإلا فما منعهم إن كانوا مستطيعين أن يشاءوا غلبة من تحداهم وقرعهم بالعجز حتى يفوزوا بالقدح المعلى دونه مع فرط أنفتهم واستنكافهم أن يغلبوا فى باب البيان خاصة ، وأن يماتنهم فيتعللون بامتناع المشيئة"[1]. وليس طريق استفادة ذلك إلا من مجيئهم بفعل المشيئة الواقع شرطا بلفظ المضارع لإفادة استمرار عدم مشيئتهم فلا تلزمهم الحجة بظهور عجزهم . والله أعلم بمراده.

٣- قال تعالى : ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ (التوبة: ٥٧)

تتحدث الآية الكريمة عن المنافقين وتصور ما فى نفوسهم من كراهة المؤمنين وحب إضعافهم وأنه " لو أمكنهم الهروب منهم لهربوا ، ولكن صحبتهم لهم صحبة اضطرار لا اختيار"[2].

ومجئ (الفعل (يجدون) بلفظ المضارع لإفادة استمرار امتناع وجدانهم وليصور حالتهم وهم دائمو البحث عن ذلك لكنهم لا يستطيعون.

قال أبو السعود : " وإيثار صيغة الاستقبال فى الشرط وإن كان المعنى على المضى لإفادة استمرار عدم الوجدان. فإن المضارع المنفى الواقع موقع الماضى ليس نصا فى إفادة انتفاء استمرار الفعل كما هو الظاهر . بل قد يفيد استمرار انتفائه أيضا حسبما يقتضيه المقام. فإن معنى قولك : لو تحسن إلى لشكرتك أن انتفاء الشكر بسبب استمرار انتفاء الإحسان، لا أنه بسبب انتفاء استمرار الإحسان ، فإن الشكر يتوقف على وجود الإحسان لا على استمراره"[3]. أى فهو لم يقع ولو مرة واحدة حتى يقع الشكر فدل ذلك على استمرار انتفاء وقوعه. ويدل على استمرار عدم وجدان المنافقين ما يرغبون فيه ما للمسلمين من عز ومنعة لا يجدون معها مهربا أو ملجأ. لأنهم وراءهم بالمرصاد . والله أعلم.

٤- قال تعالى : ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (يونس : ١١)

---

(١) الكشاف ٢/ ١٥٥.

(٢) البحر المحيط ٥/٥٤.

(٣) تفسير أبى السعود ٥/١٤٧.

فقد جاء الشرط (يعجل) بلفظ المضارع لإفادة معنى استمرار الامتناع قال أبو السعود : " واختيار صيغة الاستقبال فى الشرط وإن كان المعنى على المضى لإفادة أن عدم قضاء الأجل لاستمرار عدم التعجيل ، فإن المضارع المنفى الواقع موقع الماضى ليس بنص فى إفادة انتفاء استمرار الفعل بل قد يفيد استمرار انتفائه أيضا بحسب المقام"(1). والذى يستدعى استمرار عدم التعجيل رحمة الله تعالى ، واقتضاء حكمته تأخيرهم لأجل مسمى.

٥- قال تعالى : ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (النحل : ٦١)

والنكتة فى مجئ الشرط (يؤاخذ) بلفظ المضارع لقصد استمرار الامتناع. ومما ينبغى أن يتنبه له أن هذا المعنى مرتبط بكون المؤاخذة للناس جميعا، وهى مستمرة الانتفاء بدلالة ما ترتب عليها من الجواب،ودلالة الحال. لأن مؤاخذة البعض دون البعض لا يترتب عليها الجواب المذكور وهو (ما ترك عليها من دابة) كما أن الاستدراك (ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى) يدل عليه أيضا. فالتأخير إلى الأجل المسمى وهو يوم القيامة ، وخلو الأرض مما عليها من الأمور التى تتصل بالناس جميعا. فمضارعية الشرط (يؤاخذ) لإفادة استمرار الامتناع بدلالة المقام والسياق. ومثل هذه الآية فى الدلالة على استمرار الامتناع وفى ارتباطها بمؤاخذة الناس الآية الآتية.

٦- قال تعالى : ﴿وَرَبُّكَ الغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ العَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلاً ﴾ (الكهف: ٥٨)

ففعل الشرط (يؤاخذهم) أفاد بمجيئه مضارعا استمرار انتفاء المؤاخذة للناس على ذنوبهم. قال أبو السعود : " وإيثار المؤاخذة المنبئة عن شدة الأخذ بسرعة على التعذيب والعقوبة ونحوهما للإيذان بأن النفى المستفاد من مقدم الشرطية متعلق بوصف السرعة كما ينبئ عنه تاليها. وإيثار صيغة الاستقبال وإن كان المعنى على المضى لإفادة أن انتفاء تعجيل العذاب لهم بسبب استمرار عدم إرادة المؤاخذة فإن المضارع الواقع موقع الماضى يفيد استمرار انتفاء الفعل فيما مضى "(2).

---

(١) تفسير أبى السعود ٢٥٨/٥.

(٢) تفسير أبى السعود ٥٢١/٦.

لكن وإن سلم لأبي السعود ما ذكره من إفادة استمرار النفى بفعل الشرط المذكور إلا أنه لا يسلم له دعواه ذلك على التعميم. لصحة مجيئه لنفى الاستمرار كما عرف فى المعنى الأول ثمة.

٧- قال تعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً ﴾ (فاطر: ٤٥)

وهذه الآية نظير آية الكهف السابقة فى مجئ فعل الشرط (يؤاخذ) مضارعا لإفادة استمرار الانتفاء.

٨- قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَل لِّلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعاً أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ (الرعد: ٣١)

فالجملة الشرطية (لو يشاء الله لهدى الناس جميعا) أفادت مضارعية الشرط فيها استمرار امتناع إهلاكهم جميعا . لاقتضاء حكمته أن يبقى الخلق هكذا لابتلائهم .

وساعد السياق على ذلك من قوله تعالى : " أفلم ييأس ...." أي ألم ييأسوا من إيمان جميع الخلق ويعلموا ويتبينوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا. إذا ليس فيه حجة أقوى فى البيان وأنجع للعقول والنفوس من هذا القرآن الذى لو أنزله الله على جبل لخشع وتصدع لله تعالى . لكنهم لن يهتدوا جميعا لأن الله شاء ذلك واستقر حكمه فيهم بعدم هدايتهم جميعا. والله أعلم.

٩- قال تعالى : ﴿ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لاَ يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلاَ عَن ظُهُورِهِمْ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ (الأنبياء : ٣٩)

فقد جاء فعل الشرط (يعلم) مضارعا – والله أعلم بمراده – لإفادة استمرار جهلهم ، لأنهم لو علموا ما يصيبهم لكان ذلك مدعاة للتصديق بما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم وبما أخبروا به . لكنهم جهلوا فاستحقوا ما يصيبهم.

١٠- قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ (يس: ٤٧)

وقد جاء الشرط (يشاء) بلفظ المضارع لإفادة استمرار النفي. يدل على ذلك مقام احتجاج الكافرين على عدم إطعامهم الفقراء بأن الله لم يشأ إطعامهم ولايتم

احتجاجهم إلا إذا كانوا يقصدون استمرار امتناع الإطعام ، لأنهم لو سلموا بأن ذلك منفى فى بعض الأوقات لكان ذلك حجة عليهم لا لهم. فهم يسوقون الشرط وإن كانوا يجارون المؤمنين فيما يقولون – مساق استمرار النفى تعللا باطلا منهم.

قال الزمخشرى : " كانت الزنادقة منهم يسمعون المؤمنين يعلقون أفعال الله تعالى بمشيئته فيقولون . لو شاء الله لأغنى فلانا ، ولو شاء لأعزه ولو شاء لكان كذا. فأخرجوا هذا الجواب مخرج الاستهزاء بالمؤمنين وبما كانوا يقولونه من تعليق الأمور بمشيئة الله. ومعناه أنطعم المقول فيه هذا القول بينكم، وذلك أنهم كانوا دافعين أن يكون الغنى والفقر من الله لأنهم معطلة لا يؤمنون بالصانع. وعن ابن عباس رضى الله عنهما : كان بمكة زنادقة ، فإذا أمروا بالصدقة على المساكين قالوا : لا والله أيفقره الله ونطعمه نحن ؟ وقيل : كانوا يوهمون أن الله تعالى لما كان قادرا على إطعامه ولا يشاء إطعامه فنحن أحق بذلك"(١).

ولا شك أن هذه الأحقية واحتجاجهم بالباطل لا يقوم إلى على قصدهم استمرار المشيئة بعدم إغنائهم. والله أعلم.

١١– قال تعالى: ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ * وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾ (يس : ٦٦، ٦٧)

جاء الشرط (نشاء) فعلا مضارعا فى الآيتين لإفادة استمرار نفى مشيئة الطمس والمسخ ، لأن الآيتين فى مقام الحديث عن فضل الله ورحمته بعباده حتى بالكافرين فلم يمسخ بصائرهم ولم يقعدهم عن الحركة فى الحياة . ليتم اختبارهم وليحق القول عليهم. فمقام المنة يقتضى استمرار النعمة وإبقاءهم فى كنفها، وهذا يستلزم استمرار انتفاء مشيئة العقوبة بإذهاب ما يتم به اختبارهم وابتلاؤهم.

١٢– قال تعالى: ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴾ (الزخرف: ٦٠)

وقد جاء فعل الشرط (نشاء) مضارعا لإفادة استمرار امتناع ذلك الأمر وهو جعل الملائكة خلفاء بدل الإنسان، وإن كان التعليق يقتضى إفادة إمكان الوقوع إلا أن المشاهد عدم وقوع هذا الجعل. ويلحظ أن فعل المشيئة إذا وقع شرطا بلفظ المضارع وتعلق بأمر جائز عقلا لكنه لا يكون بحكم العادة – فإنه يفيد استمرار نفى الوقوع كما فى هذه الآية ونظيراها السابقة عليها واللاحقة بها.

---

(١) الكشاف ٣: ٣٢٥.

١٣- قال تعالى : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ (محمد : ٤)

فتعليق انتصار الله منهم على مشيئته للدلالة على إمكان ذلك وأنه ليس بمعجز لله جل وعلا. لكن الله منعه بدون الأخذ بأسباب النصر. وإنما جاء فعل الشرط بلفظ المضارع لإفادة استمرار امتناع وقوعه دون جهاد من المؤمنين وأخذ الأسباب لذلك. وللسياق دلالته على ذلك من الأمر بالقتال والضرب وإثخان العدو بالجراح. ثم تعقيب جملة الشرط بجملة أخرى تخبر بأن الأمور مبناها على الابتلاء والاختبار.

قال ابن كثير : " وقوله عز وجل (ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ) أى هذا ولو شاء الله لانتقم من الكافرين بعقوبة ونكال من عنده (وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ) أى ولكن شرع لكم الجهاد وقتال الأعداء ليختبركم ويبلو أخباركم كما ذكر حكمته فى شرعية الجهاد فى سورتى آل عمران وبراءة"[١].

وهذا من الله تعالى تقرير للأسباب وبيان للأمة بأن تأخذ بها ولا تتواكل وأن الله مانع نصره من لا يبذل الجهد الذى يجعل الإنسان مستحقا للحياة.

ذلك : " أن هذا الدين منهج إلهى للحياة البشرية يتم تحقيقه فى حياة البشر بجهد البشر أنفسهم فى حدود طاقتهم البشرية، وفى حدود الواقع المادى للحياة الإنسانية فى كل بيئة . ويبدأ العمل من النقطة التى يكون البشر عندها حينما يتسلم مقاليدهم ويسير بهم إلى نهاية الطريق فى حدود طاقتهم البشرية وبقدر ما يبذلونه من هذه الطاقة. وميزته الأساسية أنه لا يغفل لحظة فى أية خطة وفى أية خطوة عن فطرة الإنسان وحدود طاقته وواقع حياته المادى أيضا ..."[٢].

وبهذا كله يتجلى واضحا أن مجئ فعل الشرط مضارعا قد أفاد استمرار امتناع انتصار الله من الكافرين ليبتلى الله المؤمنين بجهادهم وقتالهم . والله أعلم .

١٤- قال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ (الواقعة: ٦٣، ٦٤، ٦٥)

---

(١) تفسير ابن كثير ١٧٤/٤.

(٢) هذا الدين لسيد قطب ٤.

١٥- قال تعالى : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ *أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ *لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ ﴾ (الواقعة: ٦٨ ، ٦٩، ٧٠)

ففعل المشيئة (نشاء) الواقع شرطا فى الموضعين السابقين جاء بلفظ المضارع لإفادة استمرار امتناع وقوع المشيئة المتعلقة بإهلاك زروعهم وثمارهم قبل أن ينالوا ثمارها ،وكذلك امتناع مشيئة جعل المياه العذبة التى ينتفع بها الناس مالحة وهذا الامتناع مستمر بشواهد الواقع ، وأدلته على فضل الله ورحمته.

١٦- قال تعالى : ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ (الواقعة: ٧٥ ، ٧٦، ٧٧)

فقد جاء الشرط (تعلمون) فعلا مضارعا لإفادة استمرار عدم علمهم وجهلهم ومعاندتهم فى كون القرآن الكريم حقا. قال ابن كثير : " تقدير الكلام : لا أقسم بمواقع النجوم وليس الأمر كما زعمتم فى القرآن أنه سحر أو كهانة بل هو قرآن كريم"(١). ويتضح من ذلك تخصيص الخطاب بهؤلاء الكافرين المعاندين الذين يستمرون على جهلهم وعنادهم.

ومثلها الآية الآتية :

١٧- قال تعالى : ﴿ كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴾ (التكاثر ٥، ٦)

فالشرط جاء بلفظ المضارع لإفادة استمرار امتناع علمهم الحق الثابت.

قال الزمخشرى : " لو تعلمون – محذوف الجواب ، يعنى لو تعلمون ما بين أيديكم على الأمر اليقين أى كعلمكم ما تستيقنونه من الأمور التى وكلتم بعلمها هممكم لفعلتم ما لا يوصف ولا يكتنه . ولكنكم ضلال جهلة " (٢).

ولا شك أن علم الناس وقوع العذاب وما ينتظرهم علما واضحا لاشك فيه يختلف عند الناس. لأنه من الأمور الغيبية التى لا ترى رؤية المشاهد المستيقن. ولا ينجو من الشك إلا من رحم . والله أعلم.

الغرض الثانى :

تنزيل المضارع منزلة الماضى ، لكونه صادرا عمن لاخلاف فى إخباره. وهذا الغرض من مفردات القرآن الكريم.

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٢٩٨ .

(٢) الكشاف ٤/ ٢٨١ .

ويكون عندما يخبر الله تعالى عن أمر من الأمور الغيبية المستقبلة، ويقرر تقرير الثابت الواقع الذى لا يشك فيه. فيؤتى بالفعل بلفظ المضارع بدون تحويله إلى صيغة الماضى. لأنه " لا يحتاج إلى ذلك التحويل إلا لو كان صادرا ممن يمكن منه الخلاف فى إخباره، فيعبر بالماضى زيادة فى تأكيد تحقق الوقوع نفيا لذلك الإمكان. وأما حيث صدر ممن لا خلف فى إخباره فلا يحتاج إلى زيادة التأكيد بترويجه لصيغة الماضى"[١]. فإبقاء صيغة المضارع بعد تتريله مترلة المحقق لما ذكر.

كلام الزمخشرى :

وأصل القول فى ذلك ما ذكره الزمخشرى عند تفسيره الآية الآتية:

١- قال تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ (السجدة : ١٢)

قال الزمخشرى : " يجوز أن يكون خطابا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وفيه وجهان : أن يراد به التمنى كأنك قلت : وليتك ترى ...

وأن يكون (لو) الامتناعية قد حذف جوابها ، وهو لرأيت أمرا فظيعا، أو لرأيت أسوأ حال ترى . ويجوز أن يخاطب به كل أحد كما تقول : فلان لئيم إن أكرمته أهانك وإن أحسنت إليه أساء إليك ، فلا تريد به مخاطبا بعينه، فكأنك قلت: إن أكرم وإن أحسن إليه. و (لو) و (إذ) كلاهما للمضى. وإنما جاز ذلك لأن المترقب من الله بمترلة الموجود المقطوع به فى تحققه . ولا يقدر لـ (ترى) ما يتناوله. كأنه قيل: ولو تكون منك رؤية ..."[٢].

والذى يفيده كلام الزمخشرى أنه قد جئ بـ (لو) و (إذ) مع المضارع لفظا ومعنى لتتريله مترلة الماضى لتحقق وقوعه.

فالمعنى أن هذا الأمر العجيب من تنكيس الكافرين رءوسهم يوم القيامة بمترلة ما وقع فعلا لتحقق وقوعه. لذا جئ بـ (لو) و (إذ) للدلالة على هذا التتريل لأصل الرؤية . وهذا القدر يكفى لتعليل مجئ المضارع معها. وإن كان الظاهر من كلامه قصده التعليل لمجئ (لو) و (إذ) معه ، مع استقباله لفظا ومعنى.

---

(١) مواهب الفتاح = شروح ٢ / ٨٥ .

(٢) الكشاف ٣ / ٢٤٢ .

كـــلام الســـعـــد :

وعند شرحه قول الخطيب: "وفى نحو: ﴿وَلَوْ تَــرَى إِذْ وَقِفُــوا عَلَــى النَّــارِ ﴾ (الأنعام: ٢٧) لتتزيله متزلة الماضي لصدوره عمن لا خلاف فى إخباره"[١].

يقول السعد : " فالمستقبل الذى أخبر عنه بوقوعه بمترلة الماضى المتحقق الوقوع فهذه الحالة إنما هى فى المستقبل ، لأنها إنما تكون فى القيامة. لكنها جعلت بمترلة الماضى المتحقق الوقوع. فاستعمل (لو) و (إذ) وهما مختصان بالماضى. وحينئذ كان المناسب أن يقال : ولو رأيت ، لكنه عدل إلى لفظ المضارع لأنه كلام من لا خلاف فى إخباره، فالمضارع عنده بمترلة الماضى. فهذا مستقبل فى التحقيق ماض بحسب التأويـــل. كأنـــه قيل: قد انقضى هذا الأمر ، ولكنك ما رأيته ، ولو رأيته لرأيت أمرا عجيبا"[٢].

ويتفق أول كلام السعد مع ما ذكره الزمخشرى من بيان تتريل الرؤية المـــستقبلة لفظا ومعنى مترلة الماضية المحققة ، ثم مجئ (لو) و (إذْ) معها للدلالة على هذا التتريل لأصل الرؤية.

ثم يفيد آخر كلام السعد أن مقتضى المناسبة لهذا التتريل أن يؤتى بالفعل بلفـــظ الماضى بأن يقال : لو رأيت ، ويناسب أيضا فرض وقوع الرؤية وتقديرها من المخاطب والذى يدل عليه المجئ بـــ (لو) التى هى للشرط فى الماضى.

لكنه عدل إلى صيغة المستقبل للتنبيه على نكتة أخرى وهى أن اللفظ المـــستقبل الصادر عمن لا خلاف فى أقواله بمترلة الماضى المعلوم تحقق معناه.[٣]

ومما يدل عليه كلام الزمخشرى والسعد أن فى الفعل (ترى) اســـتعارة مكنيـــة بقرينة مجئ (لو) و (إذْ) معه . وإن كان ثمة اختلاف فى النظر إلى المشبه والمشبه بـــه عندهما.

فبينما يفهم كلام الزمخشرى تشبيه المستقبل لفظا ومعنى بالماضى فى تحقق الوقوع بقرينة مجيئه مع (لو) و (إذْ) – يفهم كلام السعد تشبيه صيغة المضارع الدالة علـــى الاستقبال بصيغة الماضى فى دلالتهما على تحقق الوقوع لكونهما صـــادرين عمـــن لا خلاف فى إخباره. والله أعلم.

---

(١) تلخيص المفتاح = المطول ١٧١ .

(٢) المطول ١٧١ – ١٧٢ .

(٣) تنظر حاشية عبد الحكيم = فيض الفتاح ٣/ ١٠٢ .

● وجه المناسبة بين التتريل وفرض الوقوع :

وقد دفع العلامة عبد الحكيم ما يمكن أن يتوهم من التعارض بين تتريل المضارع مترلة الماضى المحقق وبين مجئ (لو) الدالة على امتناع الشرط قائلا: "ينبغى أن يفهم أن ما هو منزل منزلة الماضى هو أصل الرؤية لتحقق وقوعه. والذى فرض وقوعه وأدخل عليه (لو) هو الرؤية بالنسبة إلى المخاطب. كما يدل عليه قول السعد: لكنك ما رأيته. وفى شرح المفتاح وأنت لو رأيتها رأيت العجب ، فاندفع ما يقال : إن خبر الصادق يدل على تحققه ، وأما فرض الصادق فلا . لأن المفروض إنما هو النسبة إلى المخاطب . وأما أصل الرؤية فمذكور لا على وجه الفرض. فدخول (لو) يجعل أصل الرؤية المستقبلة بمترلة الماضى. وكذا اندفع أيضا ما يقال إن تتريل المضارع مترلة الماضى فى التحقق ينافى دخول (لو) الدالة على الامتناع ، لأن الامتناع باعتبار الإسناد إلى المخاطب والتحقق لأصل الفعل. فذكر (لو) يدل على أن الرؤية بمثابة من الفظاعة يمتنع معها رؤية المخاطب"[١].

على أن الحق كون (لو) تدل على امتناع شرطها ولا مدخلية لها فى فظاعة ما يدل عليه . فهى تدل على امتناعه والذى يتحقق لما فى المرئى من البشاعة والفظاعة التى لا يستطيع المخاطب لشدها أن يرى.

٢- قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلاَ بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلاَ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ (سبأ: ٣١)

وهذه الآية مثل الآية السابقة فى إفادة النكتة السابقة. قال الزمخشرى : " ولو ترى فى الآخرة موقفهم وهم يتجاذبون أطراف المحادثة ويتراجعونها بينهم لرأيت العجب"[٢]. ويبدو اكتفاؤه بما ذكره فى آية السجدة عن ذكره هنا.

٣- قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلاَ فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ (سبأ: ٥١)

قال الزمخشرى: " ولو ترى جوابه محذوف يعنى لرأيت أمرا عظيما وحالا هائلة. و (لو) و (إذ) والأفعال التى هى : فزعوا – وأخذوا – وحيل بينهم، كلها للماضى والمراد بها الاستقبال ، لأن ما الله فاعله فى المستقبل بمترلة ما قد كان ووجد لتحققه"[٣]. فقد نزل أصل الفعل لتحقق وقوعه مترلة المحقق.

---

(١) تنظر حاشية عبد الحكيم = فيض الفتاح ٣/ ١٠٢ ، ١٠٣.

(٢) الكشاف ٣/ ٢٩٠ .

(٣) الكشاف ٣ / ٢٩٦ .

٤- قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُباً لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ العَذَابَ أَنَّ القُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العَذَابِ ﴾ (البقرة : ١٦٥)

قال النيسابورى : " ودخول (لو) وكذا (إذ) فى المستقبل مع أن حقهما الدخول على الماضى نظم للمستقبل فى سلك الماضى المقطوع به لصدوره عمن لا خلاف فى إخباره . وقيل : لأن الساعة قريب فكأنها قد وقعت"[١].

على أنه ينبغى ملاحظة أن (إذ) وإن كان حقها الدخول على الماضى إلا أن المراد بالماضى معها المحقق. وبهذا تخالف (لو) فى الدلالة على الماضى لأن دلالة (لو) على الماضى على سبيل الفرض والتقدير، لأن الفعل مع (إذ) واقع بخلافه مع (لو) ويلحظ أنه لا فرق بين ما ذكره النيسابورى أولا وما ذكره ثانيا. لأن قرب الساعة لا يخرجها عن كونها فى المستقبل.. وكأنها واقعة راجع إلى كونها مقطوعا بها.

٥- قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا العَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ (الأنعام : ٣٠)

ولا يخرج القول فى هذه الآية عن الآيات السابقة . قال الزمخشرى فى معناها: " وقفوا على ربهم مجاز عن الحبس للتوبيخ والسؤال كما يوقف العبد الجانى بين يدى سيده ليعاتبه. وقيل : وقفوا على جزاء ربهم . وقيل عرفوه حق التعريف"[٢].

٦- قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ المَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ اليَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ (الأنعام : ٩٣)

وهذه – أيضا – مثل الآيات السابقة فى المجئ بالفعل المضارع مع لو.

قال الزمخشرى فى بيان معناها : " ولو ترى جوابه محذوف، أى لرأيت أمرا عظيما ... باسطو أيديهم يبسطون إليهم أيديهم يقولون : هاتوا أرواحكم أخرجوها إلينا من أجسادكم . وهذه عبارة عن العنف فى السياق والإلحاح والتشديد فى الإزهاق من غير تنفيس وإمهال .." [٣].

---

(١) غرائب القرآن للنيسابورى ٢/ ٦١ .

(٢) الكشاف ٢ / ١٣ .

(٣) الكشاف ٢/ ٣٦ .

٧- قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ (الأنفال : ٥٠)

والشأن فى الآية كالآيات السابقة فى إفادة المعنى والغرض الذى من أجله جىء بالمضارع بعد (لو) والله أعلم.

● (لو) بمعنى (إن) :

وقد حكى أبو حيان قولا فى (لو) فى هذه الشواهد بأن تحمل على معنى (إن) فعند تفسيرة قول الله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الأنعام : ٢٧)

قال : " وترى مضارع معناه الماضى . أى ولو رأيت فـ (إذ) باقية على كونها ظرفا ماضيا معمولا لترى. وأبرز هذا فى صورة الماضى وإن كان لم يقع بعد إجراء للمحقق المنتظر مجرى الواقع الماضى ... ثم قال : وقيل : ترى باقية على الاستقبال و(إذ) معناه (إذا) فهو ظرف مستقبل ، فتكون (لو) هنا استعملت استعمال (إن) الشرطية . وألجأ من ذهب إلى هذا أن هذا الأمر لم يقع بعد"[(١)].

على أن فى هذا الرأى إذهابا للنكتة التى تعينت باعتبار الاستعمال على أصل (لو) وهو الاشتراط فى الماضى لنكتة تنزيل المستقبل منزلة الماضى لتحقق وقوعه كما سبق بيانه فى الآيات السابقة .

ويجب أن يتنبه أن جعل (لو) بمعنى (إن) يكون فى الاستعمال للشرط فى المستقبل دون أن يكون مفاد الشرط بها الشك كما هو الحال فى (إن) . لأن كون الشرط محققا معها فى الآيات السابقة فهى تشبه (إذا) فى تحقق الشرط. لكن جرت عبارتهم بأن (لو) بمعنى (إن)[(٢)].

الغرض الثالث :

استحضار صورة الفعل وإشهادها السامع والمخاطب

ويتحقق هذا الغرض فى الصور التى ذكرت شواهد للغرض الثانى وذلك بأن يكون الإتيان بالمضارع مع (لو) والذى حقها أن يؤتى معها بالماضى - لهذا الغرض. وقد قال بذلك السكاكى والخطيب والسعد.

---

(١) البحر المحيط ٤ / ١٠١ .

(٢) ينظر عروس الأفراح = شروح ٢ / ٨٦ .

قال السكاكى : " واستلزم فى مثل قوله عز اسمه : ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾ (الأنعام : ٢٧) ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ (السجدة : ١٢) ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ (سبأ: ٣١) تنزيل المستقبل – نظما له فى سلك المقطوع به لصدوره عمن لا خلاف فى إخباره – منزلة الماضى المعلوم فى قولك : لو رأيت – على نحو تنزيل (يود) منزلة (ود) فى قوله تعالى: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (الحجر : ٢) فى أحد قولى أصحابنا البصريين رحمهم الله .... ثم يقول : ولك أن ترد الغرض من لفظ (ترى) و (يود) .... إلى استحضار صورة المجرمين ناكسى الرءوس قائلين لما يقولون . وصورة الظالمين موقوفين عند ربهم متقاولين بتلك المقالات ، واستحضار صورة ودادة الكافرين لو أسلموا"[1].

ويذكر الخطيب فى تلخيصه وإيضاحه كلام السكاكى.[2]. ويذكر السعد المقام الذى يأتى فيه الغرض قائلا : " ولا يفعل ذلك إلا فى أمر يهتم بمشاهدته لغرابة أو فظاعة أو نحو ذلك، وهو فى الكلام كثير" [3].

ثم يذكر غرضا رابعا لكنى لم أجد له مثالا فى القرآن الكريم.

قال : " وقد يكون دخول (لو) على المضارع للدلالة على أن الفعل من الفظاعة بحيث يحترز عن أن يعبر عنه بلفظ الماضى لكونه مما يدل على الوقوع فى الجملة كما تقول: لقد أصابتنى حوادث لو تبقى إلى الآن لما بقى منى أثر"[4].

على أنه يمكن حمل بعض الشواهد على هذا لكن ببعد يستلزم إرجاع الفظاعة والغرابة إلى متعلق الفعل لا إلى الفعل نفسه ، وهذا كاف فى كونه غير موجود فى القرآن الكريم. والله أعلم بمراده.

وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) مفتاح العلوم ١٣٣ .

(٢) ينظر شروح التلخيص ٢ / ٨٥ وما بعدها .

(٣) المطول ١٧٣ .

(٤) المرجع السابق ، الموضع نفسه .

خاتمـــة

درج الباحثون على أن يذكروا فى نهاية بحوثهم بعض النتائج من خلال المسائل البارزة فى موضوعاتهم.

وعندما اتجهت إلى أن أفعل شيئا مثل ذلك وجدت أن البحث كله ماثلا بمسائله أمام ناظرى. ولم أجد من مسائله ما هو أولى بالتنويه به ، والحديث عنه دون غيره.

فالبحث بعد أن استوعب مقالة البلاغيين فى أدوات الشرط اتجه إلى القرآن الكريم باحثا عن مواقع هذه الأدوات فيه ، وعب من معينه الصافى. مما جَلّى مواقع هذه الأدوات وطرائق استعمالها . وتكشف بذلك طريق بيان التقسيمات والأضرب والأغراض المختلفة . والضوابط والأسس التى تحكم هذه التقسيمات والتفريعات. وما بنى عليها من نتائج وأحكام . كل ذلك من خلال الآيات التى ضمت أدوات الشرط (إن ، وإذا ، ولو) وعددها سبع وأربعون آية وثمانمائة. جاءت (إن) فى أربع وسبعين آية وأربعمائة منها. وجاءت (إذا) فى خمس وثمانين آية ومائتين منها . وجاءت (لو) الامتناعية فى عشرين آية ومائة منها.

وليس من شك فى أن الطالب لبعض النتائج فى هذه الخاتمة لن يجد إلا شيئا مبتسرا قليلا لا يوفى بتقديم صورة لما قدمه البحث من مسائل وأحكام . وأولى به أن لا يضن على نفسه بتتبع ذلك من خلال فصوله ومسائله.

ثم هو من خلال هذا التتبع سيلحظ بوضوح أن ما فيه من جهد فى إبراز مسائله إنما هو محض التوفيق من الله تعالى ببركة القرآن الكريم . فلله الحمد فى الأولى والآخرة.

تمّت – بحمد الله تعالى – مراجعته للطبع فى يوم الخميس السابع من ربيع الأول من العام الثانى والثلاثين بعد القرن الرابع عشر للهجرة ، الموافق العاشر من فبراير من العام الحادى عشر بعد القرن العشرين للميلاد . وذلك مع تمام سن السبعين من العمر حسب التاريخ الميلادى.

وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

الدكتور: محمود موسى إبراهيم حمدان
الأستاذ بجامعة الأزهر

الفهارس

فهرس الآيات

سورة البقرة

سورة آل عمران

سورة النساء

الآية	رقمها	الصفحة
– (وإن امرأة خافت من بعلها نشوزًا...)	١٢٨	٥٩، ١٦٣، ١٦٥
– (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء...)	١٢٩	١٤٧
– (وإن يتفرقا يغن الله كلاً من سعته ...)	١٣٠	١٠١، ١٤٧
– (ولله ما في السماوات وما في الأرض ...)	١٣١	١٦٥
– (إن يشأ يذهبكم أيها الناس ...)	١٣٣	٤٤، ١٤٠
– (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ...)	١٣٥	١٥٦
– (وقد نزل عليكم في الكتاب ...)	١٤٠	٣١٥
– (الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم ...)	١٤١	١٤٧
– (إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم)	١٤٢	٣٩، ٥٠، ٣٢٢، ٣٣٣
– (ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم ...)	١٤٧	٢٥٠
– (إن تبدوا خيرًا أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفوًا قديرا)	١٤٩	١٥٧
– (يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم ...)	١٧٠	١٥٢
– (يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة ...)	١٧٦	٧٦، ١٦٣

سورة المائدة

الآية	رقمها	الصفحة
– (يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله...)	٢	٣٢٣
– (اليوم أحل لكم الطيبات ...)	٥	٣٥١
– (يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم...)	٦	٣٧، ٤٧، ٦٣، ١٦٣، ٣١٨
– (ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل...)	١٢	٢٥٠، ٢٦٥
– (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ...)	١٧	٢٠٤، ٢٦١
– (قالوا يا موسى إن فيها قومًا جبارين ...)	٢٢	٣٧، ٤٨، ٦٠، ٧١، ٩٣، ١٧٢
– (قال رجلان من الذين يخافون ...)	٢٣	١٣٥، ٣٥٢
– (لئن بسطت إلي يدك ...)	٢٨	٥٢، ٩٦، ١٢٩

الآية	رقمها	الصفحة
– (إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض...)	٣٦	٤٢٧
– (يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر ...)	٤١	١٤٧
– (سماعون للكذب أكالون للسحت...)	٤٢	١٤٧، ١٧٩
– (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق ...)	٤٨	٣٨٣
– (وأن احكم بينهم بما أنزل الله ...)	٤٩	١١٩
– (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوًا ولعبًا ...)	٥٧	٢٣٢
– (وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوًا ولعبًا ...)	٥٨	٥٠، ٣١٨
– (وإذا جاءوكم قالوا آمنا ...)	٦١	٥٠، ٣١٥
– (ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا ...)	٦٥	٣٩٥
– (ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم ...)	٦٦	٣٧٧، ٣٩٥
– (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ...)	٦٧	٢٠٨
– (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ...)	٧٣	١١٩
– (ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي ...)	٨١	٦٩، ٤١٩
– (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ...)	٨٣	٥١، ٣٥٦
– (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ..)	٩٢	١٧٢
– (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا ...)	٩٣	٣٥٢
– (يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء ...)	١٠١	٩٠، ١٤٨
– (وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله ...)	١٠٤	٣١٥
– (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ...)	١٠٥	٣٤٧
– (يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم ...)	١٠٦	١٦٣
– (فإن عثر على أنهما استحقا إثمًا ...)	١٠٧	١٦٣
– (إذ قال الحواريون ...)	١١٢	١٣٦
– (وإذ قال الله يا عيسى بن مريم ...)	١١٦	١٩٦
– (إن تعذبهم فإنهم عبادك ...)	١١٨	٥٥، ١٤٨

سورة الأنعام

سورة الأعراف

الآية	رقمها	الصفحة
- (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبًا...)	٣٧	٣٣٩
- (قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم..)	٣٨	٣٣٩
- (وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار ...)	٤٧	٣٠٣
- (وهو الذي يرسل الرياح بشرًا بين يدي رحمته ...)	٥٧	٣٢٣، ٣٤٠
- (قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ...)	٧٠	١٩٣
- (فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم ...)	٧٧	١٩٣
- (وإلى مدين أخاهم شعيبا ...)	٨٥	٢٥٠
- (وإن كان طائفة منكم آمنوا ...)	٨٧	٢٢٦
- (قد افترينا على الله كذبًا إن عدنا في ملتكم ...)	٨٩	١٩٧
- (وقال الملأ الذين كفروا من قومه ...)	٩٠	٥٧، ١٧٣
- (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا ...)	٩٦	٣٨، ٣٧٨
- (أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها ...)	١٠٠	٣٩٠، ٤٣٦
- (قال إن كنت جئت بآية ...)	١٠٦	١٩٤، ٢١٣
- (وجاء السحرة فرعون ...)	١١٣	٨٥، ٢٢١

الآية	رقمها	الصفحة
- (فإذا جاءهم الحسنة قالوا لنا هذه ...)	١٣١	١٨١، ٢٨٢، ٣٠٤
- (ولما وقع عليهم الرجز ...)	١٣٤	١٣٤، ٢٦٥
- (ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه...)	١٤٣	٨٥، ٢١٤
- (سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق...)	١٤٦	١٤٨، ٢٠١، ٢٥٧
- (ولما سقط في أيديهم ...)	١٤٩	١٧٤
- (واختار موسى قومه سبعين رجلاً...)	١٥٥	٣٨٩
- (فخلف من بعدهم خلف ...)	١٦٩	٢٢١
- (ولو شئنا لرفعناه بها ...)	١٧٦	٥٣، ١٥٧، ٣٨٥
- (قل لا أملك لنفسي نفعًا ولا ضرا...)	١٨٨	٤٢٠
- (هو الذي خلقكم من نفس واحدة...)	١٨٩	١٣٠، ٢٥٩، ٢٦٥
- (وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم...)	١٩٣	٥٣، ٩٧، ٢٠٤
- (إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ...)	١٩٤	١٩١
- (وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا...)	١٩٨	٢٠٤

سورة الأنفال

الآية	رقمها	الصفحة
- (الآن خفف الله عنكم...)	٦٦	٤٧، ١٤٨
- (يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى...)	٧٠	٦٢، ٧٣، ١٧٥
- (وإن يريدوا خيانتك...)	٧١	١٤٨
- (إن الذين آمنوا وهاجروا...)	٧٢	١٨٠
- (والذين كفروا بعضهم أولياء بعض...)	٧٣	١٧٤

سورة التوبة

الآية	رقمها	الصفحة
- (وأذان من الله ورسوله إلى الناس ...)	٣	١٤٨
- (فإذا انسلخ الأشهر الحرم...)	٥	٣٣، ٤٧، ٧١، ٨٦، ١٢٧، ١٤٩، ٢٦٣، ٣٠٧
- (وإن أحد من المشركين استجارك)	٦	٥٩، ١٦٣
- (كيف وإن يظهروا عليكم...)	٨	١٧٥
- (فإن تابوا وأقاموا الصلاة...)	١١	٦٩، ١٤٩
- (وإن نكثوا أيمانهم..)	١٢	٧٢، ١٤٩
- (ألا تقاتلون قومًا نكثوا أيمانهم...)	١٣	٢٣٣
- (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم...)	٢٣	٢٥٦
- (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم..)	٢٤	٣٦، ٢٠٩
- (يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس..)	٢٨	٢٥١
- (يا أيها الذين آمنوا ما لكم...)	٣٨	٣٢١
- (إلا تنفروا يعذبكم عذابًا أليما...)	٣٩	٢٠٩
- (إلا تنصروه فقد نصره الله...)	٤٠	٢١٠
- (انفروا خفافًا وثقالاً...)	٤١	٢٣٣
- (لو كان عرضًا قريبًا...)	٤٢	٣٥، ٣٧٧، ٣٨١
- (ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة...)	٤٦	٤٠٨
- (لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً...)	٤٧	٤٠٤
- (إن تصبك حسنة تسؤهم...)	٥٠	١٤٩، ٢٩١
- (لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلاً...)	٥٧	٤٠٤، ٤٣٩
- (ومنهم من يلمزك في الصدقات...)	٥٨	٥٠، ٧٣، ١٤٩

سورة يونس

سورة هود

سورة يوسف

سورة الرعد

الآية	رقمها	الصفحة	الآية	رقمها	الصفحة
- (وإن تعجب فعجب...)	٥	٣٩، ٢٣٤	- (ولو أن قرآنا سيرت به الجبال...)	٣١	٤٠٣، ٤٤١
- (له معقبات من بين يديه ومن خلفه...)	١١	٣٤٧	- (وكذلك أنزلناه حكمًا عربيا...)	٣٧	٢١٠
- (للذين استجابوا لربهم الحسنى...)	١٨	٤٠٦	- (وإما نرينك بعض الذي نعدهم...)	٤٠	٥٦، ١٥٧

سورة إبراهيم

الآية	رقمها	الصفحة	الآية	رقمها	الصفحة
- (وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم)	٧	١٤٩	- (وبرزوا لله جميعًا..)	٢١	٣٨، ٣٧٦
- (وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعا...)	٨	٢٠١، ٢٥٨	- (وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها...)	٣٤	١٦٦
- (ألم تر أن الله خلق السماوات والأرض..)	١٩	١٤١			

سورة الحجر

الآية	رقمها	الصفحة	الآية	رقمها	الصفحة
- (لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين)	٧	١٩٤	- (قال هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين)	٧١	١٧٥
- (ولو فتحنا عليهم بابًا من السماء...)	١٤	٤٠٦			

سورة النحل

الآية	رقمها	الصفحة	الآية	رقمها	الصفحة
- (وعلى الله قصد السبيل...)	٩	٣٨٦	- (وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء...)	٣٥	٣٩٣
- (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها...)	١٨	١٦٦			
- (وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم...)	٢٤	٣١٩			

سورة الإسراء

سورة الكهف

الآية	رقمها	الصفحة	الآية	رقمها	الصفحة
- (فانطلقا حتى إذا لقيا غلامًا...)	٧٤	٣٣٧	- (حتى إذا بلغ بين السدين...)	٩٣	٦٣، ٣٣٧
- (قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني...)	٧٦	٤٩	- (آتوني زبر الحديد...)	٩٦	٦٣، ٣٣٧
- (فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية...)	٧٧	٣٣٧، ٤٠٧	- (قال هذا رحمة من ربي...)	٩٨	٣٠٠، ٣٣٠
- (حتى إذا بلغ مغرب الشمس...)	٨٦	٣٣٧	- (قل لو كان البحر مدادًا لكلمات ربي...)	١٠٩	٤٢٩
- (حتى إذا بلغ مطلع الشمس...)	٩٠	٣٣٧			

سورة مريم

الآية	رقمها	الصفحة	الآية	رقمها	الصفحة
- (قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا)	١٨	١٣٥	- (ويقول الإنسان أئذا ما مت لسوف أخرج حيا...)	٦٦	٣٠٦
- (ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه...)	٣٥	٢٩٩	- (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات...)	٧٣	٣١٥، ٣٤٢
- (قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم..)	٤٦	٤٩، ١٢٩	- (قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا حتى إذا رأوا ما يوعدون...)	٧٥	٣٣٨
- (أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين..)	٥٨	٣١٢، ٣٤٢			

سورة طه

الآية	رقمها	الصفحة	الآية	رقمها	الصفحة
- (وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى...)	٧	١٦٦	- (ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا...)	١٣٤	٤١٠
- (قال اهبطا منها جميعًا بعضكم لبعض عدو...)	١٢٣	٢٢٤، ٢٥٨			

سورة الأنبياء

الآية	رقمها	الصفحة
- (وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم...)	٧	٢٣٥
- (لو أردنا أن نتخذ لهوًا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين...)	١٧	١٨٥، ١٩٩، ٣٧٩
- (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون)	٢٢	٨٤، ٩١، ٤١٥
- (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد...)	٣٤	٢٢٨، ٢٦١
- (وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا...)	٣٦	٣١٦
- (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين)	٣٨	١٩٤
- (لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار)	٣٩	٣٩٨، ٤٤١
- (ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك...)	٤٦	١٨٠
- (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة...)	٤٧	١٧٩
- (قال بل فعله كبيرهم هذا...)	٦٣	٢١٣
- (قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم...)	٦٨	٢٣٥
- (حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج...)	٩٦	٣٣٨
- (لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها...)	٩٩	٤٢٢
- (فإن تولوا فقل آذنتكم على سواء)	١٠٩	١٦٧

سورة الحج

الآية	رقمها	الصفحة
- (يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث...)	٥	٢٤٤، ٢٤٩، ٢٥٤
- (ومن الناس من يعبد الله على حرف...)	١١	١٥٠، ٢٩٢
- (الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم...)	٣٥	٣٠٧
- (والبدن جعلناها لكم من شعائر الله...)	٣٦	٣٢٤
- (الذين إن مكناهم في الأرض...)	٤١	١٢٠
- (وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود)	٤٢	٢٤٤
- (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته...)	٥٢	٣٢٠

سورة المؤمنون

سورة النور

سورة الفرقان

الآية	رقمها	الصفحة
– (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا...)	٦٧	٣١٢
– (والـــــذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو...)	٧٢	٣١٢

الآية	رقمها	الصفحة
– (والذين إذا ذكروا بآيات ربهم...)	٧٣	٣١٢

سورة الشعراء

الآية	رقمها	الصفحة
– (إن نـــشأ نـــنزل عليهم من الـــسماء آية...)	٤	١٤٢
– (قـــــال رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين...)	٢٤	٢٣٦
– (قال رب المـــشرق والمغرب وما بينهما)	٢٨	٢٣٦
– (قال لئن اتخذت إلهًا غيري لأجعلنك من المسجونين)	٢٩	٢٤٥
– (قال فأت بـــه إن كنت من الصادقين..)	٣١	٨٨، ١٩٤
– (لعلنا نتبع السحرة إن كـــانوا هـــم الغالبين...)	٤٠	١٣٣
– (فلما جاء السحرة قالوا لفرعون...)	٤١	٢٢١، ٢٦١
– (إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا..)	٥١	٨٩، ٢٣٥
– (وإذا مرضت فهو يشفين..)	٨٠	٣١٣

الآية	رقمها	الصفحة
– (قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن مـــن المرجومين..)	١١٦	١٢٩
– (وإذا بطـــــشتم بطشتم جبارين..)	١٣٠	١٨، ٣٩، ٣١٦
– (ما أنت إلا بـــشر مثلنا..)	١٥٤	١٩٤
– (قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن مـــن المخرجين..)	١٦٧	١٢٩
– (فأسقط علينا كسفًا من السماء إن كنت من الصادقين..)	١٨٧	١٩٥
– (ولو نزلناه علـــى بعض الأعجمين..)	١٩٨	٤٢٩
– (أفرأيت إن متعناهم سنين..)	٢٠٥	١٦٧
– (فإن عصوك فقـــل إني بـــريء ممـــا تعملون)	٢١٦	٢٥٢

سورة النمل

الآية	رقمها	الصفحة	الآية	رقمها	الصفحة
– (حتى إذا أتوا على وادي النمل..)	١٨	٣٣٧	– (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين)	٧١	١٩٥
– (قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها...)	٣٤	٣٠٨	– (وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة)	٨٢	٧٠، ٣٠١
– (أمن يبدأ الخلق ثم يعيده...)	٦٤	٨٦، ١٩٢	– (حتى إذا جاءوا قال أكذبتم..)	٨٤	٣٣٨

سورة القصص

الآية	رقمها	الصفحة	الآية	رقمها	الصفحة
– (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه..)	٧	٣٢٥	– (وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه...)	٥٥	٣١٣
– (قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين..)	٢٧	٤٩، ١٣٢، ١٣٩، ٢٦٦	– (وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف)	٥٧	١٨٧، ٢١٢، ٢٥٩
– (قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما..)	٤٩	١٩٢	– (وقيل ادعوا شركاءكم...)	٦٤	٣٩٨
– (فإن لم يستجيبوا لك فاعلم...)	٥٠	٢٢٤	– (قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدًا...)	٧١	١٨٦
– (وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به...)	٥٣	٣١٣، ٣٤٢	– (قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدًا...)	٧٢	١٨٦، ٢٠٥

سورة العنكبوت

الآية	رقمها	الصفحة	الآية	رقمها	الصفحة
– (ووصينا الإنسان بوالديه حسنًا...)	٨	١٦٧	– (وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم...)	١٨	٢٤٥
– (ومن الناس من يقول آمنا بالله..)	١٠	٧٢، ١٨٢، ٢٦٨، ٣٢٦	– (أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل..)	٢٩	١٩٥
– (وإبراهيم إذ قال لقومه ...)	١٦	١٩٢			

سورة الروم

سورة لقمان

سورة السجدة

الآية	رقمها	الصفحة
- (وقالوا أئذا ضللنا في الأرض..)	١٠	٣٠٦
- (ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رءوسهم..)	١٢	٤٠، ٤٠١، ٤٤٥
- (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها..)	١٣	٤٣، ٣٨٦
- (ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين..)	٢٨	١٩٥

سورة الأحزاب

الآية	رقمها	الصفحة
- (ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله...)	٥	١٥٣، ٢٥٦
- (ولو دخلت عليهم من أقطارها...)	١٤	٤٠٧
- (قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل...)	١٦	١٥٧
- (قل من ذا الذي يعصمكم من الله...)	١٧	١٥٧
- (أشحة عليكم فإذا جاء الخوف...)	١٩	٣٢٦
- (يحسبون الأحزاب لم يذهبوا...)	٢٠	١٧٧، ٢٥٩، ٤٠٨
- (ليجزي الله الصادقين بصدقهم)	٢٤	١٤٢
- (يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا...)	٢٨	١٥٠، ٢٥٦
- (وإن كنتن تردن الله ورسوله...)	٢٩	١٥٠، ٢٥٦
- (يا نساء النبي لستن كأحد من النساء...)	٣٢	٤٨، ٢٣٧، ٢٥٧
- (يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات..)	٤٩	٣٥٣
- (يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك..)	٥٠	١٦٤
- (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام...)	٥٣	٣٢٧
- (إن تبدوا شيئًا أو تخفوه ...)	٥٤	١٥٧
- (لئن لم ينته المنافقون...)	٦٠	٢٤٥

سورة سبأ

الآية	رقمها	الصفحة
– (وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل...)	٧	٣٠٦
– (أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض...)	٩	١٤٣
– (فلما قضينا عليه الموت ...)	١٤	٣٧٩
– (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له...)	٢٣	٣٣٩
– (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين...)	٢٩	١٩٥
– (وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن...)	٣١	٤٠٢، ٤٤٧
– (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات...)	٤٣	٣١٦، ٣٤٢
– (قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي...)	٥٠	١٥٠
– (ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت...)	٥١	٤٠٢، ٤٤٧

سورة فاطر

الآية	رقمها	الصفحة
– (وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك...)	٤	٦٥، ٢٤٥
– (إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم..)	١٤	٢٠٥، ٤٠٩
– (إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد..)	١٦	١٤٣
– (ولا تزر وازرة وزر أخرى...)	١٨	١٧٦
– (وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم...)	٢٥	٢٤٥
– (إن الله يمسك السماوات والأرض)	٤١	٢٠٦، ٢٦١
– (وأقسموا بالله جهد أيمانهم...)	٤٢	١٧٦
– (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا...)	٤٥	٤٠، ٣٠٦، ٣٧٩، ٤٤١

سورة يس

الآية	رقمها	الصفحة
– (قالوا إنا تطيرنا بكم...)	١٨	٢٤٥
– (قالوا طائركم معكم أإن ذكرتم..)	١٩	٢٢٨
– (أأتخذ من دونه آلهة...)	٢٣	١٦٨
– (وإن نشأ نغرقهم)	٤٣	١٤٣

الآية	رقمها	الصفحة	الآية	رقمها	الصفحة
– (وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم...)	٤٥	٣١٦	– (ولو نشاء لطمسنا على أعينهم...)	٦٦	٣٩١، ٤٤٢
– (وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله...)	٤٧	٣١٦، ٣٨٨، ٤٤١	– (ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم...)	٦٧	٣٩١
– (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين..)	٤٨	١٩٥	– (إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون..)	٨٢	٢٩٩

سورة الصافات

الآية	رقمها	الصفحة	الآية	رقمها	الصفحة
– (وإذا ذكروا لا يذكرون..)	١٣	٣١٦	– (فلما بلغ معه السعي...)	١٠٢	١٣٩
– (وإذا رأوا آية يستسخرون...)	١٤	٣١٦	– (فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين...)	١٥٧	١٩٢
– (أئذا متنا وكنا ترابًا وعظامًا...)	١٦	٣٠٦	– (لو أن عندنا ذكرًا من الأولين...)	١٦٨	٣٧٩
– (إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون..)	٣٥	٣١٦	– (فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين...)	١٧٧	٣٢٧
– (أئذا متنا وكنا ترابًا وعظامًا...)	٥٣	٣٠٦			

سورة ص

الآية	رقمها	الصفحة
– (فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين...)	٧٢	٣٠٠

سورة الزمر

الآية	رقمها	الصفحة	الآية	رقمها	الصفحة
– (لو أراد الله أن يتخذ ولدًا...)	٤	٣٩٦	– (وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه...)	٨	٢٩٤، ٣٠٥
– (إن تكفروا فإن الله غني عنكم...)	٧	٦٥، ١٥٠	– (قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم...)	١٣	١٩٩

الآية	رقمها	الصفحة	الآية	رقمها	الصفحة
– (فأذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا...)	٢٦	٤٠٠	– (فإذا مس الإنسان ضر دعانا...)	٤٩	٢٩٤، ٣٠٥
– (ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله...)	٣٨	١٥٠، ١٦٨	– (أو تقول لو أن الله هداني...)	٥٧	٣٧٩
			– (ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك...)	٦٥	٢١٠، ٢٦٩
– (وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة...)	٤٥	٣٠٧	– وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرًا حتى إذا جاءوها...)	٧١	٣٣٩
– (ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض جميعًا...)	٤٧	٤٠٩	– وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرًا حتى إذا جاءوها...)	٧٣	٣٣٩

سورة غافر

الآية	رقمها	الصفحة	الآية	رقمها	الصفحة
– (ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم..)	١٢	٢٤٦، ٣٠٨	– (هو الذي يحيي ويميت فإذا قضى أمرًا...)	٦٨	٢٩٩
– (وقال رجل مؤمن من آل فرعون...)	٢٨	١٥١	– (فاصبر إن وعد الله حق فإما نرينك بعض الذي نعدهم...)	٧٧	١٥٧
– (يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا..)	٢٩	١٢٤	– (ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك...)	٧٨	٧٠، ٣٠١
– (ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات...)	٣٤	٣٣٧			

سورة فصلت

الآية	رقمها	الصفحة	الآية	رقمها	الصفحة
– (فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة...)	١٣	٢٤٦	– (إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم...)	١٤	٤٢٢

سورة الشورى

سورة الزخرف

سورة الدخان

سورة الجاثية

سورة الأحقاف

الآية	رقمها	الصفحة	الآية	رقمها	الصفحة
- (قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به...)	١٠	٢٢٥	- (ووصينا الإنسان بوالديه إحسانًا...)	١٥	٣٤٠
			- (قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا...)	٢٢	١٩٦
- (وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرًا...)	١١	٥٩، ٤٢٤			

سورة محمد

الآية	رقمها	الصفحة	الآية	رقمها	الصفحة
- (فإذا لقيتم الذين كفروا...)	٤	٣٢٠، ٣٢٨، ٣٨٨، ٤٤٣	- (فهل عسيتم إن توليتم...)	٢٢	٢٤٦
- (يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم...)	٧	٣٨، ٧٤، ٢٣٧	- (ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم...)	٣٠	٣٩١، ٤٣٦
- (ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا...)	١٦	٣٤٠	- (إنما الحياة الدنيا لعب ولهو...)	٣٦	٤٢، ٢١٢، ٢٥٢
			- (إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا...)	٣٧	٢١٢
- (ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة...)	٢٠	٣٥٥	- (ها أنتم هؤلاء تدعون...)	٣٨	٢٥٢
- (طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر...)	٢١	٣٤٨، ٣٥٥، ٣٩٦			

سورة الفتح

الآية	رقمها	الصفحة	الآية	رقمها	الصفحة
- (سيقول لك المخلفون من الأعراب..)	١١	١٥٧	- (هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام...)	٢٥	٣٨١
- (قل للمخلفين من الأعراب ستدعون..)	١٦	١٥١	- (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق...)	٢٧	١٣٩
- (ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار...)	٢٢	٤٠٨			

سورة الحجرات

الآية	رقمها	الصفحة	الآية	رقمها	الصفحة
- (ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرًا لهم...)	٥	٣٩٦	- (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا...)	٩	١٥١، ١٦٤
- (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا...)	٦	٤٨، ١٨٠	- (قالت الأعراب آمنا...)	١٤	١٣٢
- (واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر...)	٧	٣٧، ٤٠، ٣٧٩، ٤٣٤	- (يمنون عليك أن أسلموا...)	١٧	١٩٢

سورة ق

الآية	رقمها	الصفحة
- (أئذا متنا وكنا ترابًا ذلك رجع بعيد..)	٣	٣٠٦

سورة الطور

الآية	رقمها	الصفحة	الآية	رقمها	الصفحة
- (فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين)	٣٤	١٩٢	- (وإن يروا كسفًا من السماء ساقطًا يقولوا سحاب مركوم)	٤٤	٢٠٣

سورة القمر

الآية	رقمها	الصفحة
- (وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر)	٢	٥٠، ٢٢٨

سورة الرحمن

الآية	رقمها	الصفحة
- (يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا...)	٣٣	٢١٣

سورة الواقعة

الآية	رقمها	الصفحة
– (إذا وقعت الواقعة)	١	٣٠١
– (إذا رجت الأرض رجا)	٤	٣٠١
– (وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا ترابًا وعظاما...)	٤٧	٣٠٦
– (لو نشاء لجعلناه حطاما...)	٦٥	٣٩٠، ٤٤٣
– (لو نشاء جعلناه أجاجا...)	٧٠	٣٩٠، ٤٤٤
– (وإنه لقسم لو تعلمون عظيم...)	٧٦	٤٠٠، ٤٤٤
– (فلولا إذا بلغت الحلقوم)	٨٣	٣٠٧
– (فلولا إن كنتم غير مدينين)	٨٦	١٩٢
– (ترجعونها إن كنتم صادقين)	٨٧	١٩٢
– (فأما إن كان من المقربين..)	٨٨	١٥١
– (وأما إن كان من أصحاب اليمين...)	٩٠	١٥١
– (وأما إن كان من المكذبين الضالين...)	٩٢	١٥١

سورة الحديد

الآية	رقمها	الصفحة
– (وما لكم لا تؤمنون بالله..)	٨	٢٣٨

سورة المجادلة

الآية	رقمها	الصفحة
– (ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى...)	٨	٣١٧
– (يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم...)	٩	٣١٣
– (يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس..)	١١	٣١٣
– (يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول..)	١٢	٢٥٢، ٣٢١

سورة الحشر

الآية	رقمها	الصفحة
– (ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم...)	١١	١٥٢، ٢٠٣، ٢٦٣
– (لئن أخرجوا لا يخرجون معهم...)	١٢	١٥٢، ٢٠٣، ٢٦٣
– (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعًا متصدعًا من خشية الله..)	٢١	٤٠٨

سورة الممتحنة

الآية	رقمها	الصفحة	الآية	رقمها	الصفحة
- (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء...)	١	٢٣٧	- (وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار...)	١١	١٦٤
- (إن يثقفوكم يكونوا لكم...)	٢	١٧٧	- (يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك...)	١٢	٣٢٨
- (يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات..)	١٠	١٢٤، ٢٦٦، ٣٢٨، ٣٥٤			

سورة الصف

الآية	رقمها	الصفحة
- (تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله...)	١١	٢٣٧

سورة الجمعة

الآية	رقمها	الصفحة	الآية	رقمها	الصفحة
- (قل يا أيها الذين هادوا...)	٦	١٩٢، ٢٤٦	- (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا...)	١٠	٣٢١
- (يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة..)	٩	٢٣٨، ٣٢١	- (وإذا رأوا تجارة أو لهوًا...)	١١	٣٣٤

سورة المنافقون

الآية	رقمها	الصفحة	الآية	رقمها	الصفحة
- (إذا جاءك المنافقون...)	١	٣١٧	- (وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله..)	٥	٣١٧
- (وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم..)	٤	٣١٧	- (يقولون لئن رجعنا إلى المدينة...)	٨	١٣٧، ٢٦٨

سورة التغابن

الآية	رقمها	الصفحة	الآية	رقمها	الصفحة
- (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم...)	١٢	١٦٨	- (يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوًا لكم..)	١٤	١٢٤

الآية	رقمها	الصفحة
- (إن تقرضوا الله قرضًا حسنًا يضاعفه لكم..)	١٧	١٢٤

سورة الطلاق

الآية	رقمها	الصفحة	الآية	رقمها	الصفحة
- (يا أيها النبي إذا طلقتم النساء...)	١	٣١٠	- (واللائي يئسن من المحيض من نسائكم...)	٤	٩٨، ١٦٤
- (فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن...)	٢	٣٤٩	- (أسكنوهن من حيث سكنتم...)	٦	١٦٤

سورة التحريم

الآية	رقمها	الصفحة	الآية	رقمها	الصفحة
- (إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما...)	٤	٥٥، ١٥٢	- (عسى ربه إن طلقكن...)	٥	١٦٨

سورة الملك

الآية	رقمها	الصفحة	الآية	رقمها	الصفحة
- (إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقًا وهي تفور..)	٧	٣٠٣	- (قل أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمنا...)	٢٨	١٥٧
- (وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل...)	١٠	٣٧٩	- (قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورًا...)	٣٠	٢٠٦
- (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين)	٢٥	١٩٦			

سورة القلم

الآية	رقمها	الصفحة	الآية	رقمها	الصفحة
- (إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين)	١٥	٣١٧، ٣٤٢	- (أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين)	٢٢	٢٣٨

الآية	رقمها	الصفحة	الآية	رقمها	الصفحة
- (كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون)	٣٣	٤٠٠	- (أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين)	٤١	١٩٢

سورة الحاقة

الآية	رقمها	الصفحة	الآية	رقمها	الصفحة
- (فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة...)	١٣	٣٠١	- (ولو تقول علينا بعض الأقاويل...)	٤٤	٤٢٤

سورة المعارج

الآية	رقمها	الصفحة	الآية	رقمها	الصفحة
- (إذا مسه الشر جزوعا)	٢٠	٢٩٥، ٣٢٨	- (وإذا مسه الخير منوعا)	٢١	٢٩٥، ٣٢٨

سورة نوح

الآية	رقمها	الصفحة	الآية	رقمها	الصفحة
- (إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون)	٤	٣٠١، ٤٠٠	- (إنك إن تذرهم يضلوا عبادك...)	٢٧	١٦٩

سورة الجن

الآية	رقمها	الصفحة	الآية	رقمها	الصفحة
- (وأن لو استقاموا على الطريقة...)	١٦	٣٧٩	- (حتى إذا رأوا ما يوعدون...)	٢٤	٣٣٩

سورة المزمل

الآية	رقمها	الصفحة
- (فكيف تتقون إن كفرتم يومًا...)	١٧	٢٤٧

سورة المدثر

الآية	رقمها	الصفحة
– (فإذا نقر في الناقور...)	٨	٣٠١، ٣٣٠

سورة القيامة

الآية	رقمها	الصفحة
– (فإذا قرأناه فاتبع قرآنه...)	١٨	٣٢٩

سورة الإنسان

الآية	رقمها	الصفحة
– (نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا)	٢٨	٤٤، ١٤٥، ٣٠١

سورة المرسلات

الآية	رقمها	الصفحة	الآية	رقمها	الصفحة
– (فإن كان لكم كيد فكيدون)	٣٩	١٩٣	– (وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون..)	٤٨	٣١٧

سورة النازعات

الآية	رقمها	الصفحة	الآية	رقمها	الصفحة
– (أئذا كنا عظامًا نخرة...)	١١	٣٠٧	– (فإذا جاءت الطامة الكبرى...)	٣٤	٣٠١

سورة عبس

الآية	رقمها	الصفحة	الآية	رقمها	الصفحة
– (ثم إذا شاء أنشره)	٢٢	١٤٥، ٣٠٢	– (فإذا جاءت الصاخة...)	٣٣	٣٠٢

سورة التكوير

الآية	رقمها	الصفحة	الآية	رقمها	الصفحة
– (إذا الشمس كورت)	١	٣٠٢	– (وإذا النجوم انكدرت)	٢	٣٠٢

الآية	رقمها	الصفحة	الآية	رقمها	الصفحة
- (وإذا الجبال سيرت)	٣	٣٠٢	- (وإذا الصحف نشرت)	١٠	٣٠٢
- (وإذا العشار عطلت)	٤	٣٠٢	- (وإذا السماء كشطت)	١١	٣٠٢
- (وإذا الوحوش حشرت)	٥	٣٠٢	- (وإذا الجحيم سعرت)	١٢	٣٠٢
- (وإذا البحار سجرت)	٦	٣٠٢	- (وإذا الجنة أزلفت)	١٣	٣٠٢
- (وإذا النفوس زوجت)	٧	٣٠٢	- (علمت نفس ما أحضرت)	١٤	٣٠٢
- (وإذا الموؤدة سئلت)	٨	٣٠٢			
- (بأي ذنب قتلت)	٩	٣٠٢			

سورة الانفطار

الآية	رقمها	الصفحة	الآية	رقمها	الصفحة
- (إذا السماء انفطرت)	١	٣٠٢	- (وإذا البحار فجرت)	٣	٣٠٢
- (وإذا الكواكب انتثرت)	٢	٣٠٢	- (وإذا القبور بعثرت)	٤	٣٠٢

سورة المطففين

الآية	رقمها	الصفحة	الآية	رقمها	الصفحة
- (الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون)	٢	٣٢٩	- (وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين)	٣١	٧١، ٣١٧
- (وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون)	٣	٣٢٩	- (وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون)	٣٢	٣١٧
- (وإذا مروا بهم يتغامزون)	٣٠	٧١، ٣١٧			

سورة الانشقاق

الآية	رقمها	الصفحة	الآية	رقمها	الصفحة
- (إذا السماء انشقت)	١	٣٠٢	- (وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون)	٢١	٣١٧
- (وإذا الأرض مدت)	٣	٣٠٢			

سورة الأعلى

الآية	رقمها	الصفحة
- (فذكر إن نفعت الذكرى)	٩	٩٩، ١٦٩

سورة الشرح

الآية	رقمها	الصفحة
- (فإذا فرغت فانصب)	٧	٣٢٩

سورة العلق

الآية	رقمها	الصفحة	الآية	رقمها	الصفحة
- (أرأيت إن كان على الهدى)	١١	١٥٧	- (كلا لئن لم ينته لنسفعًا بالناصية)	١٥	٢٤٧
- (أرأيت إن كذب وتولى)	١٣	١٥٧، ٢٤٧			

سورة الزلزلة

الآية	رقمها	الصفحة
- (إذا زلزلت الأرض زلزالها)	١	٣٠٢

سورة التكاثر

الآية	رقمها	الصفحة
- (كلا لو تعلمون علم اليقين)	٥	٣٩٨، ٤٤٤

سورة النصر

الآية	رقمها	الصفحة
- (إذا جاء نصر الله والفتح)	١	٢٩٩

٢- دليل المراجع

١ – القرآن الكريم.

٢ – صحيح البخاري – المطبعة البهية – طبعة أولى ١٣٤٣هـ.

٣ – الجامع الصحيح للإمام مسلم – طبع كتاب التحرير ١٣٨٣هـ.

٤ – إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر للشيخ البنا – ق شعبان محمد إسماعيل – عالم الكتب – بيروت.

٥ – أسباب النزول للسيوطي – مؤسسة الطباعة لدار التحرير – القاهرة – ١٣٨٢هـ.

٦ – الأطول على التلخيص للعصام الإسفرائيني – عروسي – مكتبة الأزهر.

٧ – الأمالي الشجرية لابن الشجري – دار المعرفة للطباعة والنشر – بيروت.

٨ – الأمالي النحوية لابن الحاجب – ق هادي حمودي – النهضة العربية – طبعة أولى ١٤٠٥ – ١٩٨٥.

٩ – الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال لابن المنير – الكشاف البابي الحلبي.

١٠ – الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني – مطبعة صبيح ١٣٩٠.

١١ – بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية – دار الفكر.

١٢ – البرهان في علوم القرآن للزركشي – ق أبو الفضل إبراهيم عيسى البابي الحلبي – أولى.

١٣ – تجريد البناني على مختصر السعد للبناني – الكتبخانة الأزهرية.

١٤ – تحرير القواعد المنطقية في شرح الرسالة الشمسية للقطب الرازي الكتبخانة الأزهرية.

١٥ – تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد لابن مالك ق محمد بركات – الكتاب العربي للطباعة وانشر.

١٦ – تسهيل الوصول إلى علوم الأصول للمحلاوي – مصطفى البابي الحلبي ١٣٤١.

١٧ – التصوير البياني د. محمد أبو موسى – دار التضامن للطباعة – ثانية ١٤٠٠هـ.

١٨ – تفسير أبي حيان (البحر المحيط) مكتبة ومطابع النصر الحديثة – بالرياض.

١٩ – تفسير الطبري (جامع البيان) مصطفى البابي الحلبي – ثالثة ١٩٦٨م.

٢٠ – تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) مطبعة دار الشعب – أولى.

٢١ – تفسير الآلوسي (روح المعاني..) إدارة الطباعة المنيرية.

٢٢ – تفسير النيسابوري (غرائب القرآن ...) ق إبراهيم عطوة – البابي الحلبي بمصر.

٢٣ – تفسير الزمخشري (الكشاف ...) مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر.

٢٤ – تفسير الرازي (مفاتيح الغيب) دار الفكر.

٢٥ – تفسير أبي السعود علي هامش الرازي – دار الفكر.

٢٦ – تفسير ابن كثير – دار الفكر للطباعة والنشر.

٢٧ – تفسير البيضاوي – دار صادر بيروت.
٢٨ – تقرير الشربيني (فيض الفتاح ...) مطبعة والدة عباس الأول ١٣٢٣هـ.
٢٩ – تقرير الشمس الإنبابي على شرح التفتازاني للتلخيص – مطبعة السعادة ١٣٣٠هـ.
٣٠ – تلخيص المفتاح للخطيب (شروح) مطبعة السعادة ١٣٤٣هـ.
٣١ – التلويح على التوضيح لمتن التنقيح سعد الدين التفتازاني – صبيح بالقاهرة.
٣٢ – التوضيح لمتن التنقيح صدر الشريعة بن مسعود البخاري صبيح بالقاهرة.
٣٣ – جمع الجوامع للإمام السبكي – الكتبخانة الأزهرية.
٣٤ – حاشية ابن سعيد على شرح التهذيب – المطبعة الأزهرية – أولى ١٣١٨هـ.
٣٥ – حاشية الأمير على مغني اللبيب – عيسى البابي الحلبي.
٣٦ – حاشية البناني على المحلي على جمع الجوامع – الكتبخانة الأزهرية.
٣٧ – حاشية الجمل على الجلالين – الكتبخانة الأزهرية.
٣٨ – حاشية الدسوقي على مختصر السعد (شروح) مطبعة السعادة ١٣٤٣هـ.
٣٩ – حاشية السعد على شرح العضد لمختصر ابن الحاجب – مكتبة الكليات الأزهرية.
٤٠ – حاشية السيد الشريف على شرح العضد .. مكتبة الكليات الأزهرية ١٣٩٣هـ.
٤١ – حاشية السيد الشريف على شرح القطب على الشمسية – الكتبخانة الأزهرية.
٤٢ – حاشية السيد الشريف على الكشاف للزمخشري – مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر.
٤٣ – حاشية السيد الشريف على المطول للسعد – مطبعة أحمد كمال ١٣٣٠هـ.
٤٤ – حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي – دار صادر – بيروت.
٤٥ – حاشية الصبان على الأشموني – الكتبخانة الأزهرية.
٤٦ – حاشية عبدالحكيم علي المطول (فيض الفتاح) مطبعة مدرسة والدة عباس الأول ١٣٢٣هـ.
٤٧ – حاشية العطار على شرح التهذيب – المطبعة الأزهرية المصرية – أولى – ١٣١٨هـ.
٤٨ – الخصائص لأبي الفتح عثمان بن جني – ق محمد علي النجار – المهدي للطباعة والنشر – ثانية.
٤٩ – دراسات تطبيقية في النحو والصرف للشيخ شبانة ١٣٨١هـ – ١٩٦١م.
٥٠ – دلائل الإعجاز – عبدالقاهر الجرجاني شرح المراغي – المطبعة العربية.
٥١ – ديوان طرفة – ق فوزي عطوى دار صادر بيروت.
٥٢ – ديوان عنترة – ق فوزي عطوي دار صعب بيروت.
٥٣ – ديوان الفرزدق – دار بيروت للطباعة والنشر.
٥٤ – سقط الزند للمعري – دار بيروت للطباعة والنشر.
٥٥ – سلم الوصول لشرح نهاية السول للشيخ بخيت – المطبعة السلفية ١٣٤٣.

٥٦ – شرح الأشموني لألفية ابن مالك – الكتبخانة الأزهرية.
٥٧ – شرح البيجوري على الجوهرة تصحيح حسين مكي – مطبعة صبيح – أولى ١٣٧٤هـ.
٥٨ – شرح التهذيب في المنطق لابن فضل الخبيصي – المطبعة الأزهرية – أولى ١٣١٨هـ.
٥٩ – شرح ديوان حكم ابن عطاء لابن عباد – مصطفى البابي الحلبي ١٣٤٧هـ.
٦٠ – شرح ديوان الحماسة للمرزوقي – نشر أحمد أمين وعبدالسلام هارون – نشر مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر – ثانية ١٣٨٨هـ – ١٩٦٨م.
٦١ – شرح العضد لمختصر ابن الحاجب – مراجعة شعبان إسماعيل – مكتبة الكليات الأزهرية ١٣٩٣.
٦٢ – شرح العقائد النسفية لسعد الدين التفتازاني – مطبعة سرد ستان العلمية بدرب المسمط – الجمالية بمصر المحمية ١٣٢٩هـ.
٦٣ – شرح عقود الجمان للسيوطي – مطبعة مصطفى البابي الحلبي – ١٣٥٨هـ.
٦٤ – شرح القصائد السبع الجاهليات للأنباري – ق عبدالسلام هارون – دار المعارف.
٦٥ – شرح كافية ابن الحاجب للرضى – دار الكتب العلمية – بيروت.
٦٦ – شرح المفصل لابن يعيش للطباعة المنيرية.
٦٧ – الشعر والشعراء لابن قتيبة – ق أحمد شاكر – دار المعارف.
٦٨ – الطراز للعلوي – دار الكتب العلمية بيروت.
٦٩ – عروس الأفراح بهاء الدين السبكي (شروح) مطبعة السعادة.
٧٠ – غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري – دار الكتب العلمية – بيروت ١٣٥١هـ.
٧١ – الفروق في اللغة – لأبي هلال العسكري – دار الآفاق الجديدة – بيروت.
٧٢ – القاموس المحيط للفيروز أبادي – المؤسسة العربية للطباعة والنشر – بيروت.
٧٣ – الكتاب لسيبويه – ق عبدالسلام هارون – ثانية الخانجي القاهرة.
٧٤ – كشف الظنون .. لحاجي خليفة – مكتبة المثنى بغداد.
٧٥ – لسان العرب لابن منظور – دار المعارف – طبعة أولى.
٧٦ – اللغة العربية معناها ومبناها – د/ تمام حسان – الهيئة العامة للكتاب ١٣٧٩هـ.
٧٧ – المثل السائر لابن الأثير – ق محيي الدين – البابي الحلبي ١٣٥٨هـ.
٧٨ – مختار الصحاح أبو بكر الرازي – دار الكتاب العربي.
٧٩ – المختار من تيسير الوصول إلى حديث الرسول – د/ محمد دراز – أبو الهول بالقاهرة ١٣٥٠.
٨٠ – مختصر ابن الحاجب مراجعة شعبان إسماعيل – مكتبة الكليات الأزهرية – ١٣٩٣هـ.
٨١ – المختصر على تلخيص المفتاح للسعد (شروح) مطبعة السعادة ١٣٤٣هـ.
٨٢ – المستصفى للغزالي – المطبعة الأميرية ببولاق ١٣٢٢هـ.

٨٣ – المطول على التلخيص لسعد الدين التفتازاني – مطبعة أحمد كمال ١٣٣٠هـ.
٨٤ – معاني القرآن وإعرابه للزجاج – ق عبدالجليل شلبي – المطابع الأميرية ١٣٩٤هـ.
٨٥ – معجم الألفاظ والأعلام القرآنية محمد إسماعيل إبراهيم – دار الفكر العربي.
٨٦ – مغنى اللبيب لابن هشام – عيسى البابي الحلبي.
٨٧ – مفتاح العلوم للسكاكي – المطبعة الأدبية – أولى.
٨٨ – المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني – المطبعة الميمنية بمصر – مصطفى البابي الحلبي.
٨٩ – المفصل للزمخشري – الطباعة المنيرية.
٩٠ – المقتضب للمبرد – تحقيق محمد عبدالخالق عضيمة – ١٣٩٩هـ.
٩١ – مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي (شروح) مطبعة السعادة ١٣٤٣هـ.
٩٢ – النبأ العظيم – د. محمد عبدالله دراز – طبعة دار القلم بالكويت – ١٣٩٧هـ.
٩٣ – نقد الشعر لقدامة بن جعفر – ق كمال مصطفى – الخانجي بالقاهرة.
٩٤ – هذا الدين – سيد قطب – دار الشروق.
٩٥ – همع الهوامع على جمع الجوامع للسيوطي تصحيح النعساني – دار المعرفة للطباعة والنشر – بيروت.

والحمد لله رب العالمين

٣- الفهرس العام

مطبعة الأمانة
٣ جزيرة بدران - شبرا مصر
ت: ٢٥٧٥١٣٠٧

كتب للمؤلف

١ – الإتيان والمجيء . فقه دلالتهما واستعمالهما فى القرآن الكريم .

٢ – العلم والفقه والمعرفة . فقه دلالتها واستعمالها فى القرآن الكريم .

٣ – مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين فى ضـــوء النظر البلاغى .

٤ – العلاقات والقرائن فى التعبير البيانى .

٥ – أســرار تقييد المســند بأدوات الشرط (إن وإذا ولو) ومواقعه فى القرآن الكريم .

عـدة بحـوث فى دورية كلية اللغة العربية بالمنوفية ، منها :

١ – أبلغية الاستعادة ومراتبها من خلال ما كتبه عبد القاهر والبلاغيون .

٢ – اتجاه السكاكى فى المجاز إلى الضبط وتقليل الأقسام – دراسة ونقد.

٣ – أساليب الإنشاء الطلبى وطرق إفادتها غير معانيها الحقيقية – دراسة ونقـــد .

٤ – صور البيان البصرية فى شعر بشار بن برد – دراسة ونقد .

٥ – من أسرار البيان القرآنى فى سورة الحجرات .

٦ – بلاغـــة النظم والتصوير فى معلقة لبيد بن ربيعة العامرى – تحليل وتقـــويم .

٧ – المجاز اللغوى عند ابن جنى – دراسة وموازنة .